الكتب
وجهات نظر
في الثقافة والسياسة والفكر

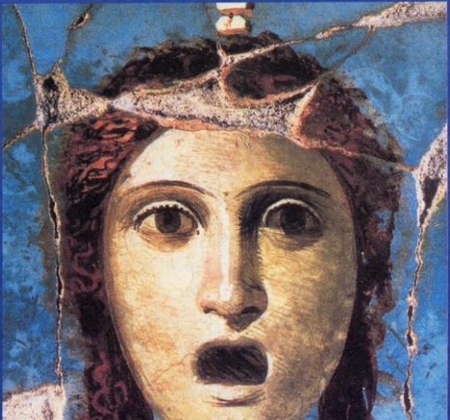
مجلة شهرية . العدد الثلاثون . السنة الثالثة . يوليو ٢٠٠١ . الثمن عشرة جنيهات
Weghat Nazar - Volume 3 - Issue 30 - July 2001

أيام وليال فى لندن
محمد حسنين هيكل

طه حسين وثورة يوليو (رسالة لم تنشر)

سيطرة صناعة السلاح على سياسة أمريكا الخارجية

إيران.. الأدب والثورة والدولة
يوسف القعيد



الأزرق تاريخ لون
ليلى حافظ

هل تنسحب أوروبا من إدارة العالم ؟
سلامة أحمد سلامة

أزمة الاقتصاد المصرى بين المسكنات والعلاج
شريف لطفى

امرأتان ومعركة ..لينفرد بزوجته ذهب لويس التاسع إلى الحرب
عبد الرحمن الكواكبى (الحفيد)

لويس عوض المعلم العاشر
نسيم مجلى

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

السنة الثالثة
العدد الثلاثون
يولية ٢٠٠١

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة
رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى
مدير التحرير
أيمن الصياد

محتويات العدد :

تصدر عن
الشركة المصرية للنشر العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم
عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى
البحوث والمتابعة
هديل غنيم

»» تعبر المقالات المنشورة عن آراء مؤلفيها، ولا تعبر بالضرورة عن رأى «وجهات نظر» إلا إذا أشارت إلى ذلك صراحة ««

كتّاب العدد :

ـ **جلال أمين** ... أستاذ الاقتصاد بالجامعة الأمريكية فى القاهرة.
ـ **حسين الواد** ... أستاذ الأدب العربى بجامعة تونس.
ـ **سلامة أحمد سلامة**... صحفى.
ـ **سمحة الخولى** ... أستاذ علوم الموسيقى بالكونسرفتوار وممثل مصر فى المجلس الدولى للموسيقى التابع لليونسكو.
ـ **سمير غريب**... رئيس مجلس إدارة دار الكتب المصرية.
ـ **شريف لطفى** ... خبير اقتصادى.
ـ **طه حسين** ... أديب راحل.
ـ **عبدالرحمن الكواكبى (الحفيد)** ... وزير سورى سابق .. توفى قبل أسابيع
ـ **ليلى حافظ** ... صحفية.
ـ **محمد حسنين هيكل** ... صحفى.
ـ **نسيم مجلى** ... ناقد أدبى.
ـ **ويليام د.هارتونج** ... صحفى وباحث أمريكى.
ـ **يوسف القعيد** ... صحفى وروائى.

رسوم العدد للفنانين: **محمد حجى ـ نبيل تاج ـ سعد الدين شحاتة**

المراسلات :

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة ـ جمهورية مصر العربية
ت: ٣٩٣٠٤٩٠/ ٣٩٢٠٤٩٢/ ٣٩٣٠٤٩٦ ـ فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): *e-mail: info@alkotob.com*

الاشتراكات :

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد : داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى ـ اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا ـ أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا ـ أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا ـ باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ص . ب : ٣٣ البانوراما ـ مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ ـ *e-mail: weghat @alkotob.com*

ثمن النسخة :

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية ـ السعودية ٢٠ ريالاً ـ الكويت ١,٥ دينار ـ الإمارات ٢٠ درهماً ـ البحرين ديناران ـ قطر ١٥ ريالا ـ عُمان ريالان ـ لبنان ٥٠٠٠ ليرة ـ سوريا ١٥٠ ليرة ـ الأردن ديناران ونصف ـ ليبيا دينار واحد ـ الجزائر ١٠ دنانير ـ المغرب ٣٠ درهمًا ـ تونس ٤ دنانير ـ اليمن ٣٠٠ ريال.
Austria SCH 175 - France 30FF - United Kingdom £3

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

كلمـــة..

حـــروب .. «نســـويــة»

من سمات التاريخ اللصيقة به، أو لعلها الأصيلة فيه، أن يظل مختلفاً عليه.. وحوله. ليس فقط بسبب تعدد «الروايات» متوقع، وإنما بسبب تباين «الرؤى» وزوايا النظر. لا توجبه فقط «حتمية الجغرافيا» وإنما أيضاً الاختلاف في المعتقدات، والانتماءات.. والمصالح.

وعلى مسار تاريخ البشرية الطويل، تظل الحروبُ الصليبية المتعاقبة، إحدى المحطات الدالة التي تجسد الظاهرة الطبيعية: «اختلافُ الرواياتِ والرؤى».

قبل أسابيع، وعلى خطى القديس بولس، الذي تحول في دمشق من اليهودية إلى المسيحية، زار البابا يوحنا بولس الثاني بابا الفاتيكان عاصمةَ الأمويين السورية. يومها - ولأسبابٍ تباينت وتباعدت - صحا التاريخُ المثقلُ بالسياسةِ والمعتقدات .. والأسطورة، ليثور جدلٌ وغبارٌ كثيف. فاليهود أقاموا الدنيا في وجه تصريحات الضيفِ ومُضيفه. والمسيحيون الأرثوذكس - رغم اعتذار البابا - استقبلوه في اليونان بالتظاهرات وقرع أجراس الحزن في الكنائس، مذكّرين بمجازر الصليبيين في حقهم قبل ثمانية قرون (الحملة الرابعة ١٢٠٤م). والمسلمون من ناحيتهم عبروا عن مرارةِ الذي توقعَ اعتذاراً «مشابهاً» عن معاناةٍ أكبر، وأحبطهم أنهم لم يسمعوه أبداً.

زيارةُ البابا إذن أيقظت التاريخَ المفعمَ بالأوجـاع والآلام، والتنافر والتسامح... وبالمشاهد.

وفي حين كان المشهدُ في شوارع اليونان مزدحما بأعلام بيزنطة والمنشورات واللافتات العدائية: «فروا من البابويين.. كما تفرون من الأفعى»، كان المشهد في عاصمة «صلاح الدين» مختلفاً. ففي دمشق دخل البابا بصحبة المفتي إلى الجامع الأموي، مستعيدين من ذاكرة التاريخ مشهداً كان قبل ١٣٦٦ سنة. حين سمح أبو عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد للنصارى أن يمارسوا شعائرهم الدينية إلى جانب المسلمين. فصار الجانبان يومها يدخلان من باب واحد يقود يميناً إلى المسجد ويساراً إلى الكنيسة.

وأيّا ما كان أمر الجدل، سياسياً كان أو عقائدياً، حول زيارة البابا، فإن تاريخَ الحروب الصليبية - لا ينافسه في ذلك ربما غير تاريخ النازي وحروبه - مازال يمثل مادةً شهيةً للباحثين «الأوروبيين خصوصاً». ويظل مثيراً على أية حال أن تذهب بعض الروايات إلى أن «شؤوناً نسوية» كانت ذات علاقة بحملة لويس التاسع الشهيرة (١٢٤٨م). والذي لم يجد سبيلاً فيما يبدو للانفراد بزوجته «مارجريت» بعيدا عن أمه المسيطرة المستبدة، والتي كانت تعتقد أن العلاقة الزوجية لاتخلو من إثم ومنكر، إلا أن يجهزَ لحملة حربية «دينية» يصطحبُ فيها زوجته. حالماً - ربما - بأن يتسنى له بذلك الجمعَ بين الدين والدنيا.

الروايةُ جاءت في كتابين فرنسيين كتب لـ «وجهات نظر» عنهما عبد الرحمن الكواكبي. وهو ليس صاحب «طبائع الاستبداد» و«أم القرى» والذي توفي قبل قرن من الزمان (١٩٠٢). وإنما هو حفيده وسَميُّه. ومقالُه هذا هو آخرُ ماكتبه قبل أن توافيه المنية منذ أسابيع ليلحق بجده «مثله الأعلى» والذي كرّس حياته من أجل إحياء تراثه الإصلاحي وجمعه وتحقيقه، منذ أن تخرج من السوربون في الخمسينيات يحملُ شهادةَ الدكتوراه في الاقتصاد، وحتى بعد أن أصبحَ وزيرا للأوقاف ثلاث مرات.

والحاصل أن معظم نتاج عبد الرحمن الكواكبي (١٨٥٥- ١٩٠٢) - بعكس أبناء جيله: الأفغاني ومحمد عبده ومارون النقاش وبطرس البستاني - بقي مفقوداً حتى يومنا هذا، ذلك أن الثابتَ أن كتابيه الأشهر ليسا كلَ أو معظم نتاجه. فقد كانت له مؤلفات أخرى قيد الطبع ومنها «صحائف قريش» و«العظمة لله»، ولكنها فُقدت إثر وفاته الغامضة في القاهرة. وربما كان الضياعُ سيصبح أيضاً من نصيب «أم القرى» و«طبائع الاستبداد»، لو لم يبادر مؤلفهما إلى نشرهما في مصر إثر لجوئه إليها أواخر القرن الماضي. ولأن الكواكبي كان نموذجاً للكتاب المهمومين بشؤون أبناء قومه، وليس مجرد كاتبٍ محترف، فإن مؤرخي الفكر العربي يعتبرون رسالته يوم تولى المكتب المختص بالدفاع عن المظلومين في ولاية حلب، في الثمانينيات من القرن التاسع عشر، من نتاجه الثمين.

تذكر المراجعُ أن عبدالرحمن بن أحمد بن مسعود الكواكبي نشأ في أسرةٍ من أسر حلب العريقة، كانت لها مدرسة تنسب إليها هي «المدرسة الكواكبية»، يعلم فيها والده العلوم الشرعية. وفيها تعلم عبد الرحمن قبل أن يضيف إلى العلومِ الدينيةِ اللغات الفارسيةَ والتركية. ثم التاريخ والقانون العثماني و بعض العلومَ الرياضية والطبيعية. ويتدرج بعد ذلك في الحياة العملية فيشتغل محررا في الجريدة الرسمية، ثم رئيسا لكتاب المحكمة الشرعية وقاضيا لها. فرئيسا للبلدية. قبل أن يضيق ذرعا بالوظائف الحكومية كلها. حيث كان طبيعيا أن توفر له مناخاً يصطدم فيه باستبداد الحكام، وفساد رجال الإدارة، فيحاربهم ويحاربونه، قبل أن ينتصروا عليه في النهاية. فيترك الوظائف الحكومية، وينشئ صحيفة «الشهباء» فيغلقها الوالي عارف باشا. لتلقى المصير نفسه الذي يصبح بعد ذلك من نصيب محاولته الصحفية الثانية «الاعتدال» والتي يعطلها هذه المرة الوالي جميل باشا.. ثم ينتهي مصير الكواكبي في حلب - بطبائع الأمور - إلى السجن بعد أن يخسر كل مـاله. قبل أن يذهب - مجبراً أو مختاراً - في رحلة طويلة إلى بلاد العرب والهند وشرقي أفريقيا حيث ينتهي به المطافُ في مصر التي يموتُ فيها مسموماً. بعد أن يكتب معدداً أسبابَ انحطاط المجتمع الإسلامي من ناحية وداعياً إلى مقاومة الاستبداد مهما كانت منابعه من ناحية أخرى.

يومها.. ورغم استبداد الإدارةِ وعسف الحكام، كان «المناخ الثقافي» في مصر يسمح للكواكبي، الذي درس العلومَ الشرعية، أن يطالب بتحكيم العقلِ في كل أمورنا حتى في النظرةِ إلى الدين حيث يقول: «ما أحوجَ الشرقيين إلى حكماءٍ يجددون النظرَ في الدين.. إن كل دينٍ يتقادمُ عهدُه يحتاجُ إلى مجددين».

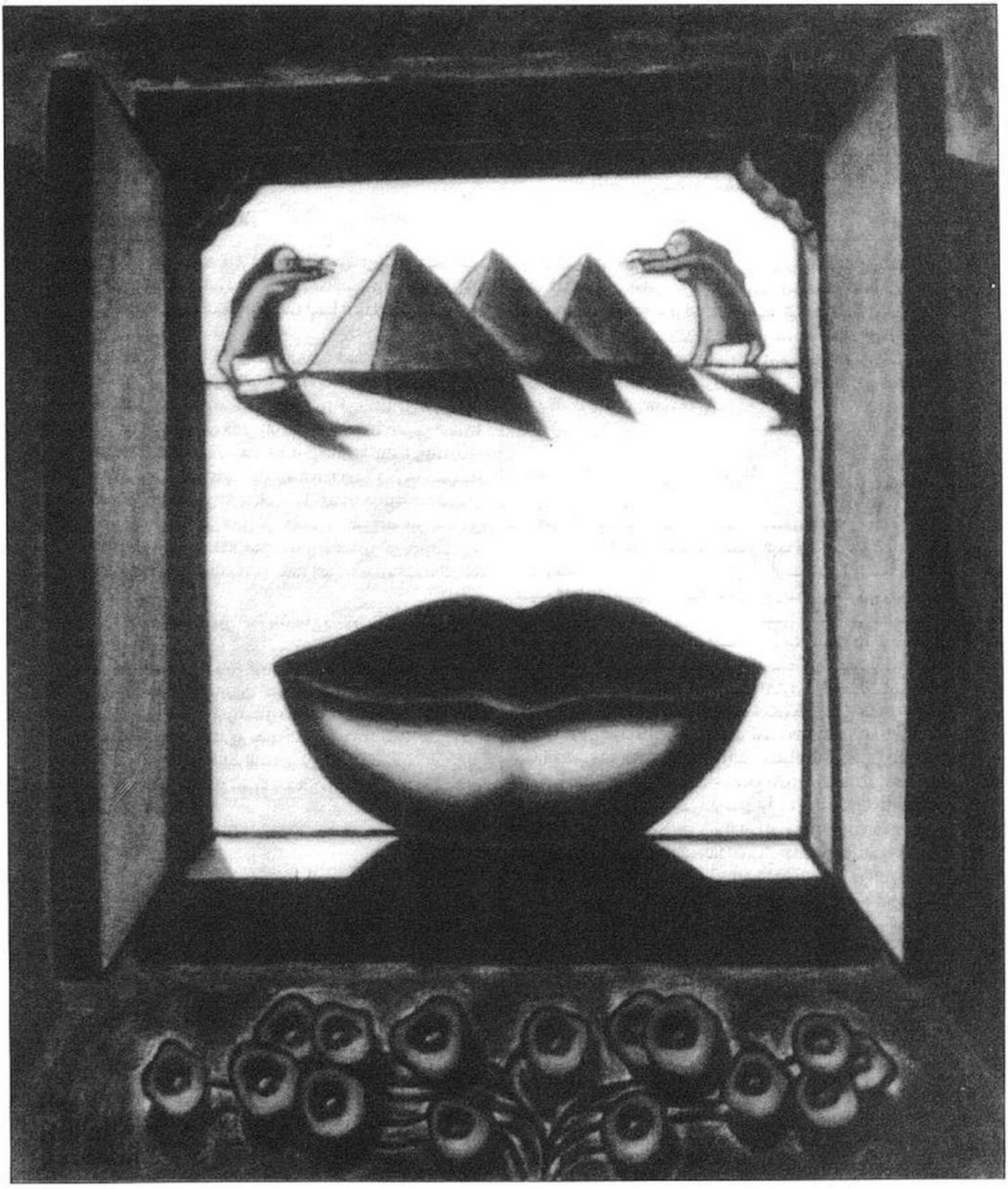
مات الكواكبي قبل مائة عام بالضبط. ولكن يبدو أننا مازلنا بحاجة إلى قراءة كلماته في طبائع الاستبداد:

«إذا كان كبارُ الأمة قد ألفوا النفاقَ والرياءَ مرضاةً للمستبد.. فعامةُ الناس سيألفونها أيضا.. حتى يضطر أكثر الناس إلى إباحةِ الكذب والتحايل والخداع والنفاق والتذلل وإهانة النفس، حتى يصبحَ من القيم المعترفِ بها: اعتبارُ التصاغرِ أدباً، والتذلل لطفاً، والتملق فصاحةً، وترك الحقوق سماحةً، وقبولَ حريةِ القولِ وقاحةً، وحريةَ الفكرِ كفراً».

رحم الله الكواكبي «الجد» وجزاه الله عما ترك.

ورحم الله الكواكبي «الحفيد» الذي عرف قيمة ما ورث.

وجهات نظر



« نافذة الصمت.. نافذة الكلام » للفنان حلمى التونى . زيت على توال ٧٠×٦٠سم

أيام وليال فى لندن



محمد
حسنين
هيكل

"١"

موعد مع الهموم العربية فى قلب العاصمة البريطانية!

« الأربعاء »

مشيت من ميدان «سلون» (قلب لندن الشاب) نحو حدائق «لينوكس» إلى شارع «ويلتون» لموعد مع صديقين قديمين كل منهما جاء من طريق ويَمضى إلى طريق. لكن الهموم واحدة، فكلنا مسكون بأحوال الأمة، مَشغولٌ بأمرها، قلق عليها، شأن آخرين بلا عَدَد.

الصديقان هما «الأخضر الإبراهيمى» (وزير خارجية الجزائر سابقاً وهو الآن مساعد خاص للأمين العام للأمم المتحدة «كوفى عنان»، مكلف بمسئوليات خاصة كلها مُعَقَّدة ومُستَعصية، من أفغانستان إلى الكونجو) - والثانى هو «إدوارد سعيد» (أستاذ الأدب المقارن فى جامعة «كولومبيا»، وصاحب أهم المراجع عن «الاستشراق» - إلى جانب أنه وَجه عربى مقبول هذه اللحظة فى الغرب بمَلامح وصوت المفكر الإنسانى بعد أن فَقَدَ السياسى العربى كل شىء - مَلامحه وصوته - وأحياناً ملابسه!)

□

شارع «ويلتون» هادئ هذه الساعة (الثامنة مساءً)، وحدائق لندن وشوارعها فى أحلى مواسمها، لأن بوادر الربيع تطل، والشتاء لم يغب. والهواء بارد لكن أزهار الـ«دافوديل» المبكرة فى شهر أبريل طالعة فى وجهه تُذكِّره أن ندى الصباح ينتظرها، لأن درجة الحرارة فى ارتفاع مهما عاند الشتاء!

أفكر فى الصديقين اللذين ينتظران فى مطعم «توتو» الذى يتوارى فى منحنى على شارع «ويلتون» ويكاد يخفى بابه وراء شجَرة مُثقلة بزهور صفراء ما زالت زاهية بأضواء المساء لأن الليل ينزاح كل يوم إلى الوراء، فالربيع يُطيل النهار، والشتاء يختصره بغروب مُبَكِّر.

كان «الأخضر» هو صاحب اقتراح لقائنا على العشاء، وقبله وأثناءه وبعده يتواصَل حَديثنا. اتصل بى «الأخضر» فى القاهرة قبل أسبوع من سفرى يقترح الموعد. سيكون هو فى لندن قادماً من ناميبيا، و«إدوارد» قادمٌ من نيويورك، وحين عَرَف الاثنان أننى الآخر واصلٌ من القاهرة، فقد وَجَداها فرصة لحوار مفتوح وحُر، ليس فقط فى مداره وفى إطارِه (فحوارنا كذلك دائماً)، ولكن أيضاً فى محيطه وفى جواره (لأن كل واحد منا على بُعد خمسة آلاف ميل من بلده ومحل عَمَله وإقامته).

اختيار ما نريد من قائمة الطعام لم يستغرق دقائق، لكن أدوات المائدة ظلت على الأطباق لم تُلامس شفاهنا غير مرة أو مرتين على الأكثر، لأن الحديث أخذنا بعيداً معه، حتى تنبهنا أخيراً إلى أنه منتصف الليل تقريباً، ومَطاعم لندن فى العادة لا تعرف طول السهر، وزادَ أنه لم يَبقَ فى القاعة الرئيسية للمكان غيرنا - وكذلك آن أن نَخرُج كل منا إلى وجهَته: «الأخضر» إلى باريس - «إدوارد» إلى نيويورك - وأنا باقٍ فى لندن لأسبوع قبل أن أغادرها عابراً المحيطَ الأطلسى قاصداً الولايات المتحدة.

□

فى غرفتى حيث أقيم فكَّرتُ أن أسجل بعضاً من مَلامح الحوار قبل أن يبدأ صباح جديد معه ارتباطات أخرى، ووجوه مُتَغيِّرة، ولقاءات وموضوعات مختلفة.

لكن ما أسَجِّله هو ما تَرَسَّبَ فى ذاكرتى، وفيه ما سمعته، وفيه ما فهمته، وقد يكون فيه ما تَصَوَّرته، ولهذا فلست أريد أن أنسب قولاً بالذات لقائل بذاته وإلا تَجاوَزتُ. وإذن فكله على عُهدَتى ومسئوليتى، خطأ كان أو صواباً!

وعلى وجه المشاع بيننا - أشهَد أن «الأخضر» كان الأكثر تأنياً، و«إدوارد» كان الأعمَق تأملاً، فى حين كنت الأشد اندفاعاً، ربما لأنى كنت قادماً للتَّوِّ من الأجواء العربية، وبصفة عامة فقد كان ظاهراً لى مما استرجعته أو حاوَلتُ - أن مجمل حوارنا مشى وتَفَرَّعَ فى نَواحٍ شتى:

● تَبَدَّى لنا أن هناك ظاهرة تهافت - إلى درجة التساقط - فى العالم العربى، ومن اللازم وقفها بأى وسيلة، وإلا فإن الأمة سوف تجد حاضرها يتآكل أمام عيونها، ومستقبلها يَضيع قبل أن تصل إليه. وإذا كان هناك من يحتاج إلى دليل فإن الأدلة طوفان أمام الكل فيما يجرى على أرض فلسطين هذه اللحظة. سواء ذلك الجَبَروت الذى تتصرف به إسرائيل - أو الوَجه الآخر لهذا الجَبَروت مُتَمَثِّلاً فى المحنة التى يَعيشها الشعب الفلسطينى - ثم أن يجرى ذلك وسط عَجز عربى مُهين يَغطى عليه خلط عالمى مُريب!

● وتَبَدَّى كذلك أن العالم العربى أصبح - مع بدايات قرن جديد - رَجُل الشرق المريض بمقدار ما كانت الخلافة العثمانية رَجُل أوروبا المريض قبل قرنين من الزمن! - وكما حَدَث مع الخلافة العثمانية، فإن هناك قُوَى تريد أن تَرث رَجُل الشرق المريض، وبين هذه القُوَى ما هو عالمى، وما هو إقليمى، بل وما هو محلى يَتَصَوَّر أنه يقدر على النجاة من السقوط العربى، ويَرث البقايا بذريعة النَّسَب أو بشريعة الأخُوَّة، وهو خطأ لأن القوة الدولية التى تستطيع أن تَرث هى الولايات المتحدة، كما أن القُوَّة الإقليمية التى تستطيع بعدها هى إسرائيل، وغير ذلك سَرابٌ يَحسبه الرائى ماءً!

● وتَبَدَّى أيضاً أن العالم العربى مُعَرَّضٌ لحالة اختراق عميق طالت كل ركن فيه، وعرضت أدق خصائصه وخصوصياته لانكشاف وَصَلَ أحياناً إلى درجة الانتهاك، وذلك يكاد يسلب الأمة فرصة استعادة التوازن، والمقاومة، والوقوف من جديد.

● وأخيراً تَبَدَّى أن هناك «فيروساً» خطيراً أصاب الفكر العربى ومعه الإرادة والضمير، وأظهَر أعراض الإصابة بهذا «الفيروس» أن الوَهَن يَصل بالمصابين به إلى حَدِّ «الهَلوَسة»، وبحيث يُهَيِّأ لهم أن شفاءهُم حاضرٌ بغير إرادتهم، وأنه بصرف النظر عن الشواهد والتجارب والمشاعر فإن «الواقعية السياسية» وهى «التشخيص» المعتَمَد الآن فى العالم العربى، تَضَع فى يَد الولايات المتحدة وَحدها أمَل الشفاء. وأن الولايات المتحدة حتى وإن ظَهَرَ منها ما تَجزع له العقول والقلوب - فإن ذلك الظاهر هو مما يجب احتماله كما تُحتَمَل مَرارة طَعم الدواء، فتلك ضرورة العلاج!

● ومع ذلك تَبَدَّى، وبالرغم من كل ما سبق، أن هناك إمكانية متاحة تَسمَح للأمَل أن يَغلب اليأس - لكن شرطها إدراك الحقيقة والتصرف وفق أحكامها دون ادعاءات لا تسندها حقيقة، وأوَّلها أن لا يَتَصَرَّف العَرَب وكأنهم ربحوا رهان المستقبل، لأنهم فى الواقع خسروه، وإذا كان عليهم أن يُعَوِّضوا فأول التعويض إدراك الحقيقة.

ثم إنه مع إدراك الحقيقة لابد من استيعاب أن مجمل الظروف فى العالم العربى وحوله وعلى اتساع العالم تؤكد لمن يريد أن يُدَقِّق - أن ذلك الممكن المتاح مُعَلَّقٌ بسياسة نَفَس طويل - تَقدر على المثابرة، وعلى الصَّبر، وتُهَيِّئ

أيام

وليال

فى

لندن

نفسها لكل الأجواء دون أن تفقد اتجاهها مع أى ريح، أو تترُك هَدَفها يَضيع من مَدى بَصَرها بعد أول مُنحَنى على الطريق!

□

وقد ظَهَرَت خلال المناقشة عدة تعبيرات فى توصيف ما يلزم عمله ابتداء من اللحظة الراهنة، أى من المشهد الفلسطينى بذاته، لأن نقطة الاشتباك مع الخطر يجب أن تكون نفسها نقطة تُوَقى السقوط فى غياهبه.

أولاً - ظهَرَ تُوصيف مضمونه أن «العَرَب عليهم أن يكفوا عن الصخب الفارغ بادعاء القوة، لأن ذلك الممكن المتاح لهم الآن يَتَطلّب منهم أن يَضَعوا أنفسهم فى «الموضع الأخلاقى الأعلى» high moral ground، وذلك مَوضع تساعدهم إسرائيل بتصرفاتها على الصعود إليه، واستنادا إليه، وليس إلى ادّعاء القوة، فقد يستطيع العالم أن يرى بعينيه ما تَفعَله القوة الإسرائيلية بحياة الإنسان، وحرية الإنسان، وحَق الإنسان، وكرامة الإنسان، وسوابق الالتجاء إلى «الموضع الأخلاقى الأعلى» مع الخلل فى موازين القوة والاعتراف به - عديدة فى التاريخ الحديث ابتداء من تجربة «غاندى» (أوائل القرن الماضى) ضدّ الإمبراطورية البريطانية فى الهند، وحتَى تجربة «مانديللا» (أواخر القرن العشرين) ضد نظام التمييز العُنصُرى فى جنوب أفريقيا.

....

....

[من اللافت للنظر أنه فيما بعد قَرَّرَ «شارون» أن لا يَرُدَّ بعُنف على عملية تفجير الملهى الليلى «دولفيناريَم» على شاطئ تل أبيب، رغم أن حوالى عشرين من الإسرائيليين قُتلوا فيه. وقد امتنع «شارون» عن الرَدّ بسرعة، آخذاً بنصيحة مُلحّة من وزير خارجية ألمانيا «جوشكا فيشر» - الذى تَصادَف وجوده زائراً لإسرائيل عندما وَقَعَ الانفجار - وتَمكّن من إقناع «شارون» أن إسرائيل تحتاج بعد كل العُنف الذى مارَسَته إلى استراحة على «الموقع الأخلاقى الأعلى» كى يراها الناس فى إطاره حتى مع تسليمهم جميعاً بأنها تملك السلاح الأقوى. وفى نفس الوقت فإن الوزير الألمانى هَدّدَ السُلطة الفلسطينية بوقف المساعدات الأوروبية إذا لم تُعلن قبولها لوقف إطلاق النار فوراً ودون شروط - وكان هو الذى صاغ البيان الرسمى الذى صَدَرَ عن السُلطة بالامتثال، ولم يَسمَح لأحد بتغيير حَرف فيه!]

....

....

ثانياً - وظهَرَ تُوصيف مضمونه أن «من الأفضل للعرب أن يَتَصَرّفوا كما يَتَصَرّف الضعفاء من أصحاب الحق (وليس المتخاذلين). والضعيف صاحب الحق (وليس المتخاذل) لا يستسلم، لكنه يَلتَجئ إلى أسلحة الضعيف:

■ وضمن أسلحة الضعيف (وليس المتخاذل) أن يقرّر لنفسه الحَدّ الذى لا يستطيع أن يتنازل عنه - وأن يَرسم عليه خطاً أحمر يُحَرّم على نفسه تَعَدّيه لأنه إذا فَعَل فَرَّط، وإذا فَرَّط هان. ومؤدى ذلك عملياً أن يتفاوض أى طَرَف مع نفسه قبل أن يتفاوض مع غيره، وأن يُقدّر لقضيته حَلّها المعقول آخذاً فى اعتباره ما يشاء من حقائق الظروف، وموازين القوة الراهنة والتاريخية، وحقائق الأوضاع على الأرض. ثم يَلتَزم بخطه الأحمر أمام نفسه وأمام الآخرين - واعياً لحقيقة أن احترامه لهذا الخط الأحمر، حتى وإن لم يُفصح عنه لأطراف أخرى، هو الذى يفرض احترامه أمام هذه الأطراف، لأن اتصال المبدأ بالموقف ضمان أن يعرف الناس حدود صاحبه وطاقته. وهو كذلك تَحصين للحقوق، فضرورات الأمَم - ضروراتها - ليست مَزادات ولا مُناقَصات!

والأطراف العربية فى العادة مُغرَمَة بأن تُظهر قوتها وتُبالغ فيها، وذلك يزيد تَوَقُّعات الآخرين وطَمَعَهم فيما يطلبونه، باعتبار أن القوى يملك أن يُعطى (وحتى إذا كانت قُوّته ادعاء فهو المكَلّف بضريبة ما ادعى أنه يملكه!)

ومن سوء الحظ أنه حين يريد طَرَف عربى إظهار محاذيره المانعة، فإنه يُقَدّم هذه المحاذير مُرادفة للموت، وبما يَعنى أن المطلوب منه بمثابة توقيع فتوى تهدر دَمَه. وذلك مُنزلق يَحسن تَجَنّبه لأن الحرص على المبدأ فى تَقدير الآخرين - حتى من الأعداء - غال، وأما الحرص على الحياة - بصرف النظر عن المبدأ - فهو فى تَقدير الآخرين - حتى من الأصدقاء - رَخيص!

■ وضمن أسلحة الضعيف (وليس المتخاذل) أن يتمسّك باحترام حَقه الذى لا يستطيع التنازل عنه، وأن يَثبَت عليه ويُدافع عنه بمنطق الحق المستقيم وليس بعَوَج السياسة. وعندما يكون الحَق ملكَ وَطن مُحتل فإن شرعية المقاومة الوطنية لها أسبقية على أى شرعية غيرها. والأمم المتحدة نفسها تُبيح رُخصةً لمقاومة العدوان خصوصاً على الحقوق المعترف بها دولياً. ومثل هذه الحقوق لا تَتَغيّر سنوياً أو شهرياً أو يومياً بهَوى الساسة أو الإدارات، فالحق المعترف به دولياً يَصعُب تغييره إلا عندما يتنازل أصحابه ويَقبَلون بأقل منه سواء بسبب وَهَن فى الإرادة يَستَسهل التضحيات، أو يَستَسهل الغواية - سواء كانت الغواية انكسارا أمام قوى كبرى أو تَقَرُّباً إلى ساسة كبار - أو كانت الغواية طموحاً يَتَوَهّم إمكانية اختزال الطريق قفزاً إلى مُستَقبَل يظنه هناك!

■ ضمن أسلحة الضعيف (وليس المتخاذل) أن يتمسّك بلغته ولا يستبدلها بلغة يستعيرها من آخرين يريدون أن يسلبوه إرادته، وأول الاستلاب أن يَستَدرجوه إلى استعمال لغتهم!

وعلى سبيل المثال فإن المقاومة الفلسطينية إذا كان لها الحق أن تقاوم فليس يَجوز لها أن تخشى فى ذلك تُهمة «الإرهاب» - ذلك أن المقاومة الوطنية شىء مختلف. والشاهد أن تجربة أوروبا فى الحرب العالمية الثانية ما تَزال مُرشداً ودليلاً، فالمقاومة ضدّ الاحتلال الألمانى كانت واجبة، والعَمَل ضدّ قواته لم يُعتَبَر «إرهاباً»، وحتى مُنشآته ذات الطابع غير العسكرى داخل مُدُن مثل باريس ووارسو وبراج كانت أهدافاً مشروعة لأنها أشكالٌ من الحياة المدنية أقيمَت على أرض مُغتَصَبة بالسلاح. وبالنسبة لأى فلسطينى فإن المستوطنات داخل خطوط ١٩٦٧ هى مُنشآت قامَت على أرضٍ مُحتلة كانت ولا تزال ملكَه، وله فيها زرع وبيت ومَدرَسة، وقبر أب وجد.

وعندما توضع المقاومة الفلسطينية أمام تَعَسّف يَصف أعمال المقاومة بـ«الإرهاب»، فذلك لا يَصح أن يُخيفها فتَرضخ له، أو تَخضع لابتزازه.

....

....

[ومن المحزن أن الوَطَنية الفلسطينية وهى نضالٌ ليس له مثيل فى أصالته وشرعيته تتنازل عن أسلحة الضعيف، فى حين أن غيرها من الحَرَكات الوَطَنية على اتساع القارات من أمريكا الشمالية وحتى أمريكا الجنوبية، ومن شرق أوروبا إلى جنوب أفريقيا - مارَسَت كلها هذا الحق وتَمَسّكت به. ويَلفت النظر مثلاً أن الولايات المتحدة نفسها رَفَضَت أن تُدين بالإرهاب عمليات الجيش السرى الأيرلندى فى قلب لندن رغم أن قضية أيرلندا لم تكن قضية تَحَرُّر وطنى أو قومى.

وحتى على مستوى البيت الأبيض ذاته فإن الولايات المتحدة من أيام «كنيدى» تَعاطَفَت مع الشعب الأيرلندى حتى عندما استعمل الجيش السرى قنابله ومَدافعه الرشاشة فى قلب لندن، وقيل فى ذلك الوقت أن «كنيدى» تَعاطَفَ لأنه من الأصل أيرلندى، وكذلك كانت ولايته (ماساتشوستس) - لكن التَعاطُف الأمريكى مع الجيش السرى الأيرلندى تَواصَل من إدارة «كنيدى» إلى إدارة «كلينتون»، وكان كل ما تنازل به الرؤساء الأمريكيون بين مطالع الستينات من القرن الماضى إلى أوائل هذا القرن هو إبداء استعدادهم للوساطة بين الجيش السرى الأيرلندى وبين الحليف الأقرب إلى الولايات المتحدة فى أوروبا وهو بريطانيا - وكانت الوساطة حقيقية، خالصة وغير مُتَحَيِّزة - بل لعله كان هناك مَيل عاطفى وإنسانى للجيش السرى الأيرلندى.]

....

....

[عندما جَلَستُ أستذكر حديث الليلة لأستعيد أجواءه، طرأ على بالى أن إسرائيل بالتحديد آخر طرَف فى الدنيا يَحق له أن يَتَحَدَّث عن «الإرهاب» الفلسطينى. فذلك «الإرهاب» الفلسطينى يأخذ أصحابه إلى نهاية الحياة، وأما فى الحالة الإسرائيلية فإن «الإرهاب» الصهيونى يأخذ الذين يقومون به إلى رئاسة الوزارة. ولن أشير هنا إلى «دافيد بن جوريون» وما خطط له وأمَرَ به من مَذابح، لأن ذلك الرَجُل كانت لديه ذريعة إقامة الدولة اليهودية - لكن من جاءوا بعده، وبدون استثناء تقريباً، وَصَلوا إلى رئاسة الوزارة عن طريق «عمليات إرهابية» - لم تكن بالتأكيد عسكرية - لأنها بدون استثناء استهدفت مدنيين.

«مناحم بيجين» وَصَلَ إلى رئاسة الوزارة عن طريق مَذبحة «دير ياسين».

و«إسحاق رابين» وَصَلَ إلى رئاسة الوزارة عن طريق ذبح مئات وتَهجير عشرات ألوف من أهل «اللد» و«الرملة».

و«إسحاق شامير» وَصَلَ إلى رئاسة الوزارة عن طريق اغتيال وسيط الأمم المتحدة الأول الكونت «فولك برنادوت».

و«إيهود باراك» وَصَلَ إلى رئاسة الوزارة عن طريق عمليات اغتيال، قَتَل فيها وخَنَق بأصابع يديه فى شوارع بيروت.

و«أريك شارون» وَصَلَ إلى رئاسة الوزارة عن طريق مَذبَحة «صبرا» و«شاتيلا»، وعشرات من المذابح غيرها لم يُضبَط فيها مُتَلَبِّساً والدَم يُلطخ يديه - لكنه بالتأكيد كان هناك.

وحتى «حمامة السلام» الحالية - «شيمون بيريز» - لم يَجد فُرصَة يُعَزِّز فيها بقاءه فى رئاسة الوزارة إلا عن طريق مَذبحة «قانا».

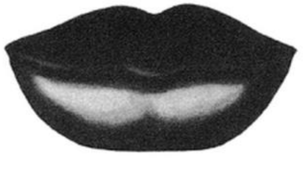
إلى جانب ذلك نماذج مُدهشة:

فالرَجُل الذى قَتَل خَمسين من المصلّين المسلمين فى الحَرَم الإبراهيمى له الآن فى الخليل مَشهَد ومَزار.

والرَجُل الذى أمَرَ بقتل ثلاثمائة أسير مصرى فى العريش، ووَقَفَ يَتَفَرّج على دائرة نيران تُحاصرهم بإطلاق النار عليهم، ثم أمَرَ بدَفن بعضهم أحياء - هو الآن وزير الدفاع فى الحكومة الراهنة («بن إليعازار»).

وأكثر من ذلك - هكذا خَطر لى فى هَدأة الليل - فإن جائزة «نوبل» للسلام مُنحَت لخمسة رجال

> **العالم العربى**
> **أصبح رجل الشرق**
> **المريض بمقدار ما كانت**
> **الخلافة العثمانية رجل**
> **أوروبا المريض**
> **قبل قرنين**
> **من الزمن!**



«إرهابيين» ـ ! ـ كلّ منهم أمَرَ بعملية قتل أو شارك فيها:

«مناحم بيجين» ـ و«أنور السادات» أيضاً! ـ أولهما قَتَلَ، وثانيهما اغتال، ومع ذلك تقاسَما جائزة «نوبل» للسلام.

«رابين» و«بيريز» و«عرفات» شاركوا أو أمَروا بعمَليات بالسلاح ـ لكن حُكماء السلام في لجنة «نوبل» أخذوا في اعتبارهم أن هؤلاء جميعاً قتلوا أو شاركوا في القتل «تحت دَوافع وطنية» ـ أو هكذا تصَوَّروها.

ومن المفارقات أن إسرائيل لم تتنصَّل من أى عَمَل «إرهابي» قام به رجالها ونساؤها. بل إنه حتى الشابين اللذين قتلا وزير الدولة البريطاني اللورد «مُويْن» في القاهرة سنة ١٩٤٥ (قبل قيام الدولة اليهودية)، وجرى شنقهما بعد حُكم قضائي في مصر سنة ١٩٤٦ ـ أصَرَّت إسرائيل على أن تَضَع ضمن بنود اتفاقية فك الارتباط مع مصر سنة ١٩٧٣ شرطاً يقضي بإعادة رفاتهما، وفي القدس جرَت للأكفان مَراسم «تحية البطولة». لكن بعض العَرَب الذين يريدون أن يمنحهم الغرب نياشين «التَحَضُّر والتَمَدين» على استعداد للشجب والاستنكار والإدانة، وتسمية رجالهم بـ«المنتحرين» وليس بـ«الفدائيين»، برغم أن ما قاموا به في البداية والنهاية كان أعمالاً قَدَّمَ أصحابُها حياتهم مُقابل مُعتَقداتهم وبغير دافع آخر. فغواية المال لم تكن مطروحة، وغواية الشهرة لم تكن لديها فرصة، ثم إن رئاسة الوزارة لم تكن في انتظار أىٍ منهم!

....

....

ومع أني بالطبيعة والمزاج والاعتقاد أحسب نفسي ضمن هؤلاء الذين يَنفُرون من السلاح لغةً ووسيلة ـ إلا أنه ليس بمقدور أحد أن يكون انتقائيا إزاء القانون، وفي أسوأ الأحوال فإن ما يمكن تسميته بـ«الإرهاب» لا بد أن يُحكَم عليه وفق معيار واحد، وقاعدة سارية في كل الأحوال!

خطَرَ ذلك كله ببالي، ثم طرَحتُه جانباً مُستدعياً حقائق العصور والأزمنة: وأولها أن القوة دائماً على حق ـ وأن الضعف محكوم عليه حتى وإن كانت القوانين والمواثيق كلها تُزكّيه وتَشهَد له!]

....

....

■ ضمن أسلحة الضعيف (وليس المتخاذل) أن يستعمل قوة الصورة في هذا العصر بدلاً من قوة الدبابة، والمشكلة هنا هي: أى الصُوَر؟ ـ وفي الانتفاضة أخيراً كادت الصورة المطلوبة أن تضيع وسط عشرات من الصُوَر غير مطلوبة؟

كان هناك زحام من الصُوَر:

صُوَر لطوابير ممن يقال أنهم فدائيون يضعون الأقنعة السوداء على رؤوسهم لتغطي وجوههم، بينما يلفون حول بطونهم وظهورهم أحزمة من العبوات الناسفة تشير إلى استعدادهم طوابير بعد طوابير للشهادة.

وصُوَر لجموع مُحتشدة ترفع فوق رؤوسها مدافع رشاشة وبنادق من كل عيار، وتلَوّح بها في الهواء غضباً وتهديداً، بينما العيون يطق منها الشرَر!

وصُوَر تكاد أن تكون يومية لاستعراضات حَرَس شَرَف، إما أنها غير ضرورية، وإما أنها سابقة لأوانها ـ وفي الحالتين فهو الانطباع الخطأ!

وصُوَر .. وصُوَر ـ تنسى كلها أن الشهيد يَفعَل ولا يَستَعرِض.

وأن الشهيد يُفارق الدُنيا على موقع عطائه ولا يتلكأ أمام العدَسات ينظر إليها بزاوية حتى يتأكد أنها وَمَضَت!

وأن المراسم تستطيع أن تنتظر حتى يَتَّسِق واقع الحال مع مُستوى الآمال!

وفي الواقع فإن الصورة الوحيدة التي غيرت مشهد الانتفاضة كله وأعطت وجهه المؤثر هي صورة الطفل «محمد الدرّة» وهو يموت مُحاصَراً بالنار في حُضن أبيه الذى لم يقتله الرصاص وإنما ذبَحَته الحَسرة!

كانت تلك صورة «الضعيف القادر» بينما كانت الصُوَر غيرها «للقوى العاجز»!

رأى أحدنا أن صورة «الدرّة» ومثيلاتها من الصُوَر زادَت تَعاطُف الرأى العام في أوروبا من ثلاثين إلى خمسين في المائة، وفي الولايات المتحدة من واحد إلى عشرة في المائة.

لكن ما جاء بَعدها من صُوَر يوشك أن يَمحو أثرها!]

■ وضمن أسلحة الضعيف (وليس المتخاذل) أن يمارس المقاطعة على كل مستوى: من السياسي، إلى الاقتصادي، إلى الثقافي، إلى الاجتماعي. فهذه المقاطعة عَمَل من أعمال المقاومة لا يَتَعَرَّض للغير، وإنما هو إجراء لضبط التصرفات الذاتية يَتَّخذه أصحابه حفاظاً على المصالح وعلى الأوطان وعلى العقائد عندما تَتَعَرَّض للعُدوان إلى درجة الاغتصاب.

وكان ذلك ما فعلته الأغلبية السوداء في جنوب أفريقيا ضدّ الأغلبية البيضاء المستبدة بالثروة والسُلطة، فقد قاطعَت ونجَحَت ـ ودَعَت القارة الأفريقية كلها أن تقاطع معها ونجَحَت ـ ثم دَعَت العالم الغربي نفسه أن يَتضامَن معها بمقاطعة نظام الأقلية العنصرية ونجَحَت ـ حتى أن بريطانيا نفسها على عهد رئاسة «مارجريت تاتشر» بالذات اضطرت سنة ١٩٨٤ أن تقاطع، وكانت قبل ذلك بأربع سنوات ـ ١٩٨٠ ـ ترفض وتهاجم فكرة المقاطعة.

□

ثالثاً ـ كان هناك تَوصيفٌ ذهَبَ إلى أن «الديمقراطية هي الحل».

....

....

[على أن هذا التَوصيف لَحَق به تحَفُّظ يَرى أن الأوضاع الاقتصادية الاجتماعية الراهنة في العالم العربي لم تَزَل بَعد غير قادرة على فرض ديمقراطية حقيقية. والمشكلة أن النُظُم المتَربِّعة على القمّة في المنطقة تملك «شَطارة» تصنيع نوع من «الديمقراطية الرخيصة» مثل «أوراق النقد المزيَّفة» تقدر عليها الوسائل الجديدة في تكنولوجيا الطباعة (والتصوير!).

وكذلك فقد تقتضي الضرورات العَمَلية إيجاد عامل كيميائي يُمَكِّن من نضوج ديمقراطي حقيقي، وهذا العامل المساعد ـ كيميائياً ـ هو الدَعوة والعَمَل بإلحاح على حرية تَدَفُّق المعلومات بهَدَف توسيع دائرة المعرفة، وتكثيف حِدّة الوَعي، بحيث يَرى الناس حقيقة ما يجرى حولهم بما في ذلك حَرَكته ودلالاته.]

....

....

[وعلى سبيل المثال فإنه حين يُصبح المسئول عن المفاوضات بين الفلسطينيين والإسرائيليين هو مُدير وكالة المخابرات المركزية الأمريكية («جورج تنت») ـ إذن فإن ألف جَرَس إنذار يجب أن تُدَق، وألف لَمبة حمراء لابُد أن تشتَعِل!]

....

....

وأخيراً كان هناك تَوصيفٌ رابع يرى أنه بصَرف النظر عن «اتخاذ الموقع الأخلاقي الأعلى»، وبصَرف النظر عن ممارسة سياسة الضعيف (غير المتخاذل)، وبصَرف النظر عن حُرِية تَدَفُّق المعلومات ـ فإن هناك إضافة ضرورية وهي استعادة مصداقية القيادات العربية أمام شعوبها ـ وأمام خصومها (أو حتى مفاوضيها من هؤلاء الخصوم على الجانب المقابل) ـ وأمام الأطراف الدولية المهتَمّة.

هناك إمكانية
متاحة تسمح للأمل
أن يغلب اليأس. لكن شرطها
إدراك الحقيقة والتصرف
وفق أحكامها دون
ادعاءات لا تسندها
حقيقة

ووفق هذا التوصيف «فإنه لا يمكن البدء «بموضع أخلاقي أعلى»، ولا بممارسة الحق في مبدأ أو لغة إلا إذا كانت القيادات العربية مُهَيّأة لما هو مطلوب، وإلا وقعَ الصدام بين القيادات العربية وبين شعوبها».

والذى حَدَث أن هناك قُوَى دولية استخدمت واستهلكت مصداقية القيادات العربية حتى استنفدتها!

وذلك بدَوره أنشأ حالة أمكن معها ابتزاز هذه القيادات العربية. فتلك القيادات صَوَّرَت لنفسها أمام جماهيرها نجاحاً لم يَتَحَقَّق، وتَسَتَّرَت القُوَى الخارجية على «هذا النجاح» غير المتَحَقّق.

وهكذا فإنه إذا كان على القيادات العربية أن تستعيد مصداقيتها ـ فهذه القيادات أمام خطر مُؤكَد يُعَرِّضها لأن تفقد «حُباً» اشترته بقبول ما لا يُقبَل.

والحقيقة أن القيادات العربية تحتاج من العالَم الخارجي إلى الاحترام أكثر مما تحتاج إلى الحُب: ذلك أن «الحُب» كَسبٌ قصير الأمَد ـ وأما «الاحترام» فاستثمار بَعيد المدَى.

لكن المشكلة المعَقَّدَة أن الأنظمة العربية ـ معظمها على الأقل ـ معنى ملهوف على الكسب السريع، بينما الاستثمار على المدى الطويل عُمرٌ لا يضمنه أحد، وذلك هو الفارق بين نظم مَوقوفة على أفراد، ونُظُم «مَنذورة» لأوطان!

□

استعدت ذلك كله في غرفتي بعد سَهَر طويل.

سألتُ نفسي قبل أن أطفئ نور الغرفة وأغمض عيني: هل لذلك كله أو شيء منه فائدة؟ وإذا لم تكن فأين هو الحل؟ ـ أو أين هي المعجزة إذا تَعَذَّر الحل؟!

مَرَّ بخيالي النعسان ـ ويَدي تمتَدُّ لإطفاء نور الغرفة ـ رَجعُ صَدى يَسرى في الأجواء العربية يُرَدّد أن «أمريكا وَحدها تستطيع»، و«أمريكا بمفرَدها تقدر»، و«أمريكا عليها أن تتَحَمَّل مسئوليتها»، و«أمريكا عليها أن تَرُدّ وتَصُد، وتَمنَع وتَردَع»!

تذكرتُ ـ بين اليَقظة والنوم ـ حكاية مشهورة في تاريخ أوائل هذا القرن (١٩٠٣)، كان بطلها المعتَمَد البريطاني العتيد اللورد «كرومر».

حضر «كرومر» حفل زفاف لأسرة مصرية من كبار مُلاك الأرض، وكان الجالس بجواره «سعد زغلول» (باشا)، وكانت الصداقة بين الاثنين وَطيدة. وطبقاً للحكاية فإن المطرب الشهير «عبده الحامولي» كان يُغني «طقطوقة» ذاعَ صيتُها في ذلك الوقت تقول «حبيبي راح هاتوه لي يا ناس». وسأل اللورد «كرومر» عن مَعنى الكلمات التي يسمعها مُلحَنة، وحاوَلَ «سعد زغلول» أن يَشرحها له، وعَلّق «كرومر» مُستَغرباً: «حتى في العشق لا يُكَلِّف المحب عندكم خاطره بفعل مباشر .. لا يُريد العاشق أن يسعى لحبيبه بنفسه، وإنما يَطلب من الناس أن يجيئوا له به؟»

وجاء النوم تُداخله تهويمات راحت تَعبُر فراغ الوعي أطيافاً وظِلالاً: العَرَب ـ إسرائيل ـ أمريكا ـ «عبده الحامولي» ـ «سعد زغلول» ـ واللورد «كرومر»!

ودَخلتُ في النوم!

٢

الماريشال «مونتجمرى»: هل كان أو لم يكن؟!

« الخميس »

■■ فنجان شاى بعد الظهر مع الليدى «أوليف هاملتون».

....

....

[هى أرملة السير «دنيس هاملتون» الذى كان رئيس مجلس إدارة مجموعة صُحُف «التيمس» و«الصنداى تيمس» ورئيس تحريرها العام طول فترة مُهمَّة من تاريخ الصحافة العالمية، وَقَعَ فيها انتقال «الخبر» من حَرَكة الصحفى الفرد إلى شبَكَة وكالة الأنباء الكبرى، وانتقال «المطبعة» من قوالب الرصاص المصبوب إلى الومضات الإلكترونية لـ«الكومبيوتر». وقد اشتهر «دنيس» فى أوساط الصحافة الأوروبية بلقب «المجَدِّد» لأنه كان يملك خيالاً نافذاً وإرادة قادرة على تحقيق ما رآه من متغيرات عصور مُستجَدَّة، وساعده على ذلك أنه وَجَدَ مجموعة من خيرة الصحفيين البريطانيين تصطف حوله وتساعده. ثم إنه كان محظوظاً فى الجزء الأكبر من عمله بمُلاك صُحُف يُقَدِّرون قيمته ويدعمون جهده، ولا يتدخلون فى عمله، ابتداء من اللورد «كيمزلى» صاحب «الصنداى تيمس» القديم، حتى اللورد «طومسون» المليونير الكَنَدى الذى اشترى تلك الجريدة العتيدة وضمها إلى «التيمس» وجعل من الاثنتين كياناً صحفياً واحداً ظل متماسكاً حتى اشتراه «روبرت مردوخ» سنة ١٩٧٤.

وبعدها بسنوات مات «دنيس» متأثراً بجرح قديم من شظية أصابته وظلَّت عشرات السنين كامنة فى رأسه، وقد أصابَته تلك الشظية عندما كان أول ضابط من أركان حرب الماريشال «مونتجمرى» ينزل على الشاطئ الفرنسى الشمالى فى عملية «أوفرلورد» لفك قبضة «هتلر» عن أوروبا الغربية، وتحريرها من عاصفة الجنون النازى التى اجتاحتها بلداً بعد بلد وعاصمة بعد عاصمة، حتى انطفأت الأنوار على اتساع قارة كانت طوال القرون الثلاثة الأخيرة من التاريخ الإنسانى مَوئلاً للحضارة العالمية ومُستقراً.]

....

....

لدىّ ضعف شديد إزاء الليدى «هاملتون» - «أوليف» - وهى قرب التسعين من عمرها - ولدت سنة ١٩١٥ - لكن حيويتها ما زالت متدفقة، تلمع فى عينيها زرقة شفافة لها عمق لا يَبين له قاع، وهى تتكلم حتى الآن بتلك اللهجة الضاغطة بالثقة على كل حرف تنطق به، وكأنها حالة تأكيد مستمر لأى شىء تقوله.

كانت «أوليف» هذه المرة كما هى دائماً فيما عدا انحناءة بسيطة مالت بقامتها إلى أمام، لكن رأسها بقى مرفوعاً بنوع من الاطمئنان لمجمل ما اعتنقته من آراء كلها محافظة، شديدة المحافظة فى بعض الأحيان إلى درجة التزمُّت.

وقد ظلَّت «أوليف» بعد وفاة «دنيس» تعيش فى بيتها، محاطة بكل ذكريات «الأعز» (dearest) كما تسميه، وضمنه تلك المقتنيات التى جمعها الزوجان معاً عندما حملهما عمله الصحفى وزياراته المهنية إلى أركان الأرض القصية: قطع نسيج من التبت، أطباق صينية من عهد المينج، فُخار إسلامى مَصنوع لسَلاطين المغول، نابان من العاج لفيل أفريقى، مشغولات ذهبية من حيدر أباد فى الهند تعود للقرن الثامن عشر. وحول ذلك صُوَر لـ«دنيس» فى مواقع مختلفة من حياته أكبرها صورة له مع الماريشال «مونتجمرى» - «مونتى» - تعود لأيام الحرب عندما كان «دنيس» أقرب الناس إلى الماريشال الذائع الصيت والغريب الأطوار.

كانت «أوليف» - نفسها - شديدة الإعجاب بـ«مونتى» وبدوره. وكان «مونتى» شديد القُرب من أسرة «هاملتون»، وأظنه وَجَدَ مع هذه العائلة ألفة عَوَّضَت عليه حياته مُنفرداً بعد وفاة زوجته «بيتى»، وبعد أن خَفَّ الوَهج الذى أحاط بالقادة المنتصرين فى الحرب ضدّ «هتلر» بمرور السنين، ثم مَشوا جميعاً فى «شارع الغروب» ذاهبين إلى نوع من النسيان يعودون منه بين فترة وأخرى كاستعادة لذكريات مجد تباعَدَت عنه الأيام، لكنه حاضر فى المناسبات وفى الاحتفالات إشارة إلى أيام لها مَعنى ومواقع لها قيمة (وتلك من ضرورات الحفاظ على ذاكرة - وهَويَّة - الأمم والشعوب).

أقبَلَت «أوليف» كالعادة وألوان مَلابسها كما هى مُعظم الأوقات زاهية كأنها تقصد إلى تحدى العُمر (فستانها اليوم أزرق أحمر) - صوتها المتهلل يَسبق يدها الممدودة وابتسامتها العريضة وقُبلتها التقليدية على الخدَّين. وحين خطونا إلى غرفة المكتبة، وهى على حالها كما تَرَكها «دنيس» - توقفتُ أمام «أوليف» وفاجأتُها بسؤال يلح على خواطرى منذ أسابيع: «والآن.. ليدى هاملتون (تَعَمَّدتُ أن أناديها بلقبها الرسمى) قولى لى صراحة هل كان أو لم يكن؟»

وفاجأها سؤالى ورَدَّت عليه: «مَن هو؟ .. ماذا تقصد؟»

قلتُ بسرعة: «مونتى» . «مونتجمرى». ماريشال العَلَمين!

وفهمَت «أوليف» بسرعة ما قصدتُ، وقالت: «أوه .. أنت تريد أن تعود إلى هذه الحكاية؟»

وقلتُ: «لم تَعُد حكاية .. فهذا كلام كتبه «نيجيل» (ابنها «نيجيل هاملتون») قبل أسابيع، وقد أثار ضجة فى بريطانيا وخارجها. ليس بسيطاً أن يقول ابنك وهو المؤرخ الرسمى الذى اعتمده «مونتجمرى» ليكتب قصة حياته أن الماريشال كان «رجلاً معكوساً (شاذاً) جنسياً» رغم أنه ألزم نفسه بكبت غرائزه، وأن هذا الكَبت - أو محاولته - أثرَت، وكان لابد أن تؤثر، على شخصية الرَجُل - الماريشال - وعلى عَمَله وعلى قراراته!»

وقالت «أوليف» بطريقة متأنية: «هذه حكاية ليس لها لزوم. لم تكن لها ضرورة، ولست متأكدة منها. «نيجيل» (ابنها ومؤرخ «مونتجمرى») لديه كل الأوراق. كانت فى الأصل عند «دنيس». «دنيس» أعطاها له كما تذكر و«مونتى» وافق. و«نيجيل» قام بجهد خارق كى يؤدى مُهِمَّته بكفاءة المؤرخ وأمانته. وأنا لم أشأ أن أسأله كيف تَوَصَّل إلى ما تَوَصَّل إليه رغم أن كثيرين سألونى».

قاطعتُها قائلاً: «أوليف .. لا بُد أنك تَعرفين أكثر من ذلك. والمسألة الآن سِرٌّ ذائع! - فقولى لى أنت: هل كان أو لم يكن .. نعم - أو لا؟»

تَعَمَّدتُ أن أوَجِّه لها السؤال ضاحكاً مُحتَرِماً عُمق ولائها لصداقاتها، وشدَّة محافظتها الإنجليزية التقليدية إلى درجة التَزَمُّت أحياناً - ومَضيتُ أكثر فطَوَّقتها بذراعى قاصداً - حتى لا يخطر لها أن تكرار السؤال حصَار.

وقالت هى: «صَدِّقنى لا أعرف؟ لماذا لا تسأل «نيجيل» نفسه؟

....

....

كان ما نشره «نيجيل هاملتون» قبل أسابيع عن «الجنس فى حياة الماريشال» مثيراً للجَدَل فى لندن وما زال. فالرأى العام البريطانى ليس مُستَعِداً لأن يَقبَل شيئاً عن أشهَر قادته العسكريين، وخصوصاً «مونتى» وهو صاحب أول انتصار بريطانى فى الحرب العالمية الثانية، وهو انتصار «العَلَمين» الذى جاء بعد سلسلة طويلة من الهَزائم. ثم إن الباقين على قَيد الحياة من ضباط وجنود الجيش الثامن - جيش «مونتجمرى» فى حالة غضَب. وزادَ من حدَّة الجَدَل أن كاتب القصة ليس مؤرخاً عادياً، وإنما هو كاتب أتيح له ما لم يُتَح لغيره فى الموضوع الذى كتب فيه.

□

كان «دنيس» (والده) من أركان حرب «مونتجمرى»، وعندما عاد إلى بريطانيا جريحاً بتلك الشظية التى استقرت فى رأسه، كان قائده دائم السؤال عنه، وبَقى كذلك بعد أن صَفَّى الماريشال قيادته فى أوروبا وعاد إلى إنجلترا ليتولى رئاسة أركان حرب الإمبراطورية.

ثم كان أن قضى الماريشال مدة خدمته فى رئاسة أركان حرب الإمبراطورية قبل أسابيع قليلة من حرب السويس ١٩٥٦ - تاركاً مكانه للورد «مونتباتن». وقبل أن تهديه الملِكة بيتاً

الأطراف العربية فى العادة
مغرمة بأن تظهر قوتها وتبالغ فيها،
وذلك يزيد توقعات الآخرين وطمعهم
فيما يطلبونه، باعتبار أن القوى يملك أن يعطى،
وحتى إذا كانت قوته ادعاءً
فهو المكلف بضريبة
ما ادعى أنه يملكه!



يقضى فيه عطلة نهاية الأسبوع ـ كان الماريشال يُوَزِّع عطلاته على بيتين فى الريف: بيت «دنيس هاملتون» (ضابط أركان الحرب السابق للماريشال ورئيس تحرير «الصنداى تيمس» الآن)، وبيت «ونستون تشرشل» (على حافة «ووركشير») حيث كان رئيس الوزراء السابق والقائد العسكرى السابق يجلسان معاً لساعات طويلة قال لى عنها «مونتجمرى» نفسه ذات مرة: «كانت بيننا ساعات نتحدث فيها بالصمت، نشعر أن خواطرنا تتلاقى دون حاجة لكلام». ويُضيف الماريشال: «أعمق الصداقات ما يستطيع فيه صديقان أن يتواصلا بعمق حميم دون حاجة للقول بالألفاظ».

ولم ألتق بالماريشال «مونتجمرى» فى البيت الريفى لـ«دنيس هاملتون» فى تلك المزرعة، القريبة من ميناء «بورتسموث» رغم أن كلينا كان يتردد عليه فى نفس السنوات. لكنى بعد ذلك قابلته عن طريق «دنيس» ضمن مشروع مشترك بين «الصنداى تيمس» و«الأهرام» تلك الأيام من مُنتصَف الستينات، وكان المشروع «استذكارا يعود به ماريشال العلمين إلى ميدان معركته فى الصحراء المصرية، ومعه عَدَد من كبار قادته، ثم يكتب سلسلة مقالات تنشرها «الصنداى تيمس» مع «الأهرام» فى نفس الوقت، وتكون التكلفة شركة بين الجريدتين. تتحَمَّل «الصنداى تيمس» بالتكاليف الأجنبية كلها، ويَتَحَمَّل «الأهرام» بالتكلفة فى مصر. وقضى الماريشال عشرة أيام ما بين الصحراء الغربية والعاصمة المصرية، وخلال هذه الأيام العشرة عرفتُ «مونتجمرى» عن قُرب، ولمستُ فى نفس الوقت عُمق صلته بـ«دنيس»، وأحسَستُ فى بعض الأحيان أنها ليست علاقة ضابط سابق مع قائد سابق، ولا علاقة رَجُل مُتَحَمِّس لبَطَل أسطورى أتاحَت له الظروف أن يَعمَل معه، وإنما بَدَت لى العلاقة أحياناً وكأنها علاقة تلميذ بأستاذ ـ أكبرهما يرى «الوَعد» فى الأصغر، والأصغر يرى «المَثَل» فى الأكبر.

□

كان «دنيس هاملتون» هو الذى ابتدع فى الصحافة البريطانية ـ وفى الصحافة العالمية فيما أعرف ـ فكرة عرض الكتب السياسية الكبرى سلاسل فى الصحافة الأسبوعية ـ أو فى اليومية مرات. والحقيقة أن تلك كانت نقلة ضخمة فى صناعة الكتاب السياسى (لأن دخل النشر مسلسلاً فى الصحافة أصبح يحقق ٦٠٪ من إيراد الكتاب السياسى، فى مقابل ٤٠٪ يحققها نشره داخل غُلاف كتاب).

وكذلك فإن «دنيس» ذهب إلى تحريض كثيرين من الساسة والقادة ـ خصوصاً من الحرب العالمية الثانية ـ على كتابة مذكراتهم لكى تَتَحَوَّل إلى «سلاسل أسبوعية» على صفحات «الصنداى تيمس»، وتَحَمَّس كثيرون منهم خصوصاً أن النشر السياسى أصبح مغرياً لرجال ساهموا فى صنع تاريخ مشهود، ثم أنهوا مدة خدمتهم بمعاش محدود (معاش الماريشال «مونتجمرى» مثلاً كان ٦٤٠ جنيهاً إسترلينياً فى الشهر، ونصيبه المقدم له قبل نشر مذكراته كان قرابة مليون جنيه إسترلينى، وكان فى مقدوره أن يحصل على أكثر، لكنه لم يشأ أن يكتب مذكراته بنفسه).

كان الذى حَدَث أن «مونتجمرى» اقتنع بما عرضه عليه «دنيس هاملتون» فى شأن كتابة مذكراته، لكنه لم يكن يريد أن يكتبها بنفسه، ولا كان يريد أن يستعين بكاتب محترف يملى عليه ما يريد. وبدلاً من ذلك كان رأى الماريشال ـ وقد صَمَّم عليه، أن يعطى أوراقه كاملة إلى «دنيس هاملتون»، وفيها سجلات قيادته ويومياته الشخصية (التى راحَ يكتبها قبل أن ينام كل مساء ابتداء من يوم ١٠ مايو ١٩٤٠، وعندما كانت معركة فرنسا التى انتهت بسقوطها أمام قوات «هتلر» على وشك أن تبدأ) ـ وكان المتوافق عليه أن يتولى «دنيس» بنفسه كتابة قصة حياة «مونتجمرى»، وتقدير «مونتجمرى» أن «أركان حربه السابق» يعرف عنه ما فيه الكفاية ـ وأنه بتجربة مباشرة تسندها خبرة صحفية نادرة ـ يستطيع أن يكتُب القصَّة أحسَن من الماريشال الذى أصبح صبرهُ نافداً يوماً بعد يوم وهو يرى «هذا المنحَدَر السياسى الحزين الذى تَدَحرَجَت عليه الإمبراطورية بعد الحرب»! (حسب قوله). وفى البداية قَبِل «دنيس» ـ وللحقيقة على مَضَض ـ لأنه كان شبه واثق مقدماً أن شواغل عمله كرئيس لتحرير «الصنداى تيمس» ـ و«التيمس» بعدها ـ لن تسمح له بوقت كافٍ يكتب فيه قصة حياة «مونتجمرى»!

□

ووَقَعَ ما كان «دنيس» يخشاه، لأن وقته كان بالفعل ضيقاً بمشاغل عَمَله الأصلى. ثم كان أن أحد أبناء «دنيس» الأربعة ـ وهو «نيجيل» ـ بدأ يظهر ككاتب صحفى مقتدر ميال إلى الكتابة التاريخية المعاصرة. وكان «نيجيل» قد رأى صناديق الملفات والأوراق التى بعث بها الماريشال إلى والده، ثم لاحَظ أنها راقِدة حيث هى لشهور ولسنين. وراوده أمَل أن «الابن» يستطيع أن يقوم بما لم يَسمَح به وقت «الأب». وعلى استحياء عَرَضَ «الابن» استعداده على «الأب». ومع أن «دنيس» أحَسَّ أن دخول «نيجيل» يعطيه مخرجاً، خصوصاً وهو يثق فى كفاءته، فإنه بعد أن فكر طويلاً (كعادته) طلب إلى «نيجيل» أن يفاتح صاحب الشأن الأصلى (وهو الماريشال «مونتجمرى») فى الموضوع ويرى ردَّة فعله. وكانت المفاجأة للجميع أن الماريشال الذى أعجب بكتابات قرأها لـ«نيجيل» ـ وافق على الاقتراح، وتَحَمَّس، لكنه سأل «إذا لم يكن ذلك مُحرجاً لـ«دنيس» مع أنه عاتب عليه تأخره فى الكتابة؟» ـ لكن الاقتراح كان حَلاً سعيداً للجميع!

وكتب «نيجيل» بالفعل ثلاثة أجزاء تروى قصة حياة وعمل الفيلد مارشال «مونتجمرى» فيكونت العلمين (لحظة المجد التى اختارها «مونتجمرى» للقب الملكى الذى مُنِحَ له بعد النصر تعظيماً وإجلالاً). وكانت الأجزاء الثلاثة تحمل عنوان «مونتى»، وتحته عنوان فرعى يخص كل جزء:

الجزء الأول: «صناعة جنرال» من ١٨٨٧ إلى ١٩٤٢

الجزء الثانى: «سَيِّد ميدان القتال» من ١٩٤٢ إلى ١٩٤٤

الجزء الثالث: «ماريشال الإمبراطورية» من ١٩٤٤ ـ ١٩٧٦.

وكان نجاح كتاب «حياة مونتجمرى» مُدَوياً، ولم يكن سراً على أحد أن الأب («دنيس») لم يُعط لابنه أوراق «مونتجمرى» ـ فقط، وإنما قَدَّم له مع الأوراق خبرة لا تُعَوَّض ـ خصوصاً أن «دنيس» كان قد تقاعَد أثناء إعداد الكتاب، بعد خلافات بينه وبين «روبرت مردوخ» المالك الجديد لمجموعة «التيمس» و«الصنداى تيمس».

وعندما صَدَرَ الجزء الأول من الكتاب سنة ١٩٨١ كان الذى أهدانى نسخة منه هو «دنيس» قبل أن تصلنى نسخة ثانية وَقَّعَ عليها «نيجيل».

ولم يبعث إلىَّ «دنيس» بنسخة من الكتاب المطبوع وحده، وإنما أضاف إليها زيادة كان يعرف أنها تهمنى، وهى صُوَر من مجموعة الأوراق الأصلية «للماريشال» تتصل بأيام خدمته فى مصر ما بين سنة ١٩٣٤ إلى سنة ١٩٣٥، حين كان قائداً لمعسكر «مصطفى باشا» فى الإسكندرية، ثم فى فلسطين عندما كان قائد القوات البريطانية فيها من سنة ١٩٣٦ إلى سنة ١٩٣٨. وفوق هديته كتب «دنيس» بخط يده على بطاقة منه عبارة نصها: «إلى محمد الذى كان مونتى يحتفظ له بإعجاب كبير ـ من صديقه دنيس».

وعلى أى حال فإننى بالفعل وَجَدتُ نفسى مرات عديدة فى إطار الجو الودِّى الذى كانت أسرة «هاملتون» تحيط به صديقها الكبير الفيلد مارشال «مونتجمرى»، وبالذات فى الفترة ما بين زيارته لمصر سنة ١٩٦٧ وحتى وفاته بعدها بعشر سنوات سنة ١٩٧٦.

فى تلك السنوات العشرة قابلتُ الماريشال مرات عديدة، سواء فى بيت «دنيس» فى لندن، أو فى البيت الريفى الصغير (فى «هامبشير») الذى أهدته الملكة «إليزابيث» لقائدها فى سنوات عمره الأخيرة.

وطوال هذه السنوات العشرة سمعتُ من «مونتجمرى» فيضاً من قصص ذلك الزمن الأسطورى ورجاله من «تشرشل» إلى «أيزنهاور»، ومن «ستالين» إلى «روزفلت»، وحتى من «روميل» إلى «بن جوريون» الذى تعامل معه «مونتجمرى» بـ«الشك» أثناء خدمته فى فلسطين، حين كان «بن جوريون» رئيساً «للوكالة اليهودية» التى سبقت قيام دولة إسرائيل!

ثم مضت السنوات حتى كتب «نيجيل» فى بداية سنة ٢٠٠١ ذلك الذى كتبه عن الحياة الجنسية للماريشال، ومؤداه أنه كان «معكوساً» (شاذاً) جنسياً لكنه بذل جهداً خارقاً كى يكبت غرائزه.

والآن ـ أبريل ٢٠٠١ ـ كنت فى بيت «دنيس هاملتون» ـ أسأل «أوليف» (ليدى «هاملتون»): «هل كان أو لم يكن؟»

كنت أسأل ضاحكاً، ورَدَّت هى بلهجة تمتزج فيها الحَيرة بظلٍّ من أسى:

«محمد. ماذا يُفيد ذلك كله الآن؟ .. ذلك زمان مضى؟»

وقلتُ لـ«أوليف» (ليدى «هاملتون»):

«أوليف .. هل أترجم لك بيتاً من الشعر العربى؟»

قالت:

«سمعت منك ترجمات شعر عربى من قبل. والآن قُل لى كيف استطاع الشعر العربى أن يعرف شيئاً عن حياة «عزيزنا مونتى»؟»

وترجَمتُ لها بيتاً من الشعر العربى يقول:

«قد كان ما كان مما لست أذكره
فظن خيراً ولا تسأل الخبر»

واستمعت «أوليف» باهتمام للكلمات، ثم استفسرت مُستوضِحة للمعانى، وقالت مبتسمة:

«بالضبط .. الشعر العربى كما يبدو لى مما أسمعه منك ـ بحور من الحكمة»!

إسرائيل بالتحديد آخر طرف فى الدنيا يحق له أن يتحدث عن «الإرهاب» الفلسطينى. فذلك «الإرهاب» الفلسطينى يأخذ أصحابه إلى نهاية الحياة، وأما فى الحالة الإسرائيلية فإن «الإرهاب» الصهيونى يأخذ الذين يقومون به إلى رئاسة الوزارة

"٣"

متى يتكلم الناس ومتى يؤثرون الصمت

« الجمعة »

■■ العشاء مع صديق قديم هو «أيان جيلمور» ـ اللورد «أيان جيلمور»، وكان وزيراً للدولة فى وزارة الخارجية البريطانية ضمن التشكيل الأول والثانى لوزارات «مارجريت ثاتشر»، لكنه بعد ذلك اختلف معها وأبعَدَته من وزارتها. كان وقتها يحمل لقب «سير» رغم أنه من أسرة لها صفحات فى التاريخ البريطانى. وكان المفروض أن تضعه «مارجريت ثاتشر» فى قوائم الألقاب التى يقدمها رؤساء الوزارات للقصر تقديراً لجهد الذين أسهموا بقسط فى خدمة الدولة البريطانية. لكن «مارجريت ثاتشر» لم تضع اسمه فى قائمتها بسبب انتقاده الدائم لسياساتها. ثم كان أن ظهَر اسمه فى قائمة الملكة تقديراً لجهوده فى سبيل «الكومنولث». وذلك حق العرش.

«أيان» كان واحداً من المهتمين بالقضايا العربية لزمَن طويل. والحقيقة أنه صوت نادر فى التصدى بمصداقية ودون تردد للدعاوى الصهيونية ـ الإسرائيلية. «أيان» له ابن («دافيد») يعمل فى إحدى وكالات الأمم المتحدة الناشطة فى قطاع غزة. فى حين أن ابنه الثانى («كريستوفر») اختار اتجاها مخالفاً. فافتتح مطعماً يحمل اسمه فى حَى «تشلسى» وهو آخر صيحة الآن فى مطاعم لندن.

قال لى «أيان» ضاحكاً أنه يجب أن يُتصَوَّر أن له تأثيراً على كل من وَلَدَيه «دافيد» و«كريستوفر»، فهو من المتحَمّسين للقضية الفلسطينية وهو ما انتقل منه إلى «دافيد»، ثم هو من هواة مطبخ راق، وقد نقل عنه «كريستوفر» هوايَته وحَوَّلها إلى مشروع ناجح.

سألنى «أيان جيلمور» ثلاثة أسئلة:

ـ «هل تستطيع أن تُفَسِّر لى الصمت العربى عما تقوم به إسرائيل فى الأراضى التى تحتلها؟»

قلت: «لا؟» (باختصار، ولم أزد).

ـ «هل هناك طرَف عربى أو دولة عربية لديها تَصَوُّر معقول وعادل لإمكانية حل؟»

قلت: «لا؟» (باختصار، ولم أزد).

ـ هل تنوى مقابلة أحد من المسئولين فى لندن هذه المرة؟

قلت: «لا».

ولم يتركها «أيان» باختصار أو بدون زيادة، وإنما سألنى: «لماذا؟ ـ عندك بالتأكيد كثيرٌ يَصح أن يسمعوه. أخشى أنهم لا يعرفون ما هو كاف عما يجرى فى المنطقة. هُم يفهمون أكثر من الأمريكان بالطبع. لكنكم تتركونهم للأمريكان ولإسرائيل».

قلت: «لدىَّ مائة سَبَب تُحَرِّضنى على أن لا أطلب مقابلة أحد من الرسميين ـ فيها سَبَب يَجُبُّ غيره من الأسباب، وهو أننى أراهم جميعاً مشغولين فى الانتخابات القادمة، وكل من أريد مقابلته مُنهمك فى تحضير دائرته، وقد قرأت أن «تونى بلير» طلب من وزرائه أن لا يجلسوا فى مكاتبهم أو يناموا فى بيوتهم، وإنما أن يبقوا وسط الناس فى دوائرهم باستمرار.

فى تقديره وتقدير الكل أن نجاح «العُمال» أو فشلهم فى الانتخابات مسألة مفروغ منها ومحسومة، وبالتالى فإن معيار النجاح أصبح مُعَلّقاً بحجم المشاركة فى الانتخابات، خصوصاً أن «تونى بلير» يريد حضوراً كثيفاً يُؤيِّده ليكون منه مَدخلُه إلى الاستفتاء على انضمام بريطانيا إلى العُملة الأوروبية الموَحّدة (اليورو)، وتلك ضرورة مُلحّة لم يَعُد فى مَقدور بريطانيا أن تتأخّر عنَها».

....

....

[ظهَرَ فيما بعد أن نسبة الحضور لم تكن كما تَمَنَّى «تونى بلير». لم تَزد على ٦٠٪ وهى أدنى نسبة مُشارَكة ديمقراطية فى الانتخابات منذ انتهت الحرب العالمية الثانية ـ أى منذ أكثر من نصف قرن].

....

....

لم يقتنع «أيان» بما قلته، ورأيه أنه برغم كل الشواغل فإن اللقاء مع «بعضهم» لا يمكن إلا أن يكون مفيداً للطرفين.

قلت له «أننى متنازل عن حقى فى الفائدة»؟

نظر إلىّ باستغراب مُضيفاً أنه لا يفهمنى؟

قلت له «أنه برغم معرفته الوثيقة بالعالم العربى لا يَعرف مناخه الآن.

أحواله لسوء الحظ مُتَرَدِّية، وأسوأ من تَرَدِّيها فى حَدّ ذاته ـ ما يحيط بهذه الأحوال من أجواء ومُلابسات.

ومن ذلك مثلاً أن أى مُهتَم بالشأن العام يَجد نفسه أسير مأزق مُزعج سواء كان داخل وَطَنه أو خارجه.

ـ داخل وطنه يجد نفسه حائراً بين الكلام وبين الصمت. يسأل نفسه إذا كان الكلام مُجدياً، مع يقينه بأن الصمت لا أخلاقى؟

ـ فى الخارج تنعكس الآية: الصمت يكون غليظاً لأن الحقائق ظاهرة ـ لكن الكلام يمكن أن يكون ثقيلاً حتى بدواعى الكبرياء!»

قلتُ لـ «أيان جيلمور»:

«أظن أن كثيرين ـ أجد نفسى بينهم ـ يَشعرون بالمأزق، ومع ذلك يُحاولون:

ـ فى الداخل يرون أن الكلام يَجوز حتى وإن تضاءل الأمَل.

ـ وفى الخارج يَرون أن الكلام لا يجوز حتى وإن كانت حقائق ما يجرى على رؤوس الأشهاد.

صورة «الدرة» ومثيلاتها
من الصور زادت تعاطف الرأى
العام فى أوروبا من ثلاثين إلى خمسين
فى المائة، وفى الولايات المتحدة من واحد
إلى عشرة فى المائة.
لكن ما جاء بعدها من صور
يوشك أن يمحو أثرها!

هناك مسألة كرامة لأوطان ولمواطنين ـ لكن ممارسة هذا النوع من الكرامة مَسألة حساسة، لأن من تتحدث إليهم ـ من الرسميين وغير الرسميين ـ يعرفون، وتكتشف أنك لا تستطيع أن تُدارى، لكنك قبل ذلك تكتشف أنك غير قادر على البوح!

ثم يكون الحل «اللائق» تفادى الكلام أصلاً: سؤالاً وجواباً. ذلك لأننا حين نتكلم مع أصدقائنا فى الخارج ـ رسميين وغير رسميين ـ نسأل ويجيبون، ويسألون ونجيب، فإذا لم نكن نريد أن نجيب فأفضل الصمت أن لا ندع للكلام مناسبة من الأصل والأساس!»

ولم ييأس «أيان» وإنما قال:

«هل هذا يتعارض مع ضرورة أن تتحدث هناك عن أشياء يجب أن يفعلوها؟»

قلتُ: «وإذا أجابنى أحدهم سائلاً لماذا لا تفعلون ذلك أنتم قبل أن تدعوا غيركم إليه؟ ـ ماذا أقول؟»

سكت «أيان جيلمور» يفكر ـ وغَيَّرتُ الموضوع!

هنأت «أيان» على خطاب بعث به لجريدة «الإندبندنت» وانتقد فيه بشدة «أيان بلاك» صاحب دار «التلجراف» لاتهامه أحد كُتّاب إحدى جرائده («الاسبكتاتور») بالعداء للسامية.

قال لى «أيان»: «تتذكَّر .. كانت مجلة الاسبكتاتور فى يوم من الأيام ملكى، وكنت مُولعاً بالعَمَل فيها ـ ولسوء الحظ بِعتُها، ثم «تبادَلَتها الأيدى» حتى وَصَلَت إلى «كونراد بلاك» ـ «كونراد بلاك» ليس يهودياً، ولكنه صهيونى .. أكثر صهيونية من أى رَجُل عَرَفته».

سألتُ «أيان» إذا كان ذلك تأثير زوجته «آمييل».

....

....

[وهى كاتبة يهودية كانت تكتب من قبل فى «الصنداى تيمس»، وهناك التقيتها مرة واحدة أثارت فيها دهشتى. كانت جميلة وجريئة، وأتذكر أننى قلتُ لرئيسها وهو وقتها «فرانك جايلز»: «هذه السيدة تعمل فى الصحافة محطة، وليس نقطة وصول نهائية». ووافق على رأيى. وبعد سنوات وَقَع «كونراد بلاك» الذى اشترى مؤسسة «التلجراف» فى غرامها، وطلَّق من أجلها زوجته الكَنَدية وتَزَوّج منها، وأكثر من ذلك جَعَلها رئيسة تحرير لإحدى جرائده.]

....

....

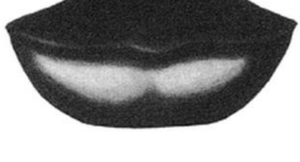
سألتُ «أيان»: «ما الذى جرى للصحافة البريطانية حتى أصبح مُلاكها جميعاً من الأجانب؟

مجموعة «التيمس» يملكها «مردوخ» (أسترالى)

مجموعة «التلجراف» يملكها «بلاك» (كَنَدى)

مجموعة «الميرور» كانت ملكاً لـ «ماكسويل» (مُهاجر من تشيكوسلوفاكيا القديمة)

دار «ويندنفيلد» للنشر يملكها «ويندنفيلد» (مُهاجر من المجَر)».



قال «أيان»: «الإندبندنت هي الجريدة البريطانية الوحيدة الآن».

قلتُ: «إنني غير متأكد لأن «إيفلين روتشيلد» مُساهم فيها».

قال «أيان»: «لكن إيفلين إنجليزي».

قلتُ: «إن اسم «روتشيلد» وحده جنسية مستقلة .. دولية؟!».

سألتُ «أيان» عن أحوال حزب المحافظين؟ - وكان ردُّه: «كما ترى».

سألته «إذا كان يشعر بشيء من الحنين - وشيء من النَّدم - لأيام كانت فيها «مارجريت ثاتشر» تقود الحزب من نجاح إلى نجاح في الانتخابات العامة - ثلاث مرات متوالية، وكانت المرة الرابعة في الطريق لولا أن عارضها أقطاب حزبها وضمنهم هو - «أيان جيلمور» نفسه، ثم ظلوا يضغطون عليها حتى دفعوها إلى الاستقالة من رئاسة الحزب ورئاسة الحكومة دامعة العينين كسيرة القلب؟!».

لم يُجب «أيان» مباشرة وإنما سألني هل رأيتها هذه المرة؟ - وأجبتُ بالنفي، وأضفتُ: «ولكني رأيتُ زوجها «دنيس ثاتشر» (وهو الآن أيضاً وبسبب زوجته أصبح «اللورد دنيس ثاتشر»)، كان أمامي على العشاء وقد حَسَدتُه على شهيته المفتوحة. بدأ طعامه بالكنتالوب (شمَّام)، ثم انتقل إلى الإسباجيتي، وبعدهما قطعة من سَمَك السلمون لا بأس بها، وخَتَمَ بفنجان قهوة معه عدة قطع من حلوى «الفريانديز». تابعتُه وهو يأكل وسألتُ نفسي بعد أن نظرتُ إلى ساعتي وتعَجَّبتُ كيف يستطيع رجل في سنِّه (٨٦ سنة) أن يأكل ذلك كله على العشاء وينام الليل؟».

يبدو أن فكر «أيان» كان يعمل لا يزال عند السؤال الأصلي الذي وَجَّهتُه له عن سقوط أو إسقاط «مارجريت ثاتشر» - وهكذا عاد يقول:

«مارجريت ثاتشر فقدَت صلتها بالواقع، وذلك هو الذي قضى عليها وليس تآمر عدد من وزرائها وأقطاب حزبها كما يحلو لها أن تظن. هي لم تَعُد تظن وإنما اقتناعها الآن كامل بأننا جميعاً أمسكنا بالخناجر وراء ظهورنا ثم انتهزنا لحظة غفلة منها وغرزنا الخناجر كلٌّ منا حيث طال. وذلك غير صحيح بالطبع. يُحب بعض الساسة أن يُصَوِّروا أنفسهم ضَحايا. ليس هناك سياسي قابل للاقتناع بأن زمانه انتهى، وأن عُمره الافتراضي انقضى، وأنه لم يَعُد قادراً على الاستيعاب والاستجابة».

استطرد «أيان» يقول:

«لاحظ أنني أعتقد أنها أقوى زعيم للمحافظين منذ أيام «تشرشل». هي امرأة قادرة، ولم يُخطئ ذلك الذي وصفها بالمرأة الحديدية - لكن حتى الحديد له عُمر افتراضي.

مارجريت أعطت الحزب دَفعة قوية. شَكَّلت وزارات للمحافظين من أحسن ما عَرَفته بريطانيا بعد الحرب. قامت بتحَوُّلات اقتصادية أساسية. أضافت بشخصيتها إلى السياسة البريطانية في زمانها مذاقاً خاصاً - لكن ليس هناك «سياسي إلى الأبد». السياسي الحقيقي رَجُل يعرف متى يجيء أوانه، ومتى تنتهي صلاحيته، وعليه أن يبتعد قبل أن تزيحه الضرورات، وذلك أذكى قرار يستطيع أي سياسي أن يتخذه. أي سياسي. أي مشتغل بالشأن العام. أي رَجُل أو امرأة يكون تقدير عمله وحجم سُلطته مرهوناً بقبول الناس، عليه أن يَعرف متى يغادر خشبة المسرح، وإلا فإنه سوف يغامر بموقف كوميدي يَصعَد فيه الجمهور إليه على المسرح، ويَحمله من يديه وقدميه ويلقيه بعيداً في الخارج. أكبر إهانة لرَجُل أو امرأة في ساحة الأداء العام - سياسة، ثقافة، فنّاً - أن ينتظر حتى يلقى به في العراء!».

سألني «أيان»: «هل قابلت «تيد» (يقصد «إدوارد هيث» رئيس وزراء المحافظين الأسبق والرجل الذي أعطى منصباً وزارياً أول مرة لـ«مارجريت ثاتشر»، وكانت تلك هي البداية التي تقدمت منها «مارجريت» من وزارة التعليم فأزاحَت «هيث» وأخذت رئاسة الحزب، ثم رئاسة الوزارة).

قلت: «سوف أقابل «تيد» غداً».

قال: «اسأله كما سألتني إذا كان آسفاً على أيام «مارجريت ثاتشر»؟».

قلت: «لا داعي لأن أسأله لأني أعرف رأيه، وهو لا يخفيه، بل إنه قاله لأحد ملوك السعودية (الملك «خالد»)».

....

[كان «هيث» يزور السعودية، وراح الملك خالد يُحَدِّثه عن نهضة المملكة في عهده بما فيها التوسع في تعليم البنات، وقاطعه رئيس وزراء بريطانيا السابق قائلاً له: «لماذا تعلمونهن؟ تعليم المرأة خطر .. الأفضل تركها حيث هي!» - ولم يُدرك الملك «خالد» أن «هيث» لا يتحدث عن المرأة السعودية، وإنما يتحدث عن المرأة الحديدية التي انتزعت منه رئاسة المحافظين ورئاسة الوزارة.]

....

حين يصبح المسئول عن المفاوضات بين الفلسطينيين والإسرائيليين هو مدير وكالة المخابرات المركزية الأمريكية «جورج تنت»، إذن فإن ألف جرس إنذار يجب أن تدق، وألف لمبة حمراء لابد أن تشتعل!

....

وقلت لـ«أيان»: «سوف أسأل «هيث» عن «هيج» رئيس الحزب الحالي الذي يقوده الآن في معركة الانتخابات».

واغرق «أيان جيلمور» في الضحك - قائلاً:

«أعرف ما سوف يقوله لك «تيد» مقدماً عن «هيج» - سوف يقول لك إنه رَجُل قام بقفزة تَصَوَّر فيها أنه يملأ فراغاً في زعامة حزب المحافظين، وهو في الحقيقة لم يكن قادراً عليه. وفي النهاية فليس أمامه غير ما ينتظره عند نهاية قفزة أوسع من طاقته - الوقوع!».

....

[حَدَث ذلك فعلاً - وأعلن «هيج» استقالته من الحزب بعد ساعة واحدة من ظهور نتائج الانتخابات.]

....

سكت «أيان». واستطرد:

«حزب المحافظين في أزمة. إن العُمال سرقوا برامجه أو معظمها. «توني بلير» أعطى وجهاً اشتراكياً مُستعاراً من تاريخ حزب العُمال - لسياسة ليبرالية صاحبها حزب المحافظين، ثم قدَّم هذا المزيج السحري إلى الناخب البريطاني باعتباره «مَطلَب عُصور جديدة».

....

[أظنها ظاهرة عالمية جديدة تَخُطُّ مَجرى للسياسات يَلتزم الوَسَط. وفي الغالب يسار الوَسَط. والأرجح أنه التأثير المباشر لتكنولوجيا الإنتاج وتكنولوجيا المعلومات.. والظاهرة في كل الأحوال تستحق المتابعة - وهي في العالم الثالث تحتاج مع المتابعة إلى شيء من المراجعة!]

....

واصَلَ «أيان»:

«نحن (حزب المحافظين) لم نستطع مجاراة متغيرات العصور. مارجريت في البداية استطاعت، لكنها اندفعت إلى بعيد مُعتمدة على شخصيتها أكثر من اعتمادها على فكرة وبرنامج وحركة تُقيم وتُجَدِّد حزباً سياسياً. أظنها كذلك بطول بقائها أضاعت الفرصة على غيرها كانوا يصلحون، لكنها لم تفسح لهم الطريق».

قلت: «لم أجد أحداً فاتته فرصة رئاسة المحافظين ورئاسة الوزارة مع طول فترة ما بعد الحرب العالمية غير «أنتوني ناتنج» (الذي اختلف مع «إيدن» واستقال إبان أزمة السويس سنة ١٩٥٦).

تمتم «أيان» وهو يهز رأسه بقوله: «لا أعرف».



أيـــــام ولـيـــــــال فى لـنـــــدن

قلت: «كثيرون من المحافظين يقولون أن «بتلر» ضاعت منه الفرصة لأن «ماكميلان» عندما قدّم استقالته اقترح على الملكة أن تستدعى اللورد «هيوم» لرئاسة الوزارة رغم أن «بتلر» أقدم منه - وكان أصلح. لست متأكداً أن «بتلر» فاتته الفرصة. فى حزب العمال كثيرون أظن أن الفرصة ضاعت منهم. فى ذاكرتى ثلاثة رجال أو أربعة ظننتُ أن زعامة حزبهم ورئاسة الوزارة فى انتظارهم، لكن ظنى لم يتحقق».

عددتهم له: «جورج براون»، و«دنيس هيلى»، و«روى جينكينز»، و«دافيد أوين».

علق «أيان»: «جورج براون كان على وشك، لكن إدمانه على الشراب ضيّع فرصته ومكّن «ويلسون» من الإجهاز عليه..

«دنيس هيلى» كان يمكن أن يكون رئيساً ممتازاً للوزراء، لكن عدداً من زملائه كانوا يخشون قوّته، وذهبت أصواتهم إلى «جيم كالاهان» الذى بدا لهم طبعاً أكثر من «هيلى».

«روى جينكينز».. لا أعرف. «روى» مثقف، والمثقف مع السلطة مشكلة. هو مشكلة للسلطة والسلطة مشكلة له.

«دافيد أوين» لم تكن لديه تلك الجذور أو القواعد فى الحزب .. هو طارئ جديد على حزب العمال فى وزارة «كالاهان»، وكان الذى قدمه لرئيس الوزراء هو زوج ابنته «بيتر جاى»، وأعجب به «كالاهان» وعيّنه (وهو الطبيب أصلاً) وزيراً للخارجية مرة واحدة».

سكتُّ قليلاً ثم قلتُ لـ«أيان»:

«لاحظتُ هذه المرة فى الحملة الانتخابية لـ«تونى بلير» أنها تدور على نقطة «الهوية» البريطانية.

نفس الموضوع تبناه «هيج» لكنه حوّله إلى عنصرية على طريقة الزعيم المحافظ القديم «إينوك باول» الذى طالب بطرد كل الملوّنين من بريطانيا لكى تحتفظ الجزر بنقائها العنصرى.

لفت نظرى موضوع «الهوية» كمسألة مركزية فى الحملة الانتخابية هنا. عندنا هناك - فى العالم العربى - كثيرون «طقّ» فى رأسهم أن «العولمة» تقتضى الاستغناء عن «هوية».

أضفتُ:

«قليلاً ما نعرف - كثيراً ما نتكلم».

وكان فكرى قد ذهب بعيداً إلى العالم العربى. ■

٤

أساطير صحفية وفنية وسط الريف البريطانى!

«السبت»

■ ■ موعد لقضاء نهاية الأسبوع فى بيت «أندرو نايت». «أندرو» قصة صعود مذهل - صاروخى - فى الصحافة البريطانية. جاء إلى لندن من نيوزيلندا حيث كان والده يعمل. تعلّم «أندرو» فى «أوكسفورد»، واتجه إلى الصحافة، وأصبح مراسلاً لجريدة «الإيكونوميست» الشهيرة فى نيويورك، ثم فى بروكسل عندما أصبحت عاصمة بلجيكا - عاصمة للسوق الأوروبية كلها. وبعد ثلاث سنوات فى بروكسل استدعى «أندرو» للعمل فى المقرّ الرئيسى لـ«الإيكونوميست» على حافة طريق «هوايتهول» فى قلب لندن. بعد خمس سنوات أصبح «أندرو» رئيساً لتحرير المجلة الاقتصادية الأشهر فى أوروبا كلها، وفيها حقق مجده الصحفى خلال إحدى عشرة سنة قضاها على رأس «الإيكونوميست». ثم بدا لكل الناس - إلا لـ«أندرو» نفسه - أن طاقته أصبحت أكبر من منصبه الحالى، وأنه إذا لم يجد فرصة جديدة فإن منصبه الحالى سوف يتحوّل إلى قفص يحبسه.

□

على مائدة الإفطار فى فندق «كلاريدج» ذات صباح - ومعنا صديق مصرى ولى له كان هو داعينا - سألنى «تاينى رولاند» المليونير البريطانى الشهير الذى مات بحسرة عجزه عن استرداد محلات «هارودز» (وكان قد باع نصيباً منها إلى المليونير المصرى «محمد فايد» مع تفاهم بينهما - كما قال «تاينى» - أن تعود إليه عندما يُسوّى أموره فى إدارة الشركات البريطانية - لكن ذلك التفاهم انكفأ على وجهه ووقع على الأرض - وتلك حكاية أخرى). سألنى «تاينى رولاند» عما إذا كنت أظن أن «أندرو نايت» مستعدٌ للعمل معه رئيساً لتحرير جريدة «الأوبزرفر» التى اشتراها هو قبل شهور وتُقلقه أحوالها لأن رئيس تحريرها («تريلفورد») غير قادر على تطويرها بما يوقف خسائرها رغم سمعتها العريقة؟

وأضاف «تاينى رولاند»: «إنه يعرف أن «أندرو نايت» صديق مقرّب لى، فهل أستطيع مفاتحته؟»

وقلتُ لـ«تاينى رولاند» ما مؤداه «أننى لست الشخص المناسب لمفاتحة «أندرو نايت» لأنى إذا فاتحته سألنى عن رأيى، وإذا سألنى فسوف أقول له إن بقاءه فى «الإيكونوميست» أفضل له!»

وضاقت عينا «تاينى رولاند» وهو ينظر إلىّ محاولاً استقراء دلالة ما قلته، ويسألنى: «هل ذلك رأىٌ فى «الأوبزرفر» أو رأىٌ فىّ شخصياً؟»

وقلتُ بصدق: «بل هو رأىٌ فى «أندرو نايت» نفسه». ثم أضفتُ محاولاً أن لا أسبب حرجاً لأحد: «لا أخفى عليك أن بى خشية من رأس المال على الصحافة. تزعجنى دائماً ملكية رجل فرد لجريدة كبرى - مع أننى لا أومن بتأميم الصحف، ولا تأميم الإعلام بصفة عامة - والحقيقة أننى أحس بالحاجة إلى صيغة أخرى لملكية هذه الوسائل الخطيرة والخطرة على الأفكار والناس والأوطان فى أحوال وطنية وعالمية لا تظهر لها حدود أو ضوابط. ولأنى أقدّر كفاءات «أندرو» فإننى أفضّل أن يتجنّب التجربة .. الإيكونوميست كما تعرف شركة مساهمة وليست ملكية فرد - المساهم الأكبر فيها شركة «بيرسون» - شركة أيضاً».

□

وافقنى «أندرو نايت» تماماً عندما عرف بما دار بينى وبين «تاينى رولاند» من حوار. على أنه لم تمض شهور حتى كان «أندرو» قد ترك «الإيكونوميست» إلى «التلجراف» وسط موقعة دوّت أصداؤها فى الصحافة البريطانية كلها.

كان «أندرو» صديقاً لـ«كونراد بلاك» صاحب مجموعة الصحف الكندية الكبرى، وكان «كونراد» يطمح إلى تواجد فى لندن بمثل ما فعل «روى طومسون» (مليونير كندى) قبله حين استطاع شراء «التيمس» و«الصنداى تيمس». وتمكن «أندرو» من إتمام الصفقة عارفاً أن اللورد «مايكل هارتويل» آخر البارونات من أسرة «برى» يريد أن يبيع. وكان أن «بلاك» اشترى مجموعة «التلجراف»، وأصبح «أندرو نايت» بعدها رئيساً للتحرير العام لهذه المجموعة الصحفية الكبرى.

كان «بلاك» حتى ذلك الوقت يعيش فى كندا رغم ملكيته لمجموعة من أكبر الصحف البريطانية وأعرقها - وكان «أندرو نايت» مفوّضه العام. وأعاد «أندرو» تنظيم «التلجراف»، ومع أن أرباحها حين قام على مسئوليتها كانت معقولة (٣٦ مليون جنيه إسترلينى سنة الشراء) فإن «أندرو» دفع بالأرباح عن طريق إعادة التنظيم فى التحرير والتوزيع والإعلان بما رفع الأرباح فى ظرف ثلاث سنوات (٢٧٠ مليون جنيه إسترلينى).

وإزاء هذا النجاح الساحق قرّر «كونراد بلاك» أن الفرصة حانت لنقل «عاصمته» إلى لندن، وكان أن أدرك «أندرو نايت» أن دولته المستقلة فى «التلجراف» ولى زمنها، لأن مجيء صاحب الجريدة للجلوس والعمل من مقرّها سوف ينزع عنها صفتها المؤسسية ويؤكد ملكيتها الفردية (كذلك قال لى «أندرو» بنفسه) - والنتيجة أن «أندرو» سوّى أموره مع «كونراد بلاك» وخرج من «التلجراف» ومعه حصة نصيب فى الأرباح (متفق عليها) بلغت خمسة عشر مليون جنيه إسترلينى.

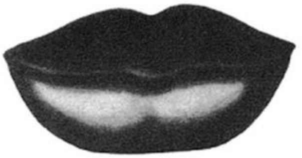
□

المدهش أن «أندرو» كرّر نفس التجربة تقريباً مع «روبرت مردوخ»، فقد خرج من «التلجراف» إلى «التيمس»، ثم تركها بعد ست سنوات ومعه نصيب أرباح بلغ ثمانية عشر مليون جنيه إسترلينى.

وفاجأنى «أندرو» حين جاء إلى مصر يقضى أياماً معنا فى الغردقة، عندما أبلغنى فى اليوم الأخير من زيارته أنه «قرّر ترك التيمس»، مضيفاً أن «رأيه مثل رأيى» بعد التجربة العملية، فهو الآن مقتنع بأن الملكية الفردية للصحف قضية معقّدة لم يعثر أحد على حلٍّ لها حتى الآن. وعلى أى حال فقد اتخذ قراره بأن يترك «التيمس». وسألته «إلى أين؟» وأدهشنى حين قال: «إلى مزرعة سوف أشتريها فى الريف الإنجليزى»!

ولم تمض غير شهور حتى تلقيت من «أندرو» أنه اشترى البيت الريفى الذى حلم به طول عمره، وهو وسط مزرعة فى مقاطعة «ووركشير»، وتلك أحلى منطقة من قلب الريف البريطانى وهى منطقة «كوت فولد». البيت فيها بناه سيّد إنجليزى من القرن الثامن عشر، وتوارثته أسرته، ثم تغيّرت الظروف وعرضته للبيع. وبعث إلىّ «أندرو» بصوّر وتفاصيل عن «بيت الأحلام»، فهو واقع على تلٍّ عال أخضر وسط ستمائة هكتار (حوالى ألف وخمسمائة فدان)، وفى وسط الأرض نهر صغير يتدفق من أعلى إلى واد تمتد بعده المروج إلى مدى البصر. وتحوّل «أندرو» إلى شاعر وهو يكتب لى عن بيته الجديد فى الريف، ولاحظت أن الخطاب نفسه ورق مطبوع باسم المزرعة مع رسم لخطوط البيت.

وبدا لى البيت أساساً بديعاً - حسب ما قرأت ورأيت من الخطابات والرسوم - لكنه كان يحتاج إلى عملية تجديد شاملة لغرف النوم وحماماتها، وصالونات الاستقبال والمعيشة وأثاثها، لأن «أندرو» يريد غرفة مدفأة، ويريد المدفأة بعرض ستة أمتار، كما أنه يريد حمّام سباحة نصفه مغطى ونصفه مفتوح، ويريد ملعب تنس، ويريد ويريد ..



تجديدات سوف تزيد تكاليفها على ثلاثة ملايين جنيه إسترليني.

كانت صديقته التي تقدم لخطبتها «مريتا»، سليلة أسرة من أعرق الأسر البريطانية، وشقيقتها هي «دوقة وستمنستر» وزوجها ليس عريق النسَب واللقب فحسب وإنما هو أغنى رَجُل في بريطانيا لأنه يملك أكبر دائرة عقار في قلب لندن، وهي تحمل اسم أسرته ولقبها الموروث (وستمنستر).

كان «أندرو» قد طلَّق زوجتين سابقتين، وكانت «مريتا» متزوجة من قبل «أندرو» لكن زوجها مات في حادث طائرة تاركاً لها ثلاثة أطفال، ولم تكن لديها مشكلة غير شجَن خلَّفته الأحزان، وهكذا فإنها حين التقت بـ«أندرو» كان كلاهما مهيأ لحياة جديدة - لكنها ظلت لسنوات تعتذر عن يده الممدودة لطلب خطبتها. وأتذكر أنني تحدثت إليها مرة في علاقتها بـ«أندرو» وكان ردها: «أن أندرو إنسان يستحق كل خير، وأنها بالفعل بدأت تنشغل به، لكنها تشعر أن زوجها الراحل ما زال يسكن قلبها، وهنا فهي لا تستطيع أن تقف على مَذبَح الكنيسة يوم عَقد القران وتُقسم يَمين الولاء في السرَّاء والضرَّاء لرَجُل دون أن تتأكد أن قلبها أصبح حُراً من رباط الماضي».

وكان على «أندرو» أن ينتظر قبولها لعرضه بالزواج، وقد ظلت تمانع رغم أنها تَوَلَّت أمر تجديد البيت الريفي الذي اشتراه، وأكثر من ذلك أخَذت أطفالها الثلاثة وذهبت للحياة فيه «لأن ذلك البيت على الربوة في «الكوت فولد» خطف خَيالها من بيت أسرتها القديم وسط اسكتلندا وحملها جنوباً إلى وسط إنجلترا»!

وكنت رأيت البيت والمزرعة مرة وسط عملية إعادة البناء والترتيب. فقد عرف «أندرو» - مرة أثناء زيارة قُمتُ بها لإنجلترا - أنني ذاهب لعطلة نهاية الأسبوع في مدينة «باث»، واقترح أن أمُرَّ عليه في «مَوطنه الجديد» وهو قريب من «باث».

لكنها هذه المرة ليست دعوة غداء، وإنما هي دعوة قضاء عطلة نهاية الأسبوع!

وذهبنا وفي حسباني أنها ليلة في الريف البريطاني. فنجان من الشاي بعد الوصول عصر السبت. نصف ساعة أو أكثر من المشي وسط الوديان والمروج. قبل أن ينزل المساء سوف نَذهَب إلى القرية العتيقة القريبة نستكشف معالمها ومعظمها مما بُني في القرن الخامس عشر والقرن السادس عشر. وعندما ينزل المساء سوف نعود إلى البيت. وعندما نعود فإن «مريتا» و«أندرو» سوف يأخذاننا إلى جولة في غرف البيت (القصر في الواقع) - وبعدها عشاء خفيف مع صوت موسيقى (كنت واثقاً أنه سيكون لـ«جون فيلدز» الذي اكتشفته لأول مرة عن طريق «أندرو» و«مريتا») - ثم النوم بالتأكيد قبل العاشرة.

فوجئت بأن ما تَوقَّعتُه لم يَحصل، وإنما حَصل ما لم أكن أتوَقَّع.

كنت أعرف - من قبل - أن «مريتا» تتملَّكها فكرة أن تكتب مسرحية غنائية عن الشاعر الروسي العبقري «بوشكين»، لأنها تعتقد في شبه يقين بأن عروقها تحمل بعضاً من دَم ذلك الشاعر، وأن ذلك الدَم وَصَلَ إليها عن طريق جدَّة لها هامَت به حُباً أثناء زيارة قامت بها في شبابها للعاصمة الروسية القيصرية «سان بيترسبورج». وكان اعتقاد «مريتا» أنه حتى إذا لم تكن دماء «بوشكين» في عروقها بقوة الطبيعة فإن هذه الدماء موجودة في عروقها بقوة العاطفة التي تحس بها إزاء «شاعرها» الذي تقوم وتنام معه (على حَدِّ تعبيرها).

وكانت «مريتا» قد كتبت لنا مرة تقول أنها أعطت نصوصاً مما كتبته إلى موسيقي روسي يُلحِّنها. وفي خطابها أبدَت دهشتها وتفاؤلها من أن الموسيقي الذي رَشحوه لها كان من «سان بيترسبورج» (ستالينجراد طول فترة الحكم الشيوعي) - اسمه «تشايكوفسكي» (على اسم العبقري الأشهر).

وهذه المرة عندما وصلنا إلى مزرعة «سكوربي» (مزرعة «أندرو» وبيته الريفي) وجلسنا إلى فنجان الشاي التقليدي بعد الوصول، كان أول ما قالته لنا «مريتا»: «هل تعرف من سيكون معنا على العشاء الليلة؟ «تشايكوفسكي» الموسيقي الروسي الذي يقوم على تلحين المسرحية الغنائية التي كتبتها عن «بوشكين» وأتشَوَّق إلى أن أراها حَيَّة ذات يوم على خَشَبة مَسرَح. جاء «تشايكوفسكي» إلى هنا بالأمس، واليوم ذهب إلى لندن ليرى صديقة له عازفة «كمان» جاءت مع فرقة «كيروف» للباليه التي تزور العاصمة البريطانية لمدة شهر تقدم فيه بعض عروضها. «تشايكوفسكي» قادم قبل العشاء».

تأخر «تشايكوفسكي» عن موعد العشاء ربع ساعة، وجاء، ولكنه جاء ومعه صديقته «أولجا» عازفة الكمان التي اعتذرت ليلتها عن العمل مع فرقة «كيروف». وكان «تشايكوفسكي» يحمل معه اقتراحا مثيراً. فقد فرَغ من تلحين فصل كامل من الرواية الغنائية التي أعطتها له «مريتا» قبل شهور، وهو يَقترح أن يَعرض ألحانه الليلة على صاحبة الرواية، وسوف يجلس إلى البيانو وصديقته «أولجا» إلى جواره وفي حضنها الكمان. وكانت «مريتا» مأخوذة بما سمعت، وحماستها تَتحَوَّل إلى شعلة لهب.

ومضى العشاء بسرعة لم يستغرق غير دقائق، وانتقلنا جميعاً إلى قاعة الاستقبال الرئيسية والمدفأة فيها بعرض ستة أمتار، والضوء حَنون على ألوان الأثاث العتيق، واللوحات اختيار بَديع، وهي تُغطِّي الجدران بين الستائر نصف المسدَلة على النوافذ، ومن الستائر نصف المفتوحة تظهر أضواء الحديقة، وكذلك تلوح من بَعيد أضواء قرية تَقبَع على الناحية الأخرى من التلّ القريب.

وأمام البيانو جلس «تشايكوفسكي»، وبجواره جلست «أولجا» و«كمانها» بين يديها ووجهها، ووراء الاثنين وقفت «مريتا» وفي يدها النص الذي كتبته.

ثم انطلقت الأصوات والألحان والكلمات فيضاً. رُؤى ومَشاعر وخيالات امتزجت مع بعضها وذابَت.

كان عَدَد المشاهدين موازيا لعَدَد المؤدين. قرينتي وأنا - و«أندرو» - وأمامنا ثلاثة غيرنا معهم النص واللحن والأداء. والجو شبه أسطوري.

صباح اليوم التالي - الأحد - استيقظت مبكراً ونزلت إلى غرفة الإفطار تُحيط بها الحديقة، وجاءت مديرة البيت بوجهها الأحمر وشعرها الأبيض وملامح وجهها التي تشي بزمان جميل مضى، وعافية ما تزال حاضرة ومُتحَفِّزة، تسألني عما أريد - ولحق بي «أندرو» يأخذ لنفسه فنجاناً يملؤه بالقهوة ثم يسألني: «ما رأيك في اللحن الذي سمعناه أمس؟ «مريتا» كانت تريد أن تسمع رأيك تفصيلاً - لكن الوقت تأخَّر بنا كثيراً».

وسألته وهو لا ينتظر سؤالي بما مؤداه: «أندرو .. ماذا تنوي أن تفعل؟»

ورَدَّ باسماً: «سألتني هذا السؤال مرة وأجبتُ عليه، وما زالت إجابتي كما كانت عندما سألتني أول مرة: سوف أفعل ما أفعله الآن».

وسألته: «تعني أنك ستبقى هنا في «كوت فولد»؟»

قال: «هذا هو البيت الذي حلمت به، وقد تحقق حلمي. وأنا هنا أعمل عدة ساعات في الصباح أتابع فيها مَصالِحي - حتى أضمَن حَقي في أن أعيش عُمري»!

وسألته: «والمهنة؟»..

وقال: «هل تَتَصَوَّر أنني على استعداد لأن أذهب إلى مؤسسة صحفية وأبدأ من جديد؟ - لقد عملت بما يكفيني، ولا أجد منطقاً يقنعني بأن أترك حياتي هنا كما حلمت بها وحققتها لكي أذهب إلى لندن وأعود إلى «المهنة» كما تقول أنت».

واستطرد: «تعال معي بعد الإفطار، أريد أن أريك قطعة أرض جديدة اشتريتها لتوسيع المزرعة .. رَتِّب نفسك لصُعود تلٍّ عال .. مائتي متر تقريباً، لكنك من هناك سوف ترى مَشهد «بانوراما» تَخطف البصر»!

بعد الغداء كان علينا أن نعود إلى لندن. وركب «أندرو» معنا إلى باب المزرعة الخارجي على الطريق الرئيسي من «وريك» إلى «باث»، ثم نزل إلى سيارة جيب انتظرته ليعود بها.

والتفت إلى المشهد الذي تركته ورائي، وكانت المزرعة وبيت «سكوربي» العالي على التل وسطها، وسألتُ نفسي دون كلام: «هل يعقل أن يقرر أهم صحفي بريطاني ظهر في الثمانينات والتسعينات بسرعة صاروخ أن يعتزل ووراءه سجِلٌ هائل - وناجح بكل المعايير؟ - لستُ مُتأكداً لأني في ظروف سابقة لَمَحتُ وأحسَستُ بجذوة النار المقَدَّسة في قلبه، ولولا هذه الجذوة لما نجح إلى هذا المقدار - فهل يَقدر على البعاد والفراق؟

طول الطريق إلى لندن كان «أندرو» في خواطري - أسأل نفسي هل وَجَدَ «سَعادَته النهائية» كما يقول، أم أن «السَعادة الحقيقية» سوف تُناديه مرة أخرى إلى مَوقع آخر؟

طرأت على فكري مَقولة أتذكَّرها لفيلسوف (أظنه «باسكال»): «السَعادة مثل الكرة، نجري إليها، فإذا وَصلنا رَكَلناها بأقدامنا إلى بَعيد، ثم عُدنا نَلهَث وراءها حتى نَلحقها، ثم نَركلها من جديد». هل تَوَقَّف «أندرو» عن اللعب؟.. وَصَلَ إلى الكرة في مَلعَب الطموح الكبير ثم قَرَّرَ أن السَعادة في التَوَقُّف. يمسك بالكرة في يَده - ولا يَركلها بقَدَمه!! - وإذا كان ذلك فما هي اللعبة إذن؟

- لستُ واثقاً!؟

أي مهتم بالشأن العام
يجد نفسه أسير مأزق مزعج
سواء كان داخل وطنه أو خارجه،
يجد نفسه حائرا بين الكلام وبين الصمت.
يسأل نفسه إذا كان الكلام
مجديا، مع يقينه بأن
الصمت لا أخلاقي

"٥"

كـتـب وخـرائـط ورحـالة وملـوك!

« الاثـنـين »

ذهبتُ لأشترى ربطات عنق، لكنى فى منتصف الطريق نسيت مقصدى.

مشيت من فندق «كلاريدج» فى شارع «بروك» ـ متَّجهاً نحو «بوند ستريت» وفيه مجموعة من أشهر المحلات، ورُحتُ أتطلع إلى بعض واجهات العرض على مَهل. ولمحتُ على الجانب الأيسر من الطريق لوحة شَدَّتنى إليها كعادتها، وعَبَرتُ الشارع فى منتصفه قاصداً إليها ـ دار «سوذبى» الشهيرة للمَزادات، وهى متخصصة فى أشياء نادرة: من تُحَف تُنتمى إلى كل العصور والمعادن والمدارس ـ إلى الأثاث المنسوب لعصوره الملكية والإمبراطورية، وحتى الاستعمارية ـ إلى الخرائط والكتُب القديمة ـ تلك التى لا بد أن يكون عمرها قرناً أو قرب القرن على الأقل ـ ثم أن تكون بالشرط طبعة أولى وليست تكراراً من طبعات.

والتُحَف والأثاث ليست شواغلى. ولكن الخرائط القديمة والكتب المطبوعة قبل قرن أو قرون مَضَت لم يبطل سحرها علىَّ!

وفى الحقيقة فأنا أتوقى هذا النوع من المعارض وصالات المزادات . لكن صالات دور من وَزن «سوذبى» و«كريستى» مسألة أخرى لأن الكتُب والخرائط عندها، وأصحاب المجموعات النادرة لا يبيعون ما عندهم إلا هناك.

بين أسباب التَرَدُّد أننى أعرف ـ مما أقرأ ـ أن ذلك سوق «ملعوب فيه» ـ فالمعروضات فى هذه الدور بالطبيعة نادرة، ثم إن توافرها ليس حركة سوق عادية تُلَبِّى طلبات الراغبين بانتظام مُنتَج مَوصول بالسوق، وإنما الحركة مُعظمها مُصادَفات حتى وإن حاولَت هذه الدور («سوذبى» و«كريستى» وغيرهما) أن تتحكم فى المصادفات بإدارتها عن طَريق ترتيب المواقيت والمواسم ـ بظن أن ذلك يتيح نوعاً من «التحكُم» أو «التلاعُب» فى الأسعار ـ وهو صحيح. وكانت الشكوك فى «التحكُم» و«التلاعُب» تُطارد الدارين الشهيرتين («سوذبى» و«كريستى» معاً) وحاوَلَت كلتاهما أن تَرُدُّ الشكوك بمظلات وواجهات من «الاحترام» تضعها على رأسها أو تحتمى وراءها.

وفى وقت من الأوقات نجَحَت دار «كريستى» حين عَرضَت على اللورد «بيتر كارينجتون» نائب رئيس حزب المحافظين ووزير الخارجية السابق، وقريبٌ للملكة مسموح له بوضع التاج على أوراق مراسلاته الخاصة ـ أن يرأس مجلس إدارتها.

....

....

[تذكرتُ أننى فى ذلك الوقت ـ قبل أكثر من عشرة أعوام ـ سألتُ اللورد «كارينجتون» لماذا قبَل؟ ـ وكان رَدُّه: «ذلك مجالٌ أعرف شيئاً عنه، وأحبه ـ هذا سَبَب. وسَبَب آخر أنه يتعين علىَّ أن أجد عملا يجيئنى منه إيراد منظم».

ذكرنى رَدُّ «بيتر كارينجتون» بـرَدٌ من نوعٍ آخر على سؤال وَجَّهتُه إلى «جورج براون» نائب رئيس حزب العُمال ورئيس الوزراء السابق فى وزارة «هارولد ويلسون» ـ عندما خرج من الحُكم ثم قَبَلَ أن تُمنَحه الملكة لَقَب «لورد». وسألته وقتها: «كيف رَضيت وأنت الزعيم العمالى اليسارى أن تقبَل لقباً يُوحى ـ حتى باللفظ ـ أنك التحقت بالأرستقراطية؟!»

وكان رَدُّه: «لم أتخَل عن شىء، ولم ألتَحِق بشىء، لكنى أريد منبراً (منبر مجلس اللوردات) أتكلم من فوقه ليظل رأيى مسموعاً فى الساحة السياسية!»

ثم مضى «جورج براون» يقول: «لم أكن أريد لقباً ولكنى أردتُ منبراً. لقد «شختُ» بالنسبة لمجلس العموم ولم يعد فى مقدورى أن أذهب إلى دائرتى الانتخابية وأتابع أحوال أهلها وأخوض المعارك لأفوز بأصواتهم ـ وإذا كان ذلك فكيف أجد لنفسى منبراً أطلُ منه على الناس غير مجلس اللوردات؟»

وكذلك مفارقات الظروف:

أصحاب الألقاب يبحثون عن عَمَل ودخل..

وعامة الناس يبحثون عن منبر لا سَبيل إليه بغير لقب! (أو هكذا يقولون!)]

....

....

«بيتر كارينجتون» بالفعل كان رَجُلاً مُحتَرَماً، لكنه لم يبق مع «كريستى» غير أربع سنوات، ثم انسحب من رئاسة مجلس إدارتها. وكان ذلك من حُسن حظه لأن هناك ـ هذه الأيام ـ تحقيقات مع كل من رئيس مجلس إدارة «سوذبى»: السير «أنتونى تنانت»، ورئيس مجلس إدارة «كريستى»: «آل توبمان» (وهو أمريكى متزوج من ملكة جمال سابقة لإسرائيل اسمها «جودى»!) ـ والتُهَم الموَجَّهة إلى الاثنين هى «التعاون» أو «التواطؤ» على رفع الأسعار والعمولات ـ وهذه تُهَم توشك أن تُضَع الاثنين فى السجن!

□

كانت المصادفات موَفَّقة ذلك اليوم، فعندما عَبَرتُ رصيف «بوند ستريت» لمحتُ فى لوحة إعلانات «سوذبى» إشارة إلى مَزاد على خرائط قديمة فيها ما يعنينى من خرائط قديمة لمصر (وتلك بالذات هوايتى الوحيدة فى جمع الأشياء).

فى الإشارة التى لمحتها كانت هناك إضافة أخرى عن كُتُب قديمة، وعن «مجموعات أوراق» من الشرق الأدنى. ولم أستطع أن أقاوم، ودخلت.

دخلتُ أولاً قاعة العرض التى غطت الخرائط القديمة جدرانها ـ وبدأت بها ليس فقط لأنها «هواية»، ولكن أيضاً لأن أسعارها فى العادة معقولة.

فى ربع ساعة غطيت قاعة العرض كلها: خرائط مصر التى رأيتها لدَىَّ مثلها وأحسن منها، ولم تكن هناك فى القائمة ـ مما يَستحق الاهتمام ـ غير خريطة واحدة توقفتُ أمامها لبعض الوقت متأملاً ودارساً ـ كانت خريطة للعالم مطبوعة على الحجر سنة ١٦٤٨ ـ لكن سعرها التقديرى الذى وضع تحتها ليبدأ منه المزاد بدا لى عالياً: ما بين ٢٥ إلى ٣٥ ألف جنيه!

توجهتُ إلى القاعة التى تعرض الكتب القديمة المعروضة للبيع. استوقفنى بعضها. وأول ما استوقفنى كتاب مطبوع فى باريس سنة ١٨١٤ بعنوان «رحلات على بك العباسى»، وتصفحتُ الكتاب لأعرف أن ذلك اسم مُستعار لرحّالة أسبانى اسمه «باديا دومنجو» اتخذ لنفسه اسم «العباسى» وطاف بالعالم العربى، وسافر إلى الأراضى المقدسة فى مكة والمدينة، ورَسَمَ ووَصَف وسَجَّلَ ما رأى وسمع، ثم نشر كتابه فى أربعة أجزاء بالرسوم والخرائط.

لاحظتُ على الرفوف كتباً كثيرة قريبة شَبَه به، وجميعها تُشى بأنه على مساحة الزمن الممتد بين القرن السابع عشر والثامن عشر كان رَحّالة الغرب (إنجلترا، وفرنسا، وأسبانيا، وألمانيا) فى سياحة لا تتوقف إلى كل أرجاء العالم العربى، حتى تلك المحظورة عليهم وأولها مكة والمدينة. والظاهرة بالفعل لافتة يؤكدها مرة أخرى حجم الكتُب المعروضة.

أخذتُ ورقة ومَضَيتُ أدَوِّن عناوين بعض الكتُب، ولفتَ ذلك نظر السيدة المشرفة على قاعة العرض، وتصَوَّرَت بالطبع أننى مُتفرِّج مُهتم ومُشتَر مُحتمَل، فجاءت تُقَدِّم لى إيضاحات إضافية لعلها تثير وتغرى.

وقَدَّمَت لى نفسها باعتبارها المسئولة عن القاعة.

وسألتها إذا كنتُ أخطأتُ بأن أخذتُ كتاباً وفتحتُ غلافه؟ ـ وكان رَدُّها «أن تلك هى القاعدة المتَّبَعة عادة، بمعنى أن غلاف

لـيـس هـنـــاك
«سـيـاسى إلــى الأبـد».
السـياسى الحـقيـقى رجـل يعـرف
متى يجىء أوانه، ومتى تنتهى صلاحيته، وعليه أن
يبتعـد قبـل أن تزيحه الضـرورات،
وذلـك أذكى قـرار يسـتطيع
أى سـياسى أن يتخـذه

الكتاب وعنوانه فيهما الكفاية لأى زائر، لكنه عندما تتضح جدّية أحدهم فمن المعقول أن يُسمح له بالتأكد من «سلامة الأوراق»، و«تسلسُل الصفحات»، و«الحالة العامة للكتاب».

تطلّعَت السيدة إلىّ وقالت بأدب: «أظنك من الشرق الأدنى ـ أليس كذلك يا سيدى؟ وأظن أن لك اهتماما خاصاً بموضوعات هذه الكتُب؟».

ورَدَدتُ بأن «ما ظنّته صحيح فى المرتين: أننى من المنطقة، وأننى مُهتم بصفة خاصة».

وذهَبَت السيدة الكريمة فجاءت إلىّ بأوراق إضافية وبقلم أكثر سيولة إذ لاحَظَت أن القلم الذى أمسكه بين أصابعى قارَبَ الجفاف ولذلك يَتعَثر على الورق ويَتَعطّل. وأفضل من ذلك فإن السيدة ظلّت قريبة منى تتابع مَواقع تركيزى تَدُلُّ عليها وقفاتى الطويلة بين وقتٍ وآخر.

□

كانت وقفتى الأطول فى قاعة مجموعات الأوراق الخاصة، فهناك وَجَدتُ مجموعتين:

● الأولى تحت رقم ٢٠٦ ـ تحتوى على ١٨ خطاباً بخط يد «جون فيلبى» المستشار الشهير للملك «عبد العزيز آل سعود»، وكان فى الأصل ضابطاً سياسياً تابعاً لحكومة الهند كلف بأن يكون «مركز اتصال» بين حاكم الرياض والأحساء الوهابى: «عبد العزيز آل سعود» (قبل أن يصبح أميراً، ثم سلطاناً، ثم ملكاً) ـ والخطابات الثمانية عشر لم تُنشر من قبل ـ وكلها مكتوبة بخط اليد ومُوَجَّهة إلى السير «بيرسى كوكس» وهو المقيم البريطانى العام فى منطقة الخليج مكلفاً بهذه المسئولية من حكومة الهند وكان مَقره فى «البَصرة» ثم فى «بغداد» بعد دخول قوات الجنرال «مود» إليها ضمن وقائع الحرب العالمية الأولى (وفيما بعد وحين أصبح «عبد العزيز» سُلطاناً على «نجد» ثم على «الحجاز»، ثم ملكاً بتوحيد القطرين ـ ظَهَرَ «فيلبى» مستشاراً مُقَرّباً من الملك «عبد العزيز» ونجماً ظاهراً فى بلاطه).

● والمجموعة الثانية ـ ملف واحد فيه سبع أوراق، وهو قائم وحده على الهامش وكان من عَرَضَه يائسٌ من بَيعه، ولدهشتى فإن ذلك الملف كان يَحمل خطابات كلها بخط وتوقيع اللورد «كرومر»، وهو الرَّجل الذى كان حاكماً بأمره لمصر أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين مع بداية الاستعمار البريطانى لمصر. بل إنه ـ «كرومر» ـ كان الرَّجُل الأشهر، والأبعَد نفوذاً، والأكثر تأثيراً، فى قصة الاحتلال البريطانى على مدى سبعين عاماً لوادى النيل: شماله وجنوبه!

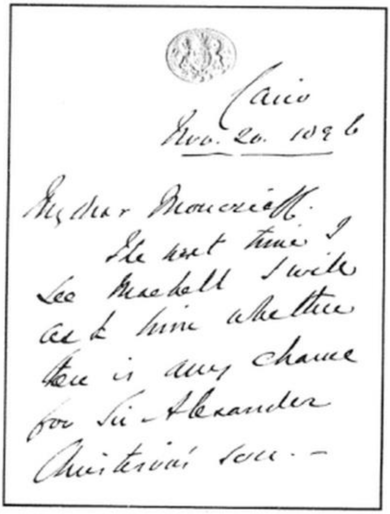
....

....

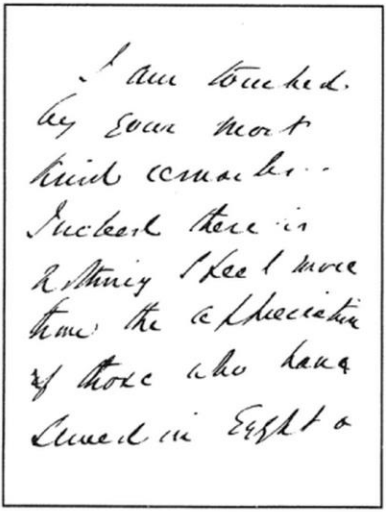
كانت السيدة المسئولة عن القاعة قريبة منى، والتفت أسألها «هل يمكن فتح الأوراق والاطلاع عليها ـ أو أن الأوراق غير الكُتب عليها قيود؟»

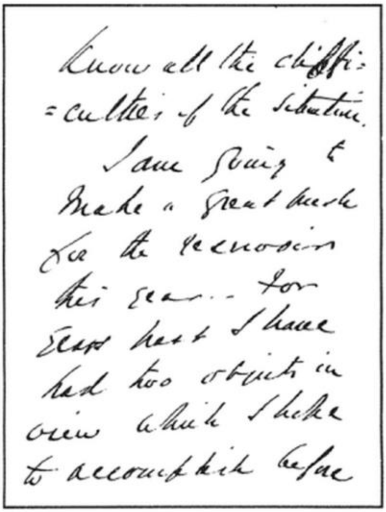
وقالت: «إن تلك بالضبط هى الحالة، لكننا نستطيع (وهى تُلمَح اهتمامى المتزايد) أن تضع الأوراق أمامى بنفسها، وأن تفتح لى باحتياط زائد بعض الصفحات أطل عليها دون لمس».

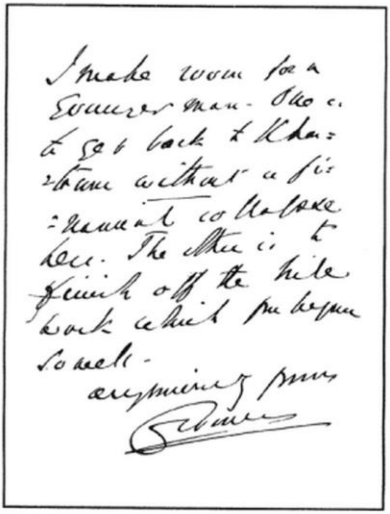
وأضافت: «تعرف يا سيدى أن كل هذه الأوراق هَشّة بسبب طول السنين، والذين كتبوها فعلوا ذلك على أى ورق وجدوه أمامهم، لم تكن لديهم الفرصة للبحث عن وَرَق يَقدر على مقاومة عوامل الزّمَن، ولو أننا تركنا مثل هذه الأوراق لكل مُهتَمٍّ بها


Cairo
Nov. 20. 1896

My dear Moncrieff:
The next time I see Maxwell I will ask him whether there is any chance for Sir Alexander Christison's son. —


I am touched by your most kind remarks. Indeed there is nothing I feel more than the appreciation of those who have served in Egypt &


know all the diffi-culties of the situation. I am going to make a great push for the reservoir this year. — For years past I have had two objects in view which I hope to accomplish before


I make room for a younger man. One is to get back to Khartoum without a fi-nancial collapse. The other is to finish off the Nile work which you began so well.
Very sincerely yours
Cromer

صفحات خطاب من مجموعة «كرومر»، وفيه يتحدث عن بناء خـزان على النيل.. وعن عـودة إلى السـودان يظنها قريبة.

أيـــــــام ولــيــــــــال فى لـنــــدن

يُقلّب كما يشاء لأصابها التلف، ولما بقى منها شىء يشتريه أحد!».

وافقتُها، ومن جانبها تَحَمّسَت، ونادَت مساعدة لها أسَرّت إليها بامر، ثم التفتت إلىّ تقول:

«طلبتُ لك من الإدارة تفاصيل عن أهم ما يحتويه كل خطاب؟ - هل يكفيك ذلك؟»

ورَدَدتُ بانه «يكفى وزيادة».

□

خطابات «فيلبى» الثمانية عشر إلى رئيسه السير «بيرسى كوكس» تساوى القراءة على وجه اليقين، فهى لمحات كاشفة لجوانب من التاريخ العربى سياسية وإنسانية لها دلالاتها. والسبب أن مُهمّة «فيلبى» الأساسية كانت «العَمَل على تصفية وجود الخلافة العثمانية فى شبه الجزيرة العربية بما يُمَهِّد للعَمَل ضدّها (ضدّ الخلافة) وهزيمتها فى منطقة الشام، باعتقاد أن ذلك مُؤدٍّ إلى سقوطها فى عُقر دارها» (وهو ما حَدَث فعلاً).

- وكان تكليف «فيلبى» الأول هو «توجيه عبد العزيز آل سعود لمهاجمة أمير «حايل» الموالى للاتراك حتى تَنكَشِف القوة العثمانية فى «نجد»..».

- ثم العَمَل على «منع عبد العزيز آل سعود من مهاجمة الهاشميين (الشريف حسين وأبنائه) فى «مكة»، لأن هؤلاء الهاشميين الحلفاء لبريطانيا سوف يقودون ثورة العَرَب ضدّ الأتراك، مُعتمدين على وَلاءات وتحالفَات وصداقات لهم فى الشام تُحمل الثورة ضدّ الخلافة إلى قُرب معقلها الداخلى فى تركيا!»

تَوَقّفتُ قرابة نصف الساعة أقرا الخطاب الأول لأنه تقرير واف كتبه «فيلبى» بعد إقامة طالت ثلاثة شهور فى معسكر حاكم الرياض والأحساء.

الخطاب فى ٣٢ صفحة - بتاريخ ٢ يونيو ١٩١٨ - من «وادى الدواسر» - مكتوب بالقلم الرصاص، وأول سطر فيه اعتذار عن «أننى كتبتُ بالقلم الرصاص لأنى لم أجد غيره فى بلاد لم تصل إليها بعد أدوات المدنية الحديثة». ثم يستطرد «فيلبى» إلى وصف تفصيلى لرحلته إلى معسكر «ابن سعود»، والمشاكل التى لاقاها فى طريقه، والمخاطر التى كادت تودى به، وضمنها صراعات القبائل والمشايخ. ثم يصل إلى القول:

«ابن سعود رَجُل يحتاج إلى صداقة بريطانيا وتأييدها حتى يستطيع أن يُساعد أهدافها ومطالبها، مع العلم أن أول ما يحتاج إليه هو السلاح والمال. والحقيقة أن المال له عنده اعتبار كبير لإيمانه بان حصوله عليه وعطاياه منه لأنصاره هو المبَرّر لسياسته أمام هؤلاء الأنصار حتى يقبلوا العَمَل مع الأجانب (الإنجليز) ضدّ المسلمين (دولة الخلافة). وهذه مسألة حساسة جداً».

يضيف «فيلبى» بالنص:

«طبقاً للقرآن فلا يَنبَغى أن يكون هناك قتال بين أخيار المسلمين - أى الوهابيين (هكذا يقول «فيلبى») - وبين المسيحيين لأنهم من أهل كتاب، والتسامح معهم توجيه من الله. أما قتال المسلمين الأخيار وجِهادهم فلا يكون إلا مع المشركين والكُفار، وأول الكُفّار والمشركين هم الأتراك العثمانيون - وأيضاً الأشراف الهاشميون - وباختصار كل «المحمديين فيما عدا الوَهّابيين»!»

ويضيف «فيلبى» عبارة لها رنين (ما تزال أصداؤه سارية حتى الآن):

«ليس من شاننا تصحيح الخطا فى هذا الموضوع، بل على العكس علينا تعميق كراهية «ابن سعود» لكل المسلمين من غير الوَهّابيين، فكلما زادت هذه الكراهية للجميع كلما كان ذلك متوافقاً أكثر مع مصالحنا!»

ويستطرد «فيلبى»:

«قدمتُ لابن سعود مبلغ الخمسة وعشرين ألف جنيه ذهباً التى حملتها معى بتكليف منكم (السير «بيرسى كوكس»)، وأفهمته أنها دُفعة مقدمة لتمويل حملته ضدّ «حايل». طلب ابن سعود وألَحّ للحُصول على «زيادة» لأن مصاريفه كثيرة، والكل يطلب «الذهب»..».

□

كنت مُستغرقاً فى القراءة، وفى تسجيل بعض الفقرات، وانتبهت إلى أن السيدة المسئولة عن القاعة تَحَمّلَت منى أكثر مما هو جائز. نصف ساعة أمام خطاب واحد، وإذا فعلتُ ذلك مع ١٨ خطاباً إذن فعليها أن تظل هنا حتى صباح اليوم التالى، وهو شىء غير معقول. وَجّهتُ حديثى إليها مُعتذراً، وكانت كريمة فى القبول، وقالت «إنها تفهم أننى شديد الاهتمام».

سالتها عن الثمن المقدّر لبيع مجموعة «فيلبى»، وكانت تحفظ الرقم عن ظهر قلب: «ما بين ٨٠ ألفا إلى مائة ألف جنيه إسترلينى».

قلتُ: «أليس ذلك تقديراً مبالغاً فيه؟»

رَدّت بابتسامة: «بالعكس .. كل توقعاتنا أن المزاد على هذه الخطابات سوف يحقق أكثر. بعضهم جاء إلى هنا من قبل وأبدى اهتماما لا يقل عما أبديتَه أنت».

وقلتُ: «ربما .. فهناك من يهمه الأمر أكثر منى - وربما لأسباب تختلف عن أسبابى».

....

....

[ما زلتُ معجباً بالملك «عبد العزيز آل سعود». أراه حتى فى البداوة رَجُل دولة من طراز مثير للاهتمام. وبرغم السيف والذهب، وبرغم الإنجليز والأمريكان، فإن ذلك البَدَوى استجاب لضرورات العصور. ففى الفضاء الجغرافى والتاريخى لشبه الجزيرة العربية على أيامه، كان ذلك الفضاء فراغاً سياسياً ينادى من يملؤه، وتَقَدّم الرَجُل لأداء المهمة، وقد رآها وأمسك بها.

لستُ متاكداً أن لدىّ إعجابا بابناء «عبدالعزيز» الأربعة الذين خلفوه على العرش منذ رَحيله قبل نصف قرن.

ومع ذلك فهناك بقية من أبناء «عبدالعزيز» ما زالوا ينتظرون - ومَن يَدرى؟ - فربما استطاع أحدهم أن يستجيب لدواعى زمانه ولضرورات العصور].

....

....

تركتُ مجموعة أوراق «فيلبى» فى مكانها، وانتقلت إلى ملف أوراق «كرومر» (من الغريب أننى تذكرتُ «كرومر» قبل النوم من أيام - والآن أمامى بعض أوراقه بخط يده وكما لمسَها آخر مرة ووَقّعَ عليها بإمضائه!!)

خمسة خطابات بإمضاء «العميد العتيد» - على وصف «سعد زغلول» له.

ثلاثة منها بخط اليد - وكذلك الإمضاء.

واثنان بالآلة الكاتبة فى بداية اختراعها - ولكن الإمضاء بخط «كرومر».

واحدٌ منها على وَرَق دار المعتَمَد البريطانى فى القاهرة - كله بخط اليد نصّاً وإمضاء - وهو بتاريخ ٢٠ نوفمبر ١٨٩٦.

والأربعة الباقية بعنوان بيت «كرومر» فى لندن وهو «٣٦ شارع ويمبول».

والخطاب الأول (المكتوب على الوَرَق الرسمى لدار المعتَمَد البريطانى) له أهمية خاصة لأن «كرومر» يُوَجّهه إلى مهندس الرى البريطانى الشهير «مونكريف»، وفيه يتحدث عن موضوعين: ضرورة العودة إلى السودان بعد الانسحاب البريطانى المصرى منه أمام ثورة «المهدى» و«التعايشى» - ثم أهمية بناء خزان على النيل عند أسوان (خزان أسوان القديم). وفى هذا الخطاب يكتب «كرومر» بخط يده وإمضائه ما نصه:

«القاهرة

٢٠ نوفمبر ١٨٩٦

عزيزى مونكريف

حين أرى «ماشيل» فى المرة القادمة سوف أساله إذا كانت هناك فرصة لابن السير «ألكسندر كريسترفار» (يبدو أن «كرومر» يستجيب لوساطة بطلب وظيفة فى الإدارة البريطانية فى مصر قام بها «مونكريف»).

لقد تأثرتُ بعُمق بملاحظاتك الكريمة. والحقيقة أنه لا يسعدنى أكثر من أن أجد التقدير من هؤلاء الذين خدموا فى مصر، ويعرفون كل الصعوبات التى تكتنف الموقف فيها.

أظن أننى سوف أحرز اختراقات عظيمة هذه السنة بالنسبة للخزان (خزان أسوان).

ففى السنوات الماضية وَضَعتُ أمامى هدفين أريد تحقيقهما قبل أن أترك مكانى هنا لرَجُل أصغر منى سناً: الأول أن أرَتّب للعودة للخرطوم دون أن أتَسَبّب فى عبء مالى يؤدى إلى انهيار هنا (فى مصر) - والثانى أن أتمّ هذا العَمَل الكبير على النيل، وكنت أنت الذى بدأتَ فيه بجدية.

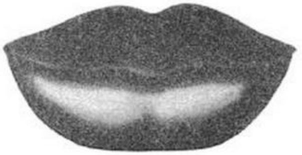
المخلص لك دائماً

كرومر»

□

وكانت خطابات «كرومر» فى إطار ما أستطيع أن أدفعه. وقد سعدت حين حصلت عليها تُنضَم لمجموعة أوراقى. لكنى عائداً إلى فندق «كلاريدج» ماشياً فى «بوند ستريت» - تذكرتُ أننى لم أشتر ربطات عُنق - وإنما اشتريت مجموعات وَرَق.

بأثر رجعى فإن أى زائر للمتحف البريطانى يستطيع أن يفهم «لينين» و«تروتسكى»، وربما كان «تروتسكى» قاسيا فيما كتب، لكن المتحف البريطانى فعلا هو «معقل الإمبراطورية».. مع العلم أن نظرة أكثر تسامحا تستطيع أن تعتبره.. ربما!.. «مدرسة» الإمبراطورية و«جامعتها»



"٦"

البحث عن معاقل الإمبراطورية في لندن!

« الثلاثاء »

لم يبق لى فى لندن سوى يومين اثنين قررتُ أن أخصصهما للثقافة، مُتَحَسِّباً أننى بعد غد ساجد نفسى على طائرة تَشُقُّ السُّحُب فوق المحيط إلى الشاطئ الآخر من الأطلسى. وفى الولايات المتحدة بالطبع مَوارد ومَعالم ومَشاهد ثقافية بغير حساب - لكنى فى مجالات الثقافة أشعر بالألفة أكثر فى أوروبا (بصفة عامة).

بداتُ اليوم بالمتحف البريطانى وسط «بلومسبرى»، وذلك هو حَى المتاحف ودور النشر العريقة بمقدار ما أن «شافتسبرى» هو حَى المسارح ودور العرض فى لندن.

حَى «بلومسبرى» هو المثيل الإنجليزى لـ«الحَى اللاتينى»، لكن قارئ اللغة العربية يعرف عن «الحَى اللاتينى» أكثر من الكفاية، ولا يعرف عن «بلومسبرى» ما هو ضرورى، والسبب أن معظم أدَباء مرحلة التَّعَرُّف على فكر الغرب وأدبه ذهبوا إلى باريس - وكان رفاعة الطهطاوى هو لحظة الانبهار - جاءت بعده لحظة التَّعَرُّف، ومعها ذهب كثيرون: من «أحمد لطفى السيد» وحتى «توفيق الحكيم». وأما لندن فقد جاء دورها مُتَأخراً عندما حان الوقت لبعثات العلوم: الطب، والاقتصاد، والهندسة، والسياسة. حتى حَدَث أخيراً أن أتى زمان مُختلف، وتَحَوَّلَ مقصد الجميع إلى نيويورك وسان فرانسيسكو، وأصبحت باريس ولندن خياراً من الدرجة الثانية مقبولاً إذا لم يكن منه بُد!

والمتحَف البريطانى الشهير أهم مَعالم «بلومسبرى» - هو اليوم مقصدى لمشاهدة معرض «كليوباتره» الذى ما زال الحديث عنه ملء صفحات الجرائد والمجلات، وشاشات التلفزيون كذلك.

□

كلما قصدتُ إلى المتحف البريطانى تذكرت زعيم الثورة الشيوعية الأكبر «لينين» وتذكرتُ حكايته مع زميله فى قيادة الثورة الشيوعية «ليون تروتسكى»!

كان «لينين» - سنة ١٩١٠ - لاجئاً سياسياً يعيش فى لندن خائفاً أن يقبض عليه عُمَلاء «الأوخرانا» (البوليس السرى القيصرى) - لكن القيادة الشيوعية فى داخل روسيا بدأت تسىء الظن به وتَتَصَوَّر أنه استمرا حياة المنفى «مُسترِيحاً»، ومُكتفياً بما تبعث به قيادة الداخل إليه من مبالغ مُهَرَّبة بين الحين والآخر - وكذلك فهو لا يتحرك سياسياً بما هو لازم، ولا يُساهم - حتى - بالكتابة فى «أسكرا» وهى النشرة السِّرِّية التى تُحَرِّض على الثورة فى الداخل.

وفى أوساط الحركة الشيوعية فى الداخل كان هناك نجم صاعد لَفَتَ إليه الأنظار وهو «تروتسكى»، وكانت مقالاته النارية تظهر بانتظام فى «أسكرا»، وكان «لينين» مُعجباً بهذه المقالات من بعيد، ومُقَدِّراً من خلالها (كما كَتَب) لـ: ثورية «تروتسكى» وطاقته الهائلة.

ثم جاء يومٌ قَرَّرت فيه قيادة الداخل أن تبعث إلى لندن برسول يمثلها «ليطلّ» على نشاط الزعيم الذى يعيش فى المنفى («لينين»)، ويتأكد أن قِلَّة نشاطه ليست تآكلاً فى ثوريته بفعل «تَرَهُّل أصابه» فى وَطن البورجوازية الأول - فى ذلك الوقت - وهو بريطانيا. وكان ذلك الرسول المختار «ليطلّ» على «لينين» هو «تروتسكى»!

وعلى نحو ما جرى إخطار «لينين» بأن ينتظر رسولاً قادماً إليه. وبشكل ما فإنه عَرَف أن ذلك الرسول هو نفسه كاتب تلك المقالات النارية «تروتسكى»، وراح «لينين» يَتَحَسَّب ليوم يظهر فيه «تروتسكى» أمام بيته فى حَى «هامبشير». ثم جاء المنتظر ودَقَّ جَرَس باب البيت ذات صباح. وفتحَت زوجة «لينين» «تروبسكايا»، وقبل أن يُقَدِّم لها الطارق نفسه كانت قد تَعَرَّفت عليه بالوصف.

والتقى الرَجُلان أخيراً. «لينين» الذى يعيش فى المنفى، و«تروتسكى» القادم من قلب «المعمَعَة» فى الداخل إلى الغرب لأول مرة. وبعد أن اطمان «لينين» على أن زائره نامَ وأفطر، اقترح عليه أن يخرج معه إلى جولة فى لندن يَتَعَرَّف فيها على «مَعاقِل الإمبريالية».

كان «لينين» يريد أن يكسب وقتاً تهدأ فيه أعصاب «تروتسكى» فلا ينطق بما عنده دفعة واحدة مكثفة تسبب حَرَجاً! - ومن ناحيته كان «تروتسكى» مُتَشَوِّقاً إلى التَّعَرُّف على ذلك العالم الغريب الذى جاء إليه.

وساله «لينين»: «من أين تريد أن نبدأ؟»

وقال «تروتسكى»: «من القلعة الأكبر للإمبراطورية»!

وفيما بعد كَتَبَ «تروتسكى» يقول أنه تَصَوَّر أن «لينين» سوف يذهب به إلى قصر «باكنجهام» حيث يقيم الملك («جورج» الخامس وقتها)، أو إلى قيادة القوات الإمبراطورية، أو إلى وزارة المستعمرات فى «هوايتهول» - لكن «تروتسكى» فوجئ بأن «لينين» يأخذه إلى المتحف البريطانى.

ويكتُب «تروتسكى» أنه عندما فَرَغ من زيارة المتحف البريطانى فَهَم عبقرية «لينين» - «فأى رَجُل غيره كان يمكن أن يأخذنى إلى مراكز الحكم المشهورة ويقول لى: هنا معقل الإمبراطورية. «لينين» أكَّدَ لى عبقريته حين أخذنى إلى المتحف البريطانى لأنه بالفعل المكان الوحيد الذى يمكن فيه أن ترى «الفعل الإمبريالى» فى حالة تَلَبُّس. كنوز مَنهوبة من أرجاء الدُنيا الواسعة. كل حجرة «مُنتَزَعة» من بلد. كل طابق مَخطوف من قارة. المتحف كله على بعضه هو الكنز الإمبراطورى الكبير الذى استولى عليه الاستعمار من كل مكان ذَهَبَ إليه. من اليونان القديمة إلى مصر الفرعونية - من الهند الإسلامية إلى أطراف الصين - من أعماق أفريقيا إلى غابات أمريكا - كله هنا دليل حَى على الغلبة والغزو».

وبأثر رجعى فإن أى زائر للمتحف البريطانى يستطيع أن يفهم «لينين» و«تروتسكى»، وربما كان «تروتسكى» قاسياً فيما كتب، لكن المتحف البريطانى فعلاً هو «معقل الإمبراطورية» - مع العلم أن نظرة أكثر تَسامُحاً تستطيع أن تُغَيِّره - ربما! - «مدرسة»



أيام وليال في لندن

الإمبراطورية و«جامعتها». فهُنا روائع كان يمكن أن تضيع فى أوطانها، لكنه أمكن الحفاظ عليها فى مكان آمن تُحكى منه تجربتها وتُعلِّم حكمتها!

□

وكانت مشروعات «تونى بلير» لتخليد اللحظة النادرة للألفية الجديدة ـ ثلاثة: القُبَّة وقد فشلت ـ والعَجلة الدَّوَّارة وهى نصف نجاح ـ وتجديد المتحف البريطانى، وظنى أن النجاح هنا كان ضخماً يستحق الإشادة.

فى اللحظة التى دخلتُ فيها من باب المتحف (دخلتُ عشرات المرات من قبل) طالعتنى رَوعة التجديد، وهى الصرح الضخم على شكل واجهة دائرية مهيبة تلف محيطها سلالم صاعدة إلى أعلى. وأرضية المدخل وساحته والسلالم الصاعدة كلها من الحَجَر. وبعد الباب مُباشرة نُقشَ على الأرض بحفرٍ لا يكاد يَبين لبيت من الشعر كَتَبه «تنيسون» الشاعر الرومانسى الشامخ، وفيه يقول: «أيها الساعون للحُرِّية الحَقَّة .. تَذكُروا أن المعرفة هى الطريق الصحيح إلى مُبتغاكم».

رحتُ أتأمَّل حولى قطعة معمار مَهولة وباهرة تكاد تذوب من الرقة والجلال فى آن معاً. وكنت أريد أن أتوقف طويلاً وأتأمَّل ما حولى، لكنى آثرتُ أن أتوجَّه مباشرة إلى «كليوباتره» ومَعرضها الذى ذاع صيتُه، حتى أنه أعاد إلى الحياة أسطورتها حَيَّة، وغرامياتها بالتفاصيل ـ! ـ صاخبة، ونهايتها بالانتحار مأساوية.

متحف «كليوباتره» كله قاعة واحدة فسيحة ـ وواجهات العَرض هى الصفوف التى تُصنع مَمَرَّات القاعة، وهذه الممرات تقود الزائر انسيابيا إلى مواضع الاهتمام. وبالطبع فإن التركيز الإعلامى كله أصبح على جَمال «كليوباتره»: هل كانت فادحة الجمال كما تروى قصص التاريخ؟ أو كانت قصيرة كئيبة كما يظهر من بعض تماثيلها التى وُجِدَت فى بقايا قصرها الذى كان راقداً تحت سطح البحر فى الميناء الشرقى بالإسكندرية حتى سنوات قليلة. والتماثيل بالفعل تقول أن «كليوباتره» لم تكن على تلك الدرجة من الجمال الأسطورى الذى تتحدث عنه القصَص. لكن التاريخ يذكرنا أن هذه التماثيل ـ معظمها ـ صُنعَت لـ«كليوباتره» بعد انتحارها، وقد جرى نحتُها بأثر رجعى لأن «أوكتافيوس» الغازى الغاضب عليها لأنها أغوَت خاله «يوليوس قيصر» ـ ثم خانته مع تلميذه «مارك أنتونى» ـ صَمَّم على الانتقام من الملكة التى آثرَت أن تحفظ كرامتها وحُرِّيتها بسُمِّ حَيَّة وَضَعَتها على صَدرها قبل أن يَطالها الانتقام. وقد بَلَغَ الغضَب بـ«أوكتافيوس» إلى الأمر بتحطيم كل تماثيل آخر ملكات مصر البطلمية (وهى السابعة بينهم)، وكان أن صُنِعَت فى عهده تماثيل ـ شبه كاريكاتورية ـ تُسىء إلى الجمال وتطغى على مفاتنه (ربما).

....

....

[صورة «كليوباتره» فى الذاكرة المعاصرة مقترنة باستمرار بصورة آخر ممثلة قامت بدَورها على الشاشة وهى «إليزابيث تايلور»، وكان ذلك رأى الرئيس «أنور السادات»، فعندما قامت «إليزابيث تايلور» بزيارة مصر ضمن عملية «الترويج للسلام!» أمَرَ الرئيس «السادات» أن تُستَقبَل فى المطار بطابور شرَف من الحَرَس الجُمهورى، وحين التقته مباشرة وحاولَت أن تقدم له شكرها كان قوله على طريقته المَسرَحة أحياناً: «يا صاحبة الجلالة.. ألستِ ملكة مصر؟.. هكذا استقبلناك»!]

....

....

رُحتُ أتجَوَّل فى ممرات العرض، وأتوقف بين حينٍ وآخر، لكن السياسة كانت شاغلى، ولسوء الحظ فإنها طغت على الفن وعلى التاريخ كليهما.

عَبَرَت فى خواطرى قصة «البطالسة»، وأولهم «بطليموس» الكبير، وهو واحد من قُوَّاد «الإسكندر» الذين قَسَّم بينهم إمبراطوريته كأنما مقادير الشعوب إرثاً لفاتح لم يترك نسلاً من صُلبه فقرَّرَ تَوريث قُوَّاده (ما دام لم يستطع تَوريث أبنائه)!

«كليوباتره» نفسها («كليوباتره» السابعة)، صنعَت تَحَوُّلاً فى مَقادير مصر ما زالت تَداعياته واصلة إلى الزمَن المعاصر، ذلك أنه بعد تدمير الأسطول المصرى فى معركة «أكتيوم» (شرقى البحر الأبيض قرب «كريت») أمام أسطول روما، فإن القائد الرومانى لهذا الأسطول وهو نفسه العاشق المهزوم «مارك أنتونى»، تَرَك مراكبه تحترق وبَحَّارَته يَغرَقون، وهرَب إلى أحضان عشيقته الملكية («كليوباتره») للقاء أخير ـ ومن ذلك اليوم (يوم «أكتيوم») كَفَّت مصر لسوء الحظ عن أن تُصبح دولة بَحر، وتَحَوَّلَت إلى دولة بَر رغم إطلالها على شاطئين من أهم شواطئ الدنيا القديمة: البحر الأبيض والبحر الأحمر.

لم أبق فى قاعة «كليوباتره» أكثر من ساعة، ذلك أن شخصية «كليوباتره» كانت أهم من كل المعروضات رغم قيمة بعضها فنياً وتاريخياً ـ لكنى سألتُ نفسى لماذا لم يبدأ عرض الأسطورة الغارقة فى الميناء الشرقى للإسكندرية فى تلك المدينة قبل أن تجئ إلى «بلومسبرى»؟!

تَرَكتُ قاعة «كليوباتره» قاصداً إلى مدخل المكتبة الشهيرة للمتحف البريطانى، وتطلعتُ إلى دائرتها الواسعة، وقُبَّتها الشَهيرة، وأدوارها العامرة بالمعرفة صاعدة إلى أعلى نحو أشعَة الشمس الواصلة إليها من الدائرة الشفافة لوَسَط القُبَّة ـ وبَقيتُ ساكناً أتأمَّل لعِدَّة دقائق كأنما هو محرابٌ للنور.

□

مساء نفس اليوم ذهبتُ إلى المسرح الملَكى «درورى لين» أحضر حفل الباليه الأول لفرقة «البولشوى» (المسرح الكبير) الشهيرة فى موسكو. فهذا المسرح العتيد جاء إلى لندن فى عيد ميلاده الخامس والعشرين بعد المائتين وكأنه يريد أن يُعلن على نحوٍ ما أن «روسيا» تُحاول استعادة عافيتها.

وكان بعض الأصدقاء من الروس، وبينهم آخر رئيس للدَولة السوفيتية الكُبرى ـ «أندريه جروميكو» ـ يَندَهشون حين يسمعونى أقول أن لدىَّ مقياساً لا يخيب فى حساب أحوال روسيا. ملخص رأيى أنه فى مجالات العلوم والاقتصاد والسياسة فإن تقدير أحوال المجتمعات يحتاج إلى قواعد مُعَقَّدة وإجراءات طويلة. لكن من يهمه قياس أحوال روسيا (بالذات) يستطيع أن ينظر إلى ناحيتين: الوُجود الروسى فى بحار العالم ومُحيطاته، فذلك دَليلٌ على مَدى استطاعة روسيا أن تَخرُج من حصار الثلج ـ ذلك من ناحية ـ ومن الناحية الأخرى راقصات باليه على مُستوى رفيع على مسرح «البولشوى» ـ فذلك مَعناه استطاعة روسيا أن تُحلِّق بالفن مُتحَرِّرةً من أثقال التاريخ السلافى وعُقَده!

وعندما تقف على المسرح راقصة من مستوى «إيلينا إيلانوفا» أو «تمارا تومانوفا» أو «مايا بليستسكايا»، فذلك معناه أن هناك حيوية خلق جديد، وطاقة إبداع لا يصنعها غير مجتمع حَى.

وفى رُبع القرن الأخير كان مسرح «البولشوى» رُكناً مُهمَلاً. تَكَوَّمَت أطلال مَجد عفى عليه الزمَن وجار. وبالفعل لم يظهر أستاذ، ولم يخرج عرض، ولم يسطع نجم.

لكن «البولشوى» هذه الأيام تَجَرَّأ واستجمع شجاعته وقَرَّرَ أن يعود للعالم الخارجى، واختار مديره الفنى الجديد «بوريس أكيموف» أن يطلَّ بمسرحه على العالم مرة أخرى من نافذة لندن. ولعله أراد أن يثبت قدرته، فوضَعَ برنامجاً للعرض على المسرح الملَكى «درورى لين» يشتمل على مُختارات من أشهَر الباليهات. لم يقتصر على باليه واحد ليقول المتفرِّجون أنه رَكَّزَ عليه وأتقنه، وحفظه حركةً وموسيقى وضَوءاً ولوناً، ثم جاء إلى لندن «يرُصُّه رَصّاً» مثل قوالب مصبوبة بإتقان ـ وإنما اختار «أكيموف» أن يعرض فن مسرحه تحت إدارته، وبنجومه الجُدُد، بواسطة اختيارات مُتنَوِّعة وعريضة.

وجلستُ فى مَسرح مُكتمل العَدَد تماماً، أتابع مع غيرى برنامجاً بادى الإحكام، رفيع المستوى، مُتألِّقٌ بنجومه وكواكبه.

وراوَدَتنى إحساسٌ بأن روسيا أمامى تُحاول استجماع قواها لتَخرُج من وسط حريق تَرَك رُكامَه ورَمادَه على كل أرجائها. وبدون أن أذهب إلى موسكو فإنى من المسرح الملَكى «درورى لين» ظنَنتُ أننى لَمَحتُ بَوادِر تُومئ وتُشير إلى تغيير تَظهَر وَمَضاته مع إيقاع وخُطى راقصات وراقصى باليه جُدُد مثل «آنا أنتونيتشيفا» و«أناستاسيا جورياتشيفا» و«ديمترى جودانوف».

الفن يَسبق الصَحوة دائماً، ويُبَشِّر بالقوة عادة.

كذلك ظنى!

....

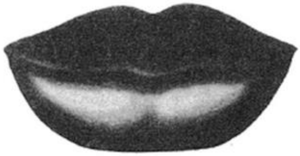
....

[فى لقاء طويل جرى بعد عَودَتى إلى القاهرة مع رئيس وزراء روسيا السابق «إيفجينى بريماكوف»، فى بيت السفير الروسى على شاطئ النيل، ذكَرتُ مُلاحَظتى عن بَوادر الصحوة فى روسيا، وكان رأيه أنه: «ربما .. لكننا ما زلنا عند البدايات، وأصعب مراحل الطُرُق بداياتها!»]

....

....

«كليوباتره»: هل كانت فادحة
الجمال كما تروى قصص التاريخ؟
أو كانت قصيرة كئيبة كما يظهر
من بعض تماثيلها التى وجدت فى بقايا قصرها
الذى كان راقدا تحت سطح البحر
فى الميناء الشرقى بالإسكندرية
حتى سنوات قليلة؟



"٧" أزمات هذا الزمان وحروبه!

« الخميس »

قضيتُ الصباح في دار «هاربر كولينز» - الناشر الدولي لكتُبي. ما زال الخلافُ بيننا مُعلَّقاً حول كتابي القادم لهم. فلا زال هناك من يَتَحَمَّس لضرورة أن يكون موضوعه هو الموضوع الذي اتفقنا عليه من قبل ثم غَيَّرتُ رأيي فيه وهو «الإسلام السياسي». لقد قضيتُ أكثر من سنة في الإعداد لهذا الكتاب (وكانت سَنَة دراسة مُفيدة بالنسبة لي)، لكني بعد هذه المدَّة الطويلة وَجَدتُ أن غيري قد يستطيع أن يَقوم على هذا الموضوع خيراً مني.

عندما بدأتُ العَمَل في هذا الكتاب كان هناك ظن شاعَ في الغرب بأن «الإسلام السياسي» هو شكل المستقبل في المنطقة. ولم يكن لديَّ رأي قاطع في الموضوع، ولذلك قبلتُ أن أوَقِّع عَقداً. وفي منتصف الطريق أصبحتُ على اقتناع كامل بأن «الإسلام السياسي» ليس شكل المستقبل في المنطقة. وكان في عَزمي هذه الزيارة أن أجَرِّب إقناع «إيدي بل» رئيس مجلس إدارة «هاربر كولينز» بوجهة نظري، لكني وَجَدتُ مكتب «إيدي بل» شاغراً لأن صاحبه، ذلك الاسكتلندي القدير الذي يمضُغ سيجاره طول الوقت، ويَلمَح الكتُب وهي بَعد أفكاراً طائرة في الهواء و«يلقطها» بأصابعه - لم يَعُد هناك، فقد قَرَّرَ برغبته أن يعتزل ويبحث لنفسه عن عَمَل جديد في سن السبعين. وهكذا كانت مُؤسَّسة «هاربر كولينز» تَعيش فترة انتقالية من عصر «إيدي بل» الذي استمر ١٨ سنة - إلى عصر آخر سوف تتولاه فيما يظهر مديرة فرع نيويورك، وهي أمريكية قيل أن «إيدي» اختارها بنفسه لتحل محله.

مَرَرتُ بثلاثة أو أربعة مكاتب لأصدقاء قدامى من المحررين الرئيسيين. تحدثوا معي جميعاً، وأكَّدَت قوائم النشر الجديد حديثهم - بأن «الكتاب السياسي» يعود مرة أخرى إلى الصدارة. ففي السنوات الخمس الأخيرة كانت الأعمال الروائية صاحبة الغلبة بكل تأكيد، لكن هناك الآن تَحَوُّلاً يُحاول الجميع دراسة أسبابه. فخلال السنوات الخمس الماضية كان القارئ الإنجليزي - والأوروبي بصفة عامة - يَتَجَنَّب «الكتاب السياسي». والآن حَدَث تَغَيُّر واضح. وأمسَكَ «لوى بريدجز» قائمة المنشورات الجديدة يقرأ لي ويُكرِّر ويعد موضوعات الكتب الأكثر مبيعاً حتى الآن: «إنديرا غاندي: قصة حياتها» - «آلان بروك: مذكراته الأصلية» - «هيروهيتو: صُنع اليابان الجديدة» - وهكذا وهكذا..

حاوَلَ «لوى» أن يُعيدني إلى مشروع كتاب «الإسلام السياسي» فقال: «ألا تظن أن هناك مليون قارئ يريدون أن يعرفوا كل شيء عن «أسامة بن لادن»؟» - وقلتُ: «ربما، لكني أفضِّل أن يعرفوه من غيري».

اتفقنا على أن نواصل المناقشة بعد عودتي من الولايات المتحدة.

□

ذهبتُ إلى سينما «أوديون» (قرب رُكن «هايد بارك») أشاهد فيلماً جديداً عن سيناريو للكاتب الشهير «لو كاريه»، وهو الذي تَخَصَّصَ في كتابة قصَص الجاسوسية عن زمَن الحرب الباردة، وتَحَوَّل الكثير من تلك القصَص إلى أفلام سينما ناجحة .. لافتة في نجاحها.

بعد انتهاء الحرب الباردة كَتَبَ «لو كاريه» ثلاث أو أربع روايات تَحَوَّلت إلى أفلام لكنها لم تَنجَح. وكان رأي النُّقَّاد أن «لو كاريه» أضاعَ مَوهبته مع نهاية الحرب الباردة، وأنه كان في الواقع سلاحاً من أسلحتها، فلما انتهت تَعَطَّل سلاحه - أي فَقَدَ مَوهبَته.

في هذا الفيلم الذي رأيته اليوم أحسَستُ أن «لو كاريه» يَرُدُّ على ناقديه. ذلك أن سيناريو الفيلم واسمه «خَيَّاط بناما» يَحكي قصَّة أزمة دولية تَحَوَّلت إلى حَرب خاطفة شَنَّتها الولايات المتحدة على إحدى جاراتها في أمريكا الوسطى لأن «ترزياً» خَطَرَ له أن يجتَذِب عَميلاً أنيقاً (لم يكن يعرف أنه جاسوس) عن طريق اختراع حكايات لا أصل لها في الحقيقة عن رئيس لبناما يستعد للاستيلاء على قناتها المشهورة وحِرمان أمريكا من ميزاتها الإستراتيجية. وصَدَّقَ الجاسوس الأمريكي - وصَدَّقَت الحكومة الأمريكية: من البيت الأبيض إلى رئاسة أركان الحرب المشتركة إلى وكالة المخابرات المركزية الأمريكية - وكان أن اتخذ الرئيس الأمريكي قراراً بالغزو دون انتظار، وبعد إتمام الغَزو تَكَشَّفَ السرُّ الحقيقي الذي أدَّى إليه!

لعل «لو كاريه» وهو يُواجه نُقَّاده أراد أن يقول لهم أنه بعد انتهاء الحرب الباردة لم تَعُد هناك أسرار خطيرة تُؤدِّي إلى أزمات دولية - لكنها الآن أكاذيب صغيرة تُشعِل نيران الحروب.

□

السَهرة في مَسرَح «ليريك» مع رواية لـ«نويل كاورد» أشهَر كُتَّاب الرواية الإنجليزية بعد «برنارد شو» طوال القرن العشرين، والرواية عنوانها «نصف دُنيا». وعلى نَحو ما أحسستُ طوال مُشاهَدَتي لفصولها الثلاثة أنها مَوصولة بفيلم «لو كاريه». مَسرَحية «نصف دُنيا» تَجري في باريس منتصف الثلاثينات من القرن العشرين، وبالتحديد في فترة ما بين الحرب العالمية الأولى التي انتهت (١٩١٨)، ومَرَّت بالأزمة الاقتصادية الخانقة سنة ١٩٢٩ - وبين نشوب الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٣٩، وما صاحَبَها من انفجار القنبلة الذرِّية التي أنهَت الحرب وأنهَت عصر الحروب العالمية - على الأقل حتى هذه اللحظة.

في فترة الرواية في الثلاثينات يبدو مُجتَمَع باريس في حالة انتظار - خَرَجَ من كارثة ويَشعُر أنه داخل إلى كارثة أكبر، وتلك الحالة ما بين كارثتين عالميتين: أولاهما وَقَعَت والثانية مُتَوَقَّعة - تُحدث تأثيراتها على الطبَقة «البورجوازية» في باريس وفرنسا وأوروبا، فإذا هذه الطبَقة تعيش يومها إلى آخره وتأخذ من مُتَع الحياة مُنتَهاها، وتَتَصَرَّف وكأن كل الرواسي المُمسكة بالمجتمعات من الدين، والأخلاق، والتقاليد، وحتى القوانين - أعباء يَصح أن يَتَخَفَّف منها البَشر، ويَتَحَرَّروا، ويعيشوا كما يحلو لهم اليوم والليلة، وأما الغد وما بعده ففي الإمكان مواجَهة مَشاكلهما عندما تجيء إذا جاءت، وحَلها إذا كانت قابلة للحَل في وَقتها. أما الآن فهو يومٌ قد لا يَتَكَرَّر وليلةٌ قد لا تَعود.

كذلك كانت أحوال العالَم مُوَزَّعة بين رؤية كاتبين:

واحد على الشاشة يرى أن نصف العالَم يَكذب على نفسه هَرَباً من الواقع..

وواحد على المسرح يرى أن نصفه الآخر يَلهو غافلاً بالعَمد هَرَباً من الحقيقة.

....

....

بدا لي الاثنان - الشاشة والمسرَح - بَعيدَين عن دُنيا جديدة تَطرَح على التاريخ حياة تملك طاقات لم يَستَطع الأدَب والفن بَعد أن يَغوصا في أعماقها لاستجلاء دَلالاتها واحتمالاتها. بدا لي أن الخيال العلمي عادة «يَسبق» بالتَصَوُّر والتَجريب - وأما الخيال الأدَبي والفني فدَوره أن «يلحق» بالشرح والتحليل - لكن السؤال: هل نحن بالفعل أمام دُنيا جديدة؟ - وإذا كنا بالفعل أمام دُنيا جديدة، فالأسئلة القديمة كلها ما تزال واردة: متى؟ وكيف؟ ومَن؟ وأين؟ .. إلى آخره.

لم أجِد جَواباً في العالم القديم (أوروبا) - وغداً سَفَري عبر المحيط غرباً - فهل لدى العالَم الجديد (أمريكا) جواب؟ - لا أعرف؟!

كذلك كانت أحوال العالم
موزعة بين رؤية كاتبين،
واحد على الشاشة يرى أن نصف
العالم يكذب على نفسه هربا من الواقع.. وواحد
على المسرح يرى أن نصفه الآخر
يلهو غافلا بالعمد
هربا من الحقيقة

السياسة الخارجية

"إن توحيد مؤسسة عسكرية ضخمة وصناعة أسلحة عملاقة تعد تجربة جديدة على أمريكا. وبإمكاننا أن نلحظ النفوذ الكلى - اقتصاديا وسياسيا، وحتى روحيا - فى كل مدينة، وكل مجلس ولاية وكل مصلحة من مصالح الحكومة الفيدرالية ... علينا أن نتصدى لأى نفوذ غير شرعى للمجمع العسكرى - الصناعى فى مجالس الحكومة، سواء سعى إليه أو لم يسع."

الرئيس الأمريكى دوايت د. أيزنهاور
فى خطاب الوداع إلى الأمة، ١٧ يناير ١٩٦١



حروب قوم عند قوم فوائد!

وليام د. هارتونج

على عكس التوقعات الأولية، لم يتقلص المجمع العسكري - الصناعي الأمريكي مع انتهاء الحرب الباردة. كل ما حدث هو أنه أعاد تنظيم نفسه. فعبر سلسلة من عمليات الاندماج العسكري الصناعي، بتشجيع ودعم من إدارة كلينتون، تلقت الأخوات الثلاث - لوكهيد مارتن، وبوينج، ورايثيون - خلال الأعوام الماضية، عقودا من البنتاجون تتراوح قيمتها ما بين ٢٥-٣٨مليار دولار.

وإذا ما سارت الأمور سيرها الطبيعي، فإن الوحوش العسكرية - الصناعية الجديدة سوف تتلقى المزيد من المليارات خلال السنوات القادمة. فميزانية البنتاجون في الخطة الخمسية لإدارة الرئيس السابق كلينتون طالبت بزيادة مخصصات السلاح بنسبة ٥٠٪، من ٤٠مليارا سنويا حاليا إلى ما يزيد على ٦٠ مليارا سنويا في عام ٢٠٠٣. ومن مسألة لأخرى - من توسيع الناتو، إلى نشر صواريخ حرب النجوم الدفاعية، إلى فرض حظر مبيعات السلاح على الأنظمة القمعية - تشن صناعة الأسلحة حملات الضغط من أجل زيادة الإنفاق العسكري وصادرات السلاح. وهذه المبادرات ليس دافعها السعي الإيجابي للتوصل إلى أفضل السبل للدفاع عن الولايات المتحدة في عهد ما بعد الحرب الباردة، بل تحقيق الأرباح والنفوذ السياسي.

وللوصول إلى نظام دفاعي فعال ومحتمل، فإن من الضروري الحد من سلطة وأرباح البنتاجون والموردين العسكريين. لكن قبل النظر في النشاطات الحالية للوبي العسكري، من المهم أن ندرك مدى تضليل الأولويات التي يضعها البنتاجون حاليا للإنفاق.

مهمة تستعصي على التصديق:

إن تحذير الرئيس ايزنهاور بشأن «النفوذ غير الشرعي» للمجمع العسكري - الصناعي ينطبق على الأوضاع الحالية مثلما كان ينطبق على الأوضاع في عام ١٩٦١. فعلى الرغم من حل حلف وارسو وتفكيك الاتحاد السوفيتي، فإن ميزانية الولايات المتحدة العسكرية اليوم أكبر مما كانت عليه يوم أن ألقى الرئيس ايزنهاور خطابه الخاص بالمجمع العسكري - الصناعي، في عام ١٩٦١، فالميزانية العسكرية للولايات المتحدة، التي تزيد على ٢٧٦ مليار دولار (بالأسعار الثابتة) سنويا، تظل قريبة من معدلاتها التي سادت خلال فترات السلم من عصر الحرب الباردة، التي شملت الفترة الأولى من التنافس الأمريكي - السوفيتي، فيما بين ١٩٥٠-١٩٨٩ تقريبا. وهذا أمر مثير للدهشة إذا أخذنا في الاعتبار أن روسيا قد خفضت ميزانية السلاح بنسبة ٧٧٪ منذ عام ١٩٩١، وأن القوات الروسية يمكنها أن تنتصر بالكاد على جيش متمرد في الشيشان (داخل حدودها) لا أن تدخل في مواجهة مع إحدى جاراتها.

وفي ظل غياب جيش روسي قوي، أين يكمن التهديد الذي يبرر إنفاق ما يزيد على الربع تريليون من الدولارات كل عام على الاستعدادات الحربية؟ وإجابة البنتاجون بسيطة: لم تعد هناك قوة عظمى قوية معادية تتحدانا، لكن القوات الأمريكية لا تزال بحاجة إلى التسليح لمواجهة اثنين من الصراعات الإقليمية الرئيسية في آن واحد ضد «الدول العنيدة» مثل العراق وكوريا الشمالية. وإرسال مئات الآلاف من القوات إلى هذه المناطق النائية يتطلب إنفاق ما انفقته الولايات المتحدة تقريبا خلال الحرب الباردة - أو هكذا يدعي البنتاجون.

وسيناريو «الحربين» هذا يستحيل تصديقه بحال. فحسبما يعلن مايكل كلير بحق، في كتابه الدول العنيدة والحظر النووي، فإن كولين باول خطط لاستراتيجية الحربين بمجرد إدراكه أن الولايات المتحدة «افتقدت الأعداء» لتبرير إنفاق مئات المليارات على البنتاجون كل عام. كما يعلن كلير أن «الصراعين الإقليميين الرئيسيين» اللذين يشكلان صلب سيناريو الإنفاق الجديد للبنتاجون يحوي، كلاهما، خصوما إقليميين نظريين أفضل تسليحا وعتادا من قوى إقليمية قائمة مثل العراق وكوريا الشمالية.

وليس مايكل كلير الوحيد الذي يرى أن التهديدات الجديدة لأمن الولايات المتحدة تحمل قدرا كبيرا من المبالغة. فمحلل ميزانية البنتاجون، فرانكلين سبيني، يؤكد بشدة على أن «استراتيجية الحربين التي وضعها البنتاجون هي مجرد حيلة لتبرير الميزانية الضخمة». كما أن مريل ماكبيك، الذي كان رئيسا لأركان القوات الجوية أثناء وبعد حرب الخليج، يرى المسألة على النحو التالي:

«ينبغي ألا نقف كثيرا أمام استراتيجية الحربين. فلا خبرتنا التاريخية ولا الفطرة السليمة يمكن أن تقودنا إلى التفكير في ضرورة ذلك. فقد كان علينا أن ندخل ثلاث حروب إقليمية رئيسية خلال الأعوام الخمسة والأربعين الماضية - كوريا، وفيتنام، والعراق. وكان الفاصل بين كل حربين حوالي خمسة عشر عاما، ولم يحدث أبدا أن دخلنا حربين في وقت واحد».

وبالنسبة لأولئك الذين يتساءلون عما إذا كانت حروب مثل فيتنام أو الخليج ضرورية لأمن الولايات المتحدة، يرى ماكبيك أن المسافة الزمنية بين كل صراع رئيسي يمكن تمديدها إلى ٢٠ أو ٣٠ عاما، بدلا من ١٥. كما أن الميزانية العسكرية للولايات المتحدة، كما سنرى، يمكن خفضها بشدة إذا ما قامت حكومتنا بتحركات فعلية للحيلولة دون وقوع الصراع. فاستراتيجية الوقاية أرخص كثيرا وأكثر فاعلية من الطريقة الحالية التي تستوجب حشد قوات ضخمة ومكلفة تحسبا لاحتمالات لا تحدث غالبا. وقد ثبتت صحة هذه النقطة في حرب كوسوفو، حيث أصبح من الجلي الواضح أن استخدام القوات المسلحة المكلفة والعالية التقنية اختيار خاطئ في التعامل مع الصراعات العرقية والحروب الأهلية. فقد كان من شأن إجبار مراقبي حقوق الإنسان والمنظمات الإنسانية، التي كانت تعمل بالإقليم، على الانسحاب، تمهيدًا لبدء حملة القصف التي قام بها الناتو، بالفعل، أن يسهل مهمة قوات الصرب لطرد الألبان من كوسوفو بقوة السلاح. وعبر التدخل في صراع داخلي دون الحصول على موافقة مجلس الأمن، أصبحت الولايات المتحدة وحلفاؤها في الناتو تواجه استخداما غير شرعي للقوة - التطهير العرقي في كوسوفو - بطريقة غير شرعية - حملة غير مرخص بها من قبل الناتو. بينما استبعدت الوسائل الأرخص نسبيا والتي ربما كان بوسعها الإسراع بوضع حد للقتل - مثل الحضور الرقابي غير المرغوب فيه لمنظمة الأمن والتعاون الأوروبي المحدودة الموارد أو جهود الأمم المتحدة الجيدة التمويل لتحقيق السلام - لصالح حرب جوية سيئة التقدير.

ويرى لورانس كورب، أحد كبار المسئولين بالبنتاجون على عهد ريجان والذي يعمل حاليا مديرا للدراسات بمجلس العلاقات الخارجية، أنه حتى لو قبلنا بالقول بأن القوات الأمريكية بحاجة لأن تكون على استعداد للدخول في صراعين إقليميين في وقت واحد، فالإمكانية لا زالت متاحة لعمل تخفيضات كبيرة في الميزانية الحالية للبنتاجون. ويلاحظ كورب أن الولايات المتحدة تنفق حاليا على القوات المسلحة ١٩ ضعف ما تنفقه ما يطلق عليه البنتاجون «الدول العنيدة» - إيران، العراق، السودان، ليبيا، سوريا، كوبا، وكوريا الشمالية - مجتمعة. كما يؤكد كورب على أن البنتاجون يقلل من شأن القدرات العسكرية لحلفاء إقليميين للولايات المتحدة، مثل إسرائيل وكوريا الجنوبية، والتي تدعم القوة العسكرية الأمريكية في صراعاتها الإقليمية في الشرق الأوسط وآسيا. وإذا ما أخذنا في الاعتبار الضعف النسبي للدول الشريرة وقوة حلفائنا، فإن كروب يرى إمكانية تخفيض ٤٠ مليار دولار من الميزانية الحالية للبنتاجون، حتى في حال القبول بالسيناريو البعيد الاحتمال لنشوب صراعين إقليميين كبيرين في وقت واحد. كما أن التفوق النسبي للولايات المتحدة وحلفائها مسألة محسومة، حيث تبلغ نسبة الإنفاق العسكري للولايات المتحدة وحلفائها الرئيسيين (الناتو واليابان وكوريا الشمالية) الآن ٢٦٪ من إجمالي الإنفاق العسكري العالمي، وهو ضعف ما كان عليه الحال في منتصف الثمانينيات. وباختصار، فإنه بالرغم من الدعوات المتكررة لزيادة الإنفاق العسكري لعلاج «أزمة التأهب» المدعاة التي تواجه القوات الأمريكية، فإن نصيب الولايات المتحدة وحلفائها من الإنفاق العسكري العالمي أكبر كثيرا مما كان عليه الحال في ذروة التعزيز العسكري على عهد الرئيس ريجان، في منتصف الثمانينيات.

وعبر المبالغة في التهديدات التي يتعرض لها أمن الولايات المتحدة حاليا، ينتهج البنتاجون تقليدا قديما وغير مبدئي. فقد تبين، في أوائل التسعينيات، أن الولايات المتحدة ظلت لسنوات تبالغ كثيرا في تقدير القوة العسكرية السوفيتية، نتيجة تقارير مخابرات مضللة قدمها أمثال الدريش آمز، عميل المخابرات المركزية المسئول عن عمليات التجسس على الاتحاد السوفيتي.

وحدث الشيء نفسه في



السبعينيات، عندما ضغطت لجنة الخطر الراهن المحافظة على المخابرات المركزية لوضع تقرير مضلل عن القوة العسكرية السوفيتية، والذى كان سببا لتمهيد الطريق أمام رونالد ريجان للتعزيز العسكرى، فى الثمانينيات، الذى لا سابقة له فى أوقات السلم.

وجاءت التفجيرات الإرهابية ضد سفارات الولايات المتحدة فى كينيا وتنزانيا (أغسطس ١٩٩٨)، واختبارات الصواريخ الإيرانية (يوليو ١٩٩٨) والكورية الشمالية (أغسطس ١٩٩٨)، وحرب الناتو الجوية على كوسوفو (بدأت فى ٢٤ مارس١٩٩٩) لتقدم ذريعة للسياسيين والإعلام للمطالبة بتخصيص الأموال للبنتاجون لتطوير سياساته الأمنية. فمن الضرورى تقديم بديل إجبارى للتهديدات المبالغ فيها وأولويات الإنفاق المضللة التى يعززها صقور المؤسسة العسكرية، على أمل زيادة ميزانية البنتاجون زيادة كبيرة، وإعادتها إلى المعدلات التى كانت عليها فى عهد ريجان والتى سادت فى منتصف الثمانينيات.

وإذا لم تكن التهديدات الحالية لمصالح الولايات المتحدة كافية لتبرير إنفاق ما يزيد على ٢٧٦ مليارا من الدولارات على البنتاجون سنويا، كما يقترح المحافظون، فما الدافع وراء هذه النفقات الضخمة؟ أول هذه الأشياء، وأكثرها وضوحا، هو أن المستفيدين الرئيسيين من مخصصات الحرب الباردة ـ بما فيهم البنتاجون، وكبار الموردين العسكريين، وكبار أعضاء الكونجرس الذين يحصلون، بشكل منتظم، على جزء من المخصصات العسكرية لمناطقهم ـ يعملون طوال الوقت فى سبيل استمرار تدفق هذه الأموال العسكرية غير المشروعة. وإلى جانب هذه الضغوط المؤسسية من أجل استمرار الإنفاق العسكرى الكبير، هناك أيضا الأساس الاستراتيجى، وفحواه أن الولايات المتحدة تحتفظ بالقدرة على أن تكون شيئا أشبه بـ «شرطى العالم»، المسئول عن فرض النظام، وتحقيق الاستقرار، وتامين «الأسواق الحرة» فى حال تعرضها للتهديد من قبل قوى الشر والفوضى. وعلى الرغم من أن الولايات المتحدة، فى عدد من الحالات المهمة ـ مثل الصومال ورواندا ـ قد تخلت عن دورها فى التصدى للصراعات العنيفة خشية من رد فعل الرأى العام تجاه الخسائر فى الأرواح، فإن استراتيجية البنتاجون وميزانيته لا زالت تركز على ضرورة الاحتفاظ بقوة عالمية. وبالنسبة لتلك المناطق المعرضة لتهديد مواردها الحساسة أو الاستثمارات الأمريكية للخطر ـ مثل الخليج الفارسي وجمهوريات الاتحاد السوفيتى السابقة بآسيا الوسطى، الغنية بالنفط والغاز ـ فإن البنتاجون يعمل بدأب من أجل توفير السلاح والتدريب، وترتيب سبل الوصول إلى القواعد، و(فى حالة الخليج الفارسى) جعل القوات والعتاد فى حالة استعداد تحسبا لأى تدخل عسكرى محتمل فى المستقبل. وإذا ما نحينا القول بأن الولايات المتحدة بحاجة إلى الاحتفاظ بقدرتها على إرسال القوات لأى مكان من العالم، وركزنا بدلا من ذلك على تحسين العلاقات الدبلوماسية والاقتصادية والثقافية مع البلاد الأخرى، فسيكون بمقدورنا استقطاع عشرات المليارات من الدولارات من ميزانيتنا العسكرية المتضخمة.

وبخلاف الاتصال بكبار المشرعين لإدخال بنود بعينها على ميزانية البنتاجون، تشارك شركات مثل لوكهيد مارتن بهمة فى وضع سياسة الولايات المتحدة الخارجية والعسكرية بما يتفق واحتياجاتها. وهذا الشكل الأبشع من الضغط يمكن أن يصل إلى حد تعديل البنود المتعلقة بتعويضات كبار المتعهدين، مثل «تعويضات الأجور» التى قدمت لدعم شركات الدفاع المندمجة، والتى توصل إليها نورمان أوجستين قبل اندماج لوكهيد/ مارتن ماريتا؛ أو إلغاء رسوم الاختراع التى كان زبائن السلاح الأجانب يدفعونها لتعويض الخزانة الأمريكية عن تكاليف أنظمة السلاح التى كان يجرى تطويرها على حساب دافعى الضرائب (وهو ما يكلف الخزانة حوالى ٥٠٠ مليون دولار سنويا)؛ أو إتاحة مليارات الدولارات فى شكل منح جديدة وقروض بضمان الحكومة لدعم صادرات الأسلحة الأمريكية؛ أو رفع الحظر على تصدير السلاح، مثل ذلك الذى ظل مفروضا لسنوات طويلة على بيع الطائرات المقاتلة الحديثة لأمريكا اللاتينية. وفى حالات أخرى، يضغط الموردون بشدة لحسم برامج أو سياسات موضع خلاف لصالحهم. وأبرز الأمثلة القريبة لهذا النوع من الضغط هو برنامج حرب النجوم للصواريخ الدفاعية، الذى خصص له مليار دولار إضافية سنويا نتيجة ضغوط متعهدى البنتاجون وجماعات البحث والمؤيدين المحافظة، والاندفاع نحو توسيع الناتو، الذى حظى بقدر كبير من اهتمام وجهود وأموال شركات مثل لوكهيد مارتن وبوينج وتكسترون، التى ترى فى توسيع الناتو فرصة ذهبية لفتح سوق جديدة لحروبها، تحظى بموافقة الحكومة ودعم دافعى الضرائب. وقليل من الأمثلة لحملات ضغط بعينها توضح كيف يستخدم صناع السلاح الثلاثة الكبار نفوذهم السياسى المكتشف حديثا.

تسويق السلاح فى الخارج:

مع بداية خفوت الصخب المصاحب لشراء السلاح، الذى اتسمت به فترة حكم ريجان، خلال الثمانينيات، بدأ صناع السلاح الأمريكيون إعطاء المزيد من الاهتمام للأسواق الخارجية كوسيلة للإبقاء على أرباحهم عند معدلاتها. ولأن المبيعات الخارجية غالبا ما تتضمن نقلاً للمزيد من التقنيات «الناضجة»، التى جرى التغلب على أية عيوب فيها خلال عملية الإنتاج، ولأن الأبحاث والتطوير والتجارب الأولية من الإنتاج يمولها دافع الضرائب الأمريكى (على هيئة عقود البنتاجون) فإن صادرات السلاح عادة ما تكون أكثر ربحية من بيعها للبنتاجون. وهذا السعى وراء الأرباح السهلة دفع كل الشركات الكبرى المنتجة للسلاح فى العالم إلى تنسيق جهودها لزيادة صادراتها. وقد فازت الشركات الأمريكية بنصيب الأسد، حيث ارتفع نصيبها من ٤٠٪ إلى أكثر من ٥٠٪ من إجمالى سوق السلاح العالمية خلال التسعينيات. ونتيجة لهذه السيطرة المؤثرة على السوق، توصلت شركات مثل لوكهيد مارتن وبوينج إلى أن السبيل الوحيد لزيادة معدلات صادراتها هو تغيير سياسة الحكومة الأمريكية. وتشمل التغييرات المطلوبة فتح أسواق جديدة، عن طريق إلغاء القيود الحالية القائمة على الموقف من حقوق الإنسان أو تحديد النسل فى الدول المحتمل شرائها للسلاح، أو السعى إلى توفير إعانات حكومية جديدة لإتاحة المزيد من «الزبائن الذين يدفعون نقدا» (أى زبائن أجانب يستخدمون «أموال» دافع الضرائب الأمريكى فى شراء أسلحة أمريكية).

وتعد حملة صناع الأسلحة الناجحة لرفع الحظر، الذى استمر عشرين عاما، على تصدير المقاتلات الأمريكية المتقدمة إلى أمريكا اللاتينية مثالا ممتازا على كيفية عمل آلة الضغط التى تديرها هذه الصناعة. ففى البداية، أقنعوا وزير الدفاع، وليام بيرى، بالدفاع عن رفع الحظر فى مشاورات إدارة الرئيس كلينتون وإرسال طائرات ف١٦ التابعة لسلاح الطيران الأمريكى للمشاركة فى العرض الجوى، الذى أقيم فى سنتياجو بشيلى فى مارس ١٩٩٦. وقبل العرض، قام البنتاجون أيضا بترتيب طلعات اختبار لبعض الضباط البرازيليين، على طائرات ف١٦، المتمركزة مع الحرس الوطنى البورتوريكى. ثم قام لوبى الصناعات الفضائية بإرسال خطابات إلى وزير الخارجية آنذاك، وارين كريستوفر، موجهة من ٣٨ من أعضاء مجلس الشيوخ و٧٨ من مجلس النواب، يحثونه فيها على تأييد رفع الحظر.

ويطلق دوجلاس والر، محرر مجلة تايم، على خطابات الضغط هذه «خطابات بأكثر من مليون دولار»، لأن أعضاء المجلسين الذين وقعوا خطابات مناشدة كريستوفر تلقوا أكثر من مليون دولار من كبرى الشركات المصدرة للسلاح، على هيئة تبرع للجنة العمل السياسى. وقد تابع ممثلو الصناعة جهودهم بعقد اجتماعات بالبيت الأبيض مع مستشارى الرئيس وصديقه المقرب ماك ماكلارى وأحد مساعدى جور، نائب الرئيس.

وطبقا لرواية مريل جوزنر، محرر صحيفة شيكاغو تريبيون، فإن كتيبا صادرا عن لوكهيد مارتن يقدر حجم سوق السلاح فى أمريكا اللاتينية بـ«ما بين ٣ـ١٥ مليار دولار على مدى السنوات العشر القادمة»، سُرّب من أسفل باب غرفة أوسكار أرياس، رئيس كوستاريكا السابق والحاصل على جائزة نوبل للسلام، أثناء إحدى رحلات العمل. ود. أرياس يعمل مع مركز كارتر، ومجلس من أجل عالم ملائم للعيش، وائتلاف عدد من جماعات الصالح العام الساعية إلى تأجيل بيع الأسلحة المتطورة لأمريكا اللاتينية، كخطوة أولى لتشجيع المشاورات الإقليمية لمنع نشوب الحروب وخفض القوات. لكن حتى الآن، فإن قوة وأموال لوبى السلاح تصرف الاهتمام عن اقتراح كهذا، يمكن أن يقدم لأمن واستقرار أمريكا اللاتينية فى المستقبل أكثر مما يمكن أن تقدمه معدات القتال الباهظة التكاليف.

وبالنسبة لمسالة توسيع الناتو، فإن دور موردى الولايات المتحدة لم يكن تغيير سياسة الإدارة وإنما حسم قرار سياسى لايزال موضع جدل. فإدارة كلينتون قررت توسيع الناتو لأسباب مختلفة، مثل ترسيخ الإصلاحات الديموقراطية للسوق الحرة فى شرق ووسط أوروبا، واجتذاب حلفاء جدد للإسهام فى حفظ السلام فى البوسنة وغيرها من النقاط الساخنة. لكن بالنظر إلى العيوب الواضحة لتوسيع الحلف ـ مثل استبعاد روسيا، وتأخير أى جهود مقبلة لخفض الأسلحة النووية الأمريكية ـ الروسية، والتعهد، المكلف والمفتوح النهاية، بإعادة تسليح الدول الأعضاء الجدد ـ كانت إدارة كلينتون بحاجة إلى حلفاء يساعدونها فى تسويق فكرة توسيع الناتو للكونجرس والرأى العام. وإلى حد كبير، كان أكثر اللاعبين أهمية فى اللوبى المؤيد لتوسيع الناتو هى منظمات الأمريكيين ذوى الأصول البولندية والمجرية والتشيكية، إلى جانب كبرى شركات السلاح الأمريكية مثل لوكهيد مارتن وتكسترون، التى اتخذت موقفا شرسا فى تأييدها لهذا التعهد الجديد المكلف.

وقد اتخذت عمليات الضغط المشتركة من أجل توسيع الناتو أكثر من شكل. كان أهمها إعارة لوكهيد مارتن أحد نواب رئيسها، بروس جاكسون، ليتولى رئاسة اللجنة الأمريكية لتوسيع الناتو، وهى جماعة للضغط والتوعية العامة تتخذ من مكاتب معهد



المشروعات الأمريكي المحافظ مقرا لها. وتشرف اللجنة على الحملات الدعائية، والمذكرات المقدمة للكونجرس، وإعداد الخطب والمقالات، والكتب البيضاء، التى تدعو إلى توسيع الحلف «إلى أقصى ما يمكن». ويدعى جاكسون أنه يلعب دوره فى اللجنة من باب «الهواية»، لكن طبيعة عمله توحى بعكس ذلك. ففى صيف ١٩٩٧، على سبيل المثال، عندما دعت اللجنة الأمريكية إلى حفل غداء حضره ١٢ من أعضاء مجلس الشيوخ للاستماع لشرح لمسالة توسيع الناتو من وزيرة الخارجية مادلين أولبرايت، قام جاكسون بدعوة برنارد شوارتز عضو مجلس إدارة لوكهيد مارتن، وهو، بالمصادفة، أكبر متبرع للحزب الديموقراطى لانتخابات ١٩٩٥/١٩٩٦، وكان حضور شوارتز إشارة واضحة للحضور من الشيوخ بأن تأييد توسيع الحلف وسيلة جيدة لضمان الأموال لحملتهم. ولتأكيد الرسالة، أرسل شوارتز، بعد أسابيع قليلة من حفل غداء الناتو، شيكا بمبلغ ٥٠ألف دولار إلى لجنة حملة الحزب الديموقراطى بمجلس الشيوخ.

وتشمل الأنشطة المؤيدة لتوسيع حلف الناتو، التى تتولاها شركات السلاح الأمريكية، مساهمات مالية من لوكهيد مارتن وتكسترون ومكدونالد دوجلاس للمنظمات العرقية المؤيدة لتوسيع الناتو، مثل الأصدقاء الأمريكيين لجمهورية التشيك وعدة مؤسسات رومانية تؤيد ترشيح هذا البلد لعضوية الحلف؛ وتقديم تمويل سياسى لتسهيل تمرير الاستفتاء العام على توسيع الحلف الذى جرى فى المجر عام ١٩٩٧؛ والتدخل بشتى الطرق، فى شرق ووسط أوروبا، لإقناع القيادة العليا فى بولندا والمجر وجمهورية التشيك ورومانيا وغيرها من الدول غير الأعضاء بالناتو بأن شراء السلاح الأمريكى هو أفضل السبل للتقرب من الحكومة الأمريكية والفوز بتأييدها لقبول عضويتها بالحلف. ومن المهم أن نلاحظ أن كثيرين فى شرق ووسط أوروبا، بمن فيهم زعماء ديموقراطيون مثل فاتسلاف هافيل رئيس جمهورية التشيك وليش فاليسا رئيس بولندا، كانوا مؤيدين لتوسيع الحلف بسبب المخاوف القديمة من روسيا، والتى جعلتهم يصغون بإنصات لاقتراح توسيع الناتو.

وأخيرا، عندما اقترع مجلس الشيوخ على توسيع الحلف فى أوائل ١٩٩٨، جاء التصويت بالموافقة بأغلبية ١٩٨١. لكن نظرا لاعتبارات عامة تتعلق بالتوسيع المستقبلى للناتو - حسب أحد التقديرات - فإن التكلفة الإجمالية لجولات التوسيع المتعددة قد تصل إلى ٥٠٠مليار دولار على مدى ١٢-١٥عاما، أو ٢٥٠٠دولار لكل رب أسرة أمريكى - فإن الأعضاء الجدد لن يدخلوا قبل عام ٢٠٠٠، وليس ١٩٩٩ كما كان مقررا فى الأصل. وهذا التأجيل يجعل من الانتقادات التى وجهت لتوسيع الحلف فاتحة سياسية هامة لحشد القوى المطلوبة لمنع لوبى السلاح والفرع التنفيذى من المضى قدما فى الطريق الخطر والمكلف بتوسيع حلف الحرب الباردة الذى ليس له غرض واضح فى عالم ما بعد الحرب الباردة.

وفى الوقت الذى كان الناتو يحتفل فيه بالذكرى الخمسين لتأسيسه، فى أبريل ١٩٩٩ بواشنطن، كانت تكاليف الحلف قد تجاوزت الحدود بسبب ما أنفق على الحرب الجوية ضد يوغوسلافيا، والتى بلغت حوالى المليار دولار شهريا. فقد كان من شأن إعادة تجهيز ترسانة الولايات المتحدة وحلفائها بصواريخ توماهوك كروز وذخائر بوينج وطائرات ف١٦ وف٢٢ من إنتاج لوكهيد مارتن، تمويل خزائن صناع السلاح الثلاثة الكبار بمليارات الدولارات على هيئة عقود جديدة. فصناع السلاح على دراية بـ«فوائد» الصراع فى كوسوفو، والحقيقة أن بروس جاكسون، نائب رئيس شركة لوكهيد مارتن الذى تزعم جماعة الضغط من أجل توسيع الناتو، استغل دعوة صحيفة كابيتول هيل لحث الكونجرس على تمويل المجهود الحربى أقصى استغلال. أما بوينج ورايثيون ويونايتد تكنولوجيز، فقد قدمت كل منها مبلغ ٢٥٠ ألف دولار لـ«لجنة الاستضافة» الرسمية، المكلفة بالإشراف على اجتماعات الذكرى الخمسين لتأسيس الناتو فى أبريل ١٩٩٩ بواشنطن، لتكون على علم بتفاصيل اجتماع مسئولى الشئون الخارجية ووزراء دفاع الناتو، الذين سيقررون ما إذا كان الحلف سيعتمد على العتاد الأمريكى خلال السنوات القادمة.

لوبى حروب النجوم:

من أكثر قصص الضغط القريبة العهد إثارة للدهشة ما قام به البنتاجون، وموردون مثل لوكهيد مارتن وبوينج، وشبه مؤسسة الأبحاث هريتاج ومركز السياسات الأمنية اليمينى (الذى أسسه مسئول البنتاجون السابق بإدارة ريجان، فرانك جافنى) للإبقاء على برنامج ريجان لحرب النجوم - بالرغم من التغيرات الجذرية التى طرأت على البيئة الأمنية فى العالم، التى تخلت عن مهمتها الأصلية العتيقة، وحدوث سلسلة من الإخفاقات التكنولوجية المتواصلة. فقد ضاعت هباء ١٥ سنة و ٥٥مليار دولار منذ ألقى ريجان خطابه عن حروب النجوم للمرة الأولى، فى مارس ١٩٨٣، وبعد أن انتهى من الوجود الاتحاد السوفيتى، الذى كانت ترسانته النووية هى الهدف الرئيسى لنظام ريجان الدفاعى الصاروخى. ولما لم تلق التشجيع، كان على حرب النجوم أن تحدد مهمة جديدة لصواريخها: حمايتنا من هجمات «دول عنيدة» مثل العراق وكوريا الشمالية، التى لا تملك صواريخ يمكن أن تصل إلى الأراضى الأمريكية. وفى كل مرة يخفق فيها أحد مكونات المشروع الأساسية - مثلما حدث فى مشروع لوكهيد لمسرح عمليات الجيش للدفاع العمودى، والذى حصل على صفر من خمس خلال الاختبارات التى أجريت على مدار هذا العقد - يتعالى صراخ لوبى حروب النجوم فى الكونجرس مطالبا بالمزيد من الأموال.

والمركز العصبى للوبى حرب النجوم هو مركز فرانك جافنى للسياسات الأمنية، وهو منظمة للأبحاث والدفاع، تصدر سنويا ما يقرب من ٢٠٠ نشرة صحفية (تحت اسم يوحى بالحيثية هو «ملخصات قرار الأمن القومى») تلتمس التأييد لصواريخ الدفاع، وزيادة الميزانية العسكرية، وغيرها من القضايا التى يتبناها الجناح اليمينى. ومنذ تأسيسها فى ١٩٨٨، تلقت مجموعة جافنى ما يزيد على

المــــوردون الكبــــار للأســــلحــة

يحقق «الثلاثة الكبار» من موردى السلاح - بوينج، ولوكهيد مارتن، ورايثيون - أرباحا سخية من أبحاث وتطوير حرب النجوم، ومن المتوقع أن تجنى المزيد من المليارات فى حال النشر الفعلى لنظام الصواريخ الدفاعى القومى.

بوينج: فازت بعقد ابتدائى مقداره ١,٦مليار دولار لعمل «الأنظمة المندمجة» لمجمل مجهود الدفاع الصاروخى (وول ستريت جورنال، ٥/ ١/ ٩٨)، وقد تصل قيمة العقد إلى ٥,٢ مليار دولار خلال السنوات العشر القادمة. كما أن بوينج هى المورد الأساسى لليزر المنقول جوا، وهو ليزر كيماوى تزود به الطائرة ٧٤٧ وتفترض فيه القدرة على اعتراض صواريخ سكود عند «أقصى 'اندفاعها»؛ وتتوقع القوات الجوية أن تنفق ٢,١مليار دولار على هذا البرنامج من الآن وحتى عام ٢٠٠٢، يذهب معظمها إلى شركة بوينج. كذلك فازت بوينج بعقد لتجميع محركات إطلاق الصواريخ لمعدات الإعاقة الأرضية، وهو أحد المكونات الرئيسية لحرب النجوم؛ وتقدر تكلفة المحركات بحوالى ٢ملايين دولار لكل محرك.

لوكهيد مارتن: هى المورد الرئيسى لنظام «مسرح عمليات الجيش لدفاع المنطقة العمودى». وقد فشل النظام فى آخر ستة اختبارات متتالية، ووافقت لوكهيد مارتن على دفع حتى مبلغ ٧٥مليون دولار مقابل أية محاولة فاشلة فى المستقبل. وقد أنفق الجيش على هذا النظام حتى الآن ٢,٣مليار دولار.

رايثيون: هى المورد الرئيسى لمشروع «الصواريخ الدفاعية لمسرح العمليات البحرية»، الذى يفترض فيه إعاقة صواريخ العدو بعد قليل من إطلاقها عن طريق اكتشافها وتدميرها من سفن بحرية. وهو يعد رهان الجماعات المؤيدة لحرب النجوم، مثل مؤسسة هريتاج ومركز فرانك جافنى للسياسات الأمنية، ومن المتوقع أن تصل التكلفة إلى ما بين ١٠٠-٢٠٠مليون دولار سنويا على مدى السنوات الخمس القادمة. كما أن رايثيون هى مقاول الباطن لبوينج فى مشروع الأنظمة المندمجة لصواريخ الدفاع القومى. ومن المتوقع أن يصل مجموع ما تتلقاه الشركة لمشروع المسرح المكشوف حوالى ١,٤مليار دولار، فيما بين أعوام ١٩٩٧-٢٠٠٣.

كتاب الزاوية

رحلة ابن بطوطة

تحفة النظار فى غرائب الأمصار

ولد ابن بطوطة ـ وهو محمد بن عبدالله اللواتى الطنجى ـ عام ١٣٠٤م فى مدينة طنجة بالمغرب، ويعد أعظم رحالة فى القرون الوسطى. فقد كان عام ١٣٢٥م الذى بدأ فيه ابن بطوطة رحلته هو نفس العام الذى توفى فيه ماركو بولو، الرحالة الإيطالى الشهير الذى شكك المؤرخون فى حقيقة سفره إلى الصين. وقد أمضى ابن بطوطة فى رحلته حوالى ثلاثين عامًا، زار خلالها المغرب ومصر والشام والحجاز والعراق وفارس وتركيا وآسيا الوسطى والهند والصين والسودان والأندلس، قاطعًا ثلاثة أضعاف المسافة التى اجتازها ماركو بولو. وقد ترجمت رحلة ابن بطوطة إلى عدة لغات منها الفرنسية والإنجليزية والألمانية والتركية والبرتغالية.

مدينة القاهرة

وصلت إلى مدينة مصر، وهى أم البلاد، وقرارة فرعون ذى الأوتاد، ذات الأقاليم العريضة، والبلاد الأريضة، المتناهية فى كثرة العمارة، المتناهية بالحسن والنضارة، ومجمع الوارد والصادر، ومحط رحل الضعيف والقادر. وبها شئت من عالم، وجاهل، وجاد، وهازل، وحليم، وسفيه، ووضيع، ونبيه، وشريف، ومشروف، ومنكر، ومعروف. تموج موج البحر بسكانها، وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها وإمكانها. شبابها يجد على طول العهد، وكوكب تعديلها لا يبرح عن منزل السعد. قهرت قاهرتها الأمم، وتمكنت ملوكها نواصى العرب والعجم. ولها خصوصية النيل الذى أجلَّ خطرها، وأغناها عن أن يستمد القطر قطرها. وأرضها مسيرة شهر لمجدٍّ السير، كريمة التربة مؤنسة لذى الغربة.

.. وأهل مصر ذوو طرب وسرور ولهو. شاهدت بها مرة فرجة بسبب برء الملك الناصر من كسر أصاب يده. فزين كل أهل سوق سوقهم وعلقوا بحوانيتهم الحلل والحلى وثياب الحرير، وبقوا على ذلك أيامًا.



٢ مليون دولار على هيئة هبات، معظمها من شركات مثل لوكهيد مارتن وبوينج، اللتين تعدان من كبار موردى أنظمة حرب النجوم. كما تضم المنظمة فى مجلس إدارتها ما لا يقل عن خمسة من مديرى لوكهيد مارتن، ناهيك عن زمرة حرب النجوم، مثل عالم الأسلحة إدوارد تيلر ومساعده جورج كيوورث، الذى عمل كمستشار علمى لرونالد ريجان فى فترة بدء التخطيط لمشروع حروب النجوم. كذلك يتمتع مركز سياسات الأمن بعلاقات وثيقة بالمراكز البحثية المحافظة الأخرى، مثل مؤسسة هريتاج ومساعدة أمريكا، وكلتاهما لهما ممثلون فى مجلس إدارة مركز سياسات الأمن. وخلال خريف ١٩٩٨، بذل لوبى حروب النجوم جهدا منظما للفوز بعضو آخر من أعضاء مجلس الشيوخ، هو تاد كوشران صاحب مرسوم حماية أمريكا الذى يهدف إلى نشر النظام القومى للدفاع الصاروخى. ولتحقيق هذه الغاية، قامت منظمة مساعدة أمريكا بحملة إذاعية مضللة فى ولاية نيفادا فى محاولة لإقناع سكانها بأن رفض نائبيهم الديموقراطيين، هارى رايد وريتشارد برايان، التصويت على نظام الدفاع الصاروخى الباهظ التكلفة يعنى أنهما يقفان فى وجه «حماية أسرنا» من الهجوم النووى. وعلى المدى القصير، فإن هذا الجهد غير العادى من جانب لوبى حرب النجوم ضاع هباء. فنتيجة لرد فعل الرأى العام تجاه الأساليب التى اتبعها المحقق الخاص كينث ستار والقيادات الجمهورية فى الكونجرس أثناء فضيحة لوينسكى، أخفق الجمهوريون فى الفوز بمقعد فى مجلس الشيوخ فى انتخابات ١٩٩٨، بينما أعيد انتخاب مرشحين ديموقراطيين مثل هارى رايد عن نيفادا وباربرا بوكسر عن كاليفورنيا، وكلاهما تعرض لنقد حاد بسبب معارضتهما لحروب النجوم.

وبرغم هذه النكسات الواضحة فى انتخابات ١٩٩٨، فإن لوبى حروب النجوم لم يستسلم: فبحلول ربيع ١٩٩٩ كان مجلسا الشيوخ والنواب قد اقتنعا بتمرير نسخة معدلة من قانون كوشران، الذى ينص على أن سياسة الحكومة الأمريكية هى نشر صواريخ للدفاع القومى بمجرد «إنجازها تكنولوجيا». وفى الوقت الذى يحاول فيه مؤيدو مراقبة التسلح، مثل السناتور كارل لفين، تخفيف اللطمة بمحاولة إدخال تعديلات تدعو الولايات المتحدة إلى مواصلة مساعيها مع روسيا للحد من الأسلحة، فإن قرارى حرب النجوم كانا انتصارا دعائيا كبيرا لأنصار نشر صواريخ الدفاع من المحافظين والشركات التى ترعاهم.

استراتيجية وقائية:

إن أفضل وسيلة للتصدى للدفعة الجديدة، التى حققها لوبى السلاح لزيادة الإنفاق العسكرى وإعانات تصدير السلاح، هى تشجيع انتهاج استراتيجية بديلة للحيلولة دون اندلاع الحروب والحد من مستويات العنف المسببة لها.

وتعد الحملة الدولية لتحريم استخدام الألغام الأرضية، التى فاز محركها الأساسى جودى وليامز بجائزة نوبل للسلام عام ١٩٩٧، مثالا يحتذى لما يمكن أن تفعله المنظمات غير الحكومية لصياغة جدول أعمال الأمن الدولى فى اتجاه إيجابى. فعندما بدأت الحملة قبل أقل من عقد مضى، لم يكن كثيرون قد سمعوا، مجرد سمع، بمشكلة الألغام الأرضية. لكن فى غضون سنوات قليلة من الجهد الدءوب والتوعية العامة من جانب جماعات العمل التطوعى، ومنظمات المعاقين، ودعاة حقوق الإنسان، والأطباء، وجماعات مراقبة التسلح، بلغ عدد الدول المؤيدة لاتفاقية أوسلو لمنع الألغام المضادة للأفراد مائة دولة. (بحلول ربيع ١٩٩٩، بلغ عدد الدول التى صدقت فعليا على المعاهدة ٨١ دولة، وهو ما يكفى لمعاملتها كمعاهدة رسمية). وقد لاقت الحملة دعم وتأييد السناتور باتريك ليهى، الذى أقنع زملاءه فى مجلس الشيوخ بفرض حظر على تصدير الألغام الأرضية الأمريكية المضادة للأفراد. وقد نجحت هذه الحملة لأنها كانت قادرة على الإبلاغ المؤثر ببشاعة نتائج هذه الأسلحة، عديمة التمييز والتى تفتقد المعنى، على الإنسان. كما أن ملايين المدنيين الأبرياء الذين قتلوا وأصيبوا بسبب الألغام الأرضية وجدوا أخيرا معبرا عنهم من خلال الحملة، التى تولاها بالأساس منظمات المواطنين، بمساندة مهمة من جانب حكومات دول رئيسية مثل كندا والنرويج.

ونفس هذه المنظمات، التى جعلت مسألة الألغام الأرضية موضع اهتمام عالمى، تسعى الآن فى سبيل الحد مما يسمى بالأسلحة الصغيرة أو الخفيفة ـ البنادق والقنابل اليدوية، والمركبات الخفيفة التى تعد أداة الموت فى ميادين القتال العرقية فى العالم. ولأن الأسلحة الصغيرة مسألة أساسية بالنسبة لمعظم جيوش العالم، ولصلتها بالجدل الخاص بمراقبة السلاح داخل المجتمعات، فإن معركة الأسلحة الصغيرة ستكون أطول بلا شك وأكثر تعقيدا من حملة الألغام. لكن تقدم قضية السلام ونزع السلاح سيظل مرهونا بمدى التقدم فى تحديد اختيار المقاتلين لأسلحتهم. وفى مؤتمر السلام بلاهاى، فى مايو ١٩٩٩، أعلن رسميا عن بدء الحملة العالمية للحد من الأسلحة الصغيرة، تحت مظلة شبكة التحرك الدولى بخصوص الأسلحة الصغيرة. ■

ترجمة: بدر الرفاعى


Flight
Departures
Arrivals
EF025 ENGLAND
EF001 HONGKONG
EF254 YEMEN
EF261 NEWYORK
EF255 SAUDIARA.
EF013 KUWAIT
EF225 JORDAN
EF420 EGYPT
EF540 SPAIN
QATAR
EGYPT
ETHIOPIA
JORDAN
BOTSWANA
KENYA
NAMIBIA
MOROCCO
ZIMBABWE
EFG - Hermes

إبراهيم شحاتة

ابن أى ملك من الملوك؟!

جلال أمين



لا أتصور أن دولة أخرى من دول العالم الثالث أنتجت خلال الخمسين عامًا الماضية، مثل ما أنتجته مصر من هذه الشخصيات البارزة من علماء القانون الدولى. فمن عبد الحليم بدوى وحامد سلطان، إلى طلعت الغنيمى وعبد الله العريان، إلى جورج أبى صعب وإبراهيم شحاتة، الذى فجعنا بفقده منذ أسابيع قليلة (٢٨ مايو ٢٠٠١)، دأبت مصر على إنتاج عقليات مضيئة فى هذا المجال من مجالات الفكر القانونى. ولكن إسهامات إبراهيم شحاتة الفكرية والعملية كان لها بعض السمات الخاصة التى تميز بها عن هؤلاء الأفذاذ، وتستحق منا بعض التأمل.

فمن ناحية، تزامنت فترة دراسة إبراهيم شحاتة وحياته العملية مع زيادة الاهتمام بقضية التنمية الاقتصادية فى العالم الثالث من جانب الساسة وعلماء الاجتماع على السواء، ومن ثم كان من الطبيعى أن يهتم إبراهيم شحاتة بجوانب القانون الدولى الخاصة بالعلاقات الاقتصادية والمالية الدولية. وبالفعل كانت معظم كتاباته وإسهاماته الفكرية والعملية فى هذا المجال: الجوانب القانونية لانتقال رءوس الأموال والموارد الاقتصادية بوجه عام بين دول وأخرى. وقد تطلب منه ذلك التعمق فى دراسة المشكلات الاقتصادية إلى جانب تعمقه فى القانون. فإذا بعقله الحاد كالسيف يجعله يمتاز عن أقرانه المهتمين بهذا النوع من المشكلات أو ذاك.

وقد اضطر إبراهيم شحاتة، شأنه فى ذلك شأن سائر أقرانه البارزين فى القانون الدولى، إلى أن يقضى الجزء الأكبر من حياته العملية خارج مصر. فهو مستشار فى الكويت للصندوق الكويتى للتنمية عدة سنوات (١٩٧٠ ـ ١٩٧٥). ثم مدير لصندوق الأوبك للتنمية فى فيينا (١٩٧٥ ـ ١٩٨٣)، ثم نائب لرئيس البنك الدولى ومستشار للبنك فى واشنطن لمدة خمسة عشر عامًا (١٩٨٣ ـ ١٩٩٨). ولكن علاقة إبراهيم شحاتة ببلده طوال هذه السنين ظلت من نوع متميز. كان يبدو لى وكأنه يشعر بمسئولية خاصة عنها، وأن كل ما بذله من جهد فى تحصيل العلم وزيادة خبراته يجب أن يصب فى نهاية الأمر فى دفع بلده بضع خطوات إلى الأمام.

كان ذلك أسهل نسبيًا عندما كان قريبًا من مصر وهو مستشار فى الكويت. فزياراته لمصر سهلة وكثيرة، والمصريون قادمون وغادون بين مصر والكويت، والندوات والمؤتمرات التى تعقد عن مشكلات التنمية العربية لا تكاد تنقطع، وهو مساهم شبه دائم فى هذه الندوات والمؤتمرات. ثم أصبح الأمر أكثر صعوبة فى فيينا أو واشنطن. صحيح أنه رئيس أو مسئول كبير عن مؤسسة لمنح المعونات الدولية ـ ومصر فى حاجة إلى هذه المعونات، ولكنه وهو فى هذا البلد أو ذاك مسئول عن مصالح العالم الثالث بأسره، وليس من المتصور فى مثل هذا المنصب أو ذاك أن يتحيز لبلده على حساب بلاد أخرى. اختار إبراهيم شحاتة إذن سبيل الكتابة عن مختلف مشكلات مصر الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والقانونية، متجاوزًا بكثير نطاق تخصصه، فكتب مجموعة من الكتب الصغيرة نشرت فى مصر، كان آخرها كتابًا من أربعة أجزاء بعنوان «وصيتى لبلادى»، كتبه بعد أن أصيب بمرض لا يمنعه من العمل أو الكتابة، ولا يقلل كثيرًا من نشاطه، ولكن ظل هذا المرض كالسيف المسلط عليه، لا يعرف فى أى وقت يمكن أن يفاجئه، والناس إذا وضعوا فى مثل هذا الموقف يمكن أن يتصرفوا بطرق مختلفة، ولكن الطريقة التى اختارها إبراهيم شحاتة كانت هى أن يكتب «وصيته لبلاده».

للسيد جمال الدين الأفغانى عبارة جميلة فى وصف صفيّه وأقرب تلاميذه إلى قلبه، الشيخ محمد عبده، إذ خاطبه بقوله: «ابن أى ملك من الملوك أنت؟». لقد أدهش الأفغانى أن يرى محمد عبده، ذلك الفلاح ابن الفلاح، يتصرف ويتكلم ويبتسم ويضحك، ويخاطب العظماء والكبراء أو يكلم البسطاء من الناس، كما يتصرف ويتكلم ابن ملك من الملوك. من الصعب بالطبع أن نصف بالضبط كيف يتكلم أولاد الملوك، كما أنه ليس كل الأمراء يتصرفون كأولاد الملوك، ولكن من الممكن أن نتصور ما الذى كان يعنيه الأفغانى. وعندما رحت أستعيد ذكرياتى عن إبراهيم شحاتة، قفزت إلى ذهنى هذه العبارة فقلت: ما أشد ملاءمتها لإبراهيم شحاتة أيضًا!

قابلت إبراهيم شحاتة لأول مرة منذ نحو أربعين عامًا، وكنا مجموعة من الزملاء ثم تحولنا إلى أصدقاء، من العائدين حديثًا من بعثات الدراسة بالخارج فى القانون أو الاقتصاد. هذا عائد من باريس وهذا من لندن، وهذا من هارفارد أو معهد ماساشوسيتس للتكنولوجيا.. إلخ. وقد عاد معظمنا للتدريس إما فى حقوق عين شمس (وكان إبراهيم من هؤلاء) أو فى حقوق الإسكندرية. رأيت إبراهيم شحاتة رجلاً طويلاً، أسمر البشرة ذا ملامح مصرية صميمة مع وسامة واضحة، ولكنه كان يتميز أيضًا بمشية خاصة توحى على الفور بالثقة والاعتزاز بالنفس، كما تبعث على الفور على الاحترام. ذلك أنه كان منتصب القامة دائمًا، لا أثر فيها لأى انحناء فى الظهر، كما أنه يمشى بتؤدة دون أى ميل إلى الهرولة. وهو أثناء ذلك ينظر إلى الأمام لا إلى الأرض، فلا يترك أى انطباع بأنه مشغول فى داخل نفسه بأية شكوك أو مخاوف مما قد يصرفه عن الإنصات إنصاتًا جيدًا لما تقوله والاستجابة له بالموافقة أو المعارضة على حسب ما تقتضيه الحال. وهو فى رده على ما تقول صريح تمامًا، ولكنه نادرًا ما يجرح، مقتضب القول آملاً أن يغنى قليل الكلام عن كثيره. وهو محب للحوار وتبادل الحديث لا يمل منه بسرعة، ويستطيع أن يضحك ضحكات صادقة وإن كانت مقتضبة بدورها، وهو أقدر على اكتشاف المسلى والشيق فيما يسمعه أو يراه منه على اكتشاف ما يبهج أو يثير الحماس. لا يميل إلى النميمة وذم الآخرين فى غيابهم، وإن كان على استعداد للاستماع إلى ما تقوله عنهم وأن يجد فى هذا بعض التسلية بشرط ألا تستغرق فى هذا أكثر من اللازم.

كنا كلنا من أفراد هذه المجموعة من الزملاء أو الأصدقاء، نحظى بالطبع بدرجة لا بأس بها من الذكاء ومن الطموح، وإلا ما كان لنا، على الأرجح، أن نصبح أعضاء فى هيئة التدريس

رأيت إبراهيم شحاتة رجلاً طويلاً، أسمر البشرة ذا ملامح مصرية صميمة مع وسامة واضحة، ولكنه كان يتميز أيضًا بمشية خاصة توحى على الفور بالثقة والاعتزاز بالنفس، كما تبعث على الفور على الاحترام. ذلك أنه كان منتصب القامة دائمًا، لا أثر فيها لأى انحناء فى الظهر، كما أنه يمشى بتؤدة دون أى ميل إلى الهرولة

«وصيتى لبلادى» ـ جزءان
إبراهيم شحاتة
القاهرة: مركز ابن خلدون للدراسات الإنمائية
ودار الأمين للنشر والتوزيع ١٩٩٥

في الجامعة، وهكذا كان بالطبع إبراهيم شحاتة أيضًا، ولكنى مع مرور الأيام وازدياد معرفتى به بدأت ألاحظ فيه خصلتين أخريين، لابد أن أعترف بأن أحدًا منا لم يكن يدانيه في أى منهما.

الخصلة الأولى: هى قوة الشعور بالواجب. لا أقصد بالطبع أننا كنا فيما عداه، ضعيفى الشعور بالواجب، ولكنى أقصد أن قوة الشعور بالواجب لم تكن صفة مميزة لنا كما كانت مميزة له. ظهر هذا من البداية منذ تولينا كلنا مهمة التدريس بالجامعة، فقد رضخنا كلنا للتقليد الشائع وقتها، ولا يزال، بأن يقوم الأستاذ بتأليف كتاب جامعى في مادته، يشتريه التلاميذ جميعًا ويعتمدون عليه اعتمادًا أساسيًا (أو كليًا)، ولكن إبراهيم شحاتة كان الوحيد من بيننا، فيما أذكر، الذى لم يرضخ لهذا التقليد، ولا أظن أنه كتب كتابًا مدرسيًا أو جامعيًا واحدًا في حياته.

ثم ذهب إبراهيم شحاتة للعمل مستشارًا اقتصاديًا في الصندوق الكويتى للتنمية الاقتصادية العربية (١٩٧٠) ولحقت أنا به بعد أربع سنوات، فإذا بى أجد تفانيه في خدمة الصندوق مضرب الأمثال، ويكاد ألا يكون له مثيل من بين العاملين فيه. كان أداؤه في مختلف الوظائف التى تولاها يذكرنى بالمثل الإنجليزى البليغ: (If it is worth doing, it is worth doing well) أى أنه «إذا كان العمل يستحق أن يؤدى على الإطلاق، فإنه يستحق أن يؤدى بكفاءة». سمعت نفس الشيء بعد ذلك عن أدائه في فيينا، عندما تولى إدارة صندوق الأوبك لمعونة الدول النامية، ثم عن أدائه مستشارًا ونائبًا لمدير البنك الدولى، مما جلب له ثناء غير معهود من رئيس البنك الحالى عندما كتب يصف إبراهيم شحاتة، وهو يرثيه، بأنه: «كان ملتزمًا التزامًا لا شبهة فيه بقضية التخفيف من مشكلة الفقر، وبخدمة القضية التى يعمل البنك الدولى من أجلها، وكذلك بخدمة الدول الأعضاء في البنك وشعوبها». وذلك بعد أن وصفه بأنه «كان رجلاً استثنائيًا، وواحدًا من أعظم فقهاء القانون الدولى في القرن العشرين».

ولكن قوة الشعور بالواجب، متى توفرت، لابد أن تظهر في الأمور الصغيرة كما تظهر في الوظائف الخطيرة. وأشهد أنى في علاقتى الشخصية بإبراهيم شحاتة لم أصادف قط ما يتنافى مع ما عرفته عنه في أدائه لعمله. أهديته مرة في ١٩٧٠ كتابًا جديدًا ظهر لى، وكان في الكويت وكنت في مصر، كما أهديت الكتاب لبعض الكتَّاب والأصدقاء الآخرين، وكنت أشعر بالامتنان لمن يتفضل علىّ بخطاب شكر أو تهنئة، وهو ما لم يحدث من كثيرين، ولكنى دهشت دهشة حقيقية عندما تسلمت من إبراهيم شحاتة ليس مجرد خطاب شكر أو تهنئة بل بضع صفحات من النقد المفصَّل للكتاب، أوجه القوة فيه وأوجه الضعف.

هذا الشعور القوى بالواجب يتصل بالخصلة الثانية، (وقد يكون هذا الشعور بالواجب مجرد مظهر من مظاهرها) وهى الحب الفطرى لديه «للكمال». إنه يكره «النقص» في أى شيء، ماديًا كان أو معنويًا، في النظم الاجتماعية أو السياسية كما في الأخلاق. حدث مرة في أوائل معرفتى به، أن كنا جالسين في مطعم وسأل إبراهيم عن السمك، فأخذ خادم المطعم يشرح له مختلف أطباق السمك التى يمكن تقديمها، فإذا به يرفض أى طبق للسمك لا ينبئ باحتوائه على السمكة الكاملة، وقال ضاحكًا إن السمكة التى تأتيه ناقصة، ولا تأتى بكل أجزائها، من الرأس إلى الذيل، لا يستطيع الاقتراب منها. واعتبرت هذا حينئذ مجرد نزوة عابرة لا دلالة لها، ولكن توالى علىّ بعد ذلك من تصرفاته وسلوكه ما رجّح لدىّ أن ذلك الموقف من السمك قد يكون مجرد مثال لنزعة دفينة وأكثر عمومية. فقد سمعت بعد هذا أنه عندما اختار زوجة له، اختار الفتاة المثالية في الجامعة الأمريكية، واسمها كان بالمصادفة «سامية»، وعندما أراد أن يقدم لها هدية، قدم لها، بالإضافة إلى الهدايا التقليدية في الزواج المصرى، كتاب شعر في الحب، قام بترجمته من قصائد مصرية قديمة من العهد الفرعونى. وعندما رزقا بأول أطفالهما سمياه «شريف»، الذى لاحظت في المرات القليلة التى رأيته فيها أنه ورث لحسن الحظ كثيرًا من خصال أبيه، ولكن الظريف أنك إذا سألت «شريف» عن اسمه نطقه صحيحًا بفتح الشين بدلاً من كسرها، بعكس ما يفعل سائر المصريين إذا نطقوا بهذا الاسم. وهكذا كان ينطقه إبراهيم وسامية، وقد ضممت هذا إلى سائر الأمثلة التى صادفتها عن نفور إبراهيم شحاتة من أى نقص.

مرت سنوات واقترن اسم إبراهيم شحاتة بالبنك الدولى؛ إذ أصبح واحدًا من كبار المسئولين فيه. ولابد أن أعترف أنه إذا كان إبراهيم شحاتة من الأصدقاء الأثيرين لدىّ، فإنى لا أعتبر البنك الدولى كذلك. بل لقد ظللت دائمًا، ولا أزال أنظر إلى هذه المؤسسة بارتياب لم تنجح في التخفيف منه أية كمية من الأموال والقروض التى حصلت عليها مصر منه، وسواء كان سعر الفائدة الذى كان على مصر دفعه لهذه القروض منخفضًا أم مرتفعًا. ولكن إبراهيم شحاتة كان متحمسًا لهذه المؤسسة وخدمها كعادته بإخلاص منقطع النظير. كان على استعداد للاعتراف بأن البنك قد أخطأ في هذا العمل أو ذاك، أو قصّر في حمل هذه المسئولية أو تلك، ولكنه لم يشك قط في سلامة فلسفة البنك الدولى في التنمية بوجه عام. كنت (ولا أزال) أرى أن البنك الدولى وصندوق النقد الدولى (ويشاركنى في هذا الرأى كثيرون) يمثلان في التحليل الأخير مصالح رأس المال الدولى، وعلى الأخص، وفي العقود الأخيرة بالذات، مصالح الشركات متعددة الجنسيات، رغم كل ما ترفعه المؤسستان من شعارات توحى بغير ذلك. أما إبراهيم شحاتة فكان يراهما مؤسستين محايدتين في الأساس، يعبران عن اهتمام الرأى العام الدولى بقضايا التنمية والاستقرار، ويهدفان بصدق إلى التخفيف من أعباء الفقراء في العالم.

لا عجب إذن إن كنا كلما أثيرت قضية من قضايا التنمية؛ من قضية الاستثمارات الأجنبية الخاصة أو الاعتماد على النفس، إلى قضية الإحلال محل الواردات أو تشجيع الصادرات، إلى قضية القطاع العام أو القطاع الخاص، بل حتى قضايا السياسة التعليمية أو السكانية، نجد أننا نكاد أن نكون على طرفى نقيض.

كان كل منا يعرف بالطبع أن مستوى الادخار الضعيف في بلادنا أعجز من أن يحقق المستوى المرغوب من الاستثمار، وأن المستوى الضعيف الراهن للاستثمار يجب تكملته بشكل أو بآخر من مصادر جديدة. ولكننا كنا نختلف بمجرد أن نحاول الإجابة عن السؤال: ما هذه المصادر الجديدة للاستثمار؟ كان إبراهيم شحاتة يضع آماله وثقته في القطاع الخاص، الوطنى والأجنبى، وأنا أحمل شكًا عميقًا في رأس المال الأجنبى ولا أثق في استعداد رأس المال الوطنى لسد كل حاجات المجتمع في مختلف مجالات الاستثمار، ومن ثم فإنى كنت دائمًا أعوّل على دور كبير تقوم به الدولة.

كان إبراهيم شحاتة على استعداد تام للتسليم بالحاجة إلى إخضاع الاستثمارات الأجنبية الخاصة واستثمارات رأس المال الوطنى إلى بعض القيود من جانب الدولة ولكنه لا يقبل أن تقوم الدولة بنفسها بدور أساسى في التنمية، بينما أقبل أنا قيام الدولة بهذا الدور. كان إبراهيم شحاتة يحذّر بشدة مما لابد أن يؤدى إليه هذا بالضرورة من قيام دولة شمولية، بينما لا أشعر أنا بضرورة كل هذا الخوف من الدولة القوية. فأنا من ناحية على استعداد أكثر منه لقبول درجة من تقييد الحريات السياسية، وإذا كان من شأن هذا التغيير تحقيق درجة أعلى من العدالة الاجتماعية والاكتفاء الذاتى. كما أنى لا أثق على أية حال بإمكانية تحقق تلك الدرجة العالية من الحريات السياسية في دولة متغيرة في ظل اعتماد شديد على الاستثمارات الأجنبية الخاصة وعلى المعونات الأجنبية. كما أننى أعتقد أن أهم عوامل فقدان الحريات السياسية في الدولة الفقيرة هى عوامل خارجية وليست هى الاستعداد الطبيعى لدى حكام هذه الدولة للاستبداد بالأمر وفرض الرأى بالقوة. كان إبراهيم شحاتة يقول إن هذا الاعتقاد هو من قبيل الاعتقاد في «نظرية المؤامرة»، وأنا لا أجد غضاضة في الاعتقاد في مثل هذه النظرية وإن كنت أعتقد أن تسميتها بـ«نظرية المؤامرة» فيها ظلم كبير لأصحابها.

كان إبراهيم شحاتة يميل إلى البحث عن العلل الأساسية في الداخل، ويضع التوصيات المختلفة لعلاجها، وأنا أميل إلى رؤية الأصابع الخارجية وراء متاعبنا الأساسية، ولا أثق كثيرًا في إمكانية الإصلاح دون التحرر من الإدارة الأجنبية أولاً. كلانا يتراوح بين التفاؤل والتشاؤم ولكن الدافع الأساسى لدىّ مختلف تمامًا عن الدافع لديه، سواء فيما يتعلق بالتفاؤل أو التشاؤم. إنه يتفاءل عندما يرى المصريين على استعداد للتجاوب مع ما يعتقد أنه توصيات ضرورية للإصلاح، وأنا أتفاءل عندما أرى أى دليل على أن القوى الخارجية اضطرت لسبب أو آخر، إلى تخفيض درجة الضغط علينا. وهو يتشاءم عندما تتخذ الدولة من الإجراءات ما تزيد به القيود المفروضة على الاستثمارات الأجنبية الخاصة، وأنا أتشاءم عندما أجد الاستثمارات الأجنبية الخاصة تتدفق علينا دون أن تمارس عليها أية رقابة أو تفرض عليها أية قيود تذكر.

كان إبراهيم شحاتة يرى الأمل ضعيفًا في تحقيق معدل مرتفع للنمو إذا لم ننجح في حل مشكلة التزايد السريع في السكان، وأنا أعتقد أنه من الممكن إنجاز الكثير حتى مع استمرار هذا التزايد السريع في السكان. كلانا يعتبر أن الانخفاض الكبير في معدل المواليد سوف يحدث نتيجة لحدوث التنمية نفسها، ولكنه كان يعتقد أن من الممكن أن نصنع الكثير لتخفيض معدل المواليد حتى في ظل انخفاض معدل التنمية، وأنا أقل ثقة منه بكثير في إمكانية ذلك.

كلانا على استعداد للاعتراف بأن ما يسمى بمجانية التعليم في مصر الآن قد أصبح أقرب إلى الأسطورة منه إلى الحقيقة، مع التدنى الشنيع الحاصل في مستوى التعليم وشيوع الاعتماد على الدروس الخصوصية، ولكنى لا أحب مع ذلك المساس بمجانية التعليم وإنما أرجو فقط تحويلها إلى مجانية حقيقية، بينما يرى هو قصر هذه المجانية على المتفوقين وتكليف غير المتفوقين بتحمل نفقات تعليمهم.



كان ملتزماً التزاماً لا شبهة فيه بقضية التخفيف من مشكلة الفقر، وبخدمة القضية التى يعمل البنك الدولى من أجلها، وكذلك بخدمة الدول الأعضاء فى البنك وشعوبها .. وذلك بعد أن وصفه بأنه كان رجلاً استثنائياً، وواحداً من أعظم فقهاء القانون الدولى فى القرن العشرين

سرعان ما اكتشفنا حجم الفجوة التى تفصل بين آرائنا في قضايا التنمية، بل وسرعان ما اكتشفنا أن نجاح أى منا في تغيير موقف الآخر هو في حكم المستحيل. ومع هذا لم يؤثر هذا في صداقتنا قيد أنملة. لا أميل إلى تفسير هذا بذلك «الكليشيه» الشائع والخاطئ أيضًا في نظرى، فإن «اختلاف الرأى لا يفسد للود قضية» فما أكثر حالات الود التى أفسدها الاختلاف في الرأى، بل ما أكثر الحالات التى يحسن فيها - في رأيى - التخلى عن الود بسبب اختلاف الرأى. المهم هو نوع الاختلاف في الرأى وسببه. إن السبب في عدم فساد الود بينى وبين إبراهيم شحاتة، رغم اختلافنا الشديد في الرأى، هو أنه كان من الواضح تمامًا في نظرى ليس فقط الاتساق التام بين مواقفه وآرائه، وليس فقط إخلاصه الكامل فيما يعبر عنه من آراء، بل وشعورى الراسخ بأنه فيما يتخذ من آراء ومواقف مدفوع دائمًا بحرصه على الصالح العام ورغبة في تحقيق الخير لأمته، وليس مدفوعًا بالرغبة في تحقيق مصلحة شخصية، وبالميل إلى مسايرة المناخ السائد أو بغضب قديم لضرر ناله هو أو أسرته. ترتب على ذلك أن يأسى التام من إحداث أى تغيير في آرائه لم يكن له أى أثر على تقديرى له وثقتى فيه. وهكذا كنت أفرح دائمًا إذا عرفت بوجوده في مجلس أدعى إليه أو



في ندوة أشارك فيها. وقد نشأ بيننا تفاهم خفي على ألا نخوض في نقاش موضوعات بعينها يعرف كل منا أنه لا جدوى من دخولنا فيها. فكان تعبير كل منا عن رأيه في مثل هذه الموضوعات مصحوبًا دائمًا بالابتسام، بسبب ما يعرفه كل منا مقدمًا عن رأى الآخر، وكان تعبير كل منا عن رأيه في هذه الحالات، كان أقرب إلى تبادل التحية منه إلى مقارعة الحجة بالحجة.

إبراهيم شحاتة

كانت ثقتى التامة برغبته في تحقيق الصالح العام تجعلنى أقبل بصدر رحب من آرائه ما لم أكن أصبر عليه إذا صدر من غيره، وتجعلنى أيضًا أثق ثقة تامة بأن رجلاً كإبراهيم شحاتة، لو تولى مسئولية من المسئوليات الكبيرة في مصر، ولم يخضع لأى ضغط من الضغوط التى قد تمنعه من تنفيذ ما يراه، لكان من شبه المؤكد أن يصل إلى نتائج قريبة جداً مما أطمح إليه. وقد يبدو هذا غريبًا مع اتساع الفجوة بين آرائنا، ولكنى في الحقيقة كنت قد توصلت فيما يتعلق بقضايا التنمية والتقدم إلى النتيجة البسيطة الآتية: وهى أن مربط الفرس الحقيقى في تحقيق التقدم المنشود ليس هو ما إذا كانت الدولة تعتمد اعتمادًا أساسيًا على القطاع العام أم على القطاع الخاص، بل هو نوع العلاقة القائمة بينهما، أى بين القطاع الخاص من ناحية وبين الحكومة والقطاع العام من ناحية أخرى: هل هى علاقة صحية أم علاقة إفساد أحدهما للآخر؟ ليس مربط الفرس الحقيقى هو ما إذا كانت الدولة تسمح أو لا تسمح بالاستثمارات الأجنبية الخاصة، بقدر كبير منها أو صغير، بل هو ما إذا كانت الدولة تستطيع أن تمارس، وتمارس بالفعل سلطتها في توجيه هذه الاستثمارات إلى هذه الفروع أو تلك من فروع النشاط الاقتصادى، ونحو تشغيل الحجم الأمثل من العمال وتدريب العدد الكافى منهم ودفع ما عليهم دفعه من ضرائب .. إلخ. القضية ليست ما إذا كان من المرغوب فيه أو غير المرغوب فيه تخفيض معدل نمو السكان، فهو قطعًا أمر مرغوب فيه، وإنما القضية هى ما إذا كنت تفعل كل ما بوسعك أن تفعل، حتى قبل أن ينخفض المعدل، في سبيل تحقيق التنمية السريعة، أم تؤجل هذا حتى ينجح الناس في تخفيض نسلهم، وتلقى بالمسئولية خلال ذلك على الناس أنفسهم. والقضية ليست هى الاعتماد على النفس أم على الغير، بل هى الاعتماد على النفس حيث يجب الاعتماد عليها، والتعاون مع الغير دون الاعتماد عليهم.

هكذا تبدو قضية التنمية والتقدم في نظرى، فإذا كان الأمر كذلك، فإن الخلاف في الرأى بينى وبين إبراهيم شحاتة لم يكن خلافًا خطيرًا في الحقيقة، مهما تصورنا أحيانًا غير ذلك.

إن مثل إبراهيم شحاتة لم يكن ليسمح، لو تولى مسئولية كبيرة في مصر، بإفساد العلاقة بين العام والخاص، ولا بالانفتاح «السداح مداح» ولا بالاعتماد على الغير حين يجب الاعتماد على النفس.. إلخ. بل إنى أذهب إلى حد القول بأن هذا هو بالضبط أحد الأسباب الرئيسية في أن رجلاً مثل إبراهيم شحاتة لم يلعب في مصر الدور الذى كان يجدر بمثله أن يلعبه، وأنه «اضطر» بدلاً من ذلك إلى أن يوجّه مهاراته ومواهبه لخدمة المؤسسات الدولية.

سمعت منذ أشهر قليلة أن إبراهيم شحاتة سيعود إلى مصر بعد أن بلغ سن التقاعد في البنك الدولى، وكنت قد عرفت قبل ذلك أن مرضه، وإن كان خطيرًا، فهو تحت السيطرة التامة. ورأيته بعد عودته، فوجدت وجهه نحيلاً أكثر مما تعودت أن أراه، ولكنه كان مبتهجًا بالحياة كعادته، بل أكثر من المعتاد، ولم أجد عليه أى أثر يمكن أن يكون قد نتج من إقامته الطويلة في الخارج، وكأنه لم يترك مصر قط، وبدا وكأن أمامه مستقبلاً جديدًا من العمل الجديد في مصر. وعندما سألته عما ينوى أن يفعله في مصر قال بسرور: إن أسرة ساويرس قررت إنشاء مؤسسة خيرية جديدة لتقديم خدمات اجتماعية لا تستهدف الربح، وأنه قَبِلَ مسرورًا رئاسة هذه المؤسسة دون مرتب. قلت لنفسى: «هذا هو بالضبط ما كان يمكن أن أتوقع من إبراهيم شحاتة القيام به لدى عودته إلى مصر».

عمل جديد من نوعه، لكن مصر في أشد الحاجة إليه. يقوم به القطاع الخاص ولكن دون أن يستهدف الربح. ويتولى إبراهيم شحاتة أهم منصب فيه، ولكن دون مرتب. عمل أساسه المبادرة الفردية لكنه ينطوى على شعور قوى بالمسئولية الاجتماعية. وهاهو إبراهيم شحاتة يتطوع ليقوم بالعمل الملموس وليس بالكلام. إن القطاع الخاص وإن كان من الممكن أن يكون شريرًا، فإنه ليس بالضرورة كذلك ومن الممكن أن يلعب دورًا أساسيًا في نهضة الأمم كما لعب من قبل في تجارب الدول قديمة العهد بالتصنيع.

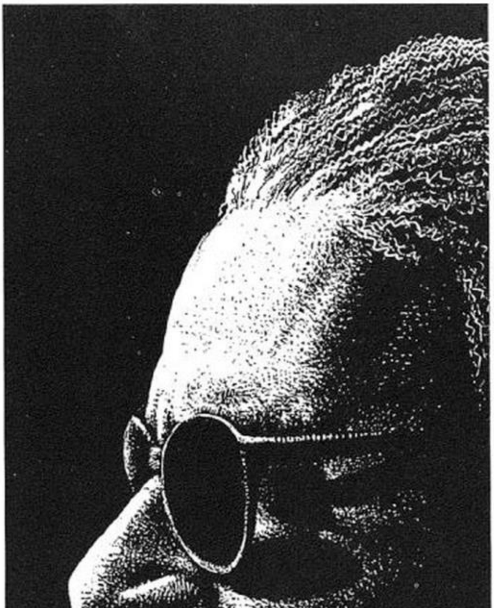
ولكن الموت لا يفرق بالطبع بين إبراهيم شحاتة وغيره. ففاجأه المرض في مكان آخر من جسمه دون مقدمات، وظهر بسرعة أن النهاية قريبة جدًا، وأخبرتنى إحدى شقيقتيه الفاضلتين أنه عندما عرف بذلك كان تعليقه: «إنى قابل لأى شىء». وقد وجدت في هذه العبارة أيضًا تأكيدًا جديدًا لما أعرفه عنه: إن رجلاً لديه مثل هذا الشعور القوى بالواجب، ويطمح دائمًا إلى الكمال، لا يمكن أن يظهر أمام الموت إلا بمثل هذه الرجولة وهذا الثبات. ■



معاً نسمو نحو غد أفضل
بأحدث ما أبدعته تكنولوجيا الطيران
مصر للطيران
EGYPTAIR
www.egyptair.com.eg
اهلاً بك معنا

رسالة لم تنشر .. عن ثورة يوليو

طــــه حسين



حسب كثير من الكتاب والمؤرخين فإن العلاقة بين الدكتور طه حسين وثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، كانت ملتبسة، بدأت كما جاء فى مذكرات زوجته السيدة سوزان بأن الدكتور طه أصيب بحالة إغماء لدى تلقيه نبأ قيام الثورة وانتهت بكلمة رثاء لعميد الأدب العربى فى الخامس من أكتوبر عام ١٩٧٠ لوفاة الزعيم الراحل جمال عبد الناصر قال فيها: إن ناصر «حاول موفقًا إلى أبعد الحدود إلغاء الطبقات والأخذ بيد الضعفاء والفقراء وتحقيق المساواة الكاملة بين المواطنين».

فى أوراق طه حسين غير المنشورة رسالة تعود إلى ٩ يوليو ١٩٥٣ بعث بها إلى زوج ابنته الدكتور محمد حسن الزيات وزير الخارجية الراحل يتحدث فيها عميد الأدب العربى عن الثورة فى بداياتها وتطلعاته إلى ما ينبغى أن تكون عليه وأن تحققه. وقد كتب طه حسين هذه الرسالة من مصيفه فى باريس إلى الزيات الذى ارتبط قبل ذلك بسنوات بعلاقة مودة مع الدكتور طه وأسرته. وكان الزيات تلميذًا لطه حسين أُوقف عن الدراسة لتوجهاته الوطنية وتكفل طه حسين بمساعدته فى تحصيل ما فاته، ورحب به زوجًا لابنته. ويخاطب الدكتور طه حسين الدكتور الزيات فى هذه الرسالة باسم عطية. وهناك من يفسر سبب إطلاق هذا الاسم على الزيات بأنه كان كريمًا معطاءً لا يبخل بشىء على أسرته.

والرسالة التى تنشرها «وجهات نظر» أملاها الدكتور طه حسين فى أربع صفحات وهى إضافة إلى تناولها ثورة يوليو تتحدث عن أمور أخرى مثل دعوة طه حسين لزيارة الولايات المتحدة ورده على ذلك.

إبراهيم عبد العزيز

عزيزى عطية:

لم أرد على كتابك الذى تلقيته فى القاهرة قبل السفر لأن شئون هذا السفر قد شغلتنى عن الرد. فالخروج من مصر الآن معقد أشد التعقيد، فليس بد من إذن السلطات العسكرية وهى تأذن لمثلى فى غير مشقة. وليس بد من إذن وزارة المالية بإخراج ما يحتاج إليه المسافر من المال. وهى لا تأذن لمثلى ولا لغيرى إلا بالمشقة الشاقة والعسر العسير والبخل الذى تمجه النفوس. وقد أذنت لنا بعد جهد أى جهد بأقل جداً مما كنا نريد، وأتيح لنا آخر الأمر أن نعبر البحر وأن نعيش وقتاً ما فى جو طلق لا تفسده الشائعات الكاذبة ولا تفسده الرقابة الخانقة، ولا يفسده التأفف المتصل، ولا يفسده آخر الأمر هذا السخف المصرى الذى لا أعرف له حدًا.

وليس معنى هذا أنى ضيق بالثورة فى نفسها، فالثورة فى نفسها خير لاشك فيه، وهى قد أراحت مصر لا من فاروق بل من نظام الملكية السخيف. وهى تفرض الآن على مصر نظامًا عسكريًا قد يثقل على بعض الناس ولكنه نظام موقوت لابد منه.

وأعترف بأنى لم أحس ثقله. والثورة بعد ذلك خير لأنها حركة ولأنها توقظ النيام ولأنها تشعر العالم بأن فى مصر حياة وطموحًا، ولأنها الغاية التى كنا نعمل لها منذ شبابنا الأول. أخفقت سنة ١٩١٩ ونرجو مخلصين أن يكتب لها النجاح الكامل فى هذه المرة.

كل هذا واضح، ولعلك تعرف رأيى فى هذا كله من الفصول التى نشرتها بعد الثورة، ولكن المصريين كما تعرفهم محدثون فى الثورة يجهلون من أمورها كل شىء، وهم بعد ذلك لا يحبون احتمال المشقات، وإنما يريدون أن ينقلوا ما يكرهون إلى ما يحبون فى غير جهد ولا عناء ولا تضحية، وهم يقولون كثيرًا ولا يعملون شيئًا، وهم عبء على حكامهم يتملقونهم بالقول ويثقلون عليهم بالعمل ويرهقونهم من أمرهم عسرًا دائماً. وأغرب ما فيهم أنهم يصدقون بألسنتهم كل ما يقول لهم

**الثورة فى نفسها خير لا شك فيه،
وهى قد أراحت مصر لا من فاروق بل من نظام
الملكية السخيف. والثورة بعد ذلك خير لأنها حركة ولأنها توقظ النيام
ولأنها تشعر العالم بأن فى مصر حياة وطموحًا، ولأنها
الغاية التى كنا نعمل لها منذ شبابنا الأول**

الحكام ويكذبون بقلوبهم كل ما يقول لهم الحكماء أيضًا. فهم راضون بألسنتهم. ساخطون بقلوبهم كأنهم خلقوا ليكونوا منافقين. والخطر كل الخطر فى أمرهم أنهم لا يريدون النفاق ولا يحبونه ولكنهم خلقوا ضعافًا يصانعون الحكام فى ظاهر أمرهم ليأمنوا بطشهم ويعيبون الحكام فيما بينهم وبين أنفسهم ليرضوا ضمائرهم.

هم فى حاجة إلى شىء من القوة، قوة الخلق، وإلى شىء من الشجاعة ليلائموا بين ما يظهرون وما يضمرون، ويصارحوا حكامهم بما يريدون، ويومئذ تستقيم أمورهم كلها، ولست يائسًا لأنى لم أعرف اليأس قط. لست يائسًا من أن هذا سيتحقق فى يوم قريب أو بعيد.

ولست أكتب إليك لأتحدث فى أمر الثورة فأنت تعرف من أمرها مثلما أعرف وإنما أتحدث إليك فى أمرها لأنى أحسست فى كتابك الثانى شيئًا من التردد والإشفاق، وأحب ألا تتردد وألا تشفق، وأن تؤيد الثورة بكل ما تملك من قوة، فهى خليقة بالتأييد، ونجاحها غاية يجب أن يطمح إليها كل محب لمصر، وهى كغيرها من الثورات تخطىء كثيرًا وتصيب قليلاً. وصوابها القليل يرجح خطاها الكثير.

وهى قد تسىء إلى بعض الناس أو إلى كثير من الناس لكنها آخر الأمر تنقل مصر من طور إلى طور، وفى الحركة بركة كما يقال، وليس قليلاً أنها أعلنت الجمهورية وألغت الملكية وألغت الامتيازات التى كانت للأسرة المالكة ولبعض المتسلطين من أصحاب الثراء العريض. ونحن نستطيع إن أخلصنا ونصحنا وصدقت عزائمنا أن نوجهها إلى الخير، وسبيلنا إلى ذلك أن نؤيدها أولاً ونشير عليها ثانيًا، ونعارضها حين تخطىء أو حين تتعرض للخطأ ثالثًا.

ولست أشك فى إخلاصك ولا فى صدق نيتك ولكن الشاهد يرى ما لا يرى الغائب، والقريب يحس ما لا يحس البعيد، ومصر الثائرة خير من مصر الخاضعة. فامض فى خدمتها فى مستقبل أيامك كما مضيت فى خدمتها من قبل، ولا تبخل على السفير بمعونتك مهما تكن، ولا تبخل عليه بنصحك ومشورتك حتى تستيئس من القدرة على ذلك. وأنا أعلم أنه يريد استبقاءك، وأحس أنك لا تكره هذا البقاء، فابق على خيرة الله. وإن كنت أرى أنكم قد أسرفتم فى الغيبة عنا، ولكنك تعرفنى فيما أعتقد حق المعرفة وتعلم أنى لا أوثر نفسى ولا أهلى على مصر، ولن ألح عليكم فى العودة لننعم بلقائكم ولا لنعرف أبناءنا الصغار. فهذا كله يخصنا نحن، وقد يجب علينا أن نضحى بكثير مما نحب أو بعض مما نحب أو بكل ما نحب إذا اقتضت ذلك مصلحة مصر أو اقتضت ذلك مصلحتكم. وأنتم لم تخلقوا لنا وإنما خلقتم لوطنكم وللإنسانية ولأنفسكم بعد ذلك، ونأتى نحن فى المرتبة الرابعة أو الخامسة لا أدرى. وقد نعتب عليكم فى أنكم لم تحاولوا جادين لقاءنا حين سنحت لكم الفرص. فاقبلوا هذا العتاب على أن مصدره الحرص على أن نراكم لا شىء آخر.

أما بعد..

فاستقبل أمرك شجاعًا جريئًا موفقًا إن شاء الله غير مفكر إلا فى مصر وفى أسرتك ومستقبلها. ودعنا نحن حيث أراد الله أن نكون. وأنا أعتقد أن السفير لن يجد مشقة فى استبقائك إذا كتب إلى الجامعة وإلى الوزارة، وسيزوركم العميد قريبًا فليقل له السفير كلمة، فسيبلغ منه ومن كليته ما يريد، ولا تنس أن الدكتور عوض هو مدير الجامعة، وأن إسماعيل القبانى هو وزير المعارف، وأن السفير أثير عند رجال الثورة. ولست أكره استبقاء السفير لك، فقد يدل ذلك على أنى لم أوثرك بأمريكا حين أرسلتك إليها، وإنما آثرت بك مصلحة مصر على حبنا لك ولابنتنا وأحفادنا، والله يتولى جزاء الذين يصدقون فى نياتهم وأعمالهم.

أما زيارتنا لأمريكا فأمر بعيد كل البعد أولاً لأن سوزان ليست راغبة فى هذه الزيارة بحال من الأحوال لبعد أمريكا ومشقة السفر إليها، وإشفاقها علىّ من عناء هذه الزيارة ومن الحياة الأمريكية المرهقة.

وثانيًا: لأنى أنا قد بلغت من السن ما يزهدنى فى مثل هذا النشاط وما يمكن أن يكون وراءه من ألوان الغرور. ولن أسعى إلى مثل هذه الزيارة لا عند السفير المصرى ولا عند الحكومة ولا عند الأمريكان، ولن أتكلف مثل هذه المشقة إلا أن أكره عليها إكراهًا وما أعرف أن أحدًا يحاول إكراهى على ما لا أحب فأرح نفسك إذن من التفكير فى زيارتنا لأمريكا، وأرح نفسك من التفكير فى الدكتوراة الفخرية إلا أن تفكر فيها لنفسك. أما أنا فقد زهدت فى هذه الأشياء كلها زهدًا أى زهد، وعسى أن أكون قد كرهتها، ومن يدرى لعلك تفكرنى حين تلقانى إن أتيح لنا أن نلتقى إن شاء الله.

وقد سألت كلود فرأيته زاهدًا فى زيارة أمريكا زهدًا شديدًا ولست أدرى لماذا؟ فأنا شخصيًا لا أحب شيئًا كما أحب السفر والاستكشاف، ولكن الشباب يفكرون على نحو غير النحو الذى أفكر أنا عليه. وأكبر الظن أن كلود (الاسم الذى اختارته سوزان لابنها مؤنس) لا يكره زيارة أمريكا إن استطاع أن يزورها حرًا على نفقته أو على نفقة أسرته لا على نفقة مصر أو أمريكا فهو شديد الحرص على حريته واستقلاله.

واصل الآن إلى قصة الأستاذ أحمد أمين فلا أجد فيها غرابة فقد عرفته حريصًا على المال أشد الحرص، مؤمنًا أشد الإيمان، راغبًا فى الدنيا أكثر من رغبته فى أى شىء آخر، وقد كانت صحته تعينه على إخفاء ذلك، فلما أدركته العلة اضطر إلى الصراحة اضطرارًا، وأنت ترانى مسئولاً عن إكباركم معشر الشباب لأحمد أمين وزيادة وأمثالهم، ولست أنكر هذه التبعة ولا أمجدها. وقد اخترت لتعليمكم خير من وجدت فى مصر، ولو رأيت خيرًا منهم لأهديتهم إليكم. ولكن المثل الفرنسى يقول:

إن أجمل بائعة للتبغ لا تستطيع أن تعطى إلا ما عندها.

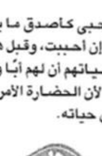
فاحمدوا الله على ما آتاكم واجتهدوا فى أن تكونوا خيرًا من الذين سبقوكم لتهدوا إلى الشباب أساتذة خيرًا من الأساتذة الذين أهدينا إليكم. وأنتقل إلى هذه السيدة الأمريكية التى لا أذكر اسمها والتى سأرد عليها قطعًا إن شاء الله، لأن كتابها قد وصل إلىّ أمس، فهى تريد فيما يظهر فصلاً يتصل بما تسمونه علم الثقافة فى لغتكم الأمريكية الجديدة. وليس يعنينى أن يكون ما تعرضه من المال مجزئًا أو غير مجزئ، لأن الله لم يخلقنى كالأستاذ أحمد أمين وإن جعل من ورائى قومًا يحرصون على ألا أبذل جهدًا غير منتج بعد الجهود الضائعة الكثيرة التى يظنون أنى بذلتها. سأرد على هذه السيدة إذن وسأجتهد فى أن أكتب لها شيئًا ما، وهى قد أعطتنى مهلة من الوقت لأنها تريد إن كنت قد فهمت عنها أن يصل إليها هذا الفصل قبل أبريل من العام المقبل. ومن حيث أنى قد ورطت نفسى مع مجلة أمريكية فوعدت بكتابة فصل عن الأدب العربى فى الخمسة والعشرين عامًا الأخيرة. فلن أفكر فى الفصل الذى تطلبه هذه السيدة إلا بعد أن أفرغ من الفصل الذى طلبته هذه المجلة.

ولست أدرى ما للأمريكيين ومالى، فهم يضطهدوننى بالدعوات وطلب المقالات ويسمعوننى ـ كما يقول أبو العلاء ـ جعجعة ولا يروننى طحنًا. وأكبر الظن أنك أنت وزوجك مصدر هذه الدوشة الأمريكية التى لا طائل منها ولا غناء فيها. وأرانى قد كتبت إليك كتابًا يعدل كتبك الثلاثة طولاً، وأحسبنى قد كفّرت عن إبطائى فى الرد على هذه الكتب.

أما السيدة الجليلة أمينة هانم فقد ينبغى أن تذكرها وتذكر نفسك أيضًا معها بأن الناس يولدون من آباء وأمهات أو من أمهات وآباء، وأن لهؤلاء الوالدين حقًا لا ينبغى أن يُنسى مهما يكن ضئيلاً. وأن أيسر ما يجب لهؤلاء الوالدين أن يسعى أبناؤهم إلى لقائهم إن استطاعوا، وأن يكتبوا إليهم إن حيل بينهم وبين هذا اللقاء إلا أن تكون الحضارة الأمريكية الحديثة قد آثرت أن تجعل للأبناء حقوقًا وأن تهدر تلك الحقوق العتيقة التى قررتها الحضارات القديمة للوالدين.

وتقبل بعد هذا كله مودتى كأخلص ما تكون المودة، وحبى كأصدق ما يكون الحب، واستأثر بهما إن شئت أو أشرك زوجك فى بعضهما إن أحببت، وقبل هؤلاء الصبية الذين يعرفون من غير شك فى هذا الطور من حياتهم أن لهم أبًا وأمًا، ويجهلون من غير شك أيضًا أن لهم جدودًا وأعمامًا وأخوالاً، لأن الحضارة الأمريكية تريد كما كانت أمينة هانم تقول فيما مضى أن يحيا كل إنسان حياته.

ولكم جميعًا أصدق تحياتنا جميعًا.



هامش:

قرأت حديثكما إلى الراديو وما أشك فى أن الثورة ترضى عنه كل الرضا فهى لا تقول إلا مثلما قلت.
واقرأ تحيتنا على الأستاذ روبنسون وزوجه. واقرأ تحية خاصة منى على السفير.

أزمة الاقتصاد المصرى .. بين العلاج

شريف لطفى

الحمد لله أن المسئولين أصبحوا يقرون بأن هناك أزمة اقتصادية فى مصر فى الوقت الحاضر. فأول خطوات العلاج لأى مريض هى أن يكون مقتنعًا بأنه مريض. ومن ثم يكون متقبلاً لوسائل العلاج مهما بلغت مرارتها ومهما ساء طعم الدواء اللازم لتحقيق الشفاء. وثانى خطوات العلاج هى التوصل إلى تشخيص صحيح ودقيق لأسباب الداء. فكل داء له دواء بذاته، ولا يفيد تعاطى أكثر الأدوية فاعلية إذا ما كانت غير مناسبة لطبيعة الداء. وتزخر الصحف بتصريحات حكومية وغير حكومية وبكتابات لعدد من الكتاب والاقتصاديين تشخص طبيعة الأزمة الاقتصادية وترجعها إلى أسباب تراها. ومن ثم تعددت الآراء عن وسائل العلاج وأدواته بتعدد هذه التشخيصات. وفى اعتقادى أن بعض هذه الآراء صحيح جزئيًا ولكنه لا يفسر تفسيرًا كاملاً أسباب الأزمة وبالتالى لا يتوصل إلى علاج ناجع وإنما يؤدى على أحسن الفروض إلى الأخذ بمسكنات محدودة المفعول وقصيرة الأجل فى تأثيرها. ومن هنا آثرت أن أستعرض محاولات التشخيص التى تناولتها الصحافة وفى سياق ذلك أحاول التوصل إلى تشخيص أطمئن إلى دقته ومن ثم إلى ما يستوجبه بطبيعته من علاج. وفيما يلى عرض مختصر لهذه المحاولات مع تعليق موجز على كل منها:

١ـ كانت أولى محاولات التشخيص تذهب إلى أن هذه مجرد دورة تجارية يجىء فيها الركود بعد الرواج، ثم يعود الرواج من جديد، إما من تلقاء نفسه نتيجة لعوامل ذاتية تنطوى عليها طبيعة الدورة التجارية أو بمساعدة محدودة من السلطات النقدية والمالية المختصة بغية تقصير مدى دورة الركود، وفعلاً ظهرت مقترحات بأن علاج الموقف يتمثل بناء على هذا التشخيص فى أن تقوم الحكومة بدفع المتأخرات المستحقة عليها قبل المقاولين والقطاع الخاص. وقدرت مبالغ هذه المتأخرات بأكثر من عشرة مليارات من الجنيهات. وفى تقديرات أخرى بأكثر من ١٥ مليار جنيه. ويبدو أن أصحاب هذا الرأى تصوروا أنه بمجرد سداد هذه المتأخرات ينتهى الركود ويعود الرواج من جديد، وهو تصور غير صحيح فى رأيى، وعلى أية حال فإن الحكومة لم تقم بدفع هذه المتأخرات على وجه السرعة كما أعلنت، والصحيح أن دفع هذه المتأخرات كان يساعد جزئيًا على مواجهة الموقف ولكنه لا يمثل العلاج الكامل للأزمة الاقتصادية. كما أنه من اللافت للنظر أيضًا أن الحكومة لم يكن مفروضًا أصلاً أن يتراكم عليها مثل هذه المبالغ الكبيرة من المتأخرات. وليس مفهومًا كيف عولجت هذه المتأخرات محاسبيًا فى بيان الحسابات الختامية للدولة فى السنوات السابقة. ويثير ذلك تساؤلاً عما إذا كان عدم دفع المستحقات المذكورة فى وقتها راجعًا إلى الرغبة فى تصوير العجز فى تلك الحسابات بأقل من حقيقته، وذلك بعدم إدراج تلك المطالبات فى الحسابات الختامية للسنوات الخاصة بها، الأمر الذى يشكك فى سلامة الإحصاءات المالية المنشورة، ولكن الأهم هو أن هذا التفسير للأزمة الاقتصادية لا تؤيده المؤشرات الإحصائية. فالركود السائد قد امتدت مدته فعلاً بأكثر مما هو معتاد فى الدورات التجارية العارضة، إذ بدأ الركود منذ أكثر من ثلاث سنوات ولازالت آثاره ممتدة لمستقبل قد يطول أمده ما لم تتخذ السياسات الصحيحة والفعالة لعلاج هذا الوضع. ومؤشرات الاقتصاد القومى تدل على أن هناك خللاً هيكليًا أكثر عمقًا فى الاقتصاد القومى وليس مجرد دورة تجارية عابرة سببها تأخر الحكومة فى سداد ما عليها من مستحقات.

٢ـ وثانى محاولات التشخيص ذهبت إلى توصيف الأزمة بأنها نقص فى السيولة. ومن ثم كانت مقترحات العلاج المنبثقة من هذا التشخيص هى أن تقوم الحكومة علاوة على سداد المتأخرات باتخاذ السياسات النقدية التوسعية المؤدية إلى زيادة السيولة، ومن ذلك تخفيض نسبة الاحتياطى التى تحتفظ بها البنوك لدى البنك المركزى من ١٥٪ حاليًا إلى ما هو أقل. وربما كذلك عمليات سوق مفتوحة يقوم بها البنك المركزى فى شكل إعادة شراء السندات الحكومية وأذون الخزانة وغير ذلك من الإجراءات المؤدية إلى توسع نقدى كالتوسع فى إصدار البنكنوت. والسيولة مصطلح اقتصادى مصرفى أصلاً يعنى سهولة تحويل أصل من الأصول إلى نقود، ومجال استخدامه فى المقام الأول فى تقييم ميزانيات البنوك بالجهاز المصرفى، فإذا ما رجعنا إلى إحصاءات المعروض النقدى التى ينشرها البنك المركزى المصرى، وكذلك إلى ميزانيات البنوك لا نجد عجزًا يذكر فى سيولتها، فإحصاءات البنك المركزى المصرى تظهر زيادة سنوية فى إصدار البنكنوت تدور حول ١٠٪ بنقص عن ذلك المعدل فى بعض السنوات وزيادة فى سنوات أخرى، وهى على كل حال نسبة نمو عالية، وكذلك بند نقود الاحتياطى وعرض النقود كلها تنمو بنسب تنفى وجود عجز فى السيولة بمستوى يهدد السيولة فى الجهاز المصرفى ككل. فيتبين من آخر تقرير سنوى للبنك المركزى المصرى عن السنة المالية ١٩٩٩/٢٠٠٠ أن رقم السيولة المحلية ارتفع بمعدل ٨,٥٥٪ فى آخر يونية ١٩٩٨ عنه فى آخر يونية ١٩٩٧، ثم ارتفع بمعدل ١١,٤٤٪ فى آخر يونية ١٩٩٩، ثم ارتفع بمعدل ٥,٨٢٪ فى آخر يونية ٢٠٠٠. وهى كلها معدلات تجاوز معدلات نمو الدخل القومى، مما يشير إلى أن معدلات نمو السيولة المحلية كان وافيًا باحتياجات نمو الدخل القومى. وكذلك يتبين من التقرير المذكور أن النقد المتداول خارج الجهاز المصرفى قد ازداد فى نفس السنوات المذكورة بمعدلات ١٤,٢٧٪ و١١,٣٧٪ و٦,٥٩٪ على التوالى، وكلها أيضًا معدلات تفوق معدل نمو الدخل القومى، مع ملاحظة أن اقتصار معدل نمو النقد المتداول خارج الجهاز المصرفى فى السنة الأخيرة على ٦,٥٩٪ إنما هو نتيجة للأزمة الاقتصادية وليس سببًا لها، حيث إنها قد بدأت فعلاً منذ ثلاث سنوات.

والواقع أن الظاهرة الوحيدة التى تعكس درجة بسيطة من عجز فى السيولة نجدها فى ارتفاع سعر الفائدة فيما بين البنوك. أى أن بعض البنوك تجد نفسها أحيانًا محتاجة إلى اقتراض مبالغ من بنوك أخرى لديها فائض سيولة. وهذه القروض هى عادة لمدد قصيرة جدًا تحسب بالأيام، وبناء على ذلك فإن أوجه العلاج بالتوسع النقدى عن طريق تخفيض نسبة الاحتياطى أو بعمليات السوق المفتوحة على ما سبقت الإشارة إليه لا يجدى فى علاج الأسباب الحقيقية للأزمة، وكل ما يمكن أن يحققه هو التخفيف فى حدود ضيقة من صعوبات بعض وحدات الجهاز المصرفى، وفى الواقع فإن القول بنقص السيولة فى بعض الكتابات لم يكن متفقًا مع المعنى الحقيقى والفنى لهذا المصطلح. ذلك أن المشكلة ليست عجزًا فى سيولة الجهاز المصرفى، وإنما عجز الشركات الإنتاجية عن بيع منتجاتها مما ترتب عليه عجزها أيضًا عن سداد فوائد وأصل قروضها من الجهاز المصرفى، وليس الأمر بهذه الصفة عجزًا فى السيولة وإنما هو عجز فيما أسماه الاقتصادى الكبير اللورد كينز فى نظريته العامة بانخفاض فى الطلب الفعال على السلع والخدمات، والطلب الفعال يعبر عنه حجم الإنفاق الفعلى الخاص والعام على الأغراض الجارية وعلى أغراض الاستثمار، وبناء عليه فإن مجرد زيادة النقود لا يعنى حتمًا زيادة الطلب الفعال والذى يتأثر بعناصر أخرى كثيرة وليس مجرد كمية النقود المتوافرة فى وقت ما. ودراسة العوامل التى أثرت فى حالتنا هذه على حجم الطلب الفعال ضرورى للوصول إلى تشخيص وعلاج صحيح للأزمة.

٣ـ الإنفاق الاستثنائى سواء من قبل القطاع الخاص أو العام، ويذهب هذا الرأى إلى أنه قد جرت خلال السنوات الأخيرة موجات من الإنفاق الخاص والعام أدت إلى سحب السيولة اللازمة للإنفاق على الأغراض الأخرى. وفى الواقع إن هذا الرأى بصورته

تصور البعض أنه بمجرد سداد المتأخرات على الحكومة ينتهى الركود ويعود الرواج من جديد، وهو تصور غير صحيح فى رأيى وعلى أية حال فإن الحكومة لم تقم بدفع هذه المتأخرات على وجه السرعة كما أعلنت، والصحيح أن دفع هذه المتأخرات كان يساعد جزئيًا على مواجهة الموقف ولكنه لا يمثل العلاج الكامل للأزمة الاقتصادية

بالمسكنات والإصلاح الشامل



المعروض بها يحمل بعض التناقضات التى تحتاج إلى تمحيص قبل الخروج برأى سليم بشأنها. فكما سبق أن أوضحت فى الفقرة السابقة أن الإنفاق الخاص والعام هو الذى يؤدى إلى زيادة حجم الطلب الفعال فى الاقتصاد القومى، ومن ثم فمن المفترض أن يؤدى ذلك إلى خلق حالة رواج وليس حالة كساد اللهم إلا إذا صاحبت ذلك ظروف معينة من شأنها خروج الأموال التى أنفقها القطاع الخاص أو العام من دائرة التداول فى الاقتصاد القومى. وبعض الأمثلة التى يقدمها هذا الرأى لأوجه الإنفاق الاستثنائى تحتمل هذا التشخيص جزئيًا، وعلى ذلك فهى مسئولة فعلاً فى حدود هذه الجزئية عن جانب من الكساد الملحوظ حاليًا، ويذكر أصحاب هذا الرأى من بين أوجه الإنفاق الاستثنائى إنفاق القطاع الخاص على الدروس الخصوصية وعلى التليفون المحمول، وإنفاق القطاع العام على المشروعات المسماة بالعملاقة وعلى مشروع نفق شارع الأزهر وعلى مشروعات مدينة الإنتاج الإعلامى والأقمار الصناعية، والإنفاق على المشروعات التى تتم بنظام Bot، ومشروعات Bot هى مشروعات عامة تمنحها الحكومة بعقد امتياز إلى شركات القطاع الخاص، فيتحمل القطاع الخاص تكلفتها الرأسمالية ويقوم بإدارتها مقابل حصوله على إيراداتها وأرباحها الصافية للمدة المحددة فى عقد الامتياز، ثم تعود ملكية المشروع إلى الدولة بعد انقضاء تلك المدة وبالشروط التى ينص عليها عقد الامتياز. ويوضح أصحاب هذا الرأى أن جانبًا من هذا الإنفاق الخاص والعام يخرج من دائرة التداول بمجرد إنفاقه لسببين، أولهما: أن أوجه الإنفاق هذه تؤدى بطبيعتها إلى تركز الثروة وانتقالها من يد الفئات الفقيرة إلى يد فئات غنية أكثر ميلاً إلى الاكتناز بطبيعتها، وثانى هذين السببين هو أن جزءًا كبيرًا من هذا الإنفاق الاستثنائى ينطوى على قدر كبير من الاستيراد من الخارج بالإضافة إلى ما قد يكون داخلاً فى حسابه من عمولات يجرى الاحتفاظ بها فى الخارج. وفى رأيى أنه لا توجد دلائل إحصائية تثبت صحة افتراض السبب الأول: فلا يوجد دليل على أن انتقال الأموال من جيوب أولياء أمور الطلبة إلى جيوب مدرسيهم من شأنه زيادة درجة الاكتناز فى الاقتصاد القومى. وتركز الثروة فى حد ذاته إذا افترضنا جدلاً حدوثه فعلاً قد يؤدى إلى ارتفاع معدل الادخار، وهو أمر مطلوب فى مصر نظرًا للانخفاض الشديد حاليًا فى معدل الادخار القومى الذى تظهره حسابات الدخل القومى. وأما السبب الثانى فهو صحيح فى جملته لأن المشروعات المذكورة كلها تنطوى على حجم كبير من الاستيراد ومن التحويل إلى الخارج، وأثر ذلك واضح على أرقام عجز الميزان التجارى وميزان المدفوعات كله، وبالنسبة للمشروعات التى تقام بنظام Bot فهى أيضًا تنطوى على عبء خارجى كبير، وعلى ذلك فإن اعتبارها وسيلة خالية من العيوب لتمويل المشروعات هو تصور غير صحيح لأن هذه المشروعات قد لا تؤدى إلى عجز فى ميزانية الدولة لأنها لا تتحمل نفقاتها، ولكنها تؤدى إلى عجز فى الميزان التجارى لاعتمادها على الاستيراد بدرجة كبيرة، كما تؤدى إلى أعباء إضافية على الجهاز المصرفى المصرى الذى يقوم حتمًا بعبء تمويل الجانب الأكبر من التكاليف الرأسمالية لهذه المشروعات، وبناء على ذلك فإننى أوصى بضرورة التأنى فى تنفيذ مشروعات بنظام Bot وألا تتم الموافقة على أى منها إلا بعد دراسة جدوى اقتصادية تشمل دراسة أعباء كل منها على الميزان التجارى وعلى وسائل تمويلها داخليًا وخارجيًا وعلى درجة أولويتها فيما بين الأغراض المختلفة التى يهدف إليها الاقتصاد القومى.

ويبدو لى من الاطلاع على ما تنشره الصحف أن الجهات الحكومية كلها تهرع دون تفكير إلى المشروعات المقترح تنفيذها بنظام Bot. ومثال ذلك ما نشرته صحيفة الأهرام فى عددها بتاريخ ٣ مارس ٢٠٠١ من أن إحدى وزارات الخدمات تبحث حاليًا مع شركات ألمانية تنفيذ مشروعات للوزارة تتكلف ٢٥ مليار دولار بنظام Bot. وللقارئ أن يتصور مدى أثر مثل هذا الحجم من المشروعات على ميزان المدفوعات وعلى الاقتصاد القومى.

٤- تمويل الاستثمار العقارى:
شهدت السنوات الأولى من عقد



بدأ الركود منذ أكثر من ثلاث سنوات ولازالت آثاره ممتدة لمستقبل قد يطول أمده ما لم تتخذ السياسات الصحيحة والفعالة لعلاج هذا الوضع. ومؤشرات الاقتصاد القومى تدل على أن هناك خللاً هيكليا أكثر عمقا فى الاقتصاد القومى وليس مجرد دورة تجارية عابرة

التسعينيات ارتفاعات كبيرة سنويًا فى أسعار الأراضى والمبانى، وقد أدى ذلك إلى الإقبال على الاستثمار العقارى بقصد تحقيق الربح السريع، واتخذ ذلك عدة صور كلها تتشابه فى النتائج المؤثرة على الاقتصاد القومى. ومن ذلك شراء الأراضى بقصد إعادة بيعها بعد شهور قليلة، وشراء أو بناء الشقق لبيعها بأرباح محققة. وللأسف شاركت الحكومة فى إشعال جذوة هذا النشاط بقيامها بتحريض رجال الأعمال المشتغلين أصلاً بأنشطة أخرى صناعية أو تجارية على الدخول فى الأنشطة العقارية دون أن يكون لديهم التمويل المناسب لهذا النشاط ولا الخبرة الضرورية لممارسته، وبالتالى اتجهوا بتشجيع من الدولة إلى تمويل هذه التوسعات فى أنشطتهم بقروض من البنوك التجارية هى قصيرة الأجل بطبيعتها. كما لجأت الحكومة أيضًا إلى زيادة أسعار أراضيها المعروضة للبيع على الجمهور فى مختلف المناطق بصورة دورية ومتتالية، مما ساعد على تأكيد الشعور باستمرار موجة ارتفاع أسعار الأراضى والعقارات ومن ثم تأكيد الاطمئنان الموهوم لاستمرار أربحية الاستثمار العقارى عند مستوى عال، كما ساعدت كل هذه الاعتبارات على تشجيع الجهاز المصرفى على التوسع فى تمويل هذه الأنشطة ولم تتخذ السلطات النقدية إجراءات حازمة للحد من تمويل أنشطة الاستثمار العقارى بمختلف صوره من الجهاز المصرفى. ولذلك كان من الطبيعى عند انتهاء موجة الرواج المؤقتة فى قطاع الاستثمار العقارى أن تبدأ هذه الأنشطة فى مكابدة الكساد وفى تعثر قدرات أصحابها على سداد قروضهم. وقد يساعد على حل هذه الجزئية من مشكلات الأزمة الاقتصادية أن تقوم الحكومة بتخفيض ملموس فى أسعار ما باعته من أراض بأثر رجعى، أو بتقسيط ما قد يكون متبقيًا من ثمن هذه الأراضى على آجال طويلة تمتد إلى ٢٠–٣٠ سنة.

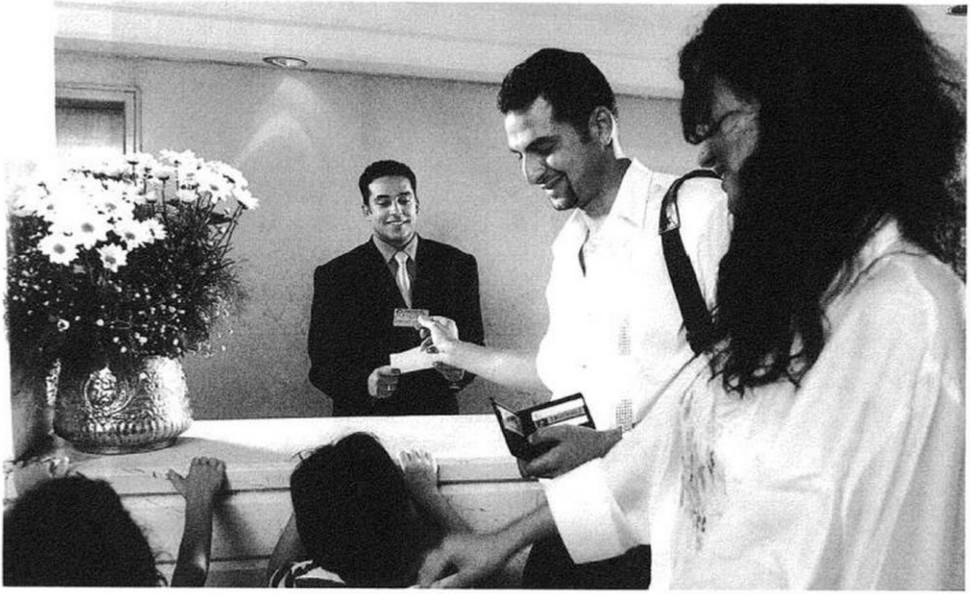
٥- تثبيت سعر الصرف لمدة عدة سنوات أدى إلى دعم واضح للاستيراد، كما أدى إلى خفض أربحية النشاط التصديرى، وترتب على هذين التأثيرين معًا اتساع رقعة العجز فى الميزان التجارى بصورة ملحوظة، ومعنى ذلك زيادة حجم الأموال التى خرجت من دائرة التداول داخل البلاد. كما امتد أثر هذا التثبيت إلى العناصر الرئيسية فى ميزان الخدمات، فإنه بغير شك خفض من أربحية السياحة (مقومة بالجنيه المصرى) كما خفض من حجم تحويلات العاملين المصريين بالخارج نظرًا لتثبيت قيمة ما يحصلون عليه مقابل دولاراتهم من جنيهات مصرية لم تعد تمثل فى نظرهم القيمة الحقيقية التى تحددها قوى العرض والطلب، وزاد من أثر هذا العنصر تضارب الإجراءات التى اتخذت فى مجال النقد الأجنبى وسعر صرف الجنيه المصرى مقابل الدولار الأمريكى، واتجاه هذه الإجراءات إلى محاولة السيطرة على الموقف بإجراءات إدارية تحكمية، الأمر الذى يؤدى بالضرورة إلى عودة الأسواق السوداء للتعامل فى النقد الأجنبى وإلى إضعاف الإقبال على قدوم الاستثمارات الأجنبية وعلى قدوم تحويلات المصريين من الخارج.

٦- صغر حجم الاستثمار الأجنبى القادم إلى مصر بالمقارنة مع ما تحقق فى الدول الأخرى. ويرجع ذلك إلى المعوقات البيروقراطية السائدة، وإلى تزايد وجود موجة من المعاداة لكل شىء أجنبى بما فى ذلك الاستثمارات الأجنبية، وكذلك إلى تزايد حجم الفساد الإدارى والمالى الذى يؤثر تأثيرًا بالغًا على حجم الاستثمار كله سواء فى ذلك الاستثمار المصرى أو الأجنبى. وفى الحقيقة أن هذا العنصر وحده يعتبر مسئولاً لدرجة كبيرة عن الأزمة الاقتصادية الحالية.

٧- المصاعب التى يواجهها الجهاز المصرفى المصرى فى السنوات الأخيرة لم يسبق لها مثيل من حيث الحجم والانتشار على مدى حياة الجهاز المصرفى منذ نشأته فى مصر حتى الآن، وترجع هذه المصاعب أساسًا إلى عدة عوامل ناشئة عن كون قطاع الأعمال الخاص حديث النشأة فى مصر بعد سنوات طويلة من الغياب أثناء العهود الاشتراكية. ولذلك فقط تورط لنقص خبرته فى معظم الأحوال ولسوء نية البعض فى عدد من الأحوال، فى مشروعات أكبر من طاقته واعتمد فى تمويلها على القروض المصرفية بأكثر من النسب التى تقضى بها الأصول الاقتصادية علاوة على تورطهم فى الدخول فى مشروعات عقارية طويلة الأجل بطبيعتها، وللأسف فإن الحكومة حرضتهم على ذلك توهمًا منها أنها تساعد بذلك على زيادة حجم الاستثمار، وللأسف أيضًا لم تقم السلطات النقدية بفرض الإجراءات اللازمة للحد من هذه الظاهرة وبوضع قواعد أكثر إحكامًا للسيطرة على حجم وشروط الائتمان المصرفى بحيث تضمن قيام التناسب السليم فنيًا بين التمويل الذاتى والتمويل بالاقتراض، كذلك فإن الجهاز المصرفى ذاته يتحمل جانبًا من هذه المسئولية المشتركة نظرًا لسوء الإدارة فى بعض الأحوال أو لعدم الكفاءة فى مجال الدراسات الائتمانية فى أحوال أخرى، ولكل ذلك أرى أنه من الضرورى معالجة الموقف فى الجهاز المصرفى بكل حزم وسرعة، وأن يتم ذلك بوضع قواعد أكثر إحكامًا للسيطرة على الائتمان المصرفى، وبالعمل الجاد على رفع مستوى الإدارة فى البنوك، وبإنشاء صندوق فى البنك المركزى برأس مال ٥–١٠ مليارات جنيه يمول ابتداء من موارد البنك المركزى ويخصص للتامين على الودائع الموجودة لدى الجهاز المصرفى. وأقترح أن يتم ذلك بمنح فائدة على جزء من الاحتياطى النقدى الذى تودعه البنوك لدى البنك المركزى مع تخصيص حصيلة هذه الفائدة للصندوق المقترح، وفى الوقت الحاضر تودع البنوك ١٥٪ من ودائع الجمهور لدى البنك المركزى المصرى مجانًا ودون أن تحصل على أية فوائد مالية مع أن البنك المركزى يستثمر هذه الأموال، ومن ثم تئول عوائد استثمارها فى النهاية إلى الخزانة العامة للدولة ضمن أرباح البنك المركزى، ومن المنطقى أن نطلب تخصيص جزء من هذه العوائد لدعم الجهاز المصرفى فى شكل صندوق التامين على الودائع.

٨- وأخيرًا فإنه علاوة على وسائل التصحيح المذكورة فى سياق العرض السابق، فإن أهم وأكبر أسباب الأزمة الاقتصادية الحالية هى تراجع الثقة فى الكيان الاقتصادى. ولا نقصد بالثقة حالة نفسية وإنما هى ثقة المستثمر المصرى والأجنبى فى جدوى اقتحام المجال الاقتصادى، وثقة المستهلك المصرى والأجنبى فى سلامة وأمان وجودة البضائع والخدمات المصرية، وثقة المدخر فى نماء مدخراته وعدم ضياع قوتها الشرائية بمرور الوقت، وثقة المتعاملين فى عدالة القوانين السارية واستقرارها، وفى عدالة القضاء وسرعة البت فى أحكامه، وفى عدم تعنت البيروقراطية الإدارية والحكومية، وفى عدالة وكفاءة النظام الضريبى والجمركى، وكل ذلك يقتضى حركة إصلاح شامل أى إصلاح سياسى ودستورى وإدارى وتشريعى وقضائى ومالى واقتصادى ومصرفى، وبدون هذا الإصلاح تظل وسائل علاج الأزمة الاقتصادية المقترحة فى الفقرات السابقة أو المقترحة من قبل خبراء آخرين، وسائل علاج جزئية هى بمثابة مسكنات فحسب. ■

لكى لا تحمل فى جيبك نقود !



مؤسسة مالية متكاملة
تسهل لك الحياة وتؤثر فيها

الآن لن تواجه فى حياتك مواقف صعبة فبعضويتك فى أى من بطاقات إئتمان البنك التجارى الدولى (ماستركارد - داينرز كلوب) يمكنك أن تحصل على مشترياتك وكافة خدماتك فى مصر وخارجها بكل اليسر والثقة.

البنك التجارى الدولى يقدم لك مزايا إضافية و خدمة متميزة تسهل لك الحياة و تؤثر فيها.

Silver Jubilee 25

CIB

البنك التجارى الدولى (مصر) ش.م.م

Commercial International Bank (Egypt) S.A.E.

رمز الثقة

www.cibeg.com

رؤية للإعلان



السفير Saphir: إنه الحجر الالهي بين كل الأحجار. لونه الأزرق يقارن بلون السما، ويقال إنه يحمي حامله من الحسد والشرور. ولكن النصوص القديمة تخلط عادة بين السفير واللازورد، وتمنح الثاني صفات الأول.

الأزرق ....

تاريخ الرسم شيء، وتاريخ الألوان شيء آخر تمامًا. ومن الخطأ حصر تاريخ الألوان في الساحة الفنية أو الرسوم، أو حتى على الساحة العلمية، لأن تاريخ الألوان كله لا يمكن أن يكون إلا تاريخًا اجتماعيًا.

فاللون بالنسبة للمؤرخ، وأيضًا بالنسبة لخبراء الاجتماع وعلماء الأجناس، يفسر في الأصل على أساس أنه حالة اجتماعية. المجتمع هو الذي يصنع اللون، وهو الذي يعطيه معناه وهويته، ويسن قوانينه

Blue: Histoire D'une Couleur

(الأزرق .. تاريخ لون)

Michel Pastoureau
Seuil, 2000, 215pp.

ويفرض قيمته، وينظم ممارساته ويحدد ماهيته. المجتمع، وليس الفنان أو العالم، وليس التكوين البيولوجي للإنسان، أو حتى الطبيعة.

وفي كتاب «الأزرق، تاريخ لون» يقول المؤرخ الفرنسي ميشيل باستورو، أن هدفه ليس تاريخ الألوان منذ العصور الوسطى، أو وضع تاريخ حقيقي للألوان في المجتمعات الغربية؛ ولكنه يطرح الأسس التي يستند إليها هذا التاريخ، ومن أجل أن يفعل ذلك، استغل الكاتب اللون الأزرق ليكون هو الخيط الذي يقوده إلى معرفة تاريخ الألوان وتطورها مع الزمن والمجتمعات المختلفة. لأن الأزرق هو أكثر الألوان تعرضا لكل أنواع التطور على مدى التاريخ الاجتماعي.

كتوم ورصين

رغم أن اللون الأزرق متواجد في الطبيعة حولنا منذ بدء الخليقة، إلا أن الإنسان لم يصنعه ويستخدمه ويسيطر عليه إلا متأخرًا وبصعوبة شديدة. لهذا السبب ظل الأزرق في المجتمعات الغربية ولمدة طويلة لونا ثانويا ليس له دور في الحياة الاجتماعية أو الممارسات الدينية، أو حتى في الإبداعات الفنية.

في مصر الفرعونية، ظهر الأزرق في استخدامات مختلفة، إذ استطاع المصريون القدماء أن يصنعوا صبغة زرقاء من برادة النحاس المخلوط بالرمال والبوتاس. واستطاعوا استخلاص طبقات رائعة من اللون الأزرق والأزرق - الأخضر: وهو ما نجده في الأدوات والتماثيل الخاصة بالجنازات، وأحيانا تكون التماثيل مغطاة بالخزف وهو ما يضفي عليها هيئة زجاجية قيمة.

بالنسبة للمصريين كما هي الحال بالنسبة لشعوب عديدة في الشرقين الأوسط والأدنى، فإن الأزرق كان يعتبر من الألوان التي تجلب الحظ ويبعد القوى الشريرة. وارتبط بالشعائر الجنائزية والموت من أجل حماية المتوفي في الحياة الأخرى. وأحيانا كان يستخدم اللون الأصفر لنفس السبب وهنا يتوحد اللونان.

إلا أن اليونانيين اعتبروا الأزرق أقل قيمة رغم أنه استخدم في الخلفية مع العمارة والنحت، مثل بعض النقوشات على مبنى البارتينون. ولكنه كان نادر الوجود إلى حد



لوحة من عصر بومبى (القرن الأول بعد الميلاد) إن كانت اللوحات الجدارية عديدة فى بومبى، المدينة التى دفنت فى عام ٧٩ تحت بركان فيزوف، فإن الأزرق، بعكس الأحمر، لم تكن له مكانة أساسية، وكان يستخدم فى الخلفية كما كان يحدث فى كل اللوحات الرومانية تقريبا.

تاريخ لون

ليلى حافظ

أن تساءل المؤرخون إن كان اليونانيون يرون اللون الأزرق.

أجاب بعض العلماء بالنفى عن هذا السؤال. وأوضح المؤرخون انه منذ عصر الرومانيين القدماء كانت هناك مشكلة تحديد اللون الأزرق لغويًا. وذلك يرجع إلى حد كبير لعدم اهتمام الكتاب الرومانيين وبعدهم مسيحيى العصر الأوسط الأول، باللون الأزرق عموما. وفيما بعد بدأ استخدام كلمتين لغويتين فى اللغة اللاتينية لإعطاء معنى للون الأزرق، الأولى جاءت من اللغات الجيرمانية، وهى كلمة «بلافوس» (blavus) والثانية من اللغة العربية «أزوروس» (azureus) أو اللازورد، وهما الكلمتان اللتان ستبقيان فى اللغة لتعنيان اللون الأزرق.

وكان الرومانيون يرون فى الأزرق لونًا داكنًا، شرقيًا وهمجيًا. ويستخدمونه بقلة ومع بداية المسيحية، كان الاهتمام الأساسى للون الأبيض فى الأنسجة والملابس غير المصبوغة، ولم يتواجد الأزرق من بين الألوان التى تستخدم فى الطقوس واللوحات الدينية فى العصور الوسطى الحديثة.

لون السيدة مريم

إذا كان اللون بالنسبة للعلماء هو ضوء، فإنه بالنسبة لرجال الدين وحتى القرن الثانى عشر، يعتبر مادة، لذا فهى خسيسة بلا فائدة، ومكروهة.

ولكن منذ القرن الثانى عشر وبالأخص بين عامى ١١٣٠ـ١١٤٠ بدأت نظرة الكنيسة للألوان تتغير وبالأخص بالنسبة للأزرق. فاعتبر القديس دينيس أن كل ما يمكن أن يطلق عليه جميل سواء فى الرسم أو الزجاج الملون أو النسيج أو الحجارة أو الفضة، يستحضر لكى يتزين بها بيت الله، وكل ذلك كان ينعكس أولا فى الألوان. ومن بين الألوان أصبح للأزرق دور أساسى لأنه مثل الذهبى، فهو النور، النور الإلهى، النور السماوى، الذى من خلاله خلق كل شيء. وبالتالى أصبح حجر اللازورد أجمل أنواع الحجارة والأزرق المرتبط به أصبح يمثل كل ما هو مقدس، فهو يسمح بدخول نور الله إلى الكنيسة. وبدأت الكنائس تستخدم اللون الأزرق مثل كنيسة سانت شابل فى باريس، التى شيدت فى القرن الثالث عشر لتكون محرابا للنور والألوان.

بعد الألفية الأولى تحول الأزرق ليكون لون الطبقة الأرستقراطية، بل ليكون فى نظر كثير من الكتاب أجمل الألوان. وخلال بضع عشرات من السنوات ارتفعت قيمته الاقتصادية أضعاف ما كانت عليه، وتغيرت مكانته.

فكان أكثر المجالات تأثرا باللون الأزرق هى مجالات الفن والتصوير منذ بدء القرن الحادى عشر والثانى عشر خاصة فى اللوحات والأيقونات، كما زادت أهميته فى الملابس أيضا. وأكبر مثال على ذلك التحول فى ملابس السيدة العذراء والذى يمثل للمؤرخين نقطة الانطلاق التى تسمح بتتبع التحولات والتطورات التى مر بها هذا اللون.

فالسيدة العذراء لم ترتد اللون الأزرق إلا مع القرن الثانى عشر، عندما ظهرت فى اللوحات الفنية الغربية، فأصبح للون الأزرق مكان فى ملابسها

الأزرق



لوحة جنائزية مصرية (القرن الرابع عشر قبل الميلاد) فى الفترة ما بين عامى ١٥٠٠ و١١٠٠ قبل الميلاد، وهى الفترة التى شهدت العديد من اللوحات الجدارية المصرية، فى تلك الفترة كانت درجات اللون الأزرق المختلفة تستخدم فى الرسم ولكن كخلفية. وكانت المواد التى تستخدم فى التلوين طبيعية مثل الازوريت والملاخيت، وأحيانا صناعية مثل ألوان الأزرق المستخرج من النحاس. هذه المواد كانت تستعمل لإظهار اللون الأزرق فى مياه النيل ولتوضيح كيف تخرج جثة المتوفى من مدينة الأحياء، وتعبر النهر فى مركبة لتصل إلى مدينة الأموات على الضفة الأخرى من النهر. (اللوحة قادمة من قبر الفرعون حاريم حاب (١٣٣٢ ـ ١٣٠٥) معروضة فى لايدن، ريجكسميوزيوم فان أودهيدن)



رأس ملكى لفتاة مصرية مصنوع من عجينة الزجاج (القرن الثالث عشر قبل الميلاد) فى مصر، كما هو فى سائر بلاد الشرق الأوسط، كان الأزرق يعتبر لونا خيرا، من شأنه إبعاد قوى الشر ونشر الرخاء، كما أنه ارتبط أيضا بشعائر الجنازات من أجل حماية المتوفى فى الحياة الأخرى. (متحف اللوفر، باريس)



سمكة مقدسة منذ العصر المصرى القديم (القرن الأول قبل الميلاد): كان المصريون القدماء يعرفون صباغة الألوان الزرقاء الطبيعية مثل الأزوريت أو فحمات النحاس الطبيعية، واللازورد والتيركواز، ولكنهم كانوا يعرفون أيضا كيف يصنعون صباغة زرقاء رائعة من صوانات النحاس. كما كان المصريون القدماء يعرفون المبادئ التى يتم من خلالها صناعة الزجاج والخزف، وصنعوا أدوات كثيرة من تلك المواد الزرقاء، أو الزرقاء ـ الخضراء. فكانت فى معظمها أدوات جنائزية مثل التماثيل الصغيرة، لألوانها قيمة سحرية وللحماية. (حيفا، المتحف البحرى القومى)

سواء فى معطفها وهو الأكثر تكرارا، أو فى ردائها أو ـ وهذا أكثر ندرة ـ فى كل ملابسها. بعد أن كانت السيدة العذراء ترتدى دائما ألوانا غامقة مثل البنى أو الرمادى أو البنفسجى، أو الأخضر والأزرق الغامقين، وهى كلها ألوان تدل على الآلام، ألوان الحداد، حداد السيدة العذراء على ابنها الذى صلب.

وبدأ اللون الأزرق يزحف إلى سائر مجالات الإبداعات الفنية بسرعة كبيرة. وفى عام ١١٤٠ قام صانعو الأوانى الزجاجية بتصنيع ما عرف باسم «أزرق سان دينيس»، المرتبط ببناء كنيسة الدير. ثم توسع أكثر واندرج فى العديد من الأعمال الفنية الزجاجية والخزفية خلال النصف الثانى من القرن الثانى عشر وحتى السنوات الأولى من القرن الثالث عشر.

ثم انتقل اللون الأزرق إلى الاستخدامات الملكية، ففى القرن الثانى عشر كان الملك يستخدم العملات ذات خلفية زرقاء، وكان الملك الفرنسى هو الوحيد فى أوروبا الذى يستخدم اللون الأزرق فى شعاره. قد يكون السبب جاء تحية للسيدة العذراء حامية الملكية الفرنسية.

أسباب التطور

بالنسبة للمؤرخ فإن أهم سؤال يلح عليه هو معرفة الدافع لتلك التطورات المفاجئة للون الأزرق والسبب الأساسى للتحولات المختلفة التى شهدها ترتيب الأهمية بالنسبة للألوان. هل كان السبب هو التقدم التقنى أم اكتشاف كيمياء التلوين التى ساعدت الصباغة الغربية على إنجاز فى سنوات قليلة ما كان يصعب إنجازه فى قرون، ليخرج لونا أزرق عميقا وقويا وباهرا؟ وهل كان انتشار درجات الأزرق المختلفة فى النسيج هو السبب فى انتشاره فى مجالات أخرى وبتقنيات أخرى؟ أم لأن المجتمع هو الذى طلب من الصباغة التوجه إلى اللون الجديد لكى يتماشوا مع الظاهرة الجديدة؟ أى هل العرض هو الذى سبق الطلب؟ هل الكيمياء والتقنية هى التى سبقت الأيديولوجية والرمزية؟ أم بالعكس؟

أيا كانت الإجابات على تلك الأسئلة فمن المؤكد أن تطور اللون الأزرق بين القرنين الثانى عشر والرابع عشر كان تعبيرا عن التغييرات المهمة فى الطبقية الاجتماعية وفى نظم التفكير والتوجه الفنى.

لون أخلاقى

مع منتصف القرن الرابع عشر دخل اللون الأزرق فى الغرب مرحلة جديدة من تاريخه. الأزرق الذى تطور وارتبط بالسيدة العذراء وارتبط بالملك، بات هو اللون الأخلاقى. ولقد جاء ذلك مواكبا للموجة العريضة التى دعت للأخلاقيات والتى شملت كل العصور الوسطى، وموقف المصلحين البروتستانت فى القرن السادس عشر من الممارسات الاجتماعية والفنية والدينية للون الأزرق.

ثم تدخلت الأيديولوجية فى اختيار الألوان، إذ فرض نوع من الفصل العنصرى من خلال الملابس، وأصبح على كل فرد ارتداء ما يناسب جنسه، وحالته الاجتماعية والاقتصادية. وأصبحت الملابس هى العلامة الأولى التى تحدد التقسيم الاجتماعى الذى وضعه الله كما يقال فى تلك الفترة، ومن يكسره يخالف تعاليم الله. ففى أوروبا كانت الألوان الباهرة ممنوعة على أشخاص معينين مثل رجال الدين والأرامل والقضاة وكل من يرتدى الأزياء الطويلة، على أساس أنها ألوان غير محترمة للشخص المسيحى الحقيقى.

وبالنسبة للفنانين فمنذ القرن السابع عشر، خاصة فى سنوات ١٦٣٠ ـ ١٦٤٠ لم يعد الفنانون البروتستانت يحتكرون التزمت فى الألوان، بل شاركهم فيه بعض الفنانين الكاثوليك. مثل الفنان فيليب دى شامبانيى Philippe de Champaigne(١٦٤٦) ورمبرانت Rembrandt الذى كان يستخدم الأزرق أيضا. ولكنه أزرق حاد، محافظ، يختفى بسرعة ومظلم، إنه الأزرق الأخلاقى.

انتصار لون

مع نهاية القرن الثامن عشر، لم يعد عالم الألوان هو نفسه كما بدأ. فلقد بدأت الألوان



لوحة جدارية رومانية من عصر أغسطس. لم يكن الأزرق فى تلك الفترة يستخدم بكثرة، وكان يوجد فى الخلفية أو على السطح. ولكن اللوحات فى القرنين الأول قبل الميلاد والأول بعد الميلاد، تؤكد على وجود الأزرق الفاتح فى اللوحات التى تعبر عن الحدائق أو الجنات الجميلة التى كان الفنانون يتخيلونها كما يجب أن تكون فى الشرق. (لوحة جدارية. روما. المتحف القومى الرومانى).

تتكاثر وتتنوع، ومع اكتشافات نيوتن وإعادة تقييم ألوان الطيف، بدأت تتغير تدريجيا أهمية ترتيب الألوان: فلم يعد الأحمر يقع بين الأبيض والأسود، كما تأكد أن الأخضر هو خليط من الأزرق والأصفر: وثبتت فكرة الألوان الأساسية وتلك التكميلية، وأيضا الألوان الساخنة وتلك الباردة، كما نفهمها اليوم.

فمع تراجع اللون الأحمر فى الملابس وفى الحياة اليومية، تركت الساحة خالية للون الأزرق الذى أصبح ليس فقط لونا من الألوان المتواجدة بكثرة فى الملابس والأنسجة، ولكن أيضا اللون المفضل للشعوب الأوروبية. وظل إلى اليوم هو الأفضل بمراحل بالمقارنة مع جميع الألوان الأخرى.

لقد تم الإعداد لانتصار اللون الأزرق منذ القرن الثانى عشر. ولكن القرن الثامن عشر كان انتصار الأزرق قد اكتمل بالفعل؛ وذلك من خلال انتشار استخدام مادة طبيعية رائعة للتلوين هى مادة شجرة النيلة، indigo، والتى كانت معروفة منذ وقت طويل ولكنها لم تستخدم بكثرة؛ ثم من خلال اكتشاف مادة للصباغة صناعية تسمح بالحصول فى الصباغة والرسم على درجات جديدة من اللون، وهو اللون البروسى (bleu de prusse) ثم أخيرا من خلال وضع رموز متجددة للألوان، مما أعطى للأزرق المرتبة الأولى ليصبح هو لون التقدم والنور والأحلام والحريات. فى تلك المجالات كان للحركة الرومانسية والثورات الأمريكية والفرنسية دور كبير وأساسى وهى المكانة التى احتفظ بها الأزرق بل وتوسع فيها حتى بداية القرن الواحد والعشرين.

الأزرق الرومانسى

حتى القرن الثامن عشر كان من النادر أن يرتدى أحد أعضاء الطبقات الأرستقراطية اللون الفاتح أو السماوى؛ فقد كان هذا اللون يعتبر من ألوان الفلاحين. ولكن منذ هذا الوقت بدأ الأزرق الفاتح بكل درجاته، يغزو البلاط الملكى. وكانت البداية انتشاره بين السيدات، وبعدهن ارتداه الرجال. وفى النصف الثانى من القرن ساد الأزرق الفاتح سائر الطبقات الأرستقراطية والطبقات الغنية من البرجوازية، خاصة فى ألمانيا والسويد، واستمر كذلك حتى السنوات الأولى من القرن التاسع عشر.

تلك الاستخدامات فى الملابس للون الأزرق، دعمها إثراء لغوى فى المرادفات الخاصة بتوصيف اللون الأزرق وخاصة الفاتح منه مع منتصف القرن الثامن عشر، وهو ما أثبتته القواميس والمعاجم التى ظهرت فى تلك الفترة. فعلى سبيل المثال، ظهر فى اللغة الفرنسية فى عام ١٧٦٥ نحو ٢٤ تعبيرا دارجا يصف الأزرق، منها ١٦ تعبيرا لغويا تصف الأزرق الفاتح.

وفى نفس الوقت جاء التوجه الرومانسى فى الرواية فى تلك الحقبة التى عرفت باسم «عصر النور» ليعكس اللون الأزرق ودرجاته المختلفة. وكان أكثر الأمثلة تميزا رواية جوته : «معاناة الشاب فيرتر»، التى نشرت فى لايبزيج عام ١٧٧٤، وفيها كان فيرتر يرتدى الأزرق واشتهرت كلمات جوته فى وصفه إياه قائلا: «كم كانت معاناتى عندما اضطررت إلى الاستغناء عن بزتى الزرقاء البسيطة التى كنت أرتديها فى رقصتى الأولى مع شارلوت»، مما دفع كل شباب أوروبا إلى ارتداء البزات الزرقاء تيمما بالشاب فيرتر.

ومنذ عام ١٧٨٠ بدأ اللون الأزرق يظهر بكثرة فى الأعمال الأدبية والشعرية، وذلك لتنوعه واكتمال خواصه. وجعلت الرومانسية من اللون الأزرق أسطورة، خاصة الرومانسية الألمانية. لتصبح «الزهرة الزرقاء» فى رواية هينريك فون أوفتيردينجن، التى لم تكتمل فى عام ١٨٠٢، رمزا للرومانسية فى كل ألمانيا، وكل الشعراء الذين يكتبون بكل اللغات الأخرى فى سائر دول أوروبا. وأصبح الأزرق هو لون الحب والحزن والأحلام. وارتبطت الزهرة الزرقاء التى تدعى باللغة الفرنسية ancolie بالكلمة التى تعنى الحزن وهى .melancolie ثم ارتبط الأزرق بالتعبيرات والأمثلة الشائعة. فأطلق على الروايات الخيالية والأساطير تعبير «حكايات زرقاء»، أو أطلق على الإنسان المثالى النادر الذى لا يمكن الوصول إليه بتعبير «الطائر الأزرق».

أما «البلوز» blues فهى



لوحة مزدوجة لويلتون (نحو عام ١٢٩٥) منذ القرن الثانى عشر ميلاديا، عندما أصبح اللون الأزرق اللون الدينى الأيقونى للسيدة العذراء. كان الفنانون يتبارون لإظهار هذا اللون الجديد فى ملابس السيدة مريم. وكانت فرصة أيضا لكى يستخدموا نوعا من الصبغة، كما يطلب منهم المعنيون، باهظة الثمن وهى اللازورد، التى ارتبطت بالذهب فى نهاية القرون الوسطى. هذه اللوحة رسمت فى عام ١٣٩٥ تقريبا من أجل الملك ريتشارد الثانى ملك إنجلترا. (لندن ناشيونال جاليرى)

الأزرق

نغمات موسيقية، تقترب من معنى الأزرق فى الرومانسية الألمانية. ولكنها من أصول أفريقية أمريكية، دخلت إلى عالم موسيقى المجتمع الشعبى الأمريكى نحو عام ١٨٧٠ وتميزت بإيقاع بطيء يعكس حزنا دفينا. ولقد جاء التعبير الإنجليزى «بلوز» من دمج الكلمتين blue devils أى الشياطين الزرقاء، والتى تعنى الحزن واللهفة لحياة ماضية، والاكتئاب، وهو كل ما يصفه الفرنسيون بتعبير «الأفكار السوداء». بينما يعبر الإنجليز عن تلك الحالة بقولهم: to be blue أو in the blue

الأزرق الفرنسى

شهد القرن الثامن عشر ليس فقط الأزرق الرومانسى والحزين، ولكن أيضا مولد الأزرق الوطنى والعسكرى والسياسى فى فرنسا، ليصبح هو اللون الفرنسى. فاليوم على سبيل المثال، ترتدى كل فرق كرة القدم الفرنسية اللون الأزرق فى المباريات الدولية. والعلم الفرنسى يحمل اللون الأزرق، الذى يعتبر أهم لون فيه لأنه يقع ملازما للسارى، وعندما تسكن الرياح، يصبح الأزرق فقط هو الظاهر. ولهذا الاهتمام باللون الأزرق فى فرنسا تاريخ طويل، فلقد جاء الأزرق ليكون اللون الوطنى منذ الثورة الفرنسية، حين جعلت الأزرق هو لون الجنود المحاربين من أجل الجمهورية، ثم من أجل فرنسا. وهكذا أسهمت فرنسا فى خلق الأزرق «السياسى»، لون المدافعين عن الجمهورية، ثم لون الجمهوريين المعتدلين، ثم بعد ذلك الليبراليين وحتى المحافظين.

فعشية الثورة الفرنسية كان جنود الحرس الفرنسى، وهى فرقة من الصفوة العسكريين التى تكونت منذ عام ١٥٦٤ وارتبطت بالبيت الملكى، وترتدى اللون الأزرق، هم الذين انتفضوا فى يولية عام ١٧٨٩ وتآخوا مع الشعب واشتركوا فى إسقاط سجن الباستيل. ثم انضم الكثيرون إلى الحرس الوطنى الباريسى وارتدوا الزى الأزرق، ثم انتقل الأزرق إلى سائر الميليشيات المتواجدة فى القرى والمدن الأخرى، وفى شهر يونية أعلن أنه «اللون الوطنى». وبعد إعلان الجمهورية فى خريف عام ١٧٩٢، أصبح الأزرق هو بالضرورة لون الزى العسكرى، ولون جنوده. وفى عامى ١٧٩٢ و١٧٩٣ صدرت عدة قوانين تجعل اللون الأزرق إجباريا للمشاة، ثم لكل الجيش النظامى، وأخيرا للجيوش الثورية.

وأصبح الأزرق فى مواجهة الأبيض (الملكى) له معنى أيديولوجى طوال القرن التاسع عشر فى الحياة السياسية الفرنسية. ولكن بعد ثورة عام ١٨٤٨ (الكوميونة) فقد اللون الأزرق معناه الثورى وأصبح اللون الأحمر هو لون الثورة والتطرف الاشتراكى. وأصبح الأزرق هو لون الجمهوريين المعتدلين ثم الوسط. وأخيرا وفى الجمهورية الثالثة، أصبح هو لون اليمين الجمهورى، وأصبح الأزرق أقرب إلى اللون الأبيض فى معناه خاصة بعدما انقضى أى أمل فى عودة الملكية.

ومثلما حدث فى فرنسا، كان تطور اللون الأزرق فى سائر دول أوروبا باستثناء إسبانيا، فكان الأزرق هو لون الأحزاب الجمهورية التقدمية، ثم الوسط أو المعتدلين، ثم أخيرا المحافظين. فعلى اليسار كان الأحمر يمثل الاشتراكيين والشيوعيين، وإلى اليمين



الكـون الأزرق. من على بعد، تبدو الكـرة الأرضية ذات ألـوان متعـددة. ولكن اللـون الأزرق يسيطـر عليها تماما بسبب الأكسدة في المناخ الذي يحيط بها. لـذا أصبح يطلق عليها «الكوكب الأزرق» والـذي بدأ ينتشر بعد السـتينيات، أي منذ بدء رحلات الفضاء. ولكن في حقيقة الأمر فإن الشعراء سبقوا العلماء بمراحل. ففي عام ١٩٢٩ كان بول إلوارد ينشد الشعر الشهير الذي يقول «الأرض زرقاء مثل البرتقالة» (صورة من الفضاء للأرض يرى فيها الأمريكتين)

كـان الأسـود والبني والأبيض للأحـزاب الدينية، والفاشية والملكية، ثم أخيرا أضيف اللون الأخضر ليمثل أنصار البيئة.

لذلك يمكن القول أن الثورة الفرنسية كانت هي المحرك الأساسي في مولد الألوان السياسية الحديثة.

الجـــــينـز الأزرق

بالنسبة للملابس يعتبر التحول في الموجات الجديدة من الأسـود إلى الأزرق الغامق أو الكحلي، أهم الأحداث في الملابس في القرن العشرين خاصة في الفترة ما بين الحربين (١٩١٩ و١٩٣٩)، وذلك بين كل الطبقات وفي كل المناسبات. ولكن أيضا كان هناك نوع آخر من الملابس التي انتشرت بسرعة كبيرة خاصة منذ الخمسينيات من القرن العشرين: هو «الجينز» الأزرق.

مما لا شك فيه أن الجينز يعتبر من الملابس التي ليس لها مثيل، ولكن تظل جذوره يغلفها بعض الغموض. وذلك جزئيا بسبب الحريق الذي شب في سان فرانسيسكو عام ١٩٠٦ وأتى على الأرشيف الخاص بمصنع ليفاي شتراوس، مخترع البنطلون الشهير قبل نصف قرن من هذا التاريخ. ففي ربيع عام ١٨٥٣ توجه الشاب ليفاي شتراوس، وهو شاب يهودي من أصول ألمانية، عمل بائعا متجولا في نيويورك، إلى سان فرانسيسكو، حيث كانت حمى الذهب في سييرا نيفادا، تجذب العديد من الأفراد من مختلف أنحاء العالم. وأحضر معه كمية كبيرة من قماش الخيام بأمل أن يحقق أرباحا معقولة. ولكن المبيعات لم تكن كبيرة، وأخبره أحد السكان أن في تلك المنطقة من كاليفورنيا لا يحتاج المرء إلى قماش لصنع الخيام، بقدر احتياجهم لبنطلون من قماش متين وعملي. لذا فكر شتراوس في صنع البنطلونات من قماش الخيام، وكان نجاحه أكيدا وفوريا. ولكن قماش الخيام لم يكن أزرق، وكان ثقيلا صعب التعامل معه، فقرر تغييره بنسيج الدنيم (denim)، وهو نسيج صوفي متين قادم من أوروبا وصبغ بالأنديجو. وهكذا ولد الجينز الأزرق فيما بين عامي ١٨٦٠ـ١٨٦٥.

ومع الوقت تطور استـخدام الجينز، فأصبح من ملابس الطبقات الغنية التي تعيش في الساحل الشرقي الأمريكي، ثم بدأ طلبة الجامعات يرتدونه. وبعد الحرب العالمية الثانية وصل إلى أوروبا وفي الفترة ما بين ١٩٥٠ و١٩٧٥ انتشر ارتداء الجينز بين الشباب الأوروبي، ليكون حسب رأي علماء الاجتماع، رمزا للتمرد، لينتقل في الثمانينيات إلى أوروبا الشرقية والدول الاشتراكية ودول العالم الثالث وحتى في الدول الإسلامية.

ولكن هل انتشار اللون الأزرق يعني أن الفرد يفضل حقيقة اللون الأزرق عن سائر الألوان؟ وماذا تعني كلمة التفضيل؟ وهل تفضيل لون عن لون يعني تفضيل كل ما ينم عنه من ممارسات وقيم ورموز سياسية ومشاعر وتفضيلات فنية؟ أم يحاول الفرد أن ينتمي إلى المجتمع الذي يعيش فيه فكريا وثقافيا؟ هل التفضيل الفردي، والذوق الشخصي موجود بالفعل؟ يقول المؤرخ: إن كل ما نؤمن به ونفكر فيه ونعجب به ونحبه أو نستبعده، يمر بالضرورة عبر رؤية وحكم الآخرين. فالإنسان لا يعيش وحده بل يعيش في المجتمع. وفي النهاية الدعاية تلعب دورا كبيرا في توجيه الذوق العام.

ماك

بواقى التصدير والرواكد

مراكز البيع:

مصر الجديدة: ١٢ ش محمد المهدى . نبيل الوفاد أرض الجولف ت: ٤١٤٧١١٣
مدينة نصر: أرض المعارض بوابة (٩) شارع الفنجرى ت: ٤٠١٦٢٣٠
الزيتون: ١٣ ش عين شمس . ميدان حلمية الزيتون ت: ٢٤١١٣٤٧
عين شمس : ش أحمد عرابى من أحمد عصمت أمام مزرعة الزهراء للخيول ت: ٢٩٦٦٥٦٤
الشرابية: شارع الألايلى ت: ٢٣١٤٣٤٦
المرج: ش ترعة السلطوحية عمارة سعيد شاهين
الحرفيين: ميدان الحرفيين عمارة الربيع ت: ٢٨١٧٨٨٠
شبرا: ٦٤ ش روض الفرج . دوران شبرا ت: ٤٣٢٦٨١٠
ناهيا: ٦٢ ش ناهيا بولاق الدكرور ت: ٣٢٧٢١٨٧
الزاوية الحمراء: ٦ شارع منشية الجمل عمارة العمدة أمام مصنع العلف
العمرانية: ٢ ش عبدالرحمن مطر ت: ٥٦٤٠٨٦٢
إمبابة: ٦٣ ش الوحدة ت: ٢١٠٧٧٢٦
الهرم: ٤٥٦ أول ش الملك فيصل ت:٥٧٢١١١٨
مصر القديمة: ٦ ش أثر النبى ت: ٥٣٤٠٩٨٧
المعادى: ٢ طريق مصر حلوان الزراعى محطة المطبعة ت: ٥٢٤٦١٦٥
حدائق القبة: ١٤٥ ش مصر والسودان . محطة الجراج ت: ٠١٠/١٤٥٥١٠٧
القلعة: ١ ش سوق السلاح ت: ٠١٢/٣٤٣١٠٦٥
القناطر الخيرية: ٢٥ ش البقلى متفرع من ش ١٤
شبين القناطر: ٩ ش الدلتا
دكرنس: ش مجلس المدينة عمارة م التميمى
العاشر من رمضان: دوار العاشر . طريق الإسماعيلية
الفيوم: ش ٢٦ يولية عدلى يكن سابقا ت: ٠٨٤/٣٤٤٢٢٢
دمنهور: ١٢ ش الشيخ عبدالكريم ت: ٠١٢/٣٤٣١٦٠٦
ميت غمر: ١ ش بورسعيد
سوهاج: ٢١ ش النهضة بجوار عمر أفندى ت: ٠٩٢/٢٢٢٨٩٠
حلوان: ٢٧ ش أحمد بدوى من رايل ت: ٥٥٥٩٨٨٧
المنزلة: شارع عبد المنعم رياض عمارة الدكتور الخريبى
فيصل التعاون: ٣٥٧ شارع الملك فيصل . محطة التعاون . الهرم ت: ٣٨٣٢٠٢٦
بلقاس: ش طريق الحرية . خلف المحكمة
العاشر من رمضان: الحى الأول ت: ٣٦١٢٢٤
العاشر من رمضان: المجاورة ٩ ت: ٣٦٦٧٧٨
مكرم عبيد: ٣٥ شارع أبو داود الظاهرى . مكرم عبيد ت: ٢٨٧٢٦٣١
الأقصر: ش مدرسة الصنايع . السوق التجارى ت: ٣٧٢٠٨٣

العباسية: ١٥ ش العباسية . ميدان الجيش ت: ٥٨٩٣٨٥٠
بهتيم: ٣٢٩ ش ١٥ مايو أمام حى شبرا الخيمة ت:٢٢٠٨٥٥٥
بنها: ش الكوبرى ت: ٢٢٣٩٧٠
السويس: ٦٦ شارع الجيش ت: ٢٢٨٧٨٠
المحلة الكبرى: ش شكرى القوتلى من ش الجيش
طنطا: ٨٧ ش سعد الدين من ش النحاس ت: ٤٠٨٢٧٤
المنصورة: ش الجمهورية أمام كلية العلوم ت: ٣٧٢٦٤٧٤
كفر الشيخ: ٤ ش الشهيد محمد الدمرداش الشيتانى ت: ٢٢٣٠٨٥
الإسكندرية: ٥٠ ش مصطفى كامل أمام كلية التربية الرياضية . فلمنج ت: ٥٨٠٤٧٩٧
رمادا: برج رمادا بالإسكندرية ت: ٥٤٨٢٩٣٩
صفط اللبن: سنتر الصاوى . شارع التحرير
بنى سويف: ٥ . ٦ ش أرض المحلج ت: ٣١٥٤١٦
قنا: ش كوبرى دندرة عمارة أحمد عامر ت: ٣٢٢٦٤٨
قنا الجديدة: ش جودى متفرع من ش الأقصر سوق ليبيا أمام البوستة الجديدة.
الزقازيق: ش المديرية عمارة العقدين الكبيرة المنتزة ت: ٣٢٢٣٢٩
أسوان: هيميمى الجبلاوى متفرع من شارع قاضى الجداوى
الإسماعيلية: ٧٦ شارع السكة الحديد ت: ٥٧٦٥ ٢٢
شبين الكوم: ٢ شارع صلاح الدين أبو الخير من شارع الجلاء البحرى
أسيوط: ١٣ ش المدينة المنورة الزهراء
دمياط: ش جنينة سرور أمام الفرن الآلى ت: ٣٢٨٠١٣
كفر الدوار: ١ ش أحمد عرابى ت: ٠١٢/٣٤٣٦٠٧
أبو حماد: ٣٠ ش التحرير برج العزازى
السنبلاوين: ٦ الجيش المصرى ت: ٠٥٠/٦٩٨٥٧٧
كوم حمادة: ش مستشفى المواساة خلف مجلس المدينة
المنيا: ٢١ ش الجمهورية ت: ٠٨٦/٣٥٣٦١٦
كفر الزيات: ش الجيش أمام نادى المعلمين
العريش: ش ٢٣ يولية أمام بنك القاهرة ت: ٠١٨/٣٢١١٠٩
فاقوس: ش الساحة عمارة المتيم . خلف المحكمة
دسوق: ش الجيش . أمام عمر أفندى
بورسعيد: ش الأمين وشارع ١٠٠ (بانا) سابقا ت: ٢٢٧٦٩٣
منوف: ٨ ش ترعة الحشاشة . طريق التأمين الصحى ت: ٦٦٠٠٧٣
بنى سويف الجديدة: ٣٦ شارع أحمد عرابى ت: ٠١٢/٢٨٢٧٢٨
دار السلام: شارع الفيوم أمام مجمع المدارس

ماك على الإنترنت www.maccarpet.com



امرأتان ومعركة

قراءة فرنسية للحروب الصليبية

عبد الرحمن الكواكبى «الحفيد»

هل كانت الحملة الصليبية السابعة
فعلا لإنقاذ قبر السيد المسيح
وحماية العقيدة المسيحية أم أن هناك أسبابا أخرى
لا علاقة لها بالدين الذى يؤمن به
وبرسوله المسلمون أيضا

لا يخفى على القارئ العربى أنّ المرأة العظيمة الملقّبة بـ«شجرة الدرّ» قد استطاعت، باقتدار، أن تخفى نبأ موت زوجها «نجم الدين الصالح أيوب» لأنّ الخطر الصليبى قد داهم مصر هذه المرّة، وقد استطاعت شجرة الدرّ أيضاً أن تشرف من قصرها على الاستعداد للمعركة الفاصلة. فقد كانت عامل التوازن بين كبار ضباط الجيش الإسلامى، وكانوا كلّهم من المماليك..

على الطرف الآخر كانت هناك امرأة أخرى، اتّخذت لها دوراً مهمّاً فى هذه الحملة، ولا سيّما فى معركة المنصورة، فمَن هى هذه المرأة، وماذا كان دورها ؟؟

الحملة الصليبية السابعة، التى قادها الملك لويس التاسع، والتى انتهت بمعركة «المنصورة» فى مصر كانت لها خلفيات تجدر معرفتها من مصدر فرنسى مفصّل، والاطلاع على وصف المعركة الحاسمة التى انتهت بهزيمة الصليبيين وأسر ملكهم، والتى تشمل الظروف التى دعت إلى تنظيم هذه الحملة وبيان ما إذا كانت فعلاً لإنقاذ قبر السيد المسيح وحماية العقيدة المسيحية أم لأسباب أخرى لا علاقة لها بالدين الذى يؤمن به وبرسوله المسلمون أيضاً.

فى قصر «كاستيل» فى إسبانيا كانت تعيش الفتاة الجميلة «بلانش» ابنة الملك ألفونس الثالث، حيث كانت الأميرة مع أختها تقومان مساء كلّ يوم بأداء الصلاة والدعاء لينقذ الله الأندلس من أيدى المسلمين.

وفى أحد الأيام جاءت جدّة الفتاتين ووالدة ملك إنكلترا إلى قصر الكاستيل لتدريس صهرها ألفونس سُبُل اتّحاد إسبانيا وفرنسا، وذلك بزواج إحدى الفتاتين من الأمير «لويس» الفرنسى ابن ملك فرنسا آنئذ «فيليب أوغوست»، وبهذا يتمّ السلام بين فرنسا وإنكلترا.

وقد لاقى هذا الاقتراح ترحيباً من والدى الفتاتين، وانتهت المفاوضات والزيارات باختيار «بلانش» لتكون ملكة فرنسا المقبلة. وتمّ حفل الزواج عام ١٢٠٠، ولمّا كان العروسان صغيرى السن، فقد تأخّر حفل العرس ثلاث سنوات بعد عقد الزواج، وكان الحب خلالها يربط بين الزوجين رباطاً شديداً. وفى عام ١٢١٤م ولدت «بلانش» طفلاً هو «لويس التاسع»، وفى عام ١٢٢٣ مات فيليب ملك فرنسا، وتولّى ابنه العرش، وأصبحت «بلانش» ملكة لفرنسا.

ثمّ أصبحت أرملة بعد موت زوجها الملك عام ١٢٢٦، وأضحت وصيّة على ولدها الملك الجديد لويس التاسع لصغر سنّه. وقد تعرّض الملك الجديد لعدّة حوادث عدائية قابلتها أمّه بحزم وبمساعدة صديقها الكونت «تيبو».

بعد فترة من الزمن بدأت الشائعات تتناول السلوك الأخلاقى لملك فرنسا الشاب، وهى شائعات كاذبة. جعلت الملكة تسرع فى تزويجه، وأخذت تفتّش له عن زوجة صالحة، وإن لم تكن فائقة الجمال. وكانت الملكة بلانش بسبب تديّنها لا ترغب فى أن يرتبط ابنها ارتباطاً شديداً بزوجته المقبلة، وأن لا يقع بسبب جمال وجهها فى فخّ الحب العاطفى، وبالتالى فى الخطيئة الجنسية. كما كانت تخشى أن تسيطر امرأة جميلة على ابنها لأنّها كانت تريد الاحتفاظ بقلبه وعقله تحت سيطرتها هى.

وهكذا كلفت الملكة عدداً من رجال الدين أن ينتشروا فى البلاد ويفتّشوا لها عن أميرة تنطبق عليها الشروط.

شاهد أحد رجال الدين فتاة ترضى بها الملكة، هى «مارجريت» ابنة «كونت دو بروفانس» (ريموند بيرانجى) وكانت فى الرابعة عشرة من عمرها، أوفدت الملكة أحد رجال الدين إلى إقليم «إكس آن بروفانس» ليطلب يد ابنته، ولمّا أعطيت الموافقة لرجل الدين اصطحب معه فوراً الأميرة، وأرسل يخبر الملكة بقدومه.

زفّت الملكة بلانش البشرى لابنها، بأنّها وجدت له خطيبة وأنّه سيذهب معها لملاقاتها. ولما سألها عن أوصافها قالت له : إنّها شديدة التديّن ومطيعة.

تمّ اللقاء فى مدينة «سانس»، وعندما شاهدت الملكة الخطيبة مارجريت قطّبت حواجبها وحكمت على رجل الدين الذى أخبرها عن مارجريت أنّه جاهل بالنساء لأنها كانت رائعة الجمال، خلافاً لشروطها. وما أن تكلّمت معها حتى كرهتها. أمّا الملك فقد سُرّ بها كثيراً إلاّ أنّ أمّه عبست فى وجهها، وجعلته يظهر عدم الإعجاب، وبقيت عابسة طوال يومها، ممّا أحزن الضيوف وعكّر صفو حفل العرس الذى أقيم بذات اليوم.

فى نهاية الحفل أخذت العروس إلى غرفتها، فاستلقت على السرير بصبر نافد منتظرة قدوم زوجها.

بعد ساعتين من الصبر أوفدت إحدى وصيفاتها لتراه ماذا يفعل. عادت الوصيفة لتنبئها أنّه فى الكنيسة يصلّى ! وعند الفجر لم يأتِ العريس، فنامت العروس وهى تبكى.

فى اليوم الثانى حدث الأمر نفسه، ممّا أثار العروس، وجعلها تمزّق أغطية الفراش بعنف، وفى اليوم الثالث تحطّمت أعصابها لأنّه كان كسابقيه، وذلك عندما أخبرتها الوصيفة أنّ الملك كان فى الكنيسة عند منتصف الليل يصلّى!

وأخيراً، فى مساء اليوم الرابع، حصل الملك على إذن من أمّه بأن يقوم بواجباته

Histoire d'amour de l'hisoire de France.
(قصص الحب فى تاريخ فرنسا)
- Guy Breton
Broche´, 1991, 1117pp

الزوجية، وأن يفكّر بولي عهده. وبقيت هي في الدهليز تنتظر الحدث، وعندما قدّرت أنّ الأمر قد انتهى دخلت غرفة العروسين. وقالت لابنها : (هذا يكفي لهذا المساء، هيا انهض يا لويس). وبدون أن توجّه كلمة إلى العروس مارجريت أمرت الملك أن يذهب وينهي ليلته في غرفة مجاورة وحيداً.

عند عودتهم إلى «باريس» كان لويس ومارجريت يعيشان تحت المراقبة الدقيقة للملكة، التي كانت تغار من كنّتها غيرة شديدة. وفي قصر اللوفر كان الشابان يعيشان بشكل عجيب، فكان الملك يتحيّن الفرص ليلاقي زوجته في الظلام تحت الدرج أو في الدهليز، وإذا قبضت عليهما مختبئين في مكان ما تنهرهما قائلة : (ماذا تفعلان هنا ؟ تضيعان وقتكما بشكل سيّئ ! اخرجا). وتترك مارجريت ترتجف من الخوف وتأخذ بيد ابنها قائلة له : (كلُّ انشغال معها وأنتما وحدكما يقودك إلى ملامسات ممنوعة، وبالتالي يقودك إلى الخطيئة). وقد عمد الملك إلى اقتناء كلب صغير يعوي عند قدوم الملكة، فيبتعد عن زوجته وتهرب إلى مكان آخر. وقد أفهمت ابنها أيضاً أنّ الاتّصال بين الزوجين يجب أن يكون من أجل إنجاب الأولاد فقط، وأنّ عليه عندما يجتمع بزوجته أن يؤدّي بعض الصلوات.

مرضت مرّة مارجريت، فجاء الملك إليها وهي معزولة في غرفتها عن جميع الناس، وجلس بجانب سريرها، وأمسك بيدها يواسيها، وعندما جاءت أمّه ورأته سحبته بعنف خارج الغرفة قائلة له : (ليس لديك أي عمل هنا)، ممّا جعل مارجريت تجهش بالبكاء قائلة لحماتها : (يا سيدتي ألا تسمحين لي برؤية سيدي ميتة أو حية).

في الحقيقة أنّ بلانش أمّ الملك كانت تخشى أن يخرج الملك من تحت وصايتها، ويمارس سلطته كملك، وبالتالي تقوم زوجته مارجريت بممارسة سلطتها السياسية كملكة. فهي تريد - على الأقل - أن يبقى ابنها وحيداً في مهمته كملك، فقد قالت له مرّة : (يا بنيّ.. أنتَ لم تتزوّج إلاّ امرأة طموحة، تحلم بالسيطرة على الدولة). فوعد والدته أن يكون حازماً مع زوجته، ورجاها أن تكون مطمئنّة إلى المستقبل.

الأميرة «أليونور» أخت مارجريت تزوّجت ملك إنكلترا «هنري الثالث»، وكانت ذكية وطموحة، ومارست على زوجها نفوذاً كبيراً، حيث كانت تتدخّل في أمور الدولة وتأخذ قرارات مهمة.

وكانت تكتب إلى أختها مارجريت متحدّثة عن تصرّفها في أمور الدولة، مما جعل مارجريت هي أيضاً ترغب أن تلعب دوراً في السياسة. ولمّا كانت تعرف أنّ حماتها تعترض بشدّة على ذلك، فقد كانت تقوم بشكل سرّي تماماً باستقبال سفراء إنكلترا وتتدخّل بلباقة في مختلف الأعمال.

لكن الملكة عرفت بما تعمله كنّتها الملكة الصغيرة، وحذّرت ابنها منها، كما ذُكِر آنفاً.

سبب الحرب:

تعب الملك من هذه الخصومة بين الكنّة وحماتها، ومن هذا الجوّ المشحون بالشجار الذي سمّم أجواء قصر اللوفر، فصارح زوجته مارجريت بقوله : (لو أمكننا الذهاب في حملة صليبية). وكان هو مسروراً من فكرته التي لمعت في رأسه، وأصاب السرور أيضاً زوجته بأمر الذهاب في حملة صليبية ! وذلك لأنّها ستبتعد عن ضجّة المشاحنات والصراخ والمراقبة المستمرة، فلمَ لا تفرح بتلك الفكرة ؟!

وفي أحد الأيام جمع لويس التاسع كلّ شجاعته، وصارح أمّه بفكرته، فأجابته : (لا تفكّر في ذلك يا ولدي، فإنّ مكانك هو في قلب مملكتك وليس في طريق المغامرات).

أصرّ الملك قائلاً: إنّه يريد استرداد القبر المقدّس (قبر السيد المسيح) وعمل مذبحة عظيمة للكفّار (المسلمين)، ولكنّ الملكة بقيت على إصرارها.

في تلك الأثناء عاد الكونت «تيبو» عشيق الملكة من حرب خارج فرنسا بعد غياب سنتين انقطعت خلالها أخباره، ممّا أسعدها وأسعد ابنها لويس، الذي قال لها : (إنّ المسيح يحفظ يا سيّدتي الذين يحبّونه، اتركيني أذهب في حملة صليبية). ولكنّها أصرّت ثانية على منعه.

في شهر حزيران/يونيو من عام ١٢٤١م جمع لويس التاسع في مدينة «سومور» النبلاء ورجال الكنيسة ليعرض عليهم اختصاصات أخيه «ألفونس» الذي بلغ رشده، فمنحه قيادة الفرسان وصلاحيات أخرى. وبعد ذلك حصلت اضطرابات وحرب داخلية، قمعها لويس بشدّة.

غير أنّه، عند عودته من المعركة، أصيب بحمّى شديدة، وأخذ الأطباء بمداواته، كما بدأت الصلوات تتلى من أجل شفائه في جميع كنائس المملكة. وبعد ثمانية أيام تقرّر أنّ الملك سيكون في حكم المفقودين، فوضعوه - حسب رغبته - على سرير خاص، وانتظروا نفَسَهُ الأخير.

وفجأة أغلقت عيناه، وتراخت أطرافه، وسقط رأسه إلى جانب الوسادة، وقال الذين كانوا حوله : (لقد مات !)، وأشعلوا الشموع، ووضعوا فوقه غطاءً أبيض، وأخذ الرهبان يتلون الأناشيد الجنائزية.

وفجأة سمع القوم تنفساً، فرفعوا عنه الغطاء، وشاهدوا لويس حيّاً، وبعد أيام عاد إلى اللوفر، وكانت الملكة الوالدة منحنية على رأس سريره سمعته يقول لها : (في اللحظة التي ظننتُ فيها نفسي ميتاً تمنّيتُ أمنية)، فسألته الملكة : (ما هي؟)، فأجابها : (وعدتُ الله أن أذهب بحملة صليبية إذا شفيتُ!).



كتاب
الزاوية

رحلة ابن بطوطة

من إيوالاتن(*) إلى مالى

بلدة إيوالاتن شديدة الحر، وفيها يسير تخيلات يزرعون فى ظلالها البطيخ. وماؤهم من أحساء بها، ولحم الضأن كثير بها. وثياب أهلها حسان مصرية. وأكثر السكان بها من مسوفة، ولنسائها الجمال الفائق، وهنَّ أعظم شأناً من الرجال. وشأن هؤلاء القوم عجيب، وأمرهم غريب. فأما رجالهم فلا غيرة لديهم، ولا ينتسب أحدهم إلى أبيه بل ينتسب لخاله. ولا يرث الرجل إلا أبناء أخته دون بنيه، وذلك شىء ما رأيته فى الدنيا إلا عند كفار بلاد المليبار من الهنود.

وأما هؤلاء فهم مسلمون، محافظون على الصلوات وتعلم الفقه وحفظ القرآن.

.. وأما نساؤهم فلا يحتشمن من الرجال ولا يحتجبن، مع مواظبتهن على الصلوات. والنساء هنالك يكون لهن الأصدقاء والأصحاب من الرجال الأجانب، وكذلك للرجال صواحب من النساء الأجنبيات. ويدخل أحدهم داره فيجد امرأته ومعها صاحبها، فلا ينكر ذلك.

.. ولما عزمت على السفر إلى مالى، وبينها وبين إيوالاتن مسيرة أربعة وعشرين يومًا للمجد، اكتريت دليلاً من مسوفة، إذ لا حاجة إلى السفر فى رفقة لأمن تلك الطريق. وتلك الطريق كثيرة الأشجار، وأشجارها عادية ضخمة، تستظل القافلة بظل الشجرة منها. وبعضها لا أغصان لها ولا ورق، ولكن ظل جسدها بحيث يستظل به الإنسان، وبعض تلك الأشجار قد استأنس داخلها واستنقع فيه ماء المطر فكأنها بئر، ويشرب الناس من الماء الذى فيها.

---

* إيوالاتن نسبة إلى ولاته وهو اسم قبيلة فى شرقى السنغال الحالية.

امـــــرأتـــان ومعـــــركـــة



شعرت الملكة بالإحباط، ورغم تديّنها، حاولت أن تثنى الملك عن تحقيق أمنيته، وكان ردّه أن خاط على ثوبه شعار الصليبيين، فجاءته الملكة براهب حاول أن يثنيه عن تحقيق ما تمنّى قائلاً له : (إنّ نذرك لا يربطك بشىء). لكنّ لويس الذى كان ينتظر منذ زمن طويل هذه الفرصة ليسافر مع زوجته مارجريت أصرّ على رأيه، وقام بتحصين أحد الموانئ، وأمر بتسليح السفن، وجمع الأموال اللازمة لحملته.

وفى شهر حزيران/يونيو من عام ١٢٤٨، وبعد أن عهد إلى الملكة بلانش الوالدة بالوصاية على المملكة، ترك باريس بصحبة زوجته مارجريت وأخويه، وبصحبة الفرسان الذين يرافقونه فى حملته.

ورافقت الملكة الأم (الحجّاج) حتى ضواحى باريس، وودّعتهم باكية، وسار الموكب باتّجاه مدينة «ليون».

ويذكر مؤرّخو الحملة قول مارجريت : (واخيراً وحدنا. كم سنكون سعداء !).

فى طريقهم عبروا إقليم «بروفانس» مسقط رأس الملكة مارجريت التى كانت فى غاية السعادة لاستعادة ذكريات طفولتها وللتخلّص من ممرّات اللوفر المظلمة. ويذكر المؤرّخون أنّ الملك ذاق لأوّل مرّة فى حياته طعم الحرية، وشعر أنّ قلبه ينبض بسعادة تمتع بها قرب مارجريت، وقد تبيّن أنّها حامل.

لم يحدّثنا مؤرّخ الحملة الفرنسى عمّا حصل قبل إبحار الحملة. فالمؤرّخ العربى «محمد قجّة» يذكر فى كتابه عن معركة المنصورة أنّ مؤتمراً كنسياً عُقدَ فى مدينة ليون الفرنسية عام ١٢٤٥ برئاسة «البابا أغنوست الرابع» الذى وجّه نداءً لإرسال هذه الحملة، وأنّ لويس التاسع لبّى هذا النداء، فنظّم هذه الحملة.

وهنا نلاحظ أنّ أهمّ أسباب هذه الحملة كان - كما ورد فى المراجع الفرنسية - هو رغبة الملك لويس بالتحرر من أمّه والانفراد بزوجته. يضاف إلى ذلك شعوره الدينى العميق الذى اكتسبه من تربيته على يد أمّه.

وصف مؤرّخ الحملة «جوانفيل Joinville» الذى كان مرافقاً للملك ومؤرّخاً له عملية الإبحار فى شهر آب/أغسطس، وكيف فتحت أبواب السفن لصعود الجياد، وتحميلها ببراميل النبيذ، وكيف قام القساوسة والرهبان بأداء الصلوات اللازمة، وكان عدد السفن خمسين سفينة.

وبعد مدّة وصلت السفن إلى «جزيرة قبرص»، حيث قام لويس بتخزين براميل النبيذ وأكياس القمح، وقبرص هى المحطة الأخيرة قبل الوصول إلى بلد (الكفّار) حسب وصف المؤرّخ للمسلمين. ولما كانت قبرص جميلة، فقد استقرّ الملك فيها أكثر من ستة أشهر، وكان وزوجته فى رحلة شهر عسل دائم، ومن وقت لآخر كان الملك يجتمع فى القصر مع كبار البارونات المرافقين له إلى الأرض المقدّسة، ويدرس وإياهم تفاصيل الرحلة.

وكانت الملكة مارجريت تحضر دائماً هذه الاجتماعات، وتعطى أحياناً رأيها بكلّ حرية، مما جعل السادة المجتمعين مدهوشين لذلك، وهم الذين اصطحب أكثرهم زوجاتهم لقضاء أوقات سعيدة معهنّ، لم يستطيعوا أن يفهموا سبب الاهتمام الزائد الذى كان يبديه الملك لزوجته عندما تتدخّل فى الحديث.

الإبحـــار إلى مـــصـــر

بعد قضاء شتاء مريح فى قبرص، وانضمام عدد من الصليبيين المقيمين فيها إلى الحملة، ركب الجميع السفن بإتّجاه مصر، وكان أسطولاً ضخماً، ممّا جعل المؤرخ «جوانفيل» يقول : إنّ البحر كان مغطّى باشرعة ألف وثمانمائة سفينة!!

بعد ثلاثة أسابيع من الإبحار وصلت السفن إلى دمياط عند مدخل النيل، حيث بدأت الأجراس النحاسية فى المدينة تقرع، وتجمّع جمهور من المواطنين على الشاطئ للدفاع.

هنا نادى الملك زوجته قائلاً : (تعالى وانظرى (الكفار) الذين ينظرون إلينا، وأخذ الملك بنصيحة من طلب منه الانتظار حتى صباح اليوم الثانى. وكانت المشاعل تضىء خلال الليل السفن والشاطئ. وعند الفجر نزل الملك وممثل البابا والمؤرّخ جوانفيل وألوف الفرسان إلى القوارب متّجهين إلى دمياط.

وعندما أصبحوا على بعد حوالى ستين متراً من الشاطئ أمطر الجنود المواطنين بالسهام، وردّ هؤلاء بالمثل وبحماسة جعلت الفرنسيين يؤخّرون النزول إلى البر.

رأى الملك أنّ أى تردّد قد يغيّر سير المعركة، فرمى بنفسه فى الماء، درعه على رقبته وسلاحه فى يده، وكان الماء يصل حتى كتفيه. وسار باتّجاه الشاطئ، فتبعه الفرسان كى لا يتركوا ملكهم معرضاً للهلاك.

عندما شاهد المصريون، (ولا اريد أن أستعمل بعد الآن تعبير الكفّار الذى يكرّره المؤرّخ الفرنسى) الفرنسيين مدججين بالحديد أصابهم الرعب، فتراجعوا، وتبعهم الصليبيون، حيث نشبت معركة شرسة دامت كلّ النهار. وفى الليل لاحظ (المسلمون)، (وهذه أوّل مرّة يستعمل فيها المؤرّخ هذه الكلمة) أنّهم سيبادون هربوا بكلّ اتّجاه.

ودخل الملك والملكة دمياط فى اليوم الثانى بشكل احتفالى، حيث قال الملك لزوجته: (سيدتى اهديك دمياط، لتقضى فيها الأشهر الأخيرة من انتظارك، وحيث ستعطينني فيها المولود الجديد).

خوفا من أن تضبطه أمه،
كان الملك لويس التاسع
لا يلتقى بزوجته إلا سرا
تحت الدرج
أو فى الدهليز

تبادل الزوجات:

أقامت الملكة فى دار عربية رائعة، حيث كانت فسحتها مزدانة بالنوافير الجميلة، ممّا جعلها تعتقد أنها فى الجنّة.

ولمّا كانت تقضى أسعد أيّام حياتها، كان الصليبيون فى حالة فراغ وعطالة غاطسين فى الخطيئة (ils festoyaient) بشكل مخجل.. سكارى، يقضون أوقاتهم كلها فى تبادل زوجاتهم، مما جعل أحد المتحدّثين آنئذٍ يقول : (المسيحيون فى دمياط abusérent يسيئون ما منحهم الله إياه) !! ولم يتمكّن الملك بذاته خلال أسابيع كثيرة من إصلاح هذه الفوضى الأخلاقية المثيرة.

كان الملك لويس التاسع فى رحلة شهر عسل حقيقية، حيث كانت مارجريت شاغلة وقته كله، وكانا يشاهدان يتنزّهان بهدوء على شاطئ النيل، متشابكى الأيدى.

فى أحد الأيام أدرك الملك أن هذا الوضع خطير، فدعا البارونات (الأعيان) وأعلمهم أن الجيش سيسير غداً لاحتلال المنصورة، المدينة التى تقع على طريق القاهرة.

الملك الأسير:

لكن الصليبيين أوقفهم فيضان النيل من البداية، فأقام لويس معسكراً بجانب النهر، وقرّر إنشاء مجرى للماء، وقام هو والفرسان بخلع أسلحتهم وتحوّلوا عمّالاً لحفر التراب.

أخذ المسلمون يهاجمونهم ويستعملون سلاحاً مخيفاً لا يعرفه الفرنسيون، هو النار الإغريقية، وهو عبارة عن تركيب من الكبريت والإسفلت يُملأ فى أوانٍ ترابية ويقذف بقاذفات تترك وراءها ناراً مشتعلة، ويصفها المؤرخ جوانفيل بأنها قصف ليلى يشابه التنين يطير فى الهواء ويلقى ضوءاً يجعل الليل نهاراً. مما أثار رعب الفرنسيين.

وقبل أن ينتهى المجرى الذى كانوا يحفرونه أخذت مياه النيل بالهبوط، واستطاع فريق من الجيش الهجوم على المصريين الذين هربوا، وتابعوهم حتى المنصورة حيث جرت معارك دموية قتل خلالها «الكونت دارتوا» أخو الملك.

فكر الملك بالعودة إلى دمياط حيث تنتظره الملكة، ألم يترك فرنسا من أجل أن يكون إلى جانبها ؟! حسب تعبير المؤرخ الفرنسى.

ولسوء الحظ وقع الصليبيون مرضى بسبب السمك الذى كانوا يأكلونه والذى كان يتغذى بلحوم الجثث التى تعوم فى مياه النيل. وهكذا توقف الانسحاب ووقع الملك مريضاً، وتوقف الركب فى قرية صغيرة تدعى «كيارسة» حيث ظهر المصريون سريعاً فانسحب الفرنسيون، لكن الملك – حسب تعبير المؤرخ الفرنسى – الذى أراد أن يكون حراً فى حبّ زوجته وقع أسيراً بيد (الكفار) المسلمين.

فى تلك الظروف كانت الملكة فى دمياط، وقد اقترب موعد وضعها، تعيش فى رعب وتنتظر فى كل لحظة أن يدخل المسلمون المدينة. وكانت تصرخ فى الليل طالبة المساعدة عندما تسمع أى حركة أو صوت. فوضعوا بجانبها فارساً يسهر عليها، وكان يهدئها كلما صرخت : (المسلمون.. المسلمون..).

وصلها الخبر بأن زوجها الملك وقع أسيراً بيد المسلمين، فركعت أمام الفارس الحارس ورجته أن يقطع رأسها إذا دخل المسلمون عليها، فوعدها بأن يفعل لأنه فكّر بذلك.

فى اليوم التالى وضعت الملكة مولوداً ذكراً أسمته «جان تريستان» إشارة إلى حالة الحزن التى كانوا يعيشونها، خاصة أنهم أخبروها أن الصليبيين الطليان الذين بقوا فى دمياط لحماية المدينة يتحدثون عن الانسحاب منها. وكانت المدينة كلها تعيش باضطراب.

لكن الملكة، التى كانت تفكر بأن تحتفظ بدمياط لتساوم بها، وتبادلها بحرية الملك، دعت الفرسان الطليان إلى غرفتها ورجتهم ألا يتركوها لأنهم الوحيدون المؤهلون للدفاع عنها، وإلا فإن الملك وجميع من معه سيفنون. ووعدها الطليان بأن يبقوا ويدافعوا عن المدينة حتى آخر رمق.

غادرت الملكة سريرها، وخلال عدة أسابيع استعادت صحتها وعافيتها. وبعد شهرين، وبسبب حيويتها وشجاعتها أعيدت دمياط الى المصريين مبادلة بالملك لويس.

وعندما تقابل الزوجان بعد فك أسر الملك تعانقا وهما يبكيان، وقال لها : (لقد أنقذتنى يا سيدتى من موت محقق، وبدونك كان (الكفار) سيقطعون رجلىّ ثم يقطعون رقبتى) فاغمى على الملكة.

لم يعد الملك بعد هذا إلى فرنسا مباشرة، بل ذهب إلى فلسطين، التى كانت تحت الاحتلال الصليبى، وأقام فى حيفا أربع سنوات، فلم يكن هناك موجب لسرعة العودة إلى باريس، خاصة أنه كان يفكر بوجود والدته بلانش فيها، التى كانت قد عقّدت له حياته.

وفى أحد الأيام جاء الخبر من فرنسا بأن أم الملك قد ماتت، حزن الملك عليها حزناً شديداً. أما الملكة مارجريت فقد ظهر عليها الحزن الشديد أيضاً، فقال لها جوانفيل المؤرخ فى أحد الأيام عندما رآها تبكى : (كيف تبكين يا سيدتى موت الملكة بلانش، وهى المرأة التى كانت تحتقرك؟).

فأجابت الملكة بكل صراحة : إنها لم تكن تبكى الملكة الأم، بل هى تبكى من أجل الحزن الذى ألمّ بزوجها. ■

فن التفاصيل الصغيرة عندما يعكس الواقع المعقد

و.. لو كان ضمن تقاليد مجلة «الكتب.. وجهات نظر» التى أكتب لها هذا المقال.. وهى مجلة تحاول إرساء عدد من التقاليد المهمة فى الصحافة الثقافية المصرية والعربية والعالم الثالث ، وربما العالم كله. أقول لو كان ضمن تقاليد هذه المجلة أن أهدى المقال لإنسان ما، لأهديته إلى روح المرحوم الدكتور إبراهيم دسوقى شتا. أقول له فى الإهداء إن النبتة التى غرس بذورها. قد أوشكت أن تؤتى ثمارها. كان الدكتور إبراهيم شتا من أصحاب المشاريع الثقافية الكبرى. الكتاب الأول فى مشروعه كان إقامة جسر من الترجمة بين الحضارتين الفارسية والعربية. ترجم شتا مثنوى مولانا جلال الدين الرومى. وأشرف على ترجمة بعض الروايات التى نعرض لها فى هذا المقال.

قال لى أكثر من مرة أنه قبل أن تعرف أوروبا وأمريكا. لابد من معرفة الحضارات المجاورة لنا. خاصة حضارتى إيران وتركيا. ذلك أن «ريح الشرق» أكثر أهمية بالنسبة لنا من حضارات بعيدة. و لأن الموت اختطفه مبكراً. ترك الكتاب الثانى في مشروعه لم يكمله. وأتمنى أن يقوم عليه أحد تلاميذه. ألا وهو تتبع النتاج الأدبى والفكرى المكتوب باللغة الفارسية فى آسيا المسلمة، ابتداء من الدول التى انفرطت من عقد الاتحاد السوفيتى السابق فى آسيا. التى وجدت فى الإسلام ملاذها. ووصولا إلى أفغانستان وباكستان والهند والصين. تلك كانت مهمته التى كان يعد نفسه لها. فى الوقت الذى سبقها الموت إليه. ٬

وبالرغم من غياب علم اجتماع الأدب من خطابنا النقدى. إلا أن الرواية كوثيقة اجتماعية. تسبق دراسات علم الاجتماع. لأنها تصور الانسان فى حركته اليومية. ولأن الرواية هى فن التفاصيل الصغيرة. فهى تقدم مادة اجتماعية غزيرة عن الحياة. فإن كانت كتب التاريخ تحاول الإجابة عن سؤال : ما الذى جرى؟ فإن النص الروائى يقف فى مواجهة السؤال الكبير : كيف جرى ما جرى ؟! إنها قصة العقل والقلب والضمير. فى تفاعلهم مع المجتمع. وهى رواية صراع الإنسان ضد نفسه وضد الآخرين. مع رصد الزمن والواقع الذى يحيط به. وهى أمور من المستحيل على المؤرخ ولا عالم الاجتماع أو عالم النفس أو المحلل السياسى الوصول إليها فإن كان هؤلاء جميعا يرصدون الحركة الخارجية للإنسان. فإن الرواية وحدها هى التى تحاول الجرى وراء الدروب الداخلية للإنسان. لتقول : أنه أقدم على هذا التصرف لأسباب متداخلة ومتشعبة لا بل معقدة أحيانا. كانت تدور فى نفسه. سندرس

قراءات فى خمس روايات

■■ ... وانتهت الانتخابات الرئاسية الثامنة فى إيران بعد الثورة الإسلامية. وأصبح الرئيس محمد خاتمى رئيسا لولاية ثانية. الرئيسان الأول والثانى لم يكونا معممين. الأول هو أبو الحسن بن صدر هرب تحت ظلام الليل إلى باريس التى مازال يعيش فيها منفيا حتى الآن، والثانى محمد على رجائى قتل بعد أسابيع من انتخابه فى أغسطس سنة ١٩٨٠. والرئيس الثالث: على خامنئى أصبح مرشد الجمهورية ومصدر السلطات الأول فيها. والرابع كان هاشمى رافسنجانى.

محمد خاتمى هو الرئيس الخامس والسادس معا. فى الانتخابات الأولى ـ منذ أربع سنوت مضت ـ انتصر فى مواجهة رافسنجانى أبرز رموز النظام. وحصل خاتمى على ٧٠٪ من الأصوات، وفى المرة الثانية انتصر فى مواجهة مرشحين من كل ألوان الطيف الإيرانى.

التحديات التى تنتظر خاتمى كثيرة. أخطرها حالة التوقعات الشعبية الناتجة عن الجو العام الذى ساد البلاد فى فترة الانتخابات. والمطلوب من خاتمى كثير: توسيع الحريات، ومساحة العمل السياسى. إن خاتمى يعود إلى موقعه ليجد فى انتظاره مساجين بعضهم من أنصاره و٤٠ جريدة معطلة. والإعلام يعانى من مشاكل الانتقال من الثورة إلى الدولة.

يبقى المحافظون. البعض له مصالح. والبعض الأخر يدافع عن مواقف. وإن كان هذا الانتصار سيعطى خاتمى قوة فى مواجهتهم جميعا. وعليهم إدراك أن الحرية السياسية وحرية الإعلام وإعادة صياغة الاقتصاد ليست ضد مصالح إيران.

قال خاتمى بعد فوزه إن الدين والأخلاق والديمقراطية والحرية ستكون من ثوابت العمل العام فى المرحلة القادمة. لكن المهم الآن أنه على خاتمى والمحافظين أن يدركوا ـ بعد هذه الجولة ـ أن التعايش بين كل الفرقاء لا مفر منه. أما محاولات محو الآخر ونفيه فقد أصبحت بدون جدوى.

ربما لا يظهر خاتمى فى هذه الروايات الخمسة التى يحكى مؤلفوها عن إيران الشاة وإيران الخمينى وإيران الثورة الإسلامية وإيران الحرب مع العراق. ولكن اسمه يرد لأنه كرم أحد أصحاب هذه الروايات.

خمس روايات إيرانية معاصرة. تحكى عن الماضى باعتباره تراثا. والحاضر على أنه إرث أما المستقبل فمازال يسكن الأحلام.

هذا ما جرى فى حقول القيادات وميادين صناعة القرار، ولكن ماذا عن الإنسان الإيرانى العادى؟ ماذا عن تجربة الحياة اليومية؟ إن هذا لا نجده سوى فى النص الروائى. لأن الروائى يكتب قصة حياة الناس، ورغم أنه لا يهدف عادة إلى الإجابة عن هذه الأسئلة الكبرى عندما يجلس للكتابة. ومع هذا لا نجد هذه الإجابات سوى فى ثنايا النص الروائى. لا نجده فى قصيدة شعر ولا نص مسرحى. ولا دراسة علمية ولكن فى الرواية. هذا الكون الصغير الذى يسكنه بشر. نراهم وهم يفكرون ويتحركون. وهكذا تصبح الرواية صفحات السكوت عنه فى كتب التاريخ ، ودراسات علم النفس والاجتماع.

واقع إيران الاجتماعى كما يتبدى فى خمسة نصوص روائية. لثلاثة من الروائيين الإيرانيين. لم يقترب أحدهم من زمن خاتمى. ولكن الإشارات الموجودة فى هذه النصوص تومئ إلى ما تحمله لنا وكالات الأنباء الأن عن أحوال إيران.

رواية السافاك

بزرج علوى أحد كتاب الجيل الجديد الذين أظهروا مقدرة فائقة فى هضم تكنيكات الرواية الأوروبية وتطبيقها فى إبداع الأعمال الفنية التى حافظت كذلك على محتواها «الإيرانى». ولد سنة ١٩٠٧. ثم أوفد إلى ألمانيا للدراسة الجامعية «١٩٢٢» وحين عاد إلى إيران انضم إلى حزب ماركسى غير معترف به. فاعتقل عام ١٩٣٧. وظل بالسجن حتى احتلال الحلفاء لإيران فى ١٩٤١، حين أعلن العفو العام. وأطلق سراح عدد كبير من السجناء السياسيين معه، وكانت هذه المجموعة الماركسية نواة حزب تودة الشيوعى بإيران. ويرتبط نشاطه الاجتماعى والأدبى منذ بدايته بسياسة هذا الحزب. وبعد سقوط مصدق هاجر علوى إلى أوروبا وعمل أستاذاً زائرا بجامعة هامبلرت بألمانيا الشرقية. وظل فى ألمانيا حتى وفاته «١٩٩٧». وعلى الرغم من خلفيته اليسارية التى كانت ترشح الهم الاجتماعى والطبقى ليكونا موضوعا لكتاباته. إلا أنه توقف طويلا أمام تجربة السجن. وقدم أدب السجون. فله غير رواية الأرضة، جذاذات أوراق السجن ١٩٤١ وهى روايات عن المساجين مسجلة على صناديق السكر الفارغة وعلب السجائر. إنها عبارة عن أية أوراق وصلت الى المؤلف وهو فى السجن. وفى هذه الرواية يقص ما جرى له ولرفاقه من أول يوم سجنوا فيه حتى العفو العام. وأبرز المعاملة القاسية التى لقوها من الحراس وكفاحهم من أجل ان يبقوا احياء، وإن كانت رواية الأرضة عن جهاز السافاك. وهو اسم جهاز المخابرات الإيرانى فى زمن الشاه، فإن له رواية أخرى عن نفس الجهاز وهى: عيناها. «١٩٥٢». والأرضة. والسافاك أو الساواك. كل حرف منه يدل على كلمة فارسية.

أنا أحد رجال السافاك. لست خجولا من أننى اخترت مثل هذا العمل. ولست فخورا بذلك. إنه عمل كسائر الأعمال الأخرى، أيكون موظفو وزارة المالية كلهم لصوصا ؟ إن العمل فى إدارة حكومية واحدة ليس فى حد ذاته دليل جريمة، وهل يحدث أن تعيش فى بلد خال من الحراسة.؟ ألا يوجد فى أمريكا الحرة جهاز الاستخبارات الأمريكية؟

١ ـ «الأرضة» رواية.
بزرج علوى
ترجمة : د. علاء منصور.
مراجعة: دكتور إبراهيم دسوقى شتا
القاهرة، ٢٠٠٠

٢ ـ «قصة جاويد» رواية.
إسماعيل فصيح
ترجمة : د. سليم عبد الأمير حمدان
القاهرة، ٢٠٠٠

٣ ـ «ثريا فى غيبوبة» رواية
إسماعيل فصيح
ترجمة : د. محمد علاء الدين منصور
مراجعة : د. إبراهيم دسوقى شتا
القاهرة، ١٩٩٥

٤ ـ «شتاء ٨٤» رواية.
إسماعيل فصيح
ترجمة : محمد علاء الدين منصور
القاهرة، ٢٠٠٠

والروايات الأربعة منشورة ضمن المشروع القومى للترجمة عن المجلس الأعلى للثقافة.

٥ ـ «حوض السلطان» رواية
محسن مخملباف
ترجمة : رجاء عبد المنعم جبر
القاهرة الكويت ١٩٩٣، دار سعاد الصباح

فالسين ملخص كلمة سارفان بمعنى جهاز، والألف الأولى بدل أمنيي أى الأفق، والواو واو العطف، والألف الثانية بداية كلمة إطلاعات أى استخبارات، والكاف بداية كلمة كشور أى البلاد. فمعنى حروف الكلمة جهاز أمن البلاد واستخباراتها. وعلى الرغم من أن الشاه أسس هذا الجهاز من أجل أمن نظامه، إلا أنه كان من العوامل التى عجلت بنهاية نظامه. تبدأ رواية الأرضة هكذا :

• أنا أحد رجال السافاك. لست خجولا من أننى اخترت مثل هذا العمل. ولست فخورا بذلك. إنه عمل كسائر الأعمال الأخرى، أيكون موظفو وزارة المالية كلهم لصوصا ؟ إن العمل فى إدارة حكومية واحدة ليس فى حد ذاته دليل جريمة وهل يحدث أن تعيش فى بلد خال من الحراسة»؟ ألا يوجد فى أمريكا الحرة جهاز الاستخبارات الأمريكية ؟ ألا توجد المخابرات البريطانية فى بريطانيا ؟ وفى فرنسا الركن الثانى ؟ وفى روسيا الـ كى. جى. بى ؟ لابد أن هذه الأجهزة توجد فى كل مكان آخر.

الراوى لأنه كان مسئولا عن طلاب الجامعات، ثم أصبح مسئولا عن الحياة الحزبية، ثم ينقل إلى أوروبا ليصبح مسئولا عن طلاب إيران الذين يسافرون إلى بعثات علمية، يبدأ البطل مجرد مرشد للسافاك، وعند نهاية الرواية يصبح رئيسا للسافاك ووزيرا. وعند بداية الرواية كان العدو الجوهرى للنظام هم الشيوعيون واليساريون، واستمر هذا الموقف حتى بعد أن أصبح الإسلاميون يشكلون العدو الجوهرى للنظام.

فى الرواية قدر كبير من التشويق ، والأحداث سريعة ومتلاحقة. والشخصيات مرسومة بعناية. فالبطل الذى يتواجد دائما فى عمله. يعانى من أمه المريضة التى تقف ضده لأنها ضد الجهاز الذى يعمل فيه. وقد استخدم الكاتب مرض الأم كرمز لمرض إيران كلها. ويبدو أن المرأة تستخدم كثيراً فى النصوص الروائية الإيرانية كرمز لإيران. ذلك أن إسماعيل فصيح يستخدم بطلته ثريا التى تعيش حالة من الغيبوبة كرمز لإيران. ولكن بعد سنوات من الثورة. رجل السافاك القوى يعانى من أزمة أخته رقية. التى اتجهت إلى الفدائيين الإسلاميين ووصلت إلى مركز قيادى فى أوساطهم. وطوال الرواية وهو يبحث عن أخته ولا ينجح فى الوصول إليها رغم موقعه القوى فى السافاك، هى التى تصل إليه قبل انهيار النظام بلحظات، وتطلب منه أن ينجو بنفسه، وأن يهرب ولكن يكون الأوان قد فات.

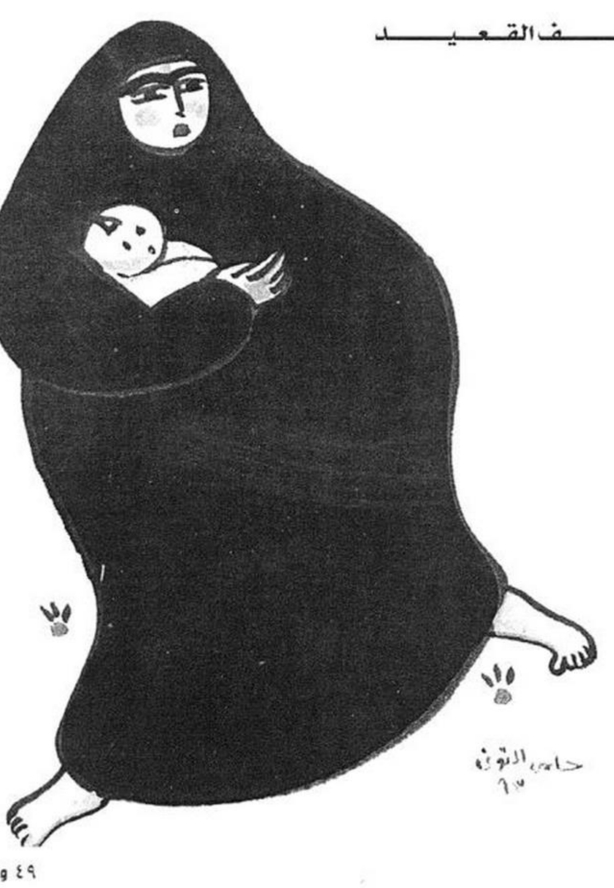
يقول البطل فى بداية عمله : إن عملنا هو التحرى عن الشيوعيين. ومن لهم صلة بالروس. يجب أن نرعى أمور جلالة الشاه ورجال بلاطه وما خلا ذلك لا يهمنا فى شىء. نحن نستشير جهاز الاستخبارات الأمريكية والموساد الإسرائيلى. يظهر الشاه كثيرا فى الرواية مسبوقا بلقب صاحب الحضرة الهمايونية. أو الحضرة العلية. ويظهر الخمينى فى الرواية عندما يتكلم المؤلف عن قانون الامتيازات الأجنبية. لقد أصدر كبار رجال الدين، ومنهم آية الله الخمينى وآية الله شريعتمدارى، فى ذكرى ميلاد فاطمة الزهراء، بيانا ضد القانون وصل إلى الناس كالبرق. وفى اليوم التالى يكتب عن تهييج الجماهير فى الشوارع، اعتراضا على قانون الحصانة للعسكريين الأمريكيين المتواجدين فى إيران. واحتجاجا على نفى آية الله الخمينى وكان ذلك فى سنة ١٩٦٣. وبعد اجتماع مع رئيس السافاك. يقول البطل معلنا عن التحول فى أهداف الجهاز :

• الأمر اليوم فى منتهى السوء. فنحن نستجوب حتى اليوم بضعة أولاد شيوعيين مطيعين. أما الآن فرجال الدين الدهاة المحنكون يحفرون تحت أقدامنا.

وبعد نزوله إلى الشارع يلفت نظره لأول مرة وجود النساء المحجبات. ثم المنقبات. وتدخل فلسطين على الخط فى الرواية. يقول: كانت أهم نقطة فى التقرير المعروض علىّ. كان ذكر صاحب التقرير أن فتاة تدعى ملكة. ظهرت وسط الطلاب من ستة أشهر. ويقال إنها أتت من فلسطين، تذكرت ما سمعته من أن كل الساخطين لاجئون من فلسطين.

إيرانيــة معاصــرة

يوسـف القعيـد



صاحب الصوت الواحد فى الرواية من رجال السافاك السابقين، وقد جلس ليكتب شهادته التى هى الرواية بعد قيام الثورة. والمؤلف ينبهنا على لسان بطله أن هذا البطل ليست له علاقة بحرفة الكتابة.

• لا أعرف التنميق فى اللفظ، ولم أتعلم توشية العبارة، لم أكتب طوال عمرى عشر رسائل لا لصديق ولا لواحد من المعارف، كتبت بدلا منها التقارير. الكتابة غدت الآن وسيلة لكسب لقمة العيش. لا تلزمنى الفصاحة والبلاغة، يكفينى وحسب قليلون يقرأون ويدركون أن عليهم أن يدفعوا لى.

إن هذا التحديد فى أول الرواية أصبح المآخذ عليها. لأن الرواية خلت من الكتابة الشعرية التى أصبحت جزءا من الكتابة فى الرواية الإيرانية.

رواية الأرضة هى رواية السافاك. بطلها أحد رجال السافاك فى زمن الشاه. تبدأ الأحداث فى منتصف الخمسينيات، وتنتهى عند اليوم الأخير من حكم الشاه. فى فبراير سنة ١٩٩٧. وترصد بذلك ربع القرن الأخير. والرواية مروية بضمير المتكلم «أنا» وهى قطعة واحدة. تخلو من التقسيم لفصول أو أبواب أو أقسام. آخر ما يكتبه البطل فى الرواية عندما يسمع من يقول له : لنر ماذا كتب على جبينك. فيقول: هذا هو مصيرى. يكون البطل قد أصيب بطلق نارى، عندما انطلق كل الإيرانيين ينتقمون من السافاكيين. والرصاصة أصابت قدمه بإصابة غير قابلة للشفاء وهكذا لن يتمكن من الهرب مثل كل الذين هربوا. قبل غرق سفينة الشاه أمام هدير الثورة الإسلامية. ربما كانت هذه الرواية أول نص روائى إيرانى يرد فيه اسم الإمام الخمينى. وكذلك مدينة «قم». وآيات الله كلهم. من خلال رؤية السافاكيين. كما أننا نقرأ اسم فلسطين والعراق وكربلاء والنجف وكذلك أمريكا وإسرائيل باعتبارهما حليفتى الشاه الأساسيين. والخومينى تم نفيه من خلال أحداث الرواية إلى تركيا. أما نفيه الأخير إلى فرنسا. ونفيه السابق إلى العراق فلا يوردهما



وكيّفوا انفسهم على حياة العسكرية في ظل ظروف قاسية. ثم تبلغه حماته عن هتافات بضعة من المشايخ والطلبة داخل المساجد، واعتراضهم على قوانين الإصلاح الزراعى ويظهر اسم «قم». من خلال سؤال طرح على راوى الرواية: ألا تعلم ماذا جرى فى قم ؟! ويظهر بعدها اسم كربلاء.

أما ممارسات السافاك فالحكايات تتطلب قراءة النص الكامل للرواية. لقد كانوا يستأجرون قتلة محترفين من أمريكا اللاتينية، واستأجروا النساء للإيقاع بالضحايا. كان الكل وحتى داخل السافاك. يتجسس على الكل. ويصف أدوات التعذيب: السوط الكهربائى، العصا الكهربائية، والكماشة الحديدية، والمخراز والكرسى الكهربى. ويقول: رأيت فى دهاليز سجن أوين بنتًا عارية الجسد يسوطها جلاد بسوط فى يده. وكنا نحن السافاكيين واقفين فى أطراف الدهليز ونرى مرة أحد الموظفين يركل بقدمه المرأة العارية. ويلقى بها على الأرض ثم يجرها أمام الضارب بالسوط وإعطاء المتهم حقنة شرجية بماء حارق. وادخالها فيه. ووضع براز الفتاة فى فمها وتلويث رأسها به. وهناك متهم قطع لسانه بأسنانه من كثرة التعذيب حتى لايجيب عن أسئلتهم، وواحدة كانوا يضربونها بسوط معدنى مكهرب ويحرقون أماكن حساسة من جسدها بالعصا الكهربائية، وكانوا يخزون لحمها ويشدونه بالكماشات. كانت عارية مكشوفة وقد حاول بعضهم أن يجامعها. وحين كان أخوها يستجوب ويعذب كانوا يسجلون صرخاته وسبابه ونواحه وأسمعوها لأخيهما الأصغر وقت استجوابه. وكانت أدوات التعذيب تستورد من إسرائيل.

وبعد أن أصبح الراوى سافاكيا محترفا يقول: أعرف بالتجربة أن السمعة الطيبة ليست دليلا على الطهارة والعفة. بل هى إشارة إلى وجود الحيطة عند الإفادة من كل نعمة حتى لاتحرق رائحتها انوف الحساد. وتصلهم التقارير. الناس فى الشوارع تقول إن الشاه ووزراءه لا يشربون الماء بدون إذن من الأمريكيين. مع أن ملايين الدولارات من كد الشعب الإيرانى. كانت تنفق فى أمريكا. ثم ما معنى أن يبنى رجال الشاه ورجال السافاك أحياء فى افريقيا. إنها الثورة. والمؤلف يصفها هكذا:

«كان الاضطراب يزيد مع كل يوم يمر، بحيث أرى أن من حولى يتناقصون، فى كل يوم كان أحد قواد البلاد يضع ذيله على كاهله ويهرب. لم يبق أحد من الأسرة الملكية. كانت البلاد قد اصيبت بالشلل التام بسبب الاضطرابات. لم يعد الشاه يستطيع إصدار الأمر. بقى الوزراء والمديرون عاطلين بدون عمل. كان الفراغ يبتلع كل مسعى. وهكذا حتى النهاية.

بقى أن تعرف أن جهاز السافاك أنشئ سنة ١٩٥٣ بعد ثورة مصدق. وأن هذا الجهاز كان من الأسباب الرئيسية فى الثورة ضد الشاه.

متى يدرك الإيرانيون
أن الزمن لابد أن يمضى إلى الأمام،
وتلك هى معادلة إيران الصعبة. فهل
تستطيع أن تتجاوزها؟ ذلك هو سؤال اللحظة
الراهنة، والزمن القادم لن يقدم
الإجابة على السؤال سوى
الإيرانيين أنفسهم

ويعد ضحايا السافاك أكثر عددا من شهداء حروب إيران كلها. فقد حرق ستمائة شخص وتفحموا مرة واحدة فى حريق نشب فى مبنى سينما ريكس بعبدان يوم ١٩٧٨/٨/١٩. وكان السافاك هو الذى أشعل النيران فى المبنى. وقد حدثت مواجهة بين السافاك والمتظاهرين فى يوم الجمعة الأسود ٧٨/٩/٨ كانت ضحاياها حوالى خمسة الآف متظاهر قتلوا مرة واحدة. وفى أيام الشاه الأخيرة كان السافاك يستعين بقوات كوماندوز إسرائيليين. كانوا يحضرون فى طائرات حربية لكى يحصدوا المتظاهرين من الجو.

الثورة والهجرة

إسماعيل فصيح من الجيل الثانى فى الكتابة الروائية الإيرانية. بعد صادق هدايت وبرزج علوى. ولد فى طهران فى ٢١ فبراير سنة ١٩٣٤. ودرس فى إيران ثم فى الولايات المتحدة الأمريكية، ليعود إلى بلاده سنة ١٩٦٣. فيعمل فى جامعة شركة النفط الوطنية الإيرانية. حتى صار أستاذاً مساعداً فى جامعة نفط عبدان. حيث كان يدرس مادة التلخيص وكتابة تقارير العمل. الأمر الذى يبدو تأثيره واضحا فى لغته المختصرة السريعة. التى تنفر من التوصيف السائد والسرد المتانق. قامت الثورة الإسلامية. فأحالت إسماعيل فصيح إلى التقاعد. وذلك ضمن إجراءات الثورة الثقافية التى نفذتها فى الجامعات والمؤسسات الثقافية. مما جعله ينصرف إلى الكتابة والترجمة. أصدر إسماعيل فصيح ثلاث عشرة رواية ترجمت منها إلى اللغة العربية ثلاث. أول رواياته كانت «التراب الخام» التى نشرت فى إيران سنة ١٩٦٨، وآخرها رواية «اشتعلت الشقائق» سنة ١٩٩٨. وله أكثر من مجموعة من القصص القصيرة. وإن كان ميدان تميزه الأساسى هو كتابة النص الروائى. يقول. ثمة فى حنجرتى دوماً قصة تريد الانطلاق.

ولم يكن هناك سبب معين لإحالته إلى التقاعد عام ١٩٨٠ لهذا الإجراء. فالرجل ليس صاحب موقف سياسي ولكن بسبب. مجمل توجهه الليبرالى. وتحرره الزائد فى الكتابة حيث إن الراوى فى جميع رواياته يصف تلذذه بشرب الخمر وعشرة النساء الجميلات. وإن كان لا يجرؤ على الاقتراب من تفاصيل هذه العشرة. ساءت علاقته بالنظام الإسلامى حالة من الفتور، وإن كان قد حاول عبور هذا الفتور فى روايته: الخمر العتيق «١٩٩٤» والتى نجد فيها الرئيس السابق هاشمى رافسنجانى، ورواية «أسير الزمان» التى أعطاها بعدا صوفيا. وإن كان قد جرى تكريمه فى أوائل سنة ١٩٩٩. مع روائيين وقصاصين آخرين. وذلك فى إطار الاحتفالات بمرور عشرين سنة على الثورة الإسلامية. فى بادرة جديدة للحكومة تحت رئاسة الرئيس محمد خاتمى فمنح دبلوم افتخار عن مجمل أعماله. إسماعيل فصيح من الروائيين الإيرانيين الذين يركزون على القومية الإيرانية. ولذلك فهو شديد العداء للعروبة والعرب بصورة حادة. ويلقى اللوم كثيرا على الثقافة الإسلامية التى وصلت إلى إيران مع الإسلام ويرى أن الإسلام عكر صفو الثقافة الإيرانية وانسيابيتها.

وإسماعيل فصيح مشغول برصد المتغيرات التى تجرى فى الواقع الإيرانى. ومحاولة التعبير عنها روائيا. وهو يرى أن هناك حالة من الخصوصية فى الواقع السياسى والدينى فى إيران. الذى يتميز به عن سائر البلدان الإسلامية. وهذه الرؤية تذهب إلى أن إيران منذ بداياتها إلى اليوم. وحتى الزمن الآتى. تحكمها مؤسستان وفريقان من الرجال: المؤسسة السياسية. أو رجال الحكم والسياسة. والمؤسسة الدينية أو رجال الدين أو المذهب. وما تاريخ إيران القديم والوسيط والمعاصر إلا حلقات حول هاتين المؤسستين. فإن اتفقتا، بشكل أو بآخر، هدأت إيران وارتقت وعلت وظهرت. وإن تعارضتا ثارت البلاد ومن عليها. وضعفت وجمدت.

هذا الروائى أكثر الروائيين الإيرانيين المعاصرين حظا فى الترجمة إلى العربية، إذ ترجمت له على مدى ست سنوات ١٩٩٥ - ٢٠٠١ ثلاث روايات إلى اللغة العربية. فحقق الرقم القياسى بذلك وهى: قصة جاويد. شتاء ٨٤، ثريا فى غيبوبة. يمكن القول إنها ثلاثية إيران المعاصرة، تبدأ الأولى من سنة ١٩٢٢، وتنتهى الثالثة مع منتصف الثمانينيات. إذن فهذه الروايات الثلاثة تقدم ثلاثية إيران فى القرن العشرين، الذى شهد أكبر انقلابين أساسيين فى حياة إيران، الأول استيلاء أسرة الشاه على الحكم فى العقد الثالث من القرن، ثم وصول الإسلاميين إلى السلطة فى أواخر العقد الثامن من نفس القرن. بقى أن تعرف أن كلمة ثلاثية من عندى وليست من قصد المؤلف.

قصة جاويد هى ثالث نص أدبى كتبه إسماعيل فصيح. كتبها سنة ١٩٨٠، وهى جزء من توجه هذه المرحلة بالنسبة للكاتب. الذى قام على التأكيد على الشخصية القومية الإيرانية بصورة مبالغ فيها. فى هذه الرواية يعتمد على الواقعية التاريخية. ويقدم النص كله على لسان راو واحد غائب ويتوحد الزمان الروائى مع الزمان الواقعى. ومثل روايتى إسماعيل فصيح الأخريين فالرواية قصة بحث. تبدأ لحظة انطلاق جاويد مع عمه من يزد إلى طهران. لابد أن يرد ذكر مدينة قم الشهيرة فى هذا السياق، وذلك للبحث عن بقية العائلة، والد جاويد وأمه وأخته، التى كانت طفلة. ويبقى سنوات فى رحلة البحث هذه. يشهد خلالها موت والده. وضرب أمه وإصابتها بالبُكم. وتصل إلى ما يشبه الجنون، ثم يعلم بموت أمه عندما كان مغمي عليه فى أبعد مكان عنها، ويبقى الأمل فى العثور على أخته. ليشكل السبب الوحيد فى اقامته فى طهران. وتجرى تطورات بعد وصول جاويد. تسقط سلسلة آل قاجار المالكة عن الحكم، ويستولى على السلطة مكانها قائد الجيش. الذى تسلل من قيادة فوج قوزاق. وتمكن من الإطاحة بالحكومة. ليصير قائدا للجيش ووزيراً للدفاع ورئيساً للوزارة فملكا، ويؤسس حكم سلالة جديدة فى تاريخ إيران تعرف بسلالة آل بهلوى. وهى نفس السلالة التى سنقابلها فى روايتى إسماعيل فصيح الأخريين. ثريا فى غيبوبة وشتاء ٨٤، نقابل بالتحديد نهاية حكمها ومجيء الإسلاميين إلى حكم إيران، من بعدهم، وهو الحدث الجوهرى الذى يملأ فضاء هاتين الروايتين. ويسيطر على مشهديهما.

بطل الرواية. والذى تحمل الرواية اسمه جاويد، يتطور أيضًا. وذلك بعد التجارب الغريبة والحياة العجيبة التى مر بها فى طهران. وأيضًا الكتب التى كان يحصل عليها من الدكتور نزهت سواء من مكتبته الخاصة، أو من مكتبة دار الفنون، أو من الصحف والمجلات التى كان يداوم على قراءتها. جاويد كان يخطط للانتقام لوالده، ثم بعد ذلك للانتقام لأمه. ثم يكتشف مقتل شقيقته أيضا. وذلك عندما يعثر على آثارها المدفونة. والكل يعلم أنه قرر البقاء فى طهران من أجل العثور عليها، والعودة بها إلى بلده بعد ذلك. وهكذا لا يبقى أمامه سوى انتقامه الرهيب الذى يصفه الروائى بأنه الانتقام العادل. ويعود إلى يزد ويسوى أوضاعه الخاصة لينطلق منها إلى خارج البلاد فى هجرة يعيش بعدها فى منفى اختيارى.

إن أحداث الرواية تجرى فى الفترة من ١٩٢٢ إلى ١٩٣١. إنها السنوات التسع التى



شهدت استقرار العهد البهلوي. ومخاوف ومحاولات العودة من قبل عائلة آل قاجار، وحتى يصبح رضا خان ملكا الذى يسمى رضا شاه بعد ذلك. ولا يجب أن ننسى. أن الكاتب يكتب هذا النص بعد قيام الثورة الإسلامية فى إيران بسنة واحدة. وأن الحل الوحيد الذى يجده البطل أمامه هو الهجرة من إيران، وذلك بعد قتل كل من له فى إيران : الأب والأم والشقيقة، فماذا بقى له فى إيران ؟. وماذا بقى من إيران ؟ هل يقرأ الإنسان هذا النص كما جاء فى داخله؟ أو أن يقرأه من خارجه؟ ويستنطق النص، ويقرأ من خلاله أن إسماعيل فصيح كتب رواية ضد الإسلام وضد إيران. وحتى يوفر لنفسه التقية ذهب إلى التاريخ واستعمله كقناع يقول من خلاله ما يريد أن يقوله. ثم إن الشكل الفنى الذى نجده فى هذه الرواية هو نفس الشكل الذى يعتمده الكاتب فى أعماله الأخرى. وهو فن الرحلة، سواء الرحلة داخل إيران للبحث عن إنسان، ثم الرحلة خارج إيران بحثا عن منفى آمن بعيدا عن تطورات إيران.

هذه الرواية هى النص الوحيد - فى اطار رواياته المترجمة إلى العربية - التى كتب لها إسماعيل فصيح مقدمة. يقول فى هذه المقدمة : إن قصة جاويد رواية حقيقية لصبى زرادشتى وقعت فى أوائل هذا القرن «القرن العشرين». فضلا عن أن كلمة جاويد تعد صفة. وهى تعنى فى اللغة الفارسية الخالد. ولهذا فإن القصة يمكن أن تسمى الخالدة. كما يذهب إلى ذلك سليم عبد الأمير حمدان الذى ترجم هذه الرواية إلى اللغة العربية. إن الظلم - يقول إسماعيل فصيح فى مقدمته - والمصيبة الواردين على إنسان مؤمن، يشكلان نسيج الرواية الأصلى، ولكن الرواية ترصد أيضا المحافظة على ردود فعله الروحية وقوة إيمانه بسنن أسلافه القديمة. ويعترف الكاتب أنه تعرف على بطل روايته فى آخر أيام حياته، فى إحدى الجامعات خارج البلاد، فكانت تلك المعرفة ملهما لخلق هذه الرواية.

ويوجه الروائى خطابه مباشرة إلى القارئ. ويقول له إنه يمكنه قراءة هذا الأثر بوصفه رواية. ولكن فى الأبعاد الواسعة للاستخلاص من رواية ما. ينبغى رسم خط وهو يرسم فعلا. وأخيرا فالجواب على السؤال الثانى: هل الرسالة الأخيرة هنا هى انتصار الإيمان الطاهر الراسخ على فساد روح ضلال الأفراد. غلبة النور على الظلمة؟ تسيد الخير على الشر؟ أم أنها أمور كلية وواهية وسياسية أخرى؟ إنها وظيفة ملقاة على عهدة القارئ المنصف الخالى من الغرض والتعصب. إن الكاتب بعد أن كتب روايته بطريقة معينة. يريد أن يضمن قراءة معينة من قبل القارئ. لا تصل إلى الغرض الخفى الذى يوجد خلف النص.

نحن أمام أكثر من إيران فى هذه الرواية، إيران الأم. وإيران الحضارة. وإيران الثورة الإسلامية. ولأن إسماعيل فصيح روائى صاحب مشروع. فبعض أبطال هذه الرواية سنقابله فى روايته الثانية التى تكمل الرحلة التالية للمرحلة التى تصورها هذه الرواية، وهى «شتاء ٨٤»

صدرت رواية «ثريا فى غيبوبة» لأول مرة سنة ١٩٨٤، ونفدت طبعتها فورا. لدرجة أنه صدرت منها ثلاث طبعات خلال عامين، ثم ترجمها الكاتب بنفسه إلى اللغة الإنجليزية. ونشرت سنة ١٩٨٣/١٩٨٤، فحققت له شهرة مفاجئة فى الغرب. على الرغم من أن روائيين إيرانيين ترجموا قبله. أيضا فقد استقبلت الرواية فى العالم الثالث، بعد أن وصلت إليه عبر اللغة الإنجليزية المهيمنة بطريقة أكثر من جيدة. واعتبرت الرواية ظاهرة مهمة فى إيران الإسلامية فى السنوات الأولى بعد انتصار الثورة، وأشادت بجوها المتفتح إزاء الرد المحافظ المتجهم الذى كانت إيران تكشفه للعالم عن نفسها، ثم ترجمت إلى لغات العالم الأخرى بعد الإنجليزية. إنها الرواية التى صنعت شهرة صاحبها. يقول المرحوم الدكتور إبراهيم دسوقى شتا. الأب الروحى لمترجمى الأدب الإيرانى إلى اللغة العربية فى مقدمته الترجمة العربية للرواية:

لقد استحوذت علىّ هذه الرواية عندما قرأتها لأول مرة سنة ١٩٨٦. وقرأتها أكثر من مرة، وشدنى إليها ذلك الشجن المبثوث بين طياتها، وذلك الحب الجارف من المؤلف لوطنه وثقافته والبسطاء من مواطنيه، كما أحسست من خلالها بصيحة تحذير من بعض الممارسات داخل إيران نفسها. وبخاصة تلك التى تفرض التغيير على حساب الإنسان، ولعل تلك النبرة قد تصاعدت فى روايته التى صدرت أخيرا - ولم تصلنى بعد - كان ذلك فى النصف الأول من سنة ١٩٩٥ - والتى تسمى «خطاب إلى العالم». ويتناول فيها البحث المضنى لأم أمريكية كانت متزوجة من إيرانى، وغادرت إيران بعد الثورة. ثم عادت إليها فى معمعة الحرب العراقية الإيرانية للبحث عن ولدها. الذى كانت قد تركته مع أسرة والده الذى فقد حياته فى أحداث الثورة.

أحداث هذه الرواية تدور فى نهايات سنة ١٩٨٠ وقد سبقتها قصة قصيرة للكاتبة الإيرانية «كلى ترقى» هى «مليكة روحى العظيمة». وتصور حالة الضياع والبلبلة التى عمت الشارع والبيت والمجتمع الإيرانى فى صيف ١٩٧٩. أى بعد شهور قليلة من استقرار السلطة فى يد الثوار وإعلان الجمهورية الإسلامية. أما رواية فصيح ففيها حالة من الحزن والقتامة والضياع. وكل الأحداث تستخدم الفعل المضارع. وتشيع فيها حالة من الحيوية والتواتر السريع. والوصف السردى يتداخل مع الحوار. والمشاهد المروية فى فرنسا تتداخل مع مشاهد الحرب التى كانت قد بدأت.

ثريا فى غيبوبة تدور أحداثها فى أكثر من مكان. تبدأ من إيران ثم باريس وذلك من خلال طريق الهجرة، والهروب من الداخل الإيرانى إلى الخارج. عن طريق أرضورم واستنابول بتركيا والراوى جلال أريان يخلط المشاهد التى عاشها فى إيران إبان الشهور الأولى للثورة الإسلامية. مع مقدمات وبدايات الحرب مع العراق بمشاهد رحلته. ما أن يصل إلى فندق صغير فى استانبول حتى تعود به الذاكرة إلى مستشفى فى عبدان. الذى وقع عليه القصف العراقى، إن المؤلف يخلط الأماكن والأزمنة حتى فى اللحظة الواحدة، حتى يتمكن من توصيل فكرته إلى القارئ. لأنه يريد الكلام فى ثلاثة أمور مرة واحدة. الثورة الإسلامية، هجرة المثقفين إلى أوروبا هربا من إجراءات الثورة، ثم الحرب مع العراق. وهو الموضوع الذى يكرره المؤلف فى روايتين أخريين له : شتاء ١٩٨٤، وخطاب إلى العالم.

إيران، فيها الكثير من الجنسيات التى تنطق لغات كثيرة. فيها عرب وفرس وأكراد وأرمن وأتراك. وأهلها متنوعون - كما يقول الدكتور محمد علاء منصور، مترجم رواية ثريا فى غيبوبة - على مذاهب دينية شتى من تشيع وسنة وبابية وبهائية ومن يهودية ومسيحية. والصفوة يعانون من كل شىء. منهم الذى يعانى فى محاولة توفيقه ومن يتسامح كثيرا. ومن يقف عند أقصى اليمين. ومن يذهب إلى أقصى اليسار، ومن يعشق اللذة، ويفرط فى حب الحياة والمجون والشبق، ومن يتطرف فى الزهد والتقشف. ويفرط فى حبه للشهادة، ومنهم من يموت حبا فى امرأة حسناء لا حد لجمالها، ومن يموت شهادة فى الحسين. وقل - فى خاصة هذا الشعب وعامته - من توسط واعتدل.

نحن أمام أكثر من إيران فى هذه الرواية، إيران الأم. وإيران الحضارة. وإيران الثورة الإسلامية. ولأن إسماعيل فصيح روائى صاحب مشروع. فبعض أبطال هذه الرواية سنقابله فى روايته الثانية التى تكمل الرحلة التالية للمرحلة التى تصورها هذه الرواية. وهى «شتاء ٨٤». تقابل إدريس ابن مطرود. والذى يتوه فى الجبهة ويبحث عنه البطل فى أكثر من مستشفى ونقابل والدة ثريا. فى الداخل الإيرانى تلتهم الحرب المشهد الروائى كله. تقابل أسرة أرمنية رفضت الهجرة من عبدان، وبقيت تحت قصف المدافع والطائرات العراقية. لا توجد كلمة واحدة عن تحرشات الشاه فى الخليج العربى. ولا استيلائه على الجزر الثلاث ولا تسميته بالخليج الفارسي. ولا إيمانه بأن والده حرر الجزء الشرقى من الخليج. وأن عليه تحرير الجزء الغربى منه. ورغم اختلاف المؤلف مع قادة الثورة الإسلامية. ورفضه للعديد من إجراءاتهم. بل وجعله يسفر بطله إلى أوروبا لينضم الى آلاف الإيرانيين الذين تركوا إيران هربا من إجراءات الثورة الإسلامية. ومع هذا لا نجد كلمة واحدة عن تصدير الثورة الإسلامية. فى حين أن هناك أوصافا للعراقيين جميعا من الصعب إعادة نشرها. لأن البعض منها يمكن أن يقع تحت طائلة القانون.

أنا لا أحب الرمز فى الكتابة الروائية. ومترجم الرواية يقسم بطلات الرواية إلى رموز لإيران. يقول آن فرنجيس ترمز لإيران الأم، وأن ليلى زاده ترمز لإيران الحضارة، وأن ثريا تقوى ترمز إلى إيران الثورة الإسلامية. ورغم موقفى من قضية الرمز إلا أنه من الصعب تجاهل أن ثريا ترمز إلى إيران. لقد أسبغ الكاتب عليها صفات النقاء والطهر والفداء وأخضع لها أعناق العقلاء والمعجبين من الشرقيين والغربيين. ثم أوقعها بعد ذلك فى حادث أليم لا تفيق منه حتى توشك على الموت. يصل المهاجر الإيرانى إلى فرنسا. يسأله الإيرانيون الذين سبقوه إلى الهجرة:

- ماذا يحدث فى إيران يا إلهى؟
- الثورة والحرب وأشياء أخرى كثيرة.

ويجرى الكلام كثيرا فى الرواية عن الغيبوبة.

- ما هى حالة ابنة أختك ؟
- فى غيبوبة. كما يذكرون.
- ألست أنت نفسك فى غيبوبة ؟!
- لست أنا وحدى فى غيبوبة. أجدادى وآبائى هم الآن فى غيبوبة.

إن هذا هو حوار الشعب الإيرانى المغترب الذي يجتمع فى ليل باريس. يتشاكون ويشرحون أحوال أنفسهم ووطنهم، ويشرح المؤلف حالة الغيبوبة: إنها حالة فقدان الوعى. تشبه النوم. تحدث اثر اختلال وظائفها المخ. يمكن أن تكون اغماء مؤقتا، ويمكن أن تدوم وأن تميت. وليس بمقدور أحد أن يعلن كم من الوقت تطول. وحالة الغيبوبة التى تستغرق أكثر من يومين او ثلاثة وتتسبب عن اختلال خلايا وفسادها، دليل صدمة شديدة واحتمالات قاتلة، وثريا فى حالة إغماء منذ ثلاثة وعشرين يوما. ويمكن أن تستقر الخلايا المختلفة بالقشرة المخية «السوبر ال كورتكس». أو فى أجزاء أعمق منه وهى محور المخ المركزى، مسكينة يا ثريا. ويسأل عن أهل إيران وتأتى الإجابة : نصفهم هرب من ثورة إيران. والباقى فر من الحرب.

الأبطال لا يعجبهم الحال فى إيران. تقول ليلى ازاده : أنا مستاءة من أحوال إيران وأوضاعها. لم يعد شىء فى إيران يحركنى. لم يعد هناك المجتمع الذى يجعل أبناءه يزدهرون. فعلا لابد أن ندخل فى شرنقة. ندخل غيبوبة. إن



المهاجرين فى باريس أشكال مختلفة، منهم من كان موجودا بفرنسا قبل الثورة، وبعضهم هرب وقت الثورة وبعدها. آخرون هربوا بعد الحرب. يتكاتف جمعهم هنا وحولهم مجموعتان أخريان من المحتالين. أما الداخل الإيرانى فهو بلاد الخراب وهكذا يقول الأبطال. أو الذين ليسوا أبطالا - إن شئت الدقة فى الوصف - بلاد بلا خمر وحبيب من يعش فيها يبدد أحلى سنوات عمره. ويحكى أحد المغتربين فى باريس حكاية عن الآتى:

«جمع العمدة فى أحد الأيام سكان القرية حوله، وقال لهم أيها الناس عندى لكم خبر طيب وخبر سيئ. الخبر السيئ هو أن ليس لدينا هذا العام فى الشتاء، أى شىء، غير روث البقر والحمير. لكن الخبر الطيب، هو أن لدينا من الروث بالقدر الذى تحبون».

فى هذه الرواية سياحة مهمة فى تاريخ إيران. ثمة ذكر لناصرى خسرو والشيخ فريد الدين العطار والحكيم أبو القاسم الفردوسى وسعدى الشيرازى، يتكلم عن نفى الأدباء فى زمن الشاه لأن خارج إيران كان مجالا للتنفس وإبداع الآثار بصورة أفضل، أشهرهم المرحوم صادق هدايت ومحمد جمال زادة فى سويسرا، وبرزج علوى فى ألمانيا، وصادق جوبده فى لندن، وعباس حكمت فى أكسفورد، والسيدة مشهيد أمير شاهى فى باريس. وعدد كثير آخرين رحلوا مع انتهاء الأسرة البهلوية.

إيران، فيهـا الكثيـر من الجنسيات الذين ينطقون لغات كثيرة. فيها عرب وفرس وأكراد وأرمن وأتراك. وأهلها متنوعون على مذاهب دينية شتى من تشيع وسنة وبابية وبهائية ومن يهودية ومسيحية. والصفوة يعانون من كل شىء. منهم الذى يعانى فى محاولة توفيقه ومن يتسامح كثيرا. ومن يقف عند أقصى اليمين

«شتاء ٨٤» هى رواية عن الحرب العراقية الإيرانية، وذلك من وجهة نظر إيران، واسماعيل فصيح مغرم باسلوب الرحلة كوسيلة أصيلة للقصص الروائى. بطله عائد من الخارج ويذهب إلى عبدان، فى سنة ١٩٨٤. وهى السنة التى وصلت فيها الحرب مع العراق إلى الذروة، التى يسميها الدكتور منصور فرجام البطل، الحرب المفروضة. ومنذ نزوله إلى إيران لا يرى فى الشوارع «سوى صورة لآية الله بهشتى معلقة على العمود المواجه للمنصة. وصورة كبيرة لآية الله الخمينى، التى يرى فيها واقفا ومادا يده. وخلفيتها زرقاء وعلقت على الحائط خلف المنصة. إن الصورة الكاملة لجسم الامام الخمينى تهز يدها لنا. والعائد حديثا من أمريكا، ليعمل فترة لدى شركة النفط الوطنية، فهو متخصص فى الكمبيوتر. وأول ما يكتشفه أن فى إيران قانونًا جديدًا للخدمة العسكرية. واحتياجات الجمهورية الإسلامية فى حربها مع العراق، حيث جرى منع سفر الأولاد الذكور من الأربعة عشر عامًا فصاعداً. وبناء عليه فإن بعض أولياء الأمور خاصة الأمهات يضعون أيديهم على قلوبهم، خوفا على أبنائهم وهم فى سن العاشرة أو الثانية عشرة من عمرهم، ويقدمون على فعل أى شىء لو كان بمقدورهم. والعائد من أمريكا جاء ليرى أوضاع أرض آبائه وأجداده، كيف صارت فى الجمهورية الإسلامية؟ هذا هو الهدف العام. ولكن لديه هدفًا خاصًا، وهو البحث عن شاب يقاتل فى صفوف الإيرانيين، وهو إدريس ابن عامل كان من أصدقاء الدكتور، وكان مع المتطوعين فى عبدان. ويبدو أنه جريح وأسكن فى مكان ما من عبدان. لايجب أن ننسى أن المؤلف نفسه عمل فترة فى شركة عبدان للنفط.

وأنه كان عائدا من أمريكا أيضا. هذا معناه أن المؤلف استفاد من تجربته الشخصية فى كتابته الروائية. أما البطل فقد عاد لأنهم طلبوا منه إنشاء وحدة لتعليم اللغة التكنولوجية. ويخطط لإنشاء مركز لتعليم الكمبيوتر. باللغة الإنجليزية. وليست بالعربية. والعربية تقال من باب السخرية طبعا. ويتعجب الناس من عودته. فهو معه دكتوراه فى الكمبيوتر، وأموال ومنصب فى أمريكا. فلماذا يعود وسط هذه الحروب؟ حيث يكون السؤال: أى انسان لم يصبه الأذى مع وجود هذه الحرب؟.

يقرأ شعارات الشوارع: ماكيت للمسجد الأقصى. صور للقيادات الدينية. ومكتوب تحتهما: سوف نطأ أمريكا بأقدامنا. الإسلام يرتوى من دم الشهداء. البلاد ملك للفقراء. السلام عليك يا أبا عبد الله الحسين. نحن صامدون ولو دامت هذه الحرب عشرين سنة. ويشاهد طوابير المتطوعين فى الشوارع يهتفون:

من أجل الحفاظ على الشرف
نتوجه إلى الجبهة
نبحث من الجبهة
عن ارتقائنا وعلائنا
الموت لأمريكا.. الموت لأمريكا
وهناك من يردون عليهم:
رغم أنف العدو الباغى
نلبى نداء الوطن
سعيا لفتح كربلاء
نتقدم إلى الجبهات
الموت لأمريكا.. الموت لأمريكا
الحرب.. الحرب.. حتى النصر.. الحرب حتى النصر

لا نقابل فى الرواية أى إنسان إيرانى إلا وله شهيد. ولكن المؤلف يقول عن الإيرانيين فى هذه الحرب: كلما تلقوا الضربات ازدادوا قوة. وان كان هناك من ينظرون للحرب نظرة أخرى: سيدى المهندس، حتى تنتهى هذه الحرب. لابد أن نفقد انفسنا، أو أن نصاب بالجنون، فيرد عليه واحد من الذين يعيشون فى إيران: المسالة تتطلب وقتا. إذا مات أناس عاش آخرون. إن الثورة والحرب لهما دورة أيضا مثل الحياة والموت، ولابد من لف هذه الدورة حتى تنتهى.

والرواية فيها عداء للعراقيين وشتائم كبيرة لا أحب أن انقلها. والدعاء عليهم من قبل الناس العاديين بادعية خطيرة. وتدور مناقشة عن إيرانى بين أبطال العمل:

إيران بلد تفتقد إلى الأمة المتحدة. والناس فيها يتبعون القومى، لا يظهر داخل إيران شعب محكم وثابت مثل اليابان أو إسبانيا وإلا ما ابتليت بمثل هذا اليوم.

إيران يا ساداتى تمتاز بخاصية مثل اليويو. تهبط يوما وتعلو يوما. يوما تصير ماء ينزل إلى أسفل.

ويرد عليه آخر بفكرة الصراع بين المؤسستين الدينية والسياسية، الذى يدور على البلاد. وينقل عن الشاعر الفردوسى قوله: نستسلم جميعا للموت. أفضل من أن نسلم بلادنا للعدو. ويصف إيران بقوله: فى البلد الذى يعيش الحرب المفروضة مع القوى العظمى. حتى طيور العشق لابد أن تتعلم وتكتفى ذاتيا. وعلى الرغم من أن الروائى لا يعجبه الداخل الإيرانى، ويصفه بالفوضى والعشوائية وعدم التخطيط. إلا انه فى مسالة الحرب مع العراق، يقف مع كل ما هو إيرانى، ويعجب حتى بالتخلف. إن الأحداث تجرى فى سنة ١٩٨٤، سادس عام على انتصار الثورة الإسلامية فى إيران. إن كل مكان فى إيران هو كربلاء، وكل يوم فى إيران هو عاشوراء. ويشبه الذين ينتظرون صواريخ العراق بمن ينتظر جودو فى مسرحية بيكيت الشهيرة. إن البلاد فى مخلب الحرب ومشتبكة مع مشاكل ما بعد الثورة. الجمهورية الإسلامية. الحرب هى العلة والمعلول لأعداء الحكومة الإسلامية. امتزج هذان الاثنان بحيث لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر. هزيمة إيران فى الحرب هى هزيمة للجمهورية الإسلامية. إن انتصار إيران فى الحرب أمر مصيرى بالنسبة للعالم، لأن جميع المنطقة تخضع للواء الجمهورية الإسلامية. وعليه فسوف يحارب العدو بكل ضراوة وسوف يضحى الشعب الإيرانى بدمه. إيران بلد عظيم وشعب لا يفنى ولا يجب التهاون فى أمر يخص إيران.

فى هذه الرواية عدد من الحيل الفنية حتى يقدم المؤلف رواية الحرب. وذلك بنشر النصوص الكاملة لوصايا الشهداء، وكذلك الموضوعات التى كتبها تلاميذ المدارس فى وصف الحرب وويلاتها. وما تقوله الإذاعات. وأيضا مذكرات الأبطال. وكل هذه النصوص كتبها المؤلف من خياله، بمعنى انه لم يحصل على وثائق من الواقع. ثم أوردها فى النص. ولكنها كتابة متخيلة لوصايا الشهداء. أو موضوعات التلاميذ فى وصف الحرب، وكذلك ما يمكن أن تكون قد قالته الإذاعات. أو ما كتبه الذين خاضوا الحرب. إنها حيل فقيه حتى يخرج من رتابة السرد العادى. ولكى ينوع الكتابة والخطاب الروائى.

التـديـن الزائف

محسن مخملباف روائى إيرانى معاصر. ظهرت كتاباته الأولى فى مطلع الثمانينات فلفتت اليه الأنظار. ودلت على مولد كاتب يعرف أساليب القص وتكتيكاته الحديثة. عميق الخبرة بحياة المجتمع الإيرانى. كتب الرواية والقصة والمسرحية والنقد الأدبى. ولد محسن سنة ١٩٥١. صدرت له أولا مجموعة مسرحيات قصيرة عنوانها: موت آخر سنة ١٩٨٢، تحتوى على ثلاث مسرحيات. أهمها مسرحية عنوانها: سجن داخل سجن. موضوعها سجين ماركسى فى عهد الشاه ويحدث أن تقوم الثورة. ويأتى الثوار ليطلقوا سراحه. ولكنه يرفض لأن الثورة لم تتهيأ بعد فى نظره. حيث إن إيران لم تشهد الثورة الصناعية. ولم تتوسع فيها الطبقة العمالية. «البروليتاريا» وهى وحدها المهياة تاريخيا للقيام بالثورة. ثم ظهرت له مجموعة قصصية بعنوان: كثبان بلا ضياء ١٩٨٤. تحوى ثلاث عشرة قصة. تستمد موضوعاتها من حياة البسطاء والفقراء من الناس. التى تعانى الكثير من أجل الاستمرار فى الحياة. كذلك هناك قصة عن حياة المعتقلين السياسيين التى يبدو أن الكاتب قد مر بها فى مرحلة ما من مراحل حياته. ذلك أن كتاباته عن السجون والمعتقلات تشع منها رائحة تجربة إنسانية نادرة.

بعد رواية حوض السلطان صدرت لمحسن رواية ثانية هى حديقة البللور. أهداها إلى: «المرأة.. المرأة المظلومة فى هذه الديار».. وعندما نعرف أن حوض السلطان رواية بطلتها امراة. سندرك أن محسن صاحب عالم روائى يعبر عنه من نص إلى آخر. ذلك أنه يدرك أن المرأة تشكل أضعف حلقات المجتمع الإيرانى. وأنها تعرضت لظلم مضاعف. وقهر مضاعف. محسن مخملباف ليس روائيا وكاتباً للقصة والمسرحية والنقد الأدبى فقط. لقد اتجه أيضًا إلى السينما. أعد سيناريوهات أفلام. وأخرج بعضها بنفسه للسينما. منها فيلم المقاطعة ويتناول مفهوم الشهادة. وكيف انه يفقد معناه خارج الدين. وذلك من خلال قصة سجين يقبض عليه. مع خلية ماركسية



ـ ما هى حالة ابنة أختك ؟
ـ فى غيبوبة. كما يذكرون.
ـ ألست انت نفسك فى غيبوبة ؟!
ـ لست أنا وحدى فى غيبوبة. أجدادى وآبائى هم الآن فى غيبوبة.
إن هذا هو حوار الشعب الإيرانى المغترب الذى يجتمع فى لبـــال باريس.

ويحكم عليه بالموت. وعرض فيلم له فى مهرجان كان الأخير عن أحوال أفغانستان. وسبق لإبنته سميرة أن عرض لها فى مهرجان كان الماضى.

حوض السلطان رواية تتميز عن سواها من الروايات الأربعة الأخرى بعدة علامات. أولاها : أن المسجد يشكل جزءا جوهريا من المشهد الروائى والقصصى. وكل ما يدور حوله. بل إن البطلة تعمل فترة من الوقت خادمة فى مسجد. وتقدم لنا كافة التفاصيل الحياتية اليومية الصغيرة لمن تعمل فى هذا المكان. ثانيها: أننا نلتقى فى هذا النص بامرأة تروى لنا الحكاية. من الكلمة الأولى وحتى الكلمة الأخيرة. وفضلا عن اللجوء لامرأة من قبل روائى رجل. فإنه قد اختارها امرأة فقيرة وحيدة. لا مكان ولا أهل لها. ووضعها الطبقى هو ما مكنها من رؤية الجانب الآخر من تجربة الحياة اليومية. وهو ما لانجده فى الروايات الأخرى التى تقدم شرائح من المثقفين. ثالثها: أن الرواية تقف عند تخوم آخر زمن الشاه. سنة ١٩٧٩ بالتحديد. وتقدم أمرين أساسين: أهوال زمن الشاه من خلال زيارة المكان الذى كان الشاه يعذب ضحاياه فيه حتى الموت. الأمر الثانى: هو رفض مظاهر التدين الكاذب فى المجتمع الإيرانى. وقد كان التدين قضية من قضايا هذا المجتمع. حتى قبل الثورة الإسلامية.

بطلة الرواية فى الخامسة والعشرين من عمرها اسمها: عزت سادات. مات عنها زوجها طاهر. وترك لها ابنهما حسين. الذى ما يلبث أن يموت متأثرا بالحمى. فتصبح عزت امرأة وحيدة. تبحث عن مكان تعيش فيه. وعمل تعيش منه. عزت سادات امرأة أمية. ولذلك فالمؤلف حريص على الالتزام بوعى هذه الانسانة، ولا يقحم عليه نتاج معرفته وثقافته. وتلك مسالة مهمة فى الحكاية الروائية أقصد اخضاع وعى الكاتب لوعى البطلة. ولا مشكلة هناك عندما يكون وعى البطلة مدركا. والصعوبة عند تدنى هذا الوعى. ولهذا نجد عزت سادات على الرغم من أميتها وانعدام ثقافتها. فهى عندها الذكاء وصدق الإحساس العفوى. الذى يقدم معاناة الفقراء والمستضعفين، وكذلك بدايات التنظيم الإسلامى الذى قاد الثورة التى عصفت بالشاه بعد ذلك. ومواجهة الأمن لهذا النشاط بالطرق المعروفة من القمع والتعذيب والتنكيل. تبدأ الرواية بترمل عزت سادات. وإعالتها لطفلها اليتيم. تعمل عاملة تنظيف بالمصانع، ثم تتزوج مرة أخرى من قنبر بقال الحى، رغم أنه فى عمر أبيها. ولا يدوم الزواج. فتخرج للعمل من جديد. ولكن مدلكة للأجساد فى حمام للنساء. ويضطرها العمل لترك ابنها يعمل فى المجارى بالشوارع، ويمرض بالحمى ويموت. وتطردها صاحبة البيت الذى كانت تسكن فيه. بعد أن تستولى على أمتعتها وذلك مقابل الإيجار المتأخر. وفى أثناء بحثها عن عمل جديد. تجد نفسها فى مواجهة بين الشرطة والمتظاهرين. تصفها هكذا:

حين وصلت إلى ميدان ترة بار. كانت صور السيد نفسه قد وضعت على عدد من أعمدة النور. وكان هناك مجموعة من الشباب يلبسون الأكفان ويصبغون انفسهم بالدماء وبأيديهم العصى. ثم جاءت عربات الشرطة. لم تعد الآن واحدة أو اثنتين. وقفت جميعها فى صف منتظم، بعدها بدأوا فى إطلاق النار. فر الجميع إلى نزل للقوافل على رأس الشارع وذهبت أيضا. فى الطريق خرج نعلى من قدمى مراراً وكدت أسقط على الأرض، وفى النهاية تابطت نعلى. ودسست نفسى بين الناس. لا رأت عيناك السوء. نظرت فرأيتنى امرأة بين مائة من الرجال الأشداء. ماذا كان يمكننى أن افعل ؟ طاف براسى حينئذ الف خيال. ثم قلت الآن فى هذا الهياج المستعر. من الذى تتجه حواسه إلى؟ أغلق أحدهم الباب الحديدى، ووضع عليه قفلا من الداخل. نظرت من ثقب الباب. لم يكن فى الشارع غير أصحاب الرتب والجنود. جاء واحد منهم إلى أمام النزل. ركل الباب برجله مرات. ثم أطلق من بندقيته دون قصد، مقذوفاً فى الهواء وانصرف. لم يمض وقت حتى جاء الشبان يتسللون ناحية الباب، أطل أحدهم برأسه وقال «اذهبوا».

بعد انصراف المتظاهرين تبقى عزت سادات فى المسجد. وتحضر تسليم جثث شهداء المظاهرة إلى ذويهم. وتقنع القائمين على شئون المسجد أن تعمل خادمة فيه. ولأن أحدهم كان يعرف زوجها يقبلون هذا. تصف عملها فى المسجد بقولها :

فى أثناء الليل، كنست الرواق ومسحت المنبر بقطعة من القماش. ونظفت أرضية المسجد. وغسلت الزجاج بالماء والصابون ثم شطفته بالماء. وأنزلت الغبار عن المصاحف القديمة. وقد كان يكسوها غبار البحر. كنت أنفض الورق وأنفخ فيه بانفاسى. وفى النهاية اغتسلت فى مكان الوضوء. الآن صار كل شىء نظيفا وطاهرا. وقمت للصلاة. فقد كان الصبح قد أسفر: الله أكبر. يا إلهى إنى معجبة برحمانيتك ورحيميتك. يا خالقى.. لك الشكر.

تتمكن عزت سادات من أن ترصد من مكانها ألوان التدين الكاذب، وتكشف أمر البهائى اللص الذى زعم رجوعه عن البهائية إلى الإسلام، ليستدر عطف المسلمين وكرمهم. وتتعرض لمضايقات تدفعها إلى مغادرة المسجد حيث تعمل مع أختها خادمة فى بيت أحد السادة الأغنياء. وهنا تقدم عزت سادات انطباعاتها عن حياة المترفين من خلال عملها فى بيت سودابة هانم. وزوجها. وتطردها صاحبة المنزل بعد أن تدبر لها ولأختها سرقة قرطها الثمين. تعود عزت إلى بيتها القديم. وتسدد بعض ما كان عليها لصاحبة البيت. مما ادخرته أثناء عملها خادمة. ويأتى اليها شيخ المسجد الذى كانت تخدم فيه. يقول لها أن العامل الذى حل مكانها واسمه خادمى. زوجته متوفاة ومعه ابن فى الثامنة. ويبحث عن زوجه وهو الزوج الصالح لها. ويحدثها خادمى عن بحيرة حوض السلطان، التى كانت طائرات الشاه. ترمى فيها المعارضين أحياء، ليموتوا أبشع ميتة. فتدرك أن زوجها له علاقة بالعمل السياسى ضد الشاه. ويقبض على خادمى. ويقوم الطفل هاشم بمهمة أبيه فى الآذان للصلاة، وتقوم عزت بتنظيف المسجد. وتعين السلطة شيخا للمسجد. ولكن الناس لا تشعر بميل نحوه وينصرفون عنه. ويفرج عن زوجها. ويطلب منها الأوراق التى أودعها شيخ المسجد السابق لديها. وتكتشف من خلال زوجها أن الأوراق عبارة عن سجل لمظالم الحكام ضد المحكومين، ويعلن خادمى أنه ذاهب فى مهمة إلى قم. فتصر عزت على اصطحابه. حتى ولو كان ذاهبا إلى السجن. وفى طريقهما إلى قم، تمر السيارة على حوض السلطان ويحرص خادمى أن ترى زوجته البحيرة الملعونة. ويترحم على شهداء الإسلام الذين ابتلعتهم مياه البحيرة. ويقرأ لهم الفاتحة بصوت عال. ويثير هذا السلوك حوله الشبهات، فيتبعه أحد المخبرين ويلازم الزوجين كظلهما. وفى قم يزوران المدرسة الفيضية، مركز النشاط الدينى والسياسى ويلتقيان بالشيخ عباس عضو التنظيم الدينى. وفى رحلة العودة تقبض عليهما أجهزة الأمن فى حملة تفتيشية على السيارة. تعثر خلالها على مسدس فى حقيبة خادمى. فى السجن تتجمع آلام التعذيب. مع آلام المخاض. ذلك أن عزت ستضع مولودها. فى السيارة العائدة بهما إلى طهران. خادمى يذهب إلى الموت حيث سيعدم، وعزت إلى السجن الذى تضع فيه مولودتها. يسالها خادمى إن كانت قد ذكرت اسم الشيخ عباس فى التحقيق؟ فتقول له ان ذلك قد حدث من شدة التعذيب الذى تعرضت له. ويأخذ الحراس خادمى ويغيبان به شيئا فشيئا. بينما هو يبكى ويطلب منها أن تسامحه، وتغيب عزت سادات مرة أخرى فى إغفاءة تنقذها من واقعها. تشاهد فيها حديقة جميلة وشمسًا حانية.

فى هذه الرواية العذبة يقوم المسجد بدور أساسى، لأن مفهوم المسجد فى البيئة الشيعية يختلف عنه إلى حد كبير عنه فى البيئة السنية. فهو عند الشيعة مؤسسة دينية واجتماعية كاملة. إن عزت سادات تاوى إلى المسجد وتسكن فى حجرة منه. عندما يضيق بها المجتمع. كما أن المتظاهرين يحتمون به. هربا من بطش وجبروت رجال الأمن. كما أنه قريب من الاستراحة التى يتناول فيها المصلون القهوة والشاى ويدخنون الشيشة والنارجيلة. ولا يرون أن ذلك ينال من قداسة المسجد. فى هذه الرواية قدرة فريدة على الحلم بالزمن الآتى. ورسم صورة المستقبل ببساطة مذهلة.. ويبدو أن كتاب إيران مغرمون بالرمز. ذلك أن الطفلة التى تلدها عزت سادات فى الفصل الأخير من الرواية. توشك أن تكون هى الثورة التى قامت.

الواقع الاجتماعى يقول لنا أن الإيرانيين شعب مقبل على الحياة. يستمتع بها. وأن الفقر لا يعوقه عن ذلك. والمتدينون لهم موقف إسلامى يقترب من حافة التشدد. فهو الموقف الشيعى الذى يشكل اليسار الاسلامى. وإن كنت قد بدأت المقال بالأسئلة ذات الطابع السياسى. فها أنذا أنهيه بأسئلة عن المواطن العادى وعن الحياة اليومية. كما تبدت لنا من خلال هذه النصوص الروائية. فإن كان الخيار السياسى يتمثل فى جدل الدولة والثورة. فإن الخيار الاجتماعى يتبدى بين المسجد. ومظاهر الحياة الاجتماعية المختلفة التى بدأت تعبر عن نفسها. والتعبير الأدبى والفنى عنها. ها هى السينما الإيرانية تحاول، ومطربة إيران الأولى كوكوش غنت مؤخراً فى الخليج العربى. وظهرت بعد ربع قرن من الاختباء والاختفاء. وتمنت لو أن اهلها فى الناحية الاخرى يتمكنون من سماعها.

إن الفن الذى أوشكوا أن يعلقوه على أعواد المشانق. ها هو يعود مرة من الداخل. ومرة أخرى من المنافى البعيدة أو القريبة. وهذا معناه أنك لا تنزل النهر الإيرانى مرتين، ومعناه أنهم أدركوا فى إيران أن الزمن لابد وأن يمضى إلى الأمام، وتلك هى معادلة إيران الصعبة. فهل تستطيع أن تتجاوزها. ذلك هو سؤال اللحظة الراهنة، والزمن القادم، لن يقدم الإجابة على السؤال سوى الإيرانيين أنفسهم.

لويس عوض

كيف حاول التوفيق بين طه حسين والعقاد وسلامة موسى ؟

نسيم مجلي

كان بحكم نشأته وثقافته يؤمن بعلاقة الأدب بالأوضاع الاجتماعية كما يؤمن بأثر العوامل الطبقية في إنتاج الأدب وكان يعمد إلى الكشف عن هذه العوامل وأثرها في النصوص الأدبية، كما يعمد إلى إشاعة هذه المفاهيم في طلبته أثناء شرحه للنصوص الأدبية

في كتابه «المحاورات الجديدة» أطلق لويس عوض على نفسه لقب «المعلم العاشر» ونحن نعرف أن المعلم الأول كان أرسطو، أما المعلم الثاني فكان الفارابي واختياره لهذا الاسم يؤكد اعتزازه بدوره التعليمي وبمكانته الفكرية في آن واحد، رغم أنه لم يقض في التدريس بالجامعة إلا أربعة عشر عاما بين عودته من البعثة في ١٩٤٠ وطرده منها مع خمسين أستاذاً آخرين بقرار من مجلس قيادة الثورة في سبتمبر ١٩٥٤، ضمن حركة التطهير، ولكنه لم يكن أستاذًا عاديًا وإنما كان معلمًا بمعنى الكلمة: معلمًا من ذلك الطراز الذي لا يوجد إلا في عصور الانتقال حيث تسقط الحواجز بين المعرفة والحياة.

كان لويس عوض إثر عودته من إنجلترا، متأثرًا بمعايشته للمثقفين الثوريين الأوروبيين، بل ومنحازا للاشتراكيين منهم بصفة خاصة، وكان مولعا بشيلي وشعره الثوري ويترنم بقوله الشهير «تلهبني شهوة لإصلاح العالم» فكيف به وهو في مجتمع استشرت فيه عوامل التآكل الاجتماعي الذي تجلى في تصدع الفلسفة الديمقراطية الليبرالية التي تبلورت في دستور ١٩٢٣، مما جعل نظام الحكم المتمثل نظريا في ذلك الدستور هيكلا باليًا يحتاج إلى تجديد.

وكان لتجميد الحركة الوطنية والدستورية معا بتوقيع معاهدة ١٩٣٦، ثم نشوب الحرب العالمية الثانية أثره في تعميق التناقضات الاجتماعية داخل المجتمع المصري وكشفها على السطح فعجل بهذا الاستقطاب الشديد بين اليمين واليسار على حساب الوسط الوفدي. كانت أوضح صور اليمين متمثلة في جماعة الإخوان المسلمين بينما كانت أوضح صور اليسار متمثلة في الجماعات الشيوعية المتعددة، وكان التنافس بين الفريقين على أشده لتجنيد الشباب.

في هذا المناخ العصيب وجد لويس عوض نفسه، وكان بحكم نشأته وثقافته يؤمن بعلاقة الأدب بالأوضاع الاجتماعية كما يؤمن بأثر العوامل الطبقية في إنتاج الأدب وكان يعمد إلى الكشف عن هذه العوامل وأثرها في النصوص الأدبية، كما يعمد إلى إشاعة هذه المفاهيم في طلبته أثناء شرحه للنصوص الأدبية، وقد أشار الدكتور مجدي وهبة الذي أطلق على لويس عوض لقب «الشريك المخالف في الثقافة المصرية» إلى هذه الطريقة فقال:

«كان (لويس عوض) يلجأ إلى أطر دلالة خارج النص الأدبي الذي كان يدرسه فإذا كان يقوم بتدريس مسرحية مثلا، تجده يبحث فيها عن الأساطير التي يمكن أن يتكلم عنها من وجهة نظر أنثروبولوجية أو أنثروبولوجية ثقافية، وإذا كانت قصة نثرية فإنه كان يفسرها تفسيرًا نفسيًا، واستطاع في فترة قصيرة من تدريسه لغة أجنبية لطلاب قادمين إلى الجامعة وهم على درجة من البراءة الثقافية، غير متعمقين في أي من الثقافتين، أن يجد لغة عامة في خارج النص، واستطاع بذلك أن يثير خيالهم وأن يلهمهم في الأدب والنقد».

ومن هذا يتضح أن اهتمامه كان بتكوين العقلية الشابة الماثلة أمامه على التفكير الحر. فهو يحاول أن يخرجها من عالم الأدب أو على الأصح من قيود النص الأدبي إلى علم الأنثروبولوجيا أو علم النفس أو الأدب المقارن كنوع من الصدمات الكهربائية.

كذلك جاءت كتاباته على شكل صدمات مفاجئة أقلقت الرجعيين والتقليديين فاخذوا يناصبونه العداء. لكن هذه الصدمات قد أثمرت ثماراً عظيمة وحركت مناخ الحياة الثقافية الراكد. فدعوته لتحطيم عمود الشعر والكتابة بالعامية في الأربعينيات كانت ثورة أطلقت مواهب كثيرة، فكانت مدرسة الشعر الحديث. وكانت دعوته لأدب الحياة أو «الأدب في سبيل الحياة» ثورة تجديدية أخرى، فجرت كل قضايا الحرية السياسية والحرية الاجتماعية في بداية ثورة يوليو عام ٥٣/ ١٩٥٤. وقد احتضنت هذه الثورة كل سلالات الأدب الجديد في القصة والشعر والمسرح التي ازدهرت في أوائل الستينيات.

وكانت أبحاثه عن المعري و«رسالة الغفران» في عام ١٩٦٤ سببا في تفجير معركة عنيفة من جانب الأستاذ محمود محمد شاكر... وهي من أشرس المعارك أو الهجمات التي شنت على لويس عوض فعلا. بل كانت أصلا لعدة معارك جانبية أعادت كل كتابات لويس عوض السابقة الى دائرة الضوء من جديد بدءا من ديوانه «بلوتولاند» الذي دعا فيه إلى الكتابة باللغة العامية سنة ١٩٤٧. المهم أن آراءه حول المعري وأثر الثقافة الإغريقية في «رسالة الغفران»، فسرت على أنها تشكيك في أصالة المعري وفي دينه، وتشكيك في أصالة الثقافة العربية ككل.

وفي عام ١٩٧٨ دعا توفيق الحكيم إلى حياد مصر وطالب بان تنفض يدها من مشاكل الأمة العربية وتعيش على الحياد كسويسرا وأيده في هذه الدعوة الدكتور / حسين فوزي واختلف معهما الدكتور / لويس عوض، داعيا إلى مناقشة الأمر من خلال نظرة واقعية تضع في حسابها أمن المنطقة كلها كوحدة جيوبوليتكية لاينفصل أمن دولة فيها عن الأخرى، ونشر مقالا بعنوان «الأساطير السياسية» يقول فيه إن أسطورة الدعوة الانعزالية لاتقل شططا عن الدعوة إلى الوحدة الاندماجية القائمة على العروبة أو العنصرية الملتهمة لكافة ما في المنطقة من قوميات. وأغضب هذا الرأي بعض المتعصبين فكتبوا إليه يتهمونه بانه يتكلم كالمبشرين الذين يسعون لنسف كياننا القومي والديني. وكان رد لويس عوض «إن التفتيش في ضمائر الناس عن دوافع خفية تدفعهم إلى اعتناق المبادئ والتعبير عنها بدلا من التركيز على الحوار العلمي الموضوعي يضعف الحجة ولايقويها، وهو خليق بمحاكم التفتيش التي انطوت فيما انطوى من تاريخ الإنسانية الحزين ثم سجل على هؤلاء أنهم تركوا الفاعل الأصلي في دعوة العزلة المصرية عن العرب وهو ثنائي توفيق الحكيم وحسين فوزي وأمسكوا بتلابيب المتوسط المعتدل الذي يرفض الاعتزال والاندماج جميعا».

(معاتبات قومية - الأهرام - ٢٠/ ٤/ ١٩٧٨).

يدخل في صلب هذا الموضوع أيضا كتاب «مقدمة في فقه اللغة العربية» وفيه يحاول لويس عوض إثبات أن الأمة العربية حديثة الظهور نسبيا وأن اللغة العربية هي أحد فروع شجرة اللغات الهند - أوروبية. والكتاب يعد محاولة أصيلة وجريئة لوضع أساس علمي لدراسة فقه اللغة العربية، إلا أن الكتاب لم يتعرض لمناقشات علمية جادة. فقد تدخلت النيابة العامة بناء على مذكرة من لجنة البحوث بالأزهر وصادرت الكتاب.

المهم أن هذه المعارك قد أصبحت جزءًا من تراث حياتنا الفكرية والثقافية كما أنها ارتبطت بهذا المفكر ومواقفه الفكرية والسياسية، وأصبح من المستحيل إجراء أي دراسة موضوعية لإنتاج الرجل سواء في مجال الفكر والنقد أو في مجال الإبداع بالنسبة لمسرحية «الراهب» ١٩٦١ وقصة «العنقاء» سنة ١٩٦٦ أو ديوان شعره السالف الذكر.. دون دراسة هذه المعارك وتحليل هذه الانتقادات التي وجهت إليه.. والتي تطرق الأمر فيها إلى اتهامه بالعمالة لمراكز التبشير والاستعمار العالمية... وبالعمل ضد العروبة والاسلام على اعتبار أنه مسيحي لايؤمن إلا بالقومية الفرعونية لمصر.. أو على اعتبار أنه مستغرب يؤمن بالفكر الليبرالي العلماني الغربي.. ويحتقر كل ما هو عربي وشرقي مثل أستاذه سلامه موسى.

الواقع أن لويس عوض مفكر من طراز فريد يستعصي على التصنيف وأي محاولة تضعه في خانة غلاة اليسار أو غلاة اليمين لن تجد لها سندًا مؤكدًا وسوف تعبر عن قراءة ناقصة ومبتورة لإنتاج لويس عوض الغزير.

وبدأت يقظة لويس عوض مع يقظة الشعب الكبرى على نداءات الثورة عام ١٩١٩، كانت يقظته مبكرة إذ تنبه عقله وهو طفل في الرابعة من عمره على هتافات الثورة «تحيا مصر»

١ - «أوراق العمر»
لويس عوض
القاهرة - مكتبة مدبولي ١٩٨٩.

٢ - «دراسات في الحضارة»
لويس عوض
القاهرة - دار المستقبل ١٩٨٨.

.. أو «المعلم العاشر»



«يحيا سعد»، «يسقط الإنجليز»، «الاستقلال التام أو الموت الزؤام». فأخذ يسمع مايقوله أبوه وأقاربه عن أحداث الثورة وتطوراتها. ولم تكن مداركه تسمح له أن يفهم معناها بوضوح ولم يتهيأ له ذلك إلا في مرحلة النضوج حين عاد لدراسة هذه الأمور التي بقيت عالقة بذهنه، ومن هذه الذكريات أن طالبا قبطيا بكلية الطب اسمه عريان يوسف سعد حاول اغتيال رئيس الوزراء القبطي يوسف وهبه باشا في ١٥ ديسمبر ١٩١٩.

وكان يسمع عمه حبشي وابن عمه يحمدان الله أن هذا الطالب كان قبطيًا. فلو كان مسلما لتكررت مأساة رصاصات الورداني التي قتلت بطرس باشا غالي في ١٩١٠ فقسمت البلاد إلى قسمين وكادت أن تؤدي إلى فتنة طائفية. وكانا يشيدان بالوحدة الوطنية التي بناها سعد والوفد المصري - كما كان يسمع أن بعض المتعصبين من المسلمين كانوا يضعون الصلبان على بيوت المسيحيين في بعض أحياء المدينة تمهيدا للقيام بمذبحة طائفية يفتكون فيها بالأقباط.

وكان والده يرجع ذلك كله إلى مؤامرات الإنجليز، ويقول إن لهم ماضيًا عريقًا في إثارة الفتن الطائفية بين الهندوس والمسلمين في الهند، وأنهم يجربون سياسة «فرق تسد» التي نجحوا فيها في الهند. لكن رقي المصريين جعل مؤامراتهم تفشل. فوعي عريان سعد هو الذي جعله يتطوع للتصدي لرئيس الوزراء القبطي. (أوراق العمر ص ١٢١).

سأل لويس عوض أباه حين نفي سعد زغلول في المرة الثانية إلى سيشل سنة ١٩٢٢، بعد خطبته ضد عدلي التي قال فيها إن «جورج الخامس يفاوض جورج الخامس»: مادامت الناس تحب سعد باشا، فلماذا لايعين الملك فؤاد سعد باشا رئيسا للوزراء فيتكلم سعد باشا مع الانجليز بدلا من عدلي باشا ؟.

وأجابه أبوه: «الملك تركي وعدلي يكن باشا تركي وعبدالخالق ثروت باشا تركي وتوفيق نسيم باشا تركي وأحمد زيور باشا تركي وحسين رشدي باشا تركي، ومحمود سعيد باشا تركي وأحمد مظلوم باشا تركي، الباشوات الأتراك وحدهم هم الذين يحكمون مصر، أما سعد باشا وزعماء الوفد فهم فلاحون وأبناء فلاحين، وأبناء الأتراك لن يسمحوا لأبناء الفلاحين بحكم بلادهم. وبعض هؤلاء الباشوات الأتراك وطنيون لأنهم لايعرفون لأنفسهم وطنا غير مصر، لكن بعضهم يكرهون المصريين ويحتقرونهم ويعتبرونهم من جنس آخر خلقوا ليكونوا عبيدًا وخدما عند الأتراك.

وهكذا انفتحت عينا الصبي على البعد الطبقي في قضية النضال الوطني، وعرف أن الفرق بين مايسمونه «التطرف الوطني» «والاعتدال الوطني» في ثورة ١٩١٩ هو الفرق بين من كانوا يملكون ثلاثمائة فدان مثل سعد زغلول ومن كانوا يملكون ثلاثة آلاف فدان مثل عدلي يكن: تماما كما كان الأمر أيام عرابي (٥٠٠ فدان) وسلطان باشا (٥٠٠٠ فدان).

وعندما نضج لويس عوض عرف أن ثورة ١٩١٩ كانت في حقيقتها استكمالا لثورة عرابي في ١٨٨٢ ولم يكن مصادفة أن زعيمها العظيم سعد زغلول كان آخر العرابيين، وأن يوسف وهبه باشا الذي اختير في ١٩١٩ رئيسا للوزراء ليقضي على ثورة ١٩١٩ كان قبل ذلك بستة وثلاثين سنة قد عين سكرتيرا للجنة التحقيق مع العرابيين في ١٨٨٣ أي أن أعداء الثورة العرابية كانوا لايزالون يطاردون ثوار ١٩١٩.

هذا هو الاكتشاف الهام الذي توصل إليه لويس عوض من قراءته للتاريخ وكان له أكبر الأثر في انتماءاته الفكرية والسياسية فيما بعد: إذ ثبت له من هذه القراءة أن الانتماء الطبقي والمصالح المشتركة هي التي تجمع يوسف وهبة باشا وعدلي يكن باشا وبقية الباشوات الأتراك والملك في معسكر واحد ضد مصالح الشعب المصري أو أبناء الفلاحين، حتى لو دفعهم ذلك إلى تبعية الاستعمار الأجنبي ممثلا في الإنجليز. وأمام هذه المصلحة الطبقية تنمحي فروق كثيرة، وتتوارى خلفها اختلافات أخرى ومنها الاختلاف الديني أو الطائفي. فالخط الطبقي يمثل خط القتال الأول وعنده تتم المواجهة الحقيقية. هذا هو الاكتشاف المهم وعلينا أن نتابع لويس عوض في استقصائه حتى يربط بينه وبين الصراع الحقيقي من أجل استقلال مصر من الإنجليز والأتراك.

يقول لويس عوض:

«عندما قرأت كتاب» مصر الحديثة (١٩٠٨) للورد كرومر بعد عشرات السنين أدركت أن حكاية الترك والفلاحين حكاية قديمة وأن كرومر نفسه وكثير من الإنجليز كان يعتقد صراحة أن الباشوات المصريين غير صالحين لحكم بلادهم بسبب جهلهم وادعائهم وتعصبهم وفساد ذممهم واعتمادهم على المحسوبية في كل الأمور كما قال في كتابه.

وحين قرأ لويس كتاب كلوت بك «لمحة من تاريخ مصر» ١٨٤٠ وجده يردد رأي محمد علي في المصريين أنهم جنود ممتازون ولكنهم قادة أردياء. فقد كان محمد علي يرى أن الضابط المصري حين يبلغ رتبة البكباشي (المقدم) يسوء سلوكه فيجنح إلى الشغب من جهة وينصرف تصرفات لاتليق بهيبة مركزه من جهة أخرى. ولهذا فقد قرر محمد علي عدم ترقية الضباط المصريين إلى رتبة البكباشي إلا في أضيق الحدود. ويعلق لويس عوض على هذا قائلا:

«والأغلب أن الميل إلى الشغب الذي يتحدث عنه محمد على كان الجنوح إلى الثورة على الأوضاع ورفض وصاية الضباط الأتراك على الضباط المصريين. وقد حققت الأيام ظن محمد علي حين قامت ثورة الاميرالايات بقيادة أحمد عرابي في ١٨٨٢ ثم ثورة البكباشية بقيادة عبدالناصر في ١٩٥٢» (أوراق العمر ص ١٥٠).

هكذا كشف لويس عوض عن اتفاق الرأي بين اللورد كرومر وبين محمد علي فيما يخص المصريين جميعا. ولابد أن نلتفت إلى أن هذا الاتفاق ليس نابعا من تقييم موضوعي للمواطن المصري وإنما نابع من رؤية معادية تعمد إلى التقليل من شأن المواطن المصري وتبرير احتقاره واستغلاله من حاكم أجنبي هو محمد علي أو اللورد كرومر ممثل الاستعمار الإنجليزي في مصر. لقد جمعت بينهم غاية واحدة هي قهر هذا

لويس عوض

الشعب واستغلاله كما وحدت إرادة الحرية بين أحمد عرابى وسعد زغلول وجمال عبدالناصر على طريق الثورة الوطنية لتخليص مصر من سطوة الأتراك والانجليز على السواء.

ومن خلال هذا الصراع المحتدم على مدى أجيال، بدأت تتكشف له حقائق التاريخ والواقع فراح يمعن النظر فى خريطة القوى ويتعرف على مواقع الأصدقاء والأعداء: إن أعداءه هم أعداء وطنه من الأتراك والانجليز وأعوانهم من أسرة محمد على والمرتبطين بهم من الأتراك والمتمصرين.

ولويس عوض ذو عقلية تحليلية تبحث دائما عن السبب وعن العلة وراء كل ظاهرة. وقد استنتج من هذه الأحداث أن الأتراك هم علة العلل فى كل مآسى مصر مع التخلف والانحطاط الثقافى والاجتماعى. وجريمة الاحتلال التركى العثمانى باستنزافه لثروة مصر وقواها الطبيعية والإنتاجية هى سبب الانهيار الذى شجع الغرب على مهاجمة مصر والدول العربية واحتلالها.

وفى هذا يكمن السر فى تعاطف لويس عوض مع الجنرال يعقوب قائد الفيلق القبطى أيام الحملة الفرنسية على مصر ١٨٠١.

ومن الخطأ أن يفسر هذا التعاطف على أنه انحياز طائفى من لويس خليل حنا عوض ليعقوب حنا لأنه قبطى مثله. فهذا قياس خاطئ، لأنه قائم على رؤية مشوشة للتاريخ ولموقف لويس عوض أيضا. فلو كان الأمر عند لويس عوض هو أمر ارتباط دينى أو طائفى لسوى فى تعاطفه بين يعقوب حنا وبين يوسف وهبه باشا القبطى أيضا. لكنه أدان يوسف وهبه باشا وكشف مواقفه فى معاداة الثورة العرابية وثورة سعد زغلول واعتبره خروجا حقيقيا على إجماع الأمة التى سارت خلف سعد زغلول بعكس ما كان عليه الحال فى زمن المعلم يعقوب إذ كان الشعب جماعات ممزقة مسحوقة تحت إمرة المماليك والأتراك الذين يستنزفون طاقته فسعى يعقوب لتخليص مصر من شرورهم واستعان بالفرنسيين لبناء قوة عسكرية تؤمن استقلال مصر. والحقيقة أن لويس عوض لم يكن هو صاحب هذا الرأى وإنما هو الدكتور محمد شفيق غربال الذى قاله فى كتابه (الجنرال يعقوب والفرس لاسكارس ومشروع استقلال مصر سنة ١٨٠١م):

«كان وجود الفرقة القبطية إذن أول شرط يمكن رجلا من أفراد الأمة المصرية يتبعه جند من أهل الفلاحة والصناعة من أن يكون له أثر فى أحوال هذه الأمة إذا تركها الفرنسيون وعادت للعثمانيين والمماليك يتنازعونها ويعيثون فيها فسادا. أراد يعقوب أن تكون القوة الحربية المصرية الجديدة مدربة على النظم الغربية فكان سباقا إلى تفهم الدرس الذى ألقاه انتصار الفرنسيين على المماليك أو قل إلى إدراك ما أدركه محمد على بعد قليل من سر انتصار الغربيين فى جودة نظمهم العسكرية فسرق البرق من الآلهة وكان له ما كان».

هذا هو الرأى الذى ردده لويس عوض عن المعلم يعقوب، والذى جر عليه الكوارث لأنه كما يقول «فتح دمل التعصب الدينى فى بعض المثقفين المصريين فطفح كل ما فيه من قيح على السطح، وسوف يحاسب التاريخ الرجعية العربية حسابا عسيرا لأنها سجدت أمام التمثال الذى أقامه شفيق غربال للجنرال يعقوب ثم مزقتنى إربا لمجرد أنى رددت آراءه وترجمت وثائقه» ثم يضيف:

«ونقادى لايستطيعون ادعاء الجهل لأنى أصلت لهم كل شىء عن الجنرال يعقوب فى شفيق غربال فإذا كانوا قد رجعوا إليه ومع ذلك تعمدوا تمزيقى لطرحى قضية «يعقوب اللعين» بهذه الحيدة أو بشىء من التعاطف فإن هذا يثبت سوء نيتهم. وإذا كانوا لم يهتموا بالرجوع فهذا يثبت انحطاطهم لإصرارهم على الإدانة رغم وجود شهود النفى» (أوراق العمر ص ٥٩٧).

إن هجوم الرجعية العربية كان ومازال موجها ضد رموز النهضة المصرية ورموز التنوير والعقلانية لكن التركيز على لويس عوض كان مقصوداً به تنشيط وتسخين الفتنة الطائفية. ومن هنا جاء التأكيد على هوية لويس عوض الطائفية باعتباره قبطيًا يكيد للإسلام والعروبة على السواء.

والواقع أن لويس عوض مفكر إنسانى النزعة، صاحب منهج عقلانى فى النظر إلى أمور الفكر ومشكلات الواقع والحياة. فلا أثر عنده للتعصب الدينى أو التحيز الطائفى. فهو يعترف فى أكثر من مكان بدور الإسلام فى تحرير العقل البشرى من الكهانة ومن سلطة رجال الدين، وإسقاط أى وساطة بين الإنسان وربه، كما يشهد للفكر الإسلامى بأثره فى حركة الإصلاح الدينى وظهور البروتستانتية فى أوروبا. كما يشهد للفكر الإسلامى بانفتاحه على الديانات الأخرى كالمسيحية واليهودية ومساواته لجميع البشر دون تفرقة بسبب الجنس أو اللون أو الدين مما أتاح للعرب المسلمين التفتح على الثقافات الأخرى؛ وبناء صرح الحضارة العربية الإسلامية. وفى تحليل لويس للخلفية التاريخية والثقافية لعصر المعرى، يقرر سبق العرب والمسلمين لأوروبا.

فلا مجال للقول بان لويس عوض يعادى الإسلام أو المسلمين كما يروج دعاة الفتنة الطائفية فى مصر. والأصح أن يقال إن لويس عوض يعادى الدولة الدينية سواء كانت باسم البابوية أو باسم الخلافة الإسلامية. فالدولة الدينية تقوم على نظام شمولى يجلس على قمته حاكم مطلق يجمع بين يديه سلطة الدين وسلطة الدنيا أو قل يتحكم فى رقاب الخلق وأمور الدنيا بما يضفى على نفسه من سلطة دينية، أو كما وصف السلطان الظاهر نفسه فى رسالته إلى سلطان تونس بانه «ظل الله فى أرضه القائم على سنته وفرضه». (ابن خلدون) وهذا معناه أنه يحكم بالحق الإلهى، وليس من حق المحكومين محاسبته.

وهذا هو سر كراهية لويس عوض لكل نظم الحكم المطلق والشمولية سواء كانت فاشية أو نازية أو شيوعية أو دينية. ومن هذا المنطلق نفسه يرفض لويس عوض القومية العربية لأنها تتضمن إقامة كيان سياسى موحد أو إمبراطورية عربية على حساب القوميات الأخرى. ووفقا لفكر لويس عوض فإن هذه فكرة خيالية مستحيلة التحقيق على أرض الواقع إلا بقوة قاهرة لأن «المنطقة من الخليج إلى المحيط لم تتوحد إلا فى ظل الاستعمار الامبراطورى من داخلها أو من خارجها أو فى ظل الدولة الدينية الجامعة وإذا كان التوحيد بالخلافة غير مطروح فى زماننا، وإذا كان الاستعمار من الخارج مرفوضا رفضا باتا، لم يبق أمامنا إلا الاستعمار الامبراطورى من داخل العالم العربى. وأنا أسمى الأشياء بأسمائها: قوة عظمى من داخل العالم العربى لها قدرة الاحتياج والتوحيد تحقق «وحدة الإقليم» هذه يسمونها «الوطن العربى» بعبارة أخرى «تجربة محمد على وعبدالناصر» (دراسات فى الحضارة ص ٢٣).

واعتقد انه بعد مغامرة صدام حسين واجتياح الكويت وما ترتب على ذلك من حروب وتدمير لم تبق هناك حجة لمن يريد أن يشكك فى تحليل لويس عوض لهذه «الأسطورة التى ترتكز على خرافة» البعث العربى «وإحياء مجد الامبراطورية العربية أيام الفتوحات العربية العظمى».

إن إيمان لويس بمصر أو بالوطنية المصرية لم يدفع به إلى العزلة كما يزعم البعض. فحين دعا توفيق الحكيم إلى حياد مصر على الطريقة السويسرية وأيده فى ذلك الدكتور حسين فوزى نجد أن لويس عوض يرفض هذه الدعوة الانعزالية الوهمية ويقول:

«فهذه الأسطورة الانعزالية لاتقل شططا عن أسطورة أخرى هى أسطورة الاندماجية المتمثلة فى دعوة القومية العربية التى تفرض أن شعوب المنطقة أو أقوامها من الخليج إلى المحيط «أمة واحدة» ليس فقط ثقافيا وحضاريا ولكن عرقيا وعنصريا كذلك».

فأوهام الحياد السويسرى مرفوضة عند لويس عوض لأن «توفيق الحكيم ومن ذهب مذهبه يتجاوزون عن حقيقة من أهم حقائق الحياة والتاريخ ألا وهى الحقيقة الجيوبوليتيكية (الجغرافية السياسية) التى تربط مصر راضية أو كارهة بالمنطقة العربية وبالمنطقة الأفريقية وهى حقيقة الأمن القومى المصرى البحت. وبناء على هذا يدعو الجميع إلى الواقعية السياسية فى الداخل والخارج حتى يدرك الجميع «أن هناك قضية واحدة تجمعهم غاية ماتكون من الخطورة والخطر، ألا وهى قضية أمنهم القومى فرادى ومجتمعين» ثم يزيد الأمر وضوحا فيقول:

«ولكى نحس بضرورة التضامن من أجل الأمن المشترك وأمن كل دولة عربية على حدة، ليس من اللازم أن يكون بيننا وبين بقية العرب بعضهم أو كلهم «جيش واحد وميزانية واحدة» بلغة توفيق الحكيم، أو وحدة اندماجية كوحدتنا التى قامت ثم فشلت مع سوريا، وليس من اللازم أن يعطينا السعوديون أو الليبيون بترولهم وأن يأخذوا نيلنا ورجالنا، وليس من اللازم أن نحكمهم من القاهرة كما فعل عبدالناصر مع سوريا أو أن يحكمونا من الرياض أو طرابلس، وإنما يكفى أن نتعامل بشرف وطنى وقومى وشخصى على إدراك تام بأن كل مانبذله من أجل الأمن هو فى حقيقته من أجل أمن كل منا على حدة». (دراسات فى الحضارة ص ١٤).

هذه رؤية مفكر واقعى صادق البصيرة استخلصها من تحليله لأحداث الماضى والحاضر وأعلنها بصراحة عارية دون لف أو دوران، وليت العرب قد قرأوه بروية واستخدموا عقولهم بدلا من حناجرهم وأدركوا أن قضية الأمن القومى لاتتجزأ ولكنها لاتتحقق بالغزو والاجتياح وإنما تتحقق حين يصبح لرجل الشارع دور فى تحمل المسئولية والمشاركة الفعلية فيها.

فكرة الديمقراطية إذن فكرة أساسية عند لويس عوض تأصلت فى عقله ووجدانه منذ نعومة أظافره، بفعل النشأة فى جو أسرة علمانية الفكر ليبرالية السلوك، تؤمن إيمانا راسخا بمقولة سعد زغلول «الدين لله والوطن للجميع».

وكان جو التعليم عمومًا مهيئًا لترسيخ أسس الاستنارة والعقلانية، وهذا مايكشفه من



خلال مقارنته بين تجربتين في التعليم حيث الحقوه بين الخامسة والسابعة من عمره بمدرسة الفرير ورأى كيف يعاقب التلاميذ.

مرحلة التكوين العقلي والثقافي:

يقول لويس عوض:

«وقد تركت فيّ هذه القسوة في التربية الدينية عند الفرير ذكريات غير سعيدة، ولاسيما حين كنت أقيسها بالتربية المتمدنة في مدرسة المنيا الابتدائية الأميرية ومدرسة المنيا الثانوية الأميرية، أما في مدرسة المنيا الثانوية - فقد توقفت دراسة الدين وحلت محلها دراسة «التربية الوطنية». و «علم الأخلاق» منذ السنة الأولى وفقا لنظم التعليم في فرنسا والولايات المتحدة وغيرهما من البلاد التي تحظر دساتيرها تعليم مادة الدين في المدارس لأنها تعتبر أن التربية الدينية هي من اختصاص المؤسسة الدينية التي ينتمي إليها الفرد، وليست من اختصاص الدولة التي يتساوى أمامها جميع أبنائها أيا كانت أديانهم أو مذاهبهم الدينية أو اللادينية، إن التعليم الديني في المدارس، إن لم يعزز التعصب الديني بين الصغار، فهو على الأقل يعمق الإحساس بالفوارق بين المواطنين» (ص ٢٥٦ - ٢٥٧).

والباحث في نشأة لويس عوض وتكوينه الثقافي ليعجب أشد العجب، إذ يجد أن أفكاره الأساسية تستمد أصولها من جذور ممتدة في أغوار التاريخ الثقافي لمصر، كما تستمد جذوتها المتقدة دوما من نبض حركة التنوير العقلانية التي بدأها الشيخ رفاعة الطهطاوي وتلاميذه في حياة مصر عن طريق التعليم والترجمة والنشر، وكان أكثر الكتاب تأثيرًا في تكوينه العقلي والأدبي هم العقاد وسلامة موسى وطه حسين.

واللافت للنظر هنا، أن مدخل لويس عوض إلى هؤلاء الكتاب الثلاثة كان القضية الوطنية ومدى مشاركة كل منهم في الكفاح من أجل الاستقلال والديمقراطية.كان عقاديا بسبب ارتباطه بالوفد فقرأ العقاد السياسي قبل أن يقرأ العقاد الأديب. «فلما اقام محمد محمود ديكتاتورية «اليد الحديدية» عام ١٩٣٨ وعطل دستور ١٩٢٣ إلى أجل غير مسمى بلغ الشعور الوطني مداه، «تجلى أمامي العقاد كهرقل الجبار الذي كان يسحق بهراوته الشهيرة الأفاعي والتنانين وكل عناصر الشر»، أما علاقته بطه حسين فقد تأخرت بعض الوقت لنفس السبب، وبعبارة أخرى لأن طه حسين كان منتسبا للأحرار الدستوريين وهم خصوم سعد زغلول والوفد، وكان هذا مظهرا بل سببا للأزمة التي واجهها جيل الشباب في تلك الفترة.

أزمة المثقفين:

كانت مشكلة لويس عوض بل مشكلة جيله من الشباب في أواخر العشرينيات أن قيادة المثقفين، لطفي السيد وطه حسين وحسين هيكل والمازني ومنصور فهمي ومحمود عزمي وعبدالعزيز فهمي، بل وأحمد شوقي وخليل مطران ومصطفى عبدالرازق، كانت معادية للطبقات الشعبية في ثورة ١٩١٩ أو بتعبير ادق، معادية لقيادتها الوفدية صراحة، وأن قيادة المثقفين بوجه عام ربطت مصيرها بأحزاب الأقلية من الأرستقراطيين «العقلاء» لاسيما الأحرار الدستوريين الذين ربطوا مصيرهم بالملكية المستبدة وبمهادنة الإنجليز واقترنت أسماؤهم في تاريخ كفاحنا الوطني والديمقراطي بتعطيل الدستور وإقرار حكم الصفوة بالحديد والنار. «وبهذا اقترنت الثقافة والعقل والعلم في أذهاننا بالانعزالية عن المد الثوري التحرري سواء في وجهه الوطني، أو في وجهه الديمقراطي، وكان هذا هو المأزق الذي دخلنا فيه ولم يخرجنا منه إلا عباس العقاد».

جمع العقاد بين إمامة المثقفين وإمامة الثوريين وعلم لويس وجيله أنه «لاتعارض بين الثقافة والثورة بل وعلمنا كيف يكون المثقفون هم طليعة الثوار. ومن هنا قد تجسم العقاد وحده في وجداننا كعقل بطولي جسور ومعقل شامخ يلوذ به الأحرار. فلما انشق طه حسين عن الأحرار الدستوريين وانضم إلى صفوف الشعب في أوائل الثلاثينيات وشارك العقاد في تقويض ديكتاتورية إسماعيل صدقي، أصبح للكفاح قطبان شامخان وخرج المثقفون نهائيا من ذلك المأزق الذي أدخلهم فيه منطق الأحداث في العشرينيات وتبلور في مصر لأول مرة في تاريخنا ذلك المعنى الرائع وهو أن مكان المثقفين ينبغي أن يكون دائما في طليعة الكفاح الثوري» (ص ٢٥، ٢٦).

وهكذا بانضمام طه حسين لقيادة الكفاح الثوري، سقط الحجاب الذي كان يفصله عن لويس عوض وأصبح العقاد وسلامة موسى ثم طه حسين هم أساتذته الكبار في الفكر والأدب.

فإذا كان العقاد قد علم لويس عوض وجيله «أن المثقفين هم طليعة الثورة وأنه لاتعارض بين الثقافة والثورة»، فإن سلامة موسى هو الذي وضع أمام ذلك الجيل أهم القضايا العلمية والفلسفية والاجتماعية والاقتصادية التي «كانت مدار البحث الانساني في بلاد العالم المتحضر وربطنا بتيارات الفكر العالمي الحي فجعلنا نحس باننا أحياء» (مقالات في النقد والأدب ص ١٠٦).

لم تقف علاقة لويس عوض بهؤلاء عند القراءة بل امتدت عن طريق اللقاءات المباشرة حتى وصلت إلى درجة العلاقة الحميمة والتلقي المباشر على أيديهم والتردد المنتظم على صالوناتهم منذ حضوره للقاهرة للالتحاق بكلية الآداب سنة ١٩٣١.

الانتماء إلى نادي الثقافة الرفيع:

خرج لويس عوض من لقائه الأول بطه حسين والعقاد تملاه مشاعر قوية هي مزيج من الزهو والثقة بالنفس. إذ اكتشف فجاة أنه ينتمي بحق إلى هؤلاء العمالقة العظام حيث يقول «لقد أدركت رغم لجلجتي ولهجتي نصف الصعيدية أنني أنتمي بحق إلى هذا النادي الأدبي الرفيع، فدخلته آمنا في سلام».

«وفي يناير ١٩٣٣ التقى صدفة في شارع إبراهيم باشا باحد اقاربه من أبناء شارونة يدعى يعقوب فام وكان يعمل سكرتيرا لجمعية الشبان المسيحية : فاخذ لويس معه إلى مقر الجمعية وعرفه بسلامة موسى وهكذا شاء له حظه الحسن أن يلتقي بثالث العمالقة دون سابق موعد. وهو يصف انطباعاته قائلا:

«بقدر ماوجدت طه حسين مهيبا وعباس العقاد شامخا وجدت سلامة موسى متواضعا، كان غزير العلم في غير تكلف...، ولم تكن هيئته تدل على شيء: كان يمكن أن يكون مدرسا بالمدارس الثانوية أو طبيبا أو رئيس مصلحة حكومية. ولكن ما إن يبدأ في الكلام حتى يتدفق علمه الموسوعي ويتجلى ذكاؤه الحاد كالنصل القاطع» (أوراق العمر ص ٤٦٢).

كان سلامة موسى قد نذر نفسه لتربية الشباب وتنويره فتلقى لويس عوض بصورة أرحب وأعطاه من وقته وجهده الشيء الكثير. فلم يكتف بتوجيه تلميذه إلى قراءة مسرحيات برنارد شو، بل آخذ يناقشها معه كل أسبوع، ويشرح له العلاقة بين الأدب والمجتمع ومعنى الواقعية الاشتراكية ومعنى الغابية.

وكان هذا غالبا هو أسلوب سلامة موسى مع تلاميذه وحوارييه الذين لايزالون يذكرونه ويشيدون بفضله. وهو أسلوب أو تقليد مصري عريق في التربية والتعليم بدأه حكماء مصر القديمة في العصر الفرعوني، وسار عليه آباء الكنيسة القبطية والمعلمون فيها، وسايرهم في ذلك النهج علماء الأزهر الشريف وكانت العلاقة بين التلميذ ومعلمه أو شيخه علاقة مباشرة وقوية، ترقى بالأستاذ إلى مراتب الأبوة المسئولة. وبهذا صار سلامة موسى هو مرشده الفكري الذي يوجه خطاه إلى طريق واضح المعالم.

وعلى هذا كان دور سلامة موسى له أبلغ الأثر ليس فقط في تنظيم حياته وتوجيهه إلى الاشتراكية، ولكن أيضًا في دفعه للتفوق في اللغة الإنجليزية وآدابها التي تخصص فيها بالجامعة. وهو دور يتضاءل أمامه تأثير الأساتذة الإنجليز والأجانب عمومًا بقسم اللغة الإنجليزية الذين وجدوا أمامهم شابا مصريا نبغ في لغتهم فأولوه اهتمامهم كل في تخصصه فكانوا يزودونه بالتوجيه والنصح وبالمراجع المطلوبة. ولويس عوض يذكر منهم ثلاثة بالفضل ويقول إنهم كانوا أشد أساتذته الإنجليز تأثيرًا في تفكيره ومعتقداته وثقافته وذوقه واهتماماته وهم: كريستوف سكيف وبرين ديفيز وأوين هولواي، وكان سكيف أكبرهم أثرًا.

كان برين ديفيز BRYN DAVIES يعلم لويس عوض وزملاءه تاريخ انجلترا وتاريخ الفكر الانجليزي وكان اشتراكيا لا شبهة في اشتراكيته، وكان من أبناء المدرسة التي تربط تطور الأفكار والمؤسسات بتطور اقتصاديات المجتمع ووسائل الإنتاج وأدواته. وكان ديفيز شديد الاهتمام في محاضراته بأن يشرح لتلاميذه البطانة الدينية التي كانت تصاحب ظهور الطبقات وصراعاتها داخل المجتمع الإنجليزي.

أما المؤثر الكبير الآخر في حياة لويس عوض العلمية والفكرية أيام الجامعة فكان الأستاذ أوين هولواي وكان متواضعا ودودا لكنه متحفظ في مخالطة الطلاب. وكان علمه غزيرًا فياضا إذا بدأ بالكلام لايتوقف.

وأعتقد أن هولواي كان له دور مؤثر في إسقاط تلك «التخوم بين الثقافات والحضارات وكل الحواجز بين الأزمنة والأمكنة» التي يتكلم عنها لويس عوض. وربما تم ذلك عن طريق تدريسه مبادئ النقد الأدبي وتحطيم نظرية القيم المطلقة وإحلال نظرية نسبية القيم محلها في حديثه الطويل عن السيمانطيقا الجديدة. وكان الطريق الآخر هو تدريسه لمادة «المؤثرات الأجنبية في الأدب الإنجليزي» في قسم الامتياز. وهو الذي دل لويس وزملاءه على تأثير الأدب الفرنسي



لويس عوض

الساحق على الأدب الإنجليزى فى كافة التحولات من مدرسة البلياد إلى تريستان كوربيه TRISTAN CORBIERE ولافورج ومارسيل بروست ومدرسة «المونلوج الداخلى» وتأثير الأدب الروسى على القصة الإنجليزية الجديدة.

ولاشك أن هذه الدراسة هى التى جذبت لويس عوض إلى الأدب المقارن فحاول تطبيق أسسه فى دراسة الأدب العربى والأدب المصرى على السواء وتحديدًا فى أبحاثه عن «المؤثرات الأجنبية فى الأدب العربى الحديث» وكتابه «على هامش الغفران» وكتابه «أسطورة أوريست والملاحم العربية» ثم كتابه «مقدمة فى فقه اللغة العربية» الذى قام الأزهر بمصادرته.

وهذه الدراسات والأبحاث هى التى أثارت على لويس عوض حملات شرسة وظالمة لم تتوقف حتى بعد رحيله عن هذا العالم.

وإذا كان ديفيز وهولواى قد أثرا فى شخصية الباحث والناقد عند لويس عوض، فإن سكيف كان له تأثير أكبر فى لويس عوض الفنان:

«وأعتقد أن سكيف كان أكبر مؤثر فى نموى الفنى خلال سنوات الطلب فى الجامعة».

كان سكيف كما يقول أقرب إلى الفنان منه إلى الأستاذ. وكان رخيم الصوت محبا لإلقاء الشعر وتمثيل المسرح. وكان مغنيا هاويا من طبقة الباريتون، وهو الذى علمه تذوق الشعر والنثر والمسرح. هذا بوضوح سر إعجاب لويس عوض وتقديره لأستاذه سكيف، والذى جعله يهدى ديوانه الأول والشهير «بلوتولاند وقصائد من شعر الخاصة» إلى سكيف، وليس هناك أى شىء آخر مما ذهب إليه الأستاذ محمود محمد شاكر وغيره عن علاقة سكيف بالمخابرات. وقد تعرض لويس عوض بصراحة لبقية الأساتذة الانجليز، وكان شديد الوطأة فى نقده لمثالبهم العلمية، وتناقضاتهم الأخلاقية ومنها العمل بالمخابرات. وليس أدل على ذلك من نقده اللاذع لمواقف أستاذه روبرت فيرنز رئيس قسم اللغة الانجليزية الذى اختار له موضوع «لغة الشعر فى النظرية والتطبيق فى الأدبين الإنجليزى والفرنسى».

وكان فيرنز صاحب نفوذ كبير فى (كلية الملك) KING'S COLLEGE فى كامبريدج، فحجز له مكانا فى هذه الكلية التى كان يحجز فيها اللوردات أماكن لأولادهم عندما يولدون. ومع ذلك لم يسلم من نقده أو سخريته لأنه انتقل من رئاسة قسم اللغة الانجليزية إلى مكتب الرقيب العام فى وزارة الداخلية.

لكن هذا كله لايقلل من شأن الدور الذى لعبه هؤلاء الأساتذة الإنجليز فى توسيع آفاقه وتعميق ثقافته وتربية حاسته التاريخية وإثراء أحاسيسه الفنية، باختصار فى إعداده كباحث وناقد وأستاذ فى الأدب. فقد التهم لويس عوض على أيديهم - كما يقرر - حضارة أوروبا وتاريخها وآدابها من الإغريق والرومان والعصور الوسطى حتى العصر الحديث، إلا أن الإطار الفكرى لرؤيته الثقافية والاجتماعية والسياسية قد تشكل أساسا من ارتباطه بثورة ١٩١٩ وكتابها ومفكريها كالعقاد وسلامة موسى وطه حسين.

وقد قرأنا أن أستاذه العلامة برين ديفيز كان اشتراكيا وهو الذى أعار لويس عوض كتاب «رأس المال» لكارل ماركس وقرأه وأن أستاذه أوين هولواى الشيوعى الغارق فى أدبيات المادية الجدلية هو الذى أعاره ثلاثة كتب لانجلز هى «ديالكتيك الطبيعة» و«الرد على دورنج ANTI DUHRING وكتاب «رسائل عن فيور باخ» وعرفه ببوكانين وبولخين وأعطاه كذلك كتاب جون ريد «عشرة أيام هزت العالم». لكن ميله إلى الاشتراكية كان سابقا على دخوله الجامعة بتأثير سلامة موسى الذى نما فى لويس عوض - عقلية المفكر الاجتماعى بمؤلفاته وبـ «المجلة الجديدة».

وسلامة موسى هو الذى عرفه بتاريخ مصر القديمة - فقد كان على حد قوله من دراويش مصر الفرعونية، فايقظ عنده الاعتزاز بهذه الحضارة العظيمة. ولويس عوض يقول إن قريته «شارونة» كانت عاصمة لمصر القديمة بل لعلها كانت مركز تجميع الثوار أيضا فى تلك الفترة البعيدة. وكان أهل شارونة يحسون بهذا الشعور الوطنى إحساسا قويا حتى أن بعض العوضية (أسرة لويس عوض) يتصورون أحيانا أنهم أحفاد الفراعين العظام، ويرتبط هذا بالتاريخ الحديث حين نعرف أن محمد عبدالصمد عمدة شارونة، كان من أبطال ثورة عرابى المطاردين.

فكل شىء فى حياته الفكرية يجرى على رقعة التاريخ الوطنى لمصر. فالفرعونية لم تكن ميتة، وأحياها سلامة موسى. كانت فقط مطمورة بفعل حكم أجنبى جائر لمئات السنين، لكنها كانت حية ضمن تقاليدنا الثقافية والاجتماعية، وجاء فك رموز حجر رشيد ومعرفة حروف اللغة الهيروغليفية بمثابة البداية لقراءة الآثار المكتشفة والتوثيق الصحيح لمنجزات هذه الحضارة التى لازالت تبهر العالم كل يوم.

وقد ثارت معركة الفن القومى فى الثلاثينيات بمناسبة بناء ضريح سعد زغلول فطالب البعض بأن يكون طرازه إسلاميا، ولكن الرأى الذى انتصر كان بناؤه على الطراز الفرعونى، وهذه هى الفترة التى بنيت فيها محطة الجيزة وفيلا عثمان محرم فى شارع الهرم.

وفتح باب الجدل حول شخصية مصر بين العروبة والفرعونية وحضارة البحر المتوسط. وقد شارك فى هذا الجدل أكبر أعلام الفترة. شارك فيه طه حسين وسلامة موسى وهيكل والعقاد. وقد كانت دعوة ساطع الحصرى للقومية العربية أحد مفجرات الجدل فى هذه القضية - والمعركة لاتزال مفتوحة إلى اليوم بعد عشرات السنين وبضراوة أشد.

مايهمنا فى ذلك كله هو هذا المناخ الثقافى والسياسى الذى تشكلت فى ظله الخطوط الأساسية لفكر لويس عوض، فى فترة دراسته بالجامعة بين ١٩٣٣ و١٩٣٧ قبل سفره لإنجلترا للحصول على الماجستير.

لم تكن الفرعونية إذن أفكارًا خيالية يروج لها سلامة موسى بل كانت واقعا ثقافيا وشعوريا حيا يترجم نفسه فى حياة الشعب وقواه الحية ويعبر من خلال الجماهير والقيادات الثقافية، ويفرض نفسه فى جو الحرية الليبرالية السائدة آنذاك.

وبالنسبة للأدب العربى فلم يكن لدى سلامة موسى مايعطيه لدارس مثل لويس عوض لأن سلامة موسى كان يرى أن الأدب العربى القديم فى معظمه نتاج عصور الانحطاط فهو أدب ملوكى كتب لتسلية الحكام والسلاطين وليس فيه اعتبار للإنسان الفرد ولا للشعب. وهو أدب يعادى الثورة والتقدم. لذلك ابتكر لويس عوض طريقة للتثقيف الذاتى اعتمد فيها على النقد الذى كان ينشره العقاد وطه حسين.

ومن الملاحظ أن علاقته بهذين العملاقين لم تستمر على مستوى واحد، ففى الوقت التى بدأت فيه هذه العلاقة تقوى وتتوثق بطه حسين، نجدها قد أخذت فى الذبول أو الضعف مع العقاد، وكان ذلك بسبب تعاظم دور طه حسين فى قيادة المثقفين ودفاعه القوى عن استقلال الجامعة.

فنحن نعرف أن لويس عوض تعلق بالعقاد فى شبابه لأنه كان أكبر مدافع عن مبادئ الحرية والاستقلال والديمقراطية كما كان رائداً من رواد التجديد فى الشعر الحديث. فقد أنشأ هو والمازنى وشكرى مدرسة الديوان التى دعت إلى هجر القصيدة التقليدية وشعر المناسبات الذى كان يمثله شوقى إلى شكل حديث للقصيدة يتيح للشاعر أن يعبر عن مشاعره وأفكاره بصدق. لكن الأمور تدهورت بين العقاد والوفد فطرد منه وانضم إلى خصومه تحت وطأة أزمة خطيرة جعلته يتنكر لكل شىء.

هكذا انفصمت العلاقة العاطفية والفكرية التى ربطت لويس عوض بالعقاد حين تنكر هذا الرائد لمبادئه، وإن كان لويس عوض يشهد للعقاد أنه ظل لآخر لحظة فى حياته ضد جميع النظم الشمولية كالشيوعية والنازية والفاشية الدينية على وجه الخصوص.

ومهما كان الأمر، فإننا نلاحظ من خلال ماكتبه لويس عوض، أنه فى مقابل التراجع الذى انحدر إليه موقف العقاد، نجد التصاعد السريع والفعال فى موقف طه حسين فى قيادة المثقفين. كان لإقصاء طه حسين عن الجامعة دوى عظيم فاضربت الجامعة شهرا أو يزيد. وتحول طه حسين إلى رمز لاستقلال الجامعة وصمودها أمام السلطة التنفيذية، ليس فقط بين المثقفين ولكن أيضا على المستوى الجماهيرى» (الحرية ونقد الحرية ص ١٠).

وكانت نقطة التحول المهمة فى حياة طه حسين وفى تحوله الروحى هى انتقاله من الأحرار الدستوريين معسكر الصفوة حيث كانت الحرية تعنى «العقل» المثقف لا حرية المجتمع بأشمل معانيه، كانت حرية الأستاذ فى أن يبحث وأن يفكر وأن يعبر وأن يتحدى كل قيد فرضته التقاليد المتحجرة أو عواطف الدهماء وجهلها. ولاشك أن طه حسين فى العشرينيات وماقبل العشرينيات، وجد فى مثقفى الأحرار الدستوريين من أمثال لطفى السيد وعبدالعزيز فهمى وعلى عبدالرازق ومحمد حسين هيكل، وهم مثقفو الأقلية المعزولة عن تيار الجماهير وربما فى بعض زعمائهم مثل عدلى يكن وعبدالخالق ثروت، وهم زعماء الأقلية المعزولة عن الجماهير، هذا الوفاء الذى يمكن أن يحمى العقلانية «المصرية



المتحررة»، بل وهذا العنصر الذى يمكن أن يتبنى مدرسة «التنوير» وقد أثبتت تجربة «الشعر الجاهلى» صدق اختياره كما أثبتت تلمذته ثم زمالته وصداقته للطفى السيد أن العقلانيين الأحرار فى مصر كانوا قادرين بالفعل على إرساء التقاليد الجامعية الراقية وحماية البحث العلمى وتحرير المرأة بالعلم والتعليم. (الحرية ونقد الحرية ـ ص ١٢).

ولويس عوض كعادته لايترك شيئا دون دراسة أو تمحيص وهو يحاول أن يستقصى الأسباب الحقيقية لتحول طه حسين من معسكر الصفوة فى حزب الأحرار الدستوريين إلى ماكانوا يسمونه بديمقراطية الرعاع فى حزب الوفد ويقول إن أحدا لم يحاول أن يسبر أغوار هذه الفترة الغامضة فى نمو طه حسين الروحى، والتى جعلت منه أكبر طاقة ثورية فى كفاح مصر الثقافى الديموقراطى الليبرالى منذ ديكتاتورية صدقى الأولى عام ١٩٣٠. ويرفض أن يفسر تعاطف طه حسين مع الوفد فى تلك المرحلة الدقيقة بأسباب شخصية، ويرى أن سبب هذا التحول فى موقع طه حسين السياسى والاجتماعى هو إحساسه منذ آلت زعامة الأحرار الدستوريين إلى محمد محمود باشا ونظرائه بعد وفاة عدلى يكن وعبدالخالق ثروت أن هذا الحزب لم يبق منه إلاهيكله الخارجى، أما مضمونه الحقيقى فقد مضى وانقضى بذهاب جيل المستنيرين.

ثم يصل لويس عوض إلى لب الموضوع حين يقول:

«هكذا بموت عدلى يكن وعبدالخالق ثروت طار حلم الديمقراطيه الأثينية.. ذلك الحلم الذى طالما داعب خيال لطفى السيد وطه حسين وأرستقراطية مصر الفكرية، ولم يكن هناك بد من الاختيار المرير بين الملكية المطلقة المتعالية على حكم العقل والقانون وبين حكم الشعب. أما لطفى السيد وعلى عبدالرازق ومصطفى عبدالرازق فقد اعتزلوا السياسة بكل معنى حقيقى وعكفوا على العلم والتعليم وأما طه حسين فقد اختار جانب الشعب و«الدهماء» كما كان صدقى باشا يسمى رجل الشارع فى مصر». (الحرية ونقد الحرية ص ١٤).

وباختصار أقول إن غرضى من الحديث ببعض التفصيل عن علاقة لويس عوض بالعمالقة الثلاثة العقاد وسلامة موسى وطه حسين هو البحث عن مراكز الاستقطاب أو بتعبير أبسط، جوانب الجاذبية الشخصية التى كانت تستهويه وتشده بقوة إلى هؤلاء الأقطاب، وما هى دلالة ذلك بالنسبة لشخصية لويس عوض.

فنحن نلاحظ مثلا أن هذه العلاقات قامت أساسا على أرضية الكفاح الوطنى بما اكتنفه من مد وجزر فى الفترة ما بين ثورة ١٩١٩ وثورة ١٩٥٢. فنجد لويس عوض فى وقت ما مهموما بمهمة التوفيق بين هؤلاء الثلاثة على المستوى الفكرى ثم فى وقت آخر، ومايمكن أن نسميه مرحلة الفرز والاختيار، نجده يفرق بينهم على المستوى الاجتماعى والفكرى:

«كانت مشكلتى أن أوفق بين مثالية العقاد الجوانية المتعالية وأقانيمه المطلقة الشامخة، وبين مادية سلامة موسى العلمية الباردة، وبين عقلانية طه حسين المتأججة المركبة تركيبا غريبا من قوانين التوازن الكلاسيكى والاستقرار الكلاسيكى وقوانين الثورة على التوازن والاستقرار وكأنها جدلية عظمى متسقة ومضطربة ابتكرها فيلسوف مجهول تحول ظله فى منطقة ما بين ديكارت وهيجل». (الحرية ونقد الحرية ص ٢٤).

لكنه وحد بينهم فى الموقف من الدين. فهو يذكر أن سلامة موسى كان دائم الدعوة للاهتمام بدراسة حضارة مصر الفرعونية وكان عنده شموخ القبطى المتمسك بأصلابه الفرعونية حضارة وأمجادا. إلا أنه لايعتقد «أن سلامة موسى كان مسيحيا إلا بالميلاد. فقد كان يضع جميع أديان التوحيد فى سلة واحدة، وكان يتكلم عن الثالوث الأوزيرى كما يتكلم عن الثالوث المسيحى، وكان عاجزًا عجزًا تاما عن الميتافزيقا بسبب تكوينه العلمى فكان ينظر إلى كافة الأديان من وثنية وتوحيدية نظره إلى ظواهر أنثروبولوجية».

ويكاد يقول الشىء نفسه عن العقاد وطه حسين:

«وجدت سلامة موسى صريحا فى اشتراكيته صريحا فى زندقته، بينما وجدت العقاد زنديقا يغطى زندقته بمقولاته الفلسفية، فيؤله الشعراء ويسوى بين وحيهم ووحى الأنبياء ويجاهر بعدائه للاشتراكية وبدعوته للفردية. كان العمالقة الثلاثة زنادقة، كل على طريقته الخاصة. كانت زندقة العقاد من منطلق مثالى، وزندقة سلامة موسى من منطلق مادى، أما طه حسين فقد كانت آية زندقته كتابه «فى الشعر الجاهلى» الذى قال فيه صراحة إن قصة إبراهيم وإسماعيل وبناء الكعبة ليست لها حقيقة تاريخية بل هى مناقضة للتاريخ. وكان رفضه وليدا للعقلانية والمنهج العلمى».

ويلاحظ هنا أن لويس عوض يستعمل كلمة «زنديق» كنوع من المعارضة الساخرة بقاموس الرجعية الدينية والمتطرفين منهم الذين ارتدوا مسوح كرادلة محاكم التفتيش وراحوا يفتشون فى ضمائر الناس ويوزعون تهم الزندقة والكفر على كل من يخالفهم فى الفكر. لكن لويس عوض وهو على النقيض تماما لا يدين أحدا من هؤلاء الأساتذة الأجلاء وإنما قصد إلى تصوير خروجهم على الفكر المعتاد أو التقليدى بالمصطلحات الشائعة ولذلك عاد إلى توضيح هذه النقطة فقال:

«فإذا كانت كلمة الزندقة جارحة فلنقل إن هؤلاء الثلاثة كان لهم فهم خاص للدين يختلف تماما عن المفهوم العام، فهو كإيمان الفلاسفة والعلماء بعد هتك الأقنعة الاجتماعية والفكرية» (أوراق العمر ص ٤٦٤).

ولانغالى إذا قلنا إن هذا التصوير يصدق على لويس عوض نفسه فيما يتعلق بالأديان، ولكن المهم فى هذا السياق أن نادى المثقفين الكبار لم يكن يعرف للاختلافات الدينية أو التعصب أى أثر، بل كان يسوده جو الحرية الفكرية والتحرر العقلى والاستبسال فى سبيل ترسيخ المناهج العلمية والتجريبية فى التربة المصرية. وكان لجو الانفتاح العقلى تأثيره القوى على تكوين لويس عوض الفكرى: فرسخ فى وعيه هذه الليبرالية التى تشربها فى وسطه العائلى فى طفولته وصباه، وغرز فيه روح المحبة والتسامح لكل الشعوب والأجناس، وحماه من التطرف القومى والتعصب الدينى. وكما يقول صديقه الدكتور شكرى محمد عياد:

«لكن بكل تأكيد لويس عوض لم يكن إطلاقا متعصبا. وهو فى رغبته الحميمة فى التواصل تمنى أن تترك مسألة الدين جانبا وليكن لكل انسان اعتقاده الخاص وأظن أن هذا فهم راق جدا، وكان ينبغى أن يوافقه الجميع عليه حتى خصومه. لأن هذا شىء بين الإنسان وربه، فالذى يصلى متظاهرًا بالصلاة اسمه منافق عند المسلمين، فما قاله لويس عوض ليس فيه شىء يؤذى أحدا».

هذه إذن ساحة التوافق والتوفيق بين العمالقة الثلاثة كما صورها لويس عوض وكما انعكست على فكره ووجدانه.

كانت محاولة التوفيق ـ كما يقول ـ هى معاناة حياته فى المرحلة الأولى لكن التطورات السياسية والاجتماعية على أرض الواقع وتبدل المواقع خصوصا بالنسبة للعقاد وطه حسين خفف من وطأة الحيرة عنده، ومكن له من الفصل بينهما على أساس سليم. باختصار انتقل العقاد إلى معسكر الرجعية فكريا وسياسيا، وبهذا خرج من دائرة اهتمام لويس عوض فى الوقت نفسه تقدم طه حسين من بين الصفوة الفكرية إلى خضم العمل بين الجماهير، ووضع نفسه فى جانب المقهورين والمعذبين فى الأرض يعرض قضاياهم ويشير إلى الحلول وحين واتته الفرصة اتخذ أصعب القرارات وواجه أعتى قوى الانتهازية السياسية والرجعية الثقافية لكى يحقق مقولته ويجعل التعليم حقا لكل المواطنين شأنه شأن الماء والهواء.

فى ظل هذا المناخ العام مال لويس عوض إلى رؤية تجمع بين العدل والحرية وتعطى الجانب الاجتماعى اهتماما خاصا وقد سماها بفلسفة الاشتراكية الديمقراطية. وهى رؤية تقوم على الالتزام بالإنسانية وحدها حيث يقول:

«نحن فى حاجة إلى عقيدة جديدة هى عقيدة إنسانية أولاً وقبل كل شىء، يكون فيها المفكر الإنسانى والفنان الإنسانى والسياسى الإنسانى إلخ، ملتزمًا بالإنسانية وحدها التزامًا حرًا لا إكراه فيه هو التزام المحب بالشىء المحبوب». (لمصر وللحرية ص ٥٥).

فإذا عرفنا أن محبوبة لويس عوض «السمراء» هى مصر... فمصر كانت وستظل هى قلب العالم وضميره (مسرحية الراهب) أدركنا أن هذه الرؤية تجمع بين الرومانسية والواقعية أى بين العالمية والقومية ومن ثم كان دأبه الدءوب تأكيد صحة هذه الرؤية عن طريق الأدب المقارن، فراح يبحث عناصر التأثر والتأثير بين الثقافات المختلفة ويكشف عن مظاهر هذا التأثر فى الأعمال الأدبية مثل «رسالة الغفران» و«الكوميديا الإلهية» ليبرهن على وحدة الثقافة العالمية. فوحدة الثقافة العالمية عنده هى القاعدة الأصلية للمساواة بين البشر وهى المصدر الأول لدعوة الاشتراكية العالمية.

إنها رؤية تعتمد على الحب والتضحية والفداء، وترفض نزعات التفوق والاستعلاء أو التعصب القومى والدينى. وهناك من يصف هذه الرؤية بالتوسط والاعتدال مثل الدكتور شكرى محمد عياد (الهلال ـ أكتوبر سنة ١٩٩٠) حيث يقول:

«أما إذا أردنا أن نضع آراء لويس عوض فى سياق الفكر العربى فأول ما يخطر ببالنا هو قربها الواضح من «تعادلية» توفيق الحكيم بل من تلك «الوسطية» أو التوفيقية التى يراها الكثيرون سمة مميزة. إن لم تكن السمة الأساسية، للفكر العربى الإسلامى. ولسنا نتوقع من هؤلاء أن يعدوا لويس عوض بين المفكرين الإسلاميين (ولو أنه فى نظرنا قضية معقولة جدا) ولكننا نطلب منهم فقط أن ينصفوا الرجل وأن يقروا بأن أعماله النقدية تقع فى منطقة القلب من ثقافتنا العربية الواحدة ولهم أن يصفوا هذه الثقافة بما يشاءون من الصفات». ■

كانت أبحاثه عن المعرى «ورسالة الغفران» فى عام ١٩٦٤ سببا فى تفجير معركة عنيفة من جانب الأستاذ محمود محمد شاكر... وهى من أشرس المعارك أو الهجمات التى شنت على لويس عوض فعلا. بل كانت أصلا لعدة معارك جانبية أعادت كل كتابات لويس عوض السابقة إلى دائرة الضوء

الموسيقى العربية

سمحة الخولى

> **نشأ أغلب المطربين والملحنين فى أوائل القرن فى كنف الترتيل القرآنى والتواشيح الدينية والابتهالات التى ظلت المنبع الأصيل والحصين الذى حفظ للموسيقى العربية هويتها ومقاماتها. ومن هذا الأساس التقليدى الراسخ ينطلقون بعد أن يتمرسوا بقوام صنعتهم**

تعرض العالم العربى فى القرن العشرين لتطورات وثورات تركت آثارها على الشعوب العربية التى يؤلف بينها جميعا ذلك الإطار العام للحضارة الإسلامية العربية. والعالم العربى يمتد جغرافيا من أقصى شمال أفريقيا غربا إلى غرب آسيا شرقًا، وتنضوى فى هذا الكيان الضخم ـ بجناحيه الشرقى والغربى ـ ثقافات محلية لكل منها سماتها وتاريخها ولهجاتها وتراثها، ونظمها الاجتماعية المتباينة. و لكنها مع ذلك تشترك جميعا فى تراثها الدينى وأهم ملامح تراثها الثقافى. وإن نظرة فاحصة لأمور العالم العربى فى نهاية القرن العشرين لتنطق بأبعاد ما تعرض له من تطورات سياسية واجتماعية واقتصادية كبرى، أبرزها على الجانب الإيجابى اكتشاف النفط فى عدد من البلاد العربية، وما واكب ذلك من الطفرات الاقتصادية والاجتماعية والملابسات السياسية. فهو قد خلق فجوة ضخمة بين التراث والواقع المعاصر، ولازالت شعوب العالم العربى تجهد لاحتواء آثارها ـ بخيرها وشرها ـ وتسعى لتوجهها توجيها رشيدا.

وعلى الجانب السلبى كان إنشاء دولة إسرائيل فى قلب العالم العربى من أخطر تطورات ذلك القرن، إذ خلق أوضاعا سياسية ولدت حروبا متعاقبة واستنزافًا وانتفاضات، وكفاحًا مريرًا- تفاوتت أبعادها من قطر لآخر- وفى نفس الوقت عاشت المنطقة العربية عددا من الثورات وحروب التحرير والاستقلال والكفاح ضد الاستعمار فى ذلك القرن.

ولابد لنا أن نستقرئ شئون الموسيقى فى العالم العربى فى نهاية القرن العشرين لنرى هل حققت الموسيقى العربية نهوضا وازدهارا يتكافأن مع ما تحقق فى بعض مجالات الاقتصاد والعمران؟ وسنحاول هنا أن نلخص ـ قدر المستطاع ـ الإيجابيات والسلبيات فى الموسيقى العربية فى القرن المنتهى، لعل هذا التقييم يهدينا فى جهودنا للارتقاء بشتى مناحى الثقافة والفن، وفى سعينا للنهوض بالعالم العربى ليلاحق مسيرة تقدم متوازن رشيد يحفظ له هويته.

ومفهوم «الموسيقى العربية» يطلق على التقاليد الموسيقية المتوارثة عبر القرون فى هذه المنطقة العربية، وعلى الفن الموسيقى الراقى (وليس التلقائى الشعبى) الذى يمارسه فنانو الموسيقى ومحترفوها فى العالم العربى. وينبغى أن نشير هنا إلى أن صفة العروبة التى أصبحنا نؤكد عليها كثيرا فى السنوات الأخيرة ـ لا تلغى ما يضمه هذا التراث من عناصر موسيقية فارسية وتركية لها دورها فى تشكيله، وهذه العناصر الثلاثة قد انصهرت معا فيما يمكن أن يسمى «موسيقى الحضارة الإسلامية» فى جانبها العربى الشرقى.

وهذا التراث الموسيقى العربى التقليدى راسخ الجذور فى وعى الشعوب العربية التى تناقلته عبر سنوات (بل عبر قرون) عن طريق التواتر الشفوى، إذ إن التدوين الموسيقى لم يكن معروفا فى العصور الحديثة قبل بدايات القرن العشرين. وإن مما يدعو للعجب صمود هذا التراث الموسيقى الشفاهى على الزمن رغم غياب التدوين والتوثيق. كما أن مقطوعات التراث أصبحت غالبا مجهولة الملحن وهو ما يشير إلى أن هذا التراث قد أصبح ملكا مشاعا يجرى توارثه من جيل إلى جيل سمعيا وشفويا. أما كيف تناقلت الأجيال هذا التراث السمعى فإن الموسيقيين الناشئين ظلوا ـ حتى مستهل القرن العشرين ـ يأخذونه بالسماع والذاكرة عن شيوخ الفن، ومنهم كانوا يستمدون معرفتهم بأصول هذا الفن: أسماء وطوابع المقامات الهائلة العدد التى بلغت المائة أو كادت فى البلدان العربية، كما هو مسجل فى الكتاب المرجعى الكبير، كتاب مؤتمر الموسيقى العربية (الصادر فى القاهرة عام ١٩٣٣) (بلغ مجموع المقامات الشرقية ٩٥ مقامًا، منها ٥٢ مستعملة فى مصر وهى مستعملة أيضًا فى سوريا وحلب، وعدد المقامات المستعملة فى العراق وجزيرة العرب ٣٧، وفى المغرب العربى ٢٤)، وحتى هذا التعليم الموسيقى بالسماع والتواتر والشبيه بأساليب التعليم فى العصور الوسطى ـ لم تكن إمكاناته متاحة بسهولة فالمصدر الرئيسى للاستماع كان السهرات الغنائية فى بيوتات الأثرياء والتى كانت تتيح الفرص للناشئين لتكوين صنعتهم الموسيقية، وكان ذلك التعليم يعتمد فى المقام الأول على أريحية المعلم ورغبته فى الإفادة ثم على براعة الدارس وقدرته على التقليد والحفظ ثم الابتكار فيما بعد فى نفس ذلك الإطار الموسيقى التقليدى المستقر.

ومقامات الموسيقى العربية السائدة فى كل أنحاء العالم العربى- (وإن اختلفت أسماؤها)- توفر للملحن ظلالا مرهفة من الأجواء النفسية بفضل «لفتات لحنية» تميز طابع المقام، وهى لفتات لحنية مألوفة للمستمع العادى فهو يتعرف بسهولة على طابع مقام الصبا الشجى، وغيره من المقامات التى ترتبط فى أذهان المستمعين بلفتات لحنية مميزة، توحى بأجواء نفسية خاصة.

ومعروف أن هناك عددا من المقامات العربية يتكون من «البعد الكامل» (تون) و«نصف البعد» فقط، ولكن هناك عددا كبيرا آخر من المقامات العربية يتألف من هذين النوعين مع نوع ثالث هو «البعد الوسيط»، أى ما يعرف تجاوزًا بثلاثة أرباع الصوت وهو الذى يفرق بجلاء تام بين موسيقى الغرب والموسيقى «العربية» التى تتميز به. والعنصر الثانى الرئيسى فى الموسيقى العربية التقليدية هو الإيقاع، وهو كذلك يختلف عن الإيقاعات الغربية التى ظلت تعتمد على «الكم» التكرارى (ولم تتحرر من هذا الإيقاع الكمى الرتيب إلا فى القرن العشرين). أما الضروب الإيقاعية فى الموسيقى العربية فتعتمد أساسا على «الكيف»، كما أنها غالبا أحادية (عرجاء) ومنها ضروب بالغة الطول وتتراوح بين نبر قوى (دُمْ) ونبر ضعيف (تَكْ) وسكتات. فالموسيقى العربية إذن ذات عنصرين فقط (وليس ثلاثة كالموسيقى الغَرْبية).

وحصيلة الموسيقى العربية التقليدية ـ غنائية وعزفية ـ تتراوح إما بين تلحين «محدد الإيقاع»، كما فى الموشحات والطقاطيق والأدوار «الغنائية»، أو البشارف (جمع «بيشرو») وهى كلمة فارسية والسماعيات «المعزوفة ـ أو بين تلحين منساب «حر الإيقاع» (كما فى الموال والليالى والعتابا وما إليها فى الغناء، أو التقاسيم فى العزف).

وكانت فرق الموسيقى العربية التقليدية فى مطلع القرن «التخت» محدودة العدد فى آلاتها وهى العود والقانون والناى والكمان (بتسوية شرقية خاصة للكمان الغربى) مع آلة لضبط الإيقاع، وهذا التكوين المحدود هو الذى أضفى عليها بعض طابعها الحميم المرهف.

وقد نشأ أغلب المطربين والملحنين فى أوائل القرن فى كنف الترتيل القرآنى والتواشيح الدينية والابتهالات التى ظلت المنبع الأصيل والحصين الذى حفظ للموسيقى العربية هويتها ومقاماتها. ومن هذا الأساس التقليدى الراسخ ينطلقون بعد أن يتمرسوا بقوام صنعتهم، ثم يجتهد كل منهم ليبتكر بعد ذلك على نفس النسق التقليدى، بعد أن يدخل عليه ما تواتيه به موهبته وفنه من الابتكار اللحنى، أو يتوسع فيه مثلما فعل سيد درويش ـ فى أوبريتاته الستة والعشرين ـ والتى وفق فيها لبث شىء من الحيوية المقامية والإيقاعية والتعبيرية لتفى بمتطلبات العرض المسرحى، مع التزامه بالتعامل بنفس العنصرين الرئيسيين للتراث الموسيقى (اللحن والإيقاع). وظل «الغناء» الفن الموسيقى الوحيد الذى تعشقه الشعوب العربيه المحبة للشعر وللكلمة، وكان العزف ممهدًا ومكملاً له.

واحتفظ هذا التراث الموسيقى الفنى ـ بمكان الصَدارة فى المجتمعات العربيه بلا منافس، لأن الفنون الشعبية لم تكن موضع اهتمام، رغم دور الأغانى الشعبية فى الحفاظ على هوية كل قطر ـ فهى وسيلة للتواصل تحافظ على اللهجات ـ لغة وموسيقى ـ وعلى العادات والتقاليد والمناسبات الاجتماعية، كما تواكب دورة الحياة من الميلاد للموت.

ولم تنل الموسيقى الشعبية الاهتمام الجديرة به إلا بعد أن تهيأت لذلك ظروف وأحداث كبيرة كان أولها وأعمقها أثرا مؤتمر الموسيقى العربية.

المؤتمر الدولى لبحث أمور الموسيقى العربية،

كان انعقاد ذلك المؤتمر «الدولى فى مارس ١٩٣٢ حدثًا تاريخيًا بكل المقاييس (وكان د. محمود الحفنى سكرتيره العام) لأنه كان نقطة تحول حقيقية من الممارسة السماعية إلى محاولة الدراسة والتخطيط للمستقبل والتصدى للمشاكل المعقدة المحيطة بالنمو فى المستقبل، واشترك فى ذلك المؤتمر عدد كبير من أكبر الشخصيات الموسيقية فى الشرق والغرب ومُثلت فيه كل التخصصات العلمية من المؤرخين الموسيقيين وعلماء موسيقات الشعوب والمبدعين والمنظِّرين من الشرق والغرب ـ وقامت لجانه السبعة بتقصى أمور الموسيقى العربية فى لجان هى: شئونها العامة ـ والمقامات والإيقاع (الأوزان) والتأليف (التلحين) ـ و«السلم الموسيقى» وهو فى صلب قضايا الموسيقى فكانت مهمة لجنة السلم «بحث مقادير الأبعاد السبعة (وانقسامها لأربعة وعشرين ربعًا) وتسهيل تسمية الأصوات والتوصل لأفضل طريقة لتدوين الموسيقى العربية» ـ ثم الآلات الموسيقية- وقامت لجنة «التسجيل» فيه بانتخاب أهم الموسيقات التراثية الفنية التى قدمتها الفرق الموسيقية المشاركة فيه من أنحاء العالم العربى، كما اهتمت للمرة الأولى بجمع «الموسيقى الريفية» الشعبية (بتعبير بارتوك)، بينما كرست «لجنة التعليم» أبحاثها للنظر فى أوضاعه وفى المعاهد والمناهج ووسائل إعداد المعلمين المؤهلين ـ أما اللجنة السابعة فكانت لجنة تاريخ الموسيقى والمخطوطات.

وبذلك المؤتمر بدأت خطوة حاسمة فى خروج الموسيقى العربية من إطار فكر العصور الوسطى إلى أعتاب القرن العشرين وإلى آفاق العلم والدرس والتخطيط، كما أنه ترك ذخرا ضخما من التسجيلات الموسيقية النقية للتراث التقليدى فى المشرق والمغرب قبل أن تمتد إليه عوامل التغيير، والمؤثرات الوافدة ونعرض فيما يلى لبعض من أهم التطورات التى أعقبت المؤتمر.

هذه الدراسة جزء من بحث طويل عن «حصاد الموسيقى فى القرن العشرين» ستنشره مؤسسة عبد الحميد شومان فى الأردن قريبًا.

الموسيقى تقوم بدورها في تكوين الطفل:

تزامن المؤتمر تقريبا مع نقطة تحول جذرية في أمور الموسيقى في البلاد العربية حين دخلت الموسيقى - أو على الأصح التربية الموسيقية - إلى رياض الأطفال لتسهم في إثراء وجدان الطفل وتكامل شخصيته ولتوفر له السعادة في مرحلة فطامه عن جو الأسرة، ولكي تهيئ الطفل لحسن تقبل الموسيقى والتمتع بها في المستقبل. ولم تكن هناك دراسات منظمة لتخريج معلمات الموسيقى واستعاض د. محمود الحفني عن ذلك في مصر بأصحاب الخبرة وبالتدريبات، إلى أن أنشئ في مصر معهد عال للبنات لتكوين مدرسات تربويات لتولى تعليم الموسيقى في مدارس الأطفال والمراحل التالية.

وبافتتاح ذلك المعهد تحولت دراسات الموسيقى من التعليم التلقيني بالتواتر السمعي، إلى مناهج ومقررات منظمة، جمعت بين عزف آلة غربية (هي البيانو كآلة للتربية الموسيقية) وآلة شرقية هي العود (للحفاظ على التقاليد الموسيقية المتوارثة) بالإضافة إلى عدد كبير من نظريات وعلوم الموسيقى والتربية وعلم النفس، وهي دراسة تمنح فيها شهادة عالية، في سابقة تاريخية ولكنها خلقت عددا من المشاكل التقنية، فعند تدريس هذه المقررات المزدوجة برزت قضية كيفية تدريس قواعد الموسيقى العربية بأساليب منهجية واضحة، بعيدا عن الحكم بالأذن والمزاج الشخصي اللذين ظلا حتى قبل مؤتمر سنة ١٩٣٢ معايير لتحديد البعد الوسيط (ثلاثة الأرباع المميز). وتمخضت هذه المشكلة عن اعتماد الأربعة وعشرين ربعا داخل الديوان الموسيقى كأبعاد متساوية القيمة، واستخدامها في التعليم وفي العزف، وإعداد كتب تعليمية تدون فيها الموسيقى العربية وقواعدها ومقطوعات تراثها بالنوتة الموسيقية، وإن ظل التدوين الموسيقى لهذا التراث مجرد هيكل عام بعيد عن الدقة المعروفة في التدوين الغربي، وذلك لطبيعة الدور الإيجابي الابتكاري المتجدد للمؤدي في الموسيقى العربية. وبهذا الحل التوفيقي (من توحيد قيمة أرباع الأصوات داخل الديوان) أمكن الجمع في ذلك التدوين «الهيكلي» لمقطوعات التراث بين فرصة التجدد الأساسية للتراث الشرقي، وبين شيء من دقة التدوين الموسيقى الغربي. وككل الحلول التوفيقية أدى هذا الحل فيما بعد إلى التضحية بما اعتبره المحافظون «النقاء المثالي» لأبعاد المقامات، كما ضحى التدوين نفسه بشيء غير قليل من حرية وابتكار المؤدى وخاصة في العزف الجمعي في الفرق والذي كان من السمات الأصيلة للموسيقى العربية وهو حل توفيقي مشابه لما سبق أن تبنته الموسيقى الأوروبية في النصف الأول من القرن الثامن عشر.



في مواجهة العصر

وسائل الاتصال الجماهيرى الغربية تأتى إلى الشرق :

من أهم سمات القرن العشرين سقوط حواجز الزمن والمسافات وتقارب أركان الأرض وسرعة انتقال وانتشار الاختراعات العلمية الجديدة فى أنحاء العالم. وعندما دخلت وسائل الاتصال الجماهيرى والنقل الميكانيكى للموسيقى إلى المنطقة العربية تغيرت أوضاع الموسيقى العربية تغيرات كبيرة، وذلك عن طريق الأسطوانات والراديو (والكاسيت وشريط التسجيل) والسينما والتليفزيون (والفيديو) وتوابعها، وصولا إلى الحاسب الآلى بآثاره على تدوين وتسجيل وسماع الموسيقى، إلى آخر هذه السلسلة المثيرة والمتعاقبة الحلقات بسرعة لاهثة.

قدمت شركات الأسطوانات الأوروبية للبلاد العربية منذ مطلع القرن العشرين، منذ حوالى ١٩٠٤ جاءت لمصر شركات جرامافون وبوليفون وأوديون وباثيه وغيرها، ثم امتد نشاطها لسوريا ولبنان والعراق، ووجدت لها سوقا رائجة فى تلك البلاد بأسطواناتها المعدنية الأسطوانية Cylinder (الكبابه)، ولم تلبث شركات محلية أن دخلت حلبة المنافسة (مثل «سمع الملوك» و«بيضافون» وهى التى حققت نجاحًا عريضًا). ومن أهم ما حفظته تلك الأسطوانات المبكرة تسجيلات لكبار فنانى الموسيقى العربية التقليدية فى عصر من أزهى عصورها مثل : عبده الحامولى وزملائه وهى التى أعيد تسجيلها على المرحلة الأكثر تقدما وهى الأسطوانات ذات ٧٨ لفة، والملاحظ أن جل اهتمام شركات الأسطوانات انصب فى أول الأمر على الموسيقى العربية التقليدية الفنية وحدها وأبرز أعلامها، ولولا هذه الأسطوانات المبكرة لأسدل الستار على فصل وعصر أصيل وقيم من تاريخ الموسيقى العربية ولاقتصر الأمر على تداول الأخبار الأدبية عنه دون أى توثيق مسموع!

غير أن التيارات الاجتماعية سرعان ما جرفت شركات الأسطوانات قرب العشرينيات (فى مصر على الأقل) فى اتجاه الأغانى المكشوفة المبتذلة والتى اتخذت الحكومة منها موقفا بفرض رقابة (أخلاقية) عليها، ولهذا يظن البعض أنه ربما كانت لتلك الشركات للأسطوانات أهداف سياسية خفية تسعى لتثبيط الهمم وصرف الجمهور عن شئون المجتمع الجادة، ومسايرة لمزاج اجتماعى ساد تلك الفترة وارتبط بنظرة دونية للموسيقى والغناء وأهدافهما ومع ذلك فالجانب الإيجابى للأسطوانات لا يمكن إنكاره...

فالموسيقى العربية التراثية مدينة لتلك الأسطوانات المبكرة (رغم رداءة المستوى الصوتى) بفضل حفظها التوثيقى المسموع والنادر لصورة أقرب ما تكون من النقاء للتراث الموسيقى وكبار فنانيه فى فترة زمنية مواتية وقبل أن تنهال عليه عوارض التحريف والتشويه فى العقود التالية.

ولم يكن بدء الإرسال الإذاعى بأقل أهمية بل كان مجالا لتطورات موسيقية بعيدة نذكر منها التخلى التدريجى عن الطابع البطئ فى سهرات الغناء المنزلية والتى كانت تستطيل بالتكرار والمد إلى ساعات ـ ومنها الالتزام بفترات زمنية محددة للغناء والموسيقى تحكمها «خريطة» البرامج، ومنها انفتاح الباب على مصراعيه لتقديم كبار فنانى الغناء والأصوات الجديدة واختيار النصوص وإسنادها للملحنين، ثم تكوين الفرق الموسيقية لمحطات الإذاعة. وإن جاءت غالبا بتكوينات أكبر عددا من «التخت» القديم، حيث أضيفت لها أعداد من الآلات الغربية الوترية (بغير هدف موسيقى محدد لأنها جميعا تعزف نفس الخط اللحنى المفرد، اللهم إلا إذا كان ذلك بهدف التقليد !).

وبرز للضوء، على استحياء قدر من الغناء الشعبى، ولو بصور محدودة الأصالة وفى برامج قصيرة متباعدة فى أول الأمر، وبذلك أسهمت الإذاعات بغرس بوادر الوعى بالغناء الشعبى.

وعندما اندثر المسرح الغنائى (بعد سيد درويش فى مصر) قدمت الإذاعة بديلا محدودا عنه هو «الصور الغنائية الدرامية» فى محاولة للربط بين فنون المسرح والغناء، فى محاكاة لما أنجزه سيد درويش (وغيره) من التعبير الموسيقى عن معانى الكلمات وأجواء المشاهد المسرحية، دون الخروج عن حدود اللغة الموسيقية التراثية بعنصريها، وإن لم تحقق تلك الصور نجاحًا يستحق الذكر.

وعُرفت الحفلات الغنائية العامة التى تواجه فيها المطربة (أو المطرب) الجماهير لأول مرة كما فى حفلات أم كلثوم الشهرية فى مصر والتى نظمتها لها الإذاعة فى البداية ـ وكان لتلك الحفلات العامة آثار إيجابية كبيرة على أساليب التلحين والأداء الغنائى ومستوى اختيار النصوص (بما فيها القصائد الرصينة) كما أثرت على أسلوب الاستماع وعلى مكانة الموسيقى فى المجتمع.

وكان بزوغ فن السينما من أخطر المؤثرات الخارجية على الموسيقى، وعندما أنشأ طلعت حرب استديو مصر للسينما فى القاهرة أسهم بشكل غير مباشر فى وضع أساس لتطورات موسيقية جديدة إذ سمعت الجماهير الموسيقى التصويرية للأفلام، والتى بدأت بتجميع شذرات من الموسيقى الكلاسيكية الغربية، ولم يمض وقت طويل قبل أن يحاول بعض الموسيقيين المحليين، بخبرات محدودة فى التأليف الموسيقى حصلوها محليا ـ حاولوا أن يكتبوا موسيقات تصويرية مبتكرة للسينما وكان هذا إيذانًا بفتح مجال جديد للغة موسيقية محلية، لا تقتصر على اللحن والإيقاع وحدهما، بل تدخلها أفانين (ولو مبسطة) من تعدد التصويت (البوليفونى) والتلوين الأوركسترالى، ولقيت موسيقاهم التصويرية قبولا عند الجماهير العربية.

غير أن التأثير الإيجابى الخارجى المباشر على التلحين الغنائى جاء فى أواسط القرن مرتبطا بفن السينما، إذ أقبل المخرجون على مشاهير نجوم الغناء ليقدموهم فى أفلام صممت خصيصا لكى تبرز قدراتهم الغنائية (أما قدراتهم التمثيلية فكانت عادة محدودة) ـ ونجحت السينما بذلك فى اجتذاب جمهور الغناء العريض لأفلامها الغنائية التى حوّلت دفة التلحين الغنائى نحو مزيد من التحرر اللحنى والإيقاعى والتعبير العاطفى والتركيز الزمنى لطول الأغانى (حتى لا يتوقف التيار الدرامى)، مع مزيد من التأنق والتوسع فى التلوين الآلى حيث أضيفت للفرق العربية «ألوان» صوتية غريبة عليها وعلى الإطار الشرقى التقليدى، مثل آلات النفخ النحاسية الأوركسترالية أحيانا وآلات الأكورديون والكاستانيت من آلات الموسيقى الغربية الراقصة (كما فى «رومبا» جفنه علم الغزل). وبدا واضحا فى تلك الفترة أن الموسيقى العربية تتجه نحو مجالات جديدة بعضها قيِّم يمكن أن يزيدها ثراء والبعض الآخر يبدو وكأنه ينحدر بها إلى ما يقرب من جو موسيقى «الملاهى» الغربية! وفى إطار وسط بين الاثنين قدم «الرَحْبَانية» فى لبنان تطويرا دخلته بعض الهارمونية الغربية والآلات الأوركسترالية وأضفى عليه صوت فيروز صفاء وتأثيرا، وخاصة فى صرختهم البليغة للقدس والتى مازالت أبلغ ما سمع فى هذا المجال (ومع ذلك فإن بعض النقاد الغربيين يرون فى أسلوب هذا المزج بين اللغتين نوعًا من التهجين).

نظرة عامة على الموسيقى العربية عند منتصف القرن :

انتهت حالة الاستقرار والهدوء التى أقبلت بها الموسيقى العربية على القرن العشرين فقد تعرضت عند منتصفه لتحديات كبيرة، لم تكن بطبيعة الحال منعزلة عن تطورات اجتماعية وثقافية شاملة، ومن المفيد أن نوجزها هنا قبل أن نمضى لتناول التحولات الأعمق فى النصف الثانى من القرن :

جاء التعليم المنهجى المدرسى للموسيقى بديلا عن التناقل بالتواتر الشفوى، وجلب معه أساليب فى التدوين وحلولا توفيقية تتصل بالأبعاد الربعية المميزة للطابع الشرقى العربى (السلم المعدل التسوية لأربعة وعشرين ربعًا) ـ ومزجت معاهد التعليم بين آلات غربية تتطلبها التربية الموسيقية وبين آلات عربية موروثة، وانحسر التخت والوصلة الغنائية الطويلة حتى اختفيا قرب الستينيات وما بعدها). وذبلت البدايات المبشرة للمسرح الغنائى، وربما قدمت السينما ـ بأوضاعها وتلحيناتها المتحررة وإطارها الفنى الجديد لأفلامها الغنائية ـ بديلا محببا أغنى عنه. وانتقل الغناء إلى قاعات الحفلات وتخلص من طابع الرتابة والتكرار القديم وقدم الراديو وشريط التسجيل والكاسيت بدائل عملية للاستماع الموسيقى الحى وتصاعدت تلك الاتجاهات بقدوم التليفزيون الذى اقتحم ببرامجه وأفلامه الغربية وأغانيه الجديدة عقر دار الأسر العربية وكاد يعفيها من مسئولية اختيار وسائل الترفيه الفنى والاستماع الموسيقى ! وإذا كنا قد أشرنا قبلا إلى زَخْم المؤثرات الخارجية، والغربية بصفة خاصة ـ وآثارها على الموسيقى العربية فى النصف الأول ـ فإننا فى النصف الثانى منه إزاء اجتياح حقيقى قلب معايير الفكر الموسيقى وأطاح بالقدر الأكبر من نقاء و«أصالة» التراث الموسيقى العربى.

الأصالة والمعاصرة :

كان طبيعيا أن تقع المجتمعات العربية فى حيرة حقيقية من جراء ما تعرضت له من تغيرات كبيرة وما طرأ عليها من مؤثرات وافدة متزايدة كانت لها تأثيرات عميقة على الممارسة الموسيقية وأماكنها وتمويلها وتنظيمها، أما المضمون الموسيقى نفسه فقد أشرنا قبلا إلى التحولات الكبيرة التى مسته فى الصميم.

ويستطيع المتأمل لشئون الموسيقى أن يستشعر انقسامات ـ وصلت إلى حد الفصام ـ فى صفوف الموسيقيين والمثقفين (من المتلقين لهذا الفن) فى مواجهتهم لرياح التغيير العاتية ـ فهناك طائفة تمسكت بتزمت بحَرْفية التراث الموسيقى القديم، رافضة لسنة الحياة فى النمو والتجدد وخارج هذا التيار «السلفى» انقسم الموسيقيون والملحنون أنفسهم إلى فريقين : أحدهما يسعى لتوسيع إطار الموسيقى العربية «وتطويرها من الداخل» والثانى يسعى لتطويرها وتجديدها بعناصر مجلوبة ومستعارة من «الخارج». ووفق الفريق الأول للتطوير من الداخل بنفس المواد الموسيقية الموروثة وهى اللحن المفرد والإيقاع، ووسّعوا أُطُر تلحينهم وابتكروا أنماطا اتسمت بقدر ملموس من الثراء والتجدد مع تمسكهم بلغة الموسيقى الموروثة. والمع ممثلى هذا الفريق هم القصبجى وزكريا أحمد والسنباطى وصدقى والشريف ونظراؤهم فى البلاد العربية، وهم الذين أبدعوا أعمالا غنائية رفيعة المستوى وأصبح بعضها من كلاسيكيات الغناء العربى، وعاون صوت أم كلثوم وفنها الأدائى المتفرد على الحفاظ على غناء عربى فيه تجديد ورصانة ومسايرة للعصر، أما الفريق الثانى فيمثله الموسيقار الشهير محمد عبد الوهاب ومدرسته

كان بزوغ فن السينما من أخطر المؤثرات الخارجية على الموسيقى، وعندما أنشأ طلعت حرب استديو مصر للسينما فى القاهرة أسهم بشكل غير مباشر فى وضع أساس لتطورات موسيقية جديدة

ممن سعوا التجديد الموسيقى العربية «من الخارج» بالاستعارة والاقتباس من الموسيقى الغربية والإكثار من مقاميها (الكبير والصغير) على حساب المقامات العربية، وبإدخال آلات أوركسترالية غربية على الفرق ثم الاستعانة بموسيقى أجنبى (arranger) فى عملية «التوزيع»، كما تباعدت المسافة بين ألحان ومعانى الكلمات فى حالات كثيرة عنده - وهكذا قفز هذا الفريق فوق الحواجز فى سياق هذا النوع من التجديد من الخارج، وابتعد بتراث الموسيقى العربية عن قدر من سماته الأصيلة، دون أن يوفق لابتكار منظومة متسقة للتجديد الصحى الرشيد للتراث. وقد فرضت معضلة الأصالة والمعاصرة نفسها على الحياة الثقافية كلها ولكنها كانت أكثر حدة فى الموسيقى، وفى اعتقادنا أن تيار «التجديد من الداخل» كان تيارا صحيا استطاع أن يساير تلك المرحلة من التطور، أما تيار «التجديد من الخارج»، فقد اتسم بالانبهار بالغرب مع ضعف التمكن من فنون الغرب، ولذلك لم يتوصل لحلول حقيقية للتجديد والمعاصرة تحمى الموسيقى العربية من «التهجين» وتحفظ لها هويتها. وجدير بالذكر أن الفريقين المشار إليهما كانت تجديداتهما محدودة ومنصبة على الغناء وحده؛ إذ اتسمت محاولاتهم الضئيلة لخلق موسيقى للآلات (أى ليس للغناء) بالسذاجة والزخرفية.

قضايا النقل عن الحضارة الغربية:

وجدير بالذكر هنا أن الأخذ عن الحضارة الغربية ممكن بل ومطلوب فى مجالات العلوم والتكنولوجيا لأنها قائمة على ثوابت عقلية (ومع ذلك فإن أساليب التناول البحثى والتطبيقى فى تلك المجالات تختلف من بيئة لأخرى) كما أن الأخذ أو النقل قليل الجدوى إذا لم يستطع الناقل تطويع ما ينقله لظروف بيئته، أما النقل عن حضارة الغرب فى مجال الإنسانيات، وخاصة الفنون اللصيقة بالوجدان، فهو غير ممكن بل يتعذر إذ لا يتأتى إخضاع الوجدان لعناصر مستجلبة من حضارات أخرى بغير تفاعل حيوى وصحى معها.

وقد يثار أن هناك فنونا جديدة مثل الفنون التشكيلية والمسرح كان تقبلها فى المجتمعات العربية أيسر، رغم أنها فنون مستحدثة وليست من موروثات الحضارة العربية، وقد تم تطويعها عبر السنين، بشكل أو بآخر، لقيم الحضارة العربية ورؤى مجتمعاتها وقضاياها. ولعل تقبل العرب لهذه الفنون كان أيسر لأنها لم تكن مستندة إلى مَرْجِعِيَّة عربية موروثة تقاس عليها، ولذلك انفتحت أمامها فرص النمو والتأقلم مع فكر وتطلعات العالم العربى المعاصر دون أن تعانى من الصراع والانقسام الذى عانت منه الموسيقى ولا تزال. وقد زاد من حدة ذلك الصراع، غياب النظرة العقلانية الناقدة وضعف التناول العلمى للتراث، واستمرار تناوله بنظرة عاطفية وحسية ساذجة.

حركات التحرر وبزوغ الوعى القومى:

كان القرن العشرون مسرحًا لحركات ثورية وتحررية واسعة فى أنحاء العالم العربى ليخلِّص نفسه من السيطرة السياسية والاقتصادية للاستعمار الغربى، وفى نفس الوقت اتجه العالم العربى كله للأخذ بأسباب العلم والتكنولوجيا والثقافة الغربية من أجل تحديث المجتمعات العربية والنهوض بها لتلاحق ركب التقدم. وقد كان هذا الموقف المتناقض كفيلا بخلق مزيد من الحيرة لولا التنبه إلى أن الوعى القومى والاعتداد بالهوية هما طوق الأمان الذى يمكن أن ينقذ العرب من الوقوع الكامل فى إسار التبعية الثقافية واستِلاب الهوية.

المأثورات الشعبية وتحقيق التوازن:

المأثورات الشعبية كما هو معروف، هى درع التواصل بين الأجيال والسجل الصادق المتجدد لإبداع الإنسان وثقافته وخلاصة حكمته وخبراته الفنية والجمالية، وقيمه وعاداته وتفاعله مع ما يحيط به من ظواهر مادية ومعنوية توارثها عبر الأجيال، فهى «السيرة الذاتية للمجتمع» (أحمد أبو زيد).

وقد ظهرت حركة الاهتمام بالمأثورات الشعبية مرتبطة بحركات التحرر، فرأينا البلاد العربية تولى اهتماما كبيرا - منذ الخمسينيات - لجمع المأثورات الشعبية بشتى صورها الفنية والحياتية وتهتم بتسجيلها وتصنيفها وتحليلها وتدوينها ودراستها علميا لتكون ركيزة روحية باقية، ومادة بين يدى الباحثين، ثم فى مرحلة أعلى لتكون متاحة لاستلهام المبدعين على اختلاف فنونهم ممن يتطلعون للتوصل لخلق تعبير فنى أصيل ومبتكر، دال على الوطن الذى نبع منه ليسمع صوته خارج حدوده الضيقة.

وجاءت بداية إنشاء مراكز الفنون الشعبية فى الكويت (١٩٥٥) «فى لجنة الفنون الشعبية» «ضمن جمعية الفنانين»، وهى التى تحولت بعد ذلك إلى «مركز رعاية الفنون الشعبية»، وبعد عامين أنشئ مركز الفنون الشعبية فى القاهرة، ثم أنشئ «مركز التراث الشعبى» التابع لمجلس التعاون لدول الخليج العربى، وغيرها. وأصدرت هذه المراكز دوريات ومطبوعات علمية عن المأثورات الشعبية العربية، امتد إشعاعها للغرب ليطلع لأول مرة على هذا الجانب القيم من التراث العربى، وواكبت هذه الصحوة حركة تكوين فرق الرقص الشعبى (فرقة رضا فى مصر وفرقة السماح فى سوريا ولبنان) مستفيدة بتجارب بعض الدول الغربية. وجاءت بعد ذلك مرحلة إنشاء معاهد عليا فى مصر للدراسة الأكاديمية للمتخصصين فى المأثورات الشعبية (فى أكاديمية الفنون فى مصر) وهكذا بدأت حركة جادة رشيدة لتأكيد الهوية الثقافية مستندة إلى عمل علمى قادر على دعم النمو وترشيده فى فترة حرجة اتسمت بالتناقض والفصام (وبانحسار التراث التقليدى للموسيقى العربية فى بعض بلاد المنطقة). وهذا ما دفع ببعض وزارات الثقافة للتصدى لمواجهته بإنشاء فرق (رسمية) لإحياء التراث الموسيقى العربى مثل فرقة الموسيقى العربية التى قادها عبد الحليم نويرة فى مصر منذ أواخر الستينيات، وما تبعها من فرق مشابهة ومن فرق «للمألوف» وما إليه - وإن كان لابد من الإشارة إلى أن التراث التقليدى الموسيقى فى المغرب العربى كان أكثر رسوخا ولم يتعرض لذلك الانحسار الواضح.

بين التراث التقليدى والمأثورات الشعبية:

وقد أشرنا قبلا إلى بعض التوسعات والتجاوزات التى ظهرت فى التطبيق العملى لإحياء التراث الموسيقى التقليدى وهى التجاوزات التى ابتعدت ببعض تلك الفرق عن نقاء وأصالة التراث واتجهت بها نحو الخلط بينه وبين «الحديث» العابر من أغانى الاستهلاك اليومى، وإلى تقديمه بطرق محدثة وبآلات وأساليب أداء تقترب من التحريف والسخرية أكثر منها للإحياء.

وفى هذه الاتجاهات المتضاربة التى أحاطت التراث الموسيقى التقليدى فى أواخر القرن بالبلبلة والتحريف أخذ الاهتمام يشتد بالمأثورات الشعبية منذ منتصف القرن فارتفعت مكانتها فى المجتمع ورسخت حتى أصبحت تضارع مكانة التراث الموسيقى التقليدى بل تفوقها أحيانا، لأن الفنون الشعبية تتمتع بتواصل حيوى قوى وبقدر كبير من المرونة وفر لها النمو جيلا بعد جيل، والثبات فى آن واحد، وهى صفات لم تعد تتوافر للتراث الموسيقى التقليدى، والذى ظل يعيش فى دائرة شبه مغلقة من المحافظة الجامدة، حيث اعتبره معتنقوه المعيار الوحيد والدائم لكل فن موسيقى عربى فى أى عصر وفى كل عصر! لذلك ظهرت فرق للآلات الشعبية مثل فرقة متقال للربابة لإحياء تقاليد كل قطر، وفرق للرقص الشعبى فى أنحاء شتى وقد عاونت على تأكيد الوعى بالمأثورات الشعبية كما قربتها للجماهير العريضة، سواء بأساليب أصيلة أو دخلها بعض التفنن (Stylized) وهكذا أصبح «التراث الموسيقى العربى» مكونا من شقين: التقليدى والشعبى. وكان للأخير فضل ملحوظ فى إخصاب الحياة الموسيقية إذ عاون على ظهور رافد موسيقى جديد أثرى التعبير الموسيقى العربى الجديد.

«التأليف الموسيقى» العربى المعاصر:

تفاعلت كل عوامل التحرر وبزوغ الوعى القومى والرغبة فى تأكيد الهوية الثقافية والإدراك لقيمة المأثورات الشعبية، فبلورت اتجاها موسيقيا جديدا تماما على الموسيقى العربية وهو «التأليف الموسيقى العربى المعاصر».

ويطلق «التأليف الموسيقى» على كل إبداع موسيقى يعتمد على عناصر اللحن والإيقاع و«التكثيف النغمى» أو تشابك الألحان (بالهارمونية أو الكنترابنط)، فالتأليف الموسيقى بهذا المفهوم الجديد يتعامل بلغة موسيقية ثلاثية الأبعاد (على خلاف التراث التقليدى الذى ابتكر ملحنوه الكبار فى القرنين الماضيين فهو موسيقى أحادية اللحن تعتمد على اللحن والإيقاع) وقد ظهرت بوادر التأليف الموسيقى نتيجة لعوامل موسيقية أخرى منها الاطلاع على روائع الموسيقى الغربية الكلاسيكية (سواء فى الإذاعة - بدأها الدكتور حسين فوزى فى الأربعينيات - أو فى السينما أو فى العروض الموسيقية) وهو ما حفز بعض المبدعين العرب لابتكار لغة موسيقية خاصة تستخدم بعض أفانين التأليف الغربى وبعض أدواته (مثل الأوركسترا) وصيغة (كالسيمفونية أو الكونشرتو)، وبهذه اللغة الموسيقية أخذوا يبدعون مؤلفات شرقية المضمون والروح، دالة على موطن مبدعها وشخصيته وهويته. وكانت هذه الفئة الصغيرة الرائدة من المؤلفين الموسيقيين العرب تصبو لتملك تقنيات التأليف الموسيقى الغربى لتفيد منها فى كتابة موسيقى عربية جديدة، تلبى احتياجات الإنسان العربى الجديد وتُسمع العالم الخارجى - فى الآن ذاته - صوتا موسيقيا عربيا يتخطى الحواجز الإقليمية. ولكن كيف تم هذا التحول وما هى تلك الاحتياجات الثقافية للإنسان العربى فى القرن العشرين؟

لقد كان من الطبيعى للإنسان العربى - الذى قرأ الآداب الغربية وانفعل بها، واطلع على الفنون التشكيلية والمسرح، ودرس الفلسفة الغربية، وانبهر بمنجزات العلوم الغربية (سواء فى دراسات فى الخارج أو عبر مجالات ثقافية جديدة). كان من الطبيعى أن تتسع آفاق واحتياجات هذا الإنسان العربى الجديد، وأن يتجه الموهوبون فيه لإبداع فنون شعرية



وموسيقية جديدة تتميز بالثراء وتخاطب العقل والقلب معا وتساير العصر.

كانت البلاد العربية قد اطلعت لأول مرة على الموسيقى الغربية ثلاثية الأبعاد فى الموسيقى التصويرية للسينما فى مرحلة الإعداد الموسيقى ثم فى مرحلة بدايات كتابة موسيقات مبتكرة لخدمة العروض السينمائية بواسطة موسيقيين عرب، جاهدوا بوسائل محلية لتحصيل قدر من فنون التأليف الغربى ليكتبوا موسيقات تصويرية للسينما ثم للمسرح، ولاننسى أن إنشاء دار الأوبرا فى قلب قاهرة المعزّ سنة ١٨٦٩ (ليحتفل فيها الخديوى إسماعيل بافتتاح قناة السويس) كان أبرز لقاء مادى مباشر مع الموسيقى الأوروبية، وإن كانت دار أوبرا القاهرة قد ظلت - بعروضها السنوية المنتظمة من الأوبرات الإيطالية (غالبا) - بعيدة عن اهتمامات المواطن العادى وقاصرة على طائفة محدودة من الأجانب والأثرياء، ولم تلعب دورا حقيقيا فى نشر الوعى والتذوق الموسيقى إلا منذ منتصف القرن العشرين مع ثورة سنة ١٩٥٢ (وإن قيل إنها أثرت بشكل غير مباشر على فكر سيد درويش فى أوائل القرن). وعندما تلاقى هذا التيار من معايشة بعض أنواع الموسيقى الغربية الفنية مع تيار الوعى القومى - بما أثمره من اهتمام بالفنون الشعبية - وجد أوائل المؤلفين الموسيقيين العرب مادة خصبة يستوحونها لبث الروح العربية فى مؤلفاتهم المكتوبة بأدوات وبوسائل غربية.

أعلام التأليف الموسيقى العربى (فى صيغ غربية):

وقد كانت لهذا الرافد الموسيقى الجديد إرهاصات مبكرة، إذ ظهر من لبنان مؤلفون عرفهم العالم العربى (واغترب بعضهم) نذكر منهم الرائد وديع صبرا (ت ١٩٥٢) وأنيس فليحان (ولد ١٩٠٠)، وبعدهما بقليل جاء جيل رائد من المؤلفين الموسيقيين فى مصر، من أشهرهم يوسف جريس (١٨٩٩ - ١٩٦١) وأبوبكر خيرت (١٩١٠ - ١٩٦٣) وحسن رشيد (١٨٩٦ - ١٩٦٩) واستمر مدّ الجسور بين العالمين الموسيقيين، الشرقى والغربى، بعد ذلك عَبْر أجيال متعاقبة فانجبت لبنان (بعد رائديها) كوكبة من «المؤلفين» نذكر من أشهرهم توفيق سكر وعبد الغنى شعبان والأب يوسف خورى، وسلفاتور عرنيطه وتوفيق الباشا (ممثل لبنان فى المحافل الدولية والذى سجلت له أعمال فى بلجيكا وغيرها) ووليد غلميه (عميد معهد الكونسرفتوار بها ومؤلف عدد من القصائد والأعمال الأوركسترالية) وبوغوص جلاليان الأرمنى الأصل المقيم فى لبنان.

وقد كان لبعض هؤلاء الفنانين اللبنانيين تجارب هامة فى إبداع موسيقات متشابكة الألحان (بوليفونية) فى المقامات العربية ذات الأرباع (مثل الراست والبياتى) دلت على خصوبة الخيال واتساع الأفق ومنها رباعية وترية فى مقام البيات (توفيق سكر) وفوجة للاوركسترا الوترى (عبد الغنى شعبان) وعدد من مؤلفات توفيق الباشا للكورال والأوركسترا.

وفى مصر ظهر جيل ثان - بعد جيل الرواد - من المؤلفين المبدعين الأكثر رسوخا فى صنعتهم الموسيقية من جيل الرواد، لأن بعضهم تمتعوا بإمكانات فى التعليم (والأكاديمى منه بالذات) لم تكن متاحة قبلا. ونذكر من هؤلاء: عزيز الشوان (١٩١٦ - ١٩٩٣) وجمال عبد الرحيم (١٩٢٤ - ١٩٨٨) ورفعت جرانة (ولد ١٩٢٤) وعواطف عبد الكريم (وعطية شرارة وهناك جيلان من الأجيال الأحدث فى مصر نشير منهم إلى جمال سلامة (١٩٤٥) وأحمد الصعيدى وجهاد داود وراجح داود (١٩٥٩) ومونا غنيم (١٩٥٦) وغيرهم.

ومن فنانى الجيل الرابع فى مصر من المؤلفين الموهوبين والأكاديميين نذكر: خالد شكرى، وشريف محيى وعلى عثمان (سودانى مقيم فى مصر) ومحمد عبد الوهاب عبد الفتاح (الذى وجه اهتمامه للوسائل الإلكترونية وموسيقى شريط التسجيل..إلخ) وعلاء مصطفى، ونادر عباسى (المغترب فى سويسرا) ثم من بعدهم أمير نجيب وأحمد عبد الله وعمرو عقبة ومحمد سعد باشا وغيرهم، ورغم انهم جميعا قد تكونوا موسيقيا فى رحاب قسم التأليف بالكونسرفتوار إلا أن لكل منهم شخصيته الموسيقيه واتجاهه المميز. ومما يذكر أن هناك دراسات للتأليف فى مصر وغيرها فى معاهد موسيقية أخرى الآن.

ومن الظواهر الإيجابية التى تبلورت فى العقود الأخيرة ظهور مبدعين عرب يعبرون عن انفسهم بلغات موسيقية جديدة فى صيغ غربية، وأغلبهم من بلاد لم تطرق هذا المجال إلا مؤخرًا. فمن سوريا عرفنا ضيا السكرى (المغترب فى فرنسا والذى يقوم بالتدريس فى باريس) وصلحى الوادى (عميد معهد دمشق الموسيقى) ووليد حجار وزيدون جبرى وغيرهم، ومن البحرين عرفنا مجيد مرهون وعصام الجودر ومبارك نجم ووحيد الخان، أما المملكة المغربية فقد برز منها المؤلف الكبير أحمد الصياد (من مواليد ١٩٣٨) وهو الذى نالت أعماله حفاوة أوروبية وفرنسية واسعة، وسجلت أوبراته ومؤلفاته على أسطوانات C.D ونالت إحدى أوبراته جائزة دولية، وكذلك مصطفى عايشة رحمانى - ومن الجزائر اطلعت على عدة مدونات أوركسترالية لكل من مرزاق بو جميعة وهارون رشيد ومن العراق فريد الله ويردى ومن الكويت ورشيدة إبراهيم وخالد الديكان وغيرهم.

ولاشك أن هذا التيار الموسيقى العربى الجديد لازال فى مرحلة مبكرة يتعذر الحكم عليها وعلى تطويرها الآن، ولكن أعلام المؤلفين العرب قد حققوا إنجازات فنية مهمة احْتُفِتْ بها بلادهم وكرمتهم عليها بالأوسمة والجوائز كما أثارت بعض إبداعاتهم اهتمام الغرب فأفسحت لهم بعض المصادر الموسيقية (مثل قاموس جروف طبعة سنة ١٩٨٠ أو طبعة سنة ٢٠٠٠) صفحاتها لهم، كما سُجِلَتْ مؤلفاتهم على أسطوانات وأشرطة وأسطوانات ليزر، وكتبت عنهم كتب وأخرجت أفلام وثائقية (مثل جمال عبد الرحيم). ولازلنا ننتظر اليوم الذى ينظم فيه مهرجان للتأليف الموسيقى العربى فى الوطن العربى.

التأليف الموسيقى العربى فى الحياة الموسيقية اليوم:

من الطبيعى أن تحيط بهذا الفن الموسيقى الجديد سحابة من العتامة فهو ليس فنا ترفيهيا ميسور التقبل، ولا هو غنائى مطرب كما تعودت الجماهير التى تنهال عليها الأغانى العاطفية من كل المنافذ ليل نهار، بل هو فن يتطلب تذوقه ثقافة وفكرا شانه شان كل الفنون الرفيعة، ولذلك فهو لا زال حتى الآن يعيش فى شبه عزلة عن الجماهير العريضة اللهم إلا فى إبداعاته من الموسيقات التصويرية للسينما أو المسرح (والتليفزيون مؤخرا) فقد أقبل مخرجو السينما على هؤلاء المؤلفين ليستفيدوا بقدراتهم الفنية الجديدة فى تجسيد التعبير الدرامى والإنسانى فى الأعمال السينمائية أو المسرحية وفى العروض الكبيرة (فى المناسبات القومية وما إليها) أما الجماهير العريضة فإن اتصالها بهذه الفنون الموسيقية الجديدة وبإنجازاتها وفنانيها فلا زال محدودا، ولعل هذا راجع إلى ضآلة المساحة المتاحة للتاليف الموسيقى فى وسائل الإعلام وفى العروض الموسيقية، ولذلك فإن الألفة الضرورية مع هذه الموسيقات الجديدة ليست متاحة ولا هى منظمة وبدونها لن يستطيع الجمهور الاقتراب نفسيا من التاليف الموسيقى، وبغير الألفة فلا أمل فى ازدهار أى فن جديد وغير مالوف.

ورغم هذه الصعوبات التى تعوق الانتشار الواسع للتاليف الموسيقى العربى المعاصر، فإن هذا الرافد الجديد يمضى فى طريقه ببطء ولكن بخطوات مستمرة، وتشهد بذلك الأجيال الصاعدة من المؤلفين فى أنحاء العالم العربى، والذين بدأت فنونهم تجتذب بعض اهتمام العالم الموسيقى الخارجى كما أوضحنا بفضل فنانى الأداء العرب من العازفين والمغنين الذين درسوا فى المعاهد الموسيقية المتخصصة فى بلادهم ثم فى الخارج والذين حققوا نجاحات محلية وخارجية ملحوظة وأصبحوا يحرصون على إدراج «المؤلفات العربية» فى حفلات العزف (وخاصة حفلات الريستال) كما أن بعض الأوركسترات العربية أخذت فى العقد الأخير تلتفت إلى هذا الجانب من الإبداع الموسيقى العربى وتقدمه فى حفلاتها وكذلك الإذاعات الموسيقية المتخصصة (كالبرنامج الموسيقى فى مصر وما إليه). ويكفى أن نشير إلى جهود المؤلفين العرب فى الحفاظ على العناصر القيمة للتراث العربى (التقليدى والشعبى) فى الإيقاعات المركبة العرجاء وفى المقامات العربية، وخاصة ذات الأرباع، والتى تعد من أهم الملامح المميزة لطبيعة هذه الموسيقى والتى اختفت تدريجيا منذ النصف الثانى من القرن فى الأغلبية العظمى من التلحينات أحادية اللحن التى تزخر بها وسائل الإعلام العربية، وحاولا تطوير الموسيقى العربية بإفساح المجال لعناصر غربية (خفيفة وسطحية وراقصة) على حساب المقامات والضروب الإيقاعية. وسندهش إذا لاحظنا أن تلك المقامات والإيقاعات قد بُعِثَتْ للحياة فى كتابات المؤلفين الموسيقيينَ العرب (الذين درسوا فى أوروبا ولكنهم حافظوا على هويتهم الثقافية العربيه ولم ينساقوا وراء تقليد الغرب.

ومن المعاصرين منهم من يستخدمون المقامات العربية «ذات الأرباع» المميزة للطبيعة العربية مثل توفيق الباشا وتوفيق سكر وشعبان من لبنان وجمال عبد الرحيم وجمال سلامة وعلى عثمان ومحمد عبد الوهاب وشريف محيى من مصر.

بانوراما الحياة الموسيقية فى أواخر القرن العشرين:

بعد هذه الجولة الواسعة فى شئون الموسيقى العربية فإن صورة الحياة الموسيقية فى مطلع الألفية الثالثة تستحق وقفة تامل ومحاولة للإِلْمَامْ باطرافها وتقييم لمساراتها.

مضت إلى غير رجعة أماكن أداء الموسيقى التقليدية وممارساتها وآلاتها وفرقها، التى أصابها التضخم غير المبرر (عددا ونوعا) والتكبير المشوش لأصوات آلاتها ومنشديها، وتوارت الرقة الحميمة لتجليات التقاسيم والليالى وما إليها. وأصبحت قاعات الموسيقى العامة المكان الوحيد للأداء الموسيقى العربى التقليدى والذى تخلى عن الكثير من أصالته فى غياب مفاهيم واضحة لمعنى «التراث» واختلطت حفلات التراث (التى اشرنا إلى بعض تجاوزاتها من قبل) بين القديم والعابر الحديث من أغانى



فى إطار وسط بين الاثنين قدم «الرحبانية» فى لبنان تطويرا دخلته بعض الهارمونية الغربية والآلات الأوركسترالية وأضفى عليه صوت فيروز صفاء وتأثيرا، وخاصة فى صرختهم البليغة للقدس والتى لازالت أبلغ ما سمع فى هذا المجال (ومع ذلك فإن بعض النقاد الغربيين يرون فى أسلوب هذا المزج بين اللغتين نوعا من التهجين)

الاستهلاك المحلى السريع الانطفاء، وارتفع شأن «الميكروفون» فى الموسيقى العربية (!!) فأغلب القائمين على غنائها اليوم لا تسمع لهم صوتا بغير الميكروفون الذى يطبقون عليه بقوة لعله يوصل أصواتا ضعيفة ومحدودة لجماهير القاعات الكبيرة وخارج هذه الحفلات الحية اتخذت أجهزة الإعلام المسموع والمرئى بصفة خاصة تغرق الجمهور بسيل جارف بأنواع من الأغانى العجيبة التى برز فيها السينثسايزر (Synthesizer) مخلّق الأصوات الكهربائى) بإيقاعاته المسبقة التسجيل والتى تدق بلا هوادة، مع ألحان مبتسرة تريد أن تكون شرقية أو عاطفية ولكن بلا جدوى...

أما «أغانى الفيديو كليب» التلفزيونية التى تزحم الشاشة بأجسام تتثنى وتتلوى بحركات رقص خالية من الفن، ولا صلة بينها وبين كلمات الغناء، وتزيدها أصوات «الأكورديون» القلقة ترقيصا مبالغا فيه وتُهْدَرُ فيها الطاقات والأموال والفن على السواء، ولكنها تزدهر تحت وطأة الدعاية التجارية الواسعة لتؤكد نُجُوميَّة أصحابها فتجعلها تنتشر كالنار فى الهشيم فى أوساط المستمعين وخاصة الشباب. وهناك ما سمى فى وقت من الأوقات بأغانى «الفرانكوآراب» وهى غنية عن أى تعليق، وما سمى «بالأغانى الشبابية» وإن لم تكن لها ملامح فنية واضحة، فإنها تلبى حاجات نفسية لدى الشباب لعل الفنون الموسيقية الجادة فشلت فى تلبيتها فتركت المجال لهذه الأنواع المُهَجَّنة. وتزخر ساحات الفنادق والملاهى بفرق الشباب العربى التى تعزف موسيقى البوب والروك والجاز بحماس ودقة (كأنهم من مواليد ليفربول، بلد «البيتلز» أو نيوأورليانس موطن «الجاز»!) وعلى صعيد آخر تجد الأذكار والأناشيد الدينية وقد صاحبتها الفرق الموسيقية واختفت منها آيات الخشوع التى صاحبت الأداء الإنشادى البحت بغير مصاحبة من الآلات!

وحتى الموسيقى الشعبية التى حظيت بالاهتمام والدراسة وولدت عروض الرقص وعزف الآلات الشعبية حتى هذه الموسيقى تَسَرَّبت إليها فى المدن عوامل التكلف والإفساد فى أساليب ممارستها وفى صنع آلاتها (كالدربكة المصنوعة من الألومنيوم بدلا من الفخار والرق من البلاستيك بدلا من رق الجلد الطبيعى!) واستعاض الناس فى حفلاتهم وأفراحهم عن الغناء الشعبى التلقائى الأصيل وعن الغناء العربى التقليدى، بفرق «مزيفة الشعبية» فى أفراح الأغنياء فى الفنادق، أو بالكاسيتات والمسجِّلات فى أفراح عامة الناس، وهكذا تنحسر الموسيقى الشعبية والعربية عن واحد من أهم مجالاتها الاجتماعية، أمام الزحف الهائل للمدنية الموسيقية الزائفة... كما ضعفت حركة فرَق الموسيقى النحاسية حتى كادت تتلاشى تماما من الحدائق والميادين.

وعلى الجانب الإيجابى فهناك الحفلات الموسيقية الرفيعة التى تقدمها الأوركسترات السيمفونية العربية (أوركسترا القاهرة السيمفونى من سنة ١٩٥٦ وأوركسترا الأوبرا منذ سنة ١٩٩٤ فى مصر، وأوركسترا سوريا ثم لبنان ثم سلطنة عُمان إلخ) وما يشبهها من أجهزة نشر الثقافة الموسيقية والتى تقدم عروضا موسيقية كلاسيكية غربية فمن حق المستمع أن يتذوقها وإن زاد الاهتمام فى السنوات الأخيرة بالمؤلفات السيمفونية العربية من الكويت والسودان وعمان وسوريا ولبنان ومصر.

وهناك أصوات بارعة فى الغناء الأوبرالى من العرب وفرق للأوبرا جُلّ أعضائها من العرب تقدم عروضا طيبة لأوبرات عالمية وأخرى محلية أحيانا، وتكتظ المسارح وقاعات الموسيقى بحفلات العزف أو الغناء المنفرد (على النسق الغربى) أو عزف المجموعات الصغيرة لموسيقى الحجرة، وقد برز فيها جميعا فى الأعوام الأخيرة ظاهرة صحية من الاهتمام بتقديم المؤلفات العربية فى تلك الحفلات. وهناك عروض للباليه غربية ومحلية وهناك فرق كورال الأطفال والتى تتغنى بأغانى الطفولة المصاغة بتعدد الألحان والتى تضيف للطفل نفسيا وموسيقيا إضافة صحية حقيقية على خلاف بعض فرق «كورال الأطفال» التى تلقن الأطفال ألحانا مفردة (أى ليست كورالية) لأغان غرامية للكبار لا صلة لها مطلقا بعالم الطفل.

ولا نغالى – رغم هذا كله – قد أحصينا الأنواع الموسيقية السائدة فى العالم العربى عددا، فهى متضاربة، ومتلاطمة ومتعارضة...

وإذا اعتبرنا التنوع والتعدد والكم من مقاييس التقدم فإننا نضطر للاعتراف بأن تقدما موسيقيا ضخما قد تحقق خلال القرن، ولكن بتضحيات كبرى... أما إذا حكمنا على الأوضاع السائدة بمقاييس «الكيف» و«التوجه» ودلالاتهما فإننا سنضطر للاعتراف بعوارض من القصور والشطط والتشتت لا تتكافأ مع الجهود والأموال والطاقات المسخرة للموسيقى وهو ما يرجع – فى اعتقادنا – لغياب سياسة رشيدة شاملة لشئون الثقافة العربية عامة والفنون بشكل خاص – سياسة عملية قابلة للتطبيق الموحد (أو القريب من التوحد) توفق بين أصالة التراث وضرورة النمو والتجدد ولكن على أسس راسخة تتسم بالحكمة والتفتح. فالصورة العامة لهذه البانوراما للموسيقى العربية أشبه «ببرج بابل». موسيقى تتكلم فيه كل فئة بلغتها الموسيقية الخاصة حتى داخل البلد الواحد ولابد أن تعمل الحكومات العربية على رسم سياسات ثقافية مستنيرة ومعاصرة لكى تتبلور كل هذه اللغات و الألسن واللهجات الموسيقية فى كيانات جديدة لها هويتها المتميزة المسايرة للعصر والمحافظة فى الوقت نفسه على روح الأصالة، ولابد أن تكون البداية من الطفولة والطفولة أولا على أن تمتد لتشمل كل هيئات التعليم والتثقيف والإعلام، عبر طريق طويل شاق لاغنى عنه. ■

أهم المراجع

- كتاب مؤتمر الموسيقى العربية المنعقد فى القاهرة سنة ١٩٣٢ وزارة المعارف العمومية ١٩٣٣ (بإشراف محمود الحفنى).
- حلقتا بحث الموسيقى العربية سنة ١٩٥٩، ١٩٦٣، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب القاهرة.
- إبراهيم زكى خورشيد: الأغنية الشعبية والمسرح الغنائى (مكتبة الأسرة سنة ٢٠٠٠).
- سمحة الخولى: محمود الحفنى: ذكريات وخواطر ضمن ملف «شخصيات لا تنسى»، مجلة آفاق الموسيقى والأوبرا والباليه، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة سنة ١٩٩٨.
- سمحة الخولى: «مسار الإبداع المصرى المتعدد التصويت فى مصر» مجلة آفاق، العدد الأول سنة ١٩٩٨.

هوامش:

هناك «ظواهر» غنائية شاردة فرضت نفسها على ساحة الموسيقى وانتشرت على نطاق خطير، يثير التساؤل حول الحاجات النفسية والاجتماعية التى تلبيها مثل تلك الأغانى لدى الجماهير (مثل أغانى عدوية وحكيم وشعبان عبد الرحيم وما إليها فى مصر) وهى «ظواهر» تقتضى التوفر على بحثها سوسيولوجيا وموسيقيًا واقتصاديًا لمحاولة التفسير العلمى لظهورها وانتشارها الواسع وما تدره من شهرة ومال على أصحابها ومنهم أميون لا يقرأون ولا يكتبون!!

كتاب الزاوية

رحلة ابن بطوطة

من غزة إلى القدس

سرنا حتى وصلنا إلى مدينة غزة، وهى أول بلاد الشام مما يلى مصر، متسعة الأقطار، كثيرة العمارة، حسنة الأسواق، بها المساجد العديدة، والأسوار عليها.

.. ثم سافرت من غزة إلى مدينة الخليل - صلى الله على نبينا وعليه وسلم تسليما. وهى مدينة صغيرة الساحة، كبيرة المقدار، مشرقة الأنوار، حسنة المنظر، عجيبة المخبر، فى بطن واد. ومسجدها أنيق الصنعة، محكم العمل، بديع الحسن سامى الارتفاع، مبنى بالصخر المنحوت، فى أحد أركانه صخرة أحد أقطارها سبعة وثلاثون شبرًا.

ثم سافرت من هذه المدينة إلى القدس. فزرت فى طريقى إليه تربة يونس عليه السلام، وعليها أبنية كبيرة ومسجد.

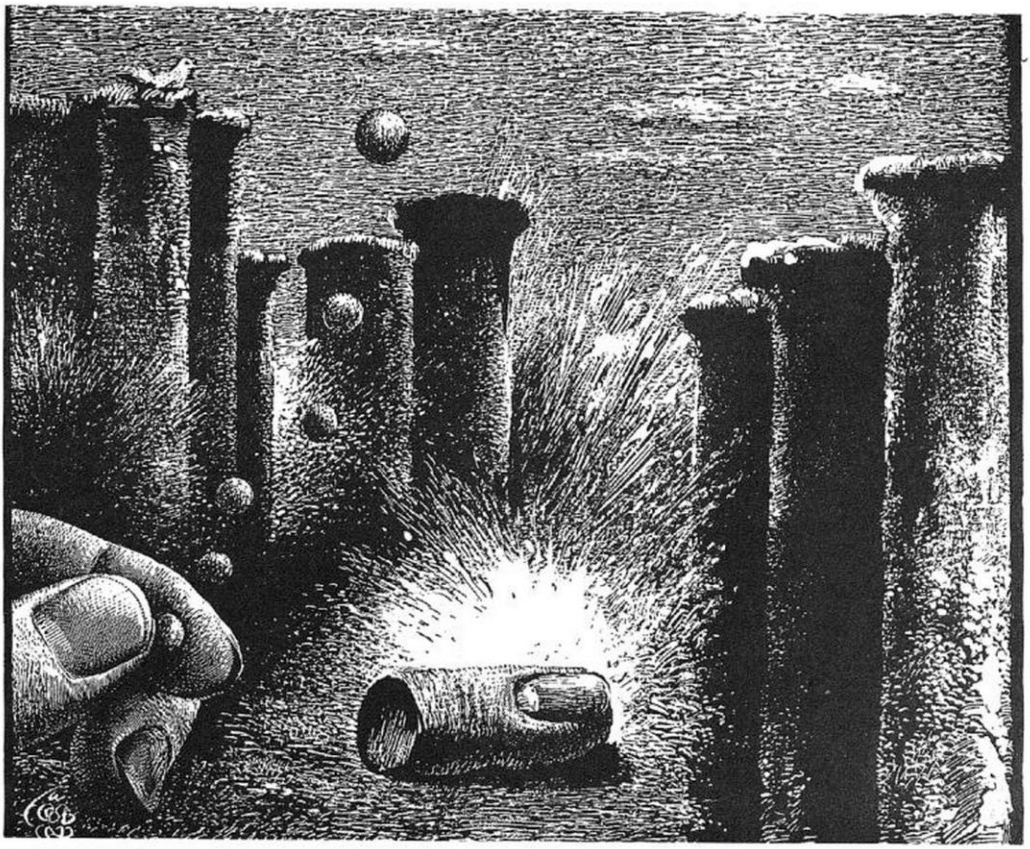
وزرت أيضًا بيت لحم موضع ميلاد عيسى عليه السلام. وبه أثر جذع النخلة. وعليه عمارة كثيرة. والنصارى يعظمونه أشد التعظيم، ويضيفون من نزل به.

ثم وصلنا إلى بيت المقدس شرفه الله، ثالث المسجدين الشريفين فى رتبة الفضل، ومصعد رسول الله - صلى الله عليه وسلم تسليما، ومعرجه إلى السماء. والبلدة كبيرة، منيفة بالصخر المنحوت. وكان الملك الصالح الفاضل صلاح الدين ابن أيوب جزاه الله عن الإسلام خيرًا لما فتح هذه المدينة هدم بعض سورها. ثم استنقض الملك الظاهر هدمه خوفًا أن يقصدها الروم فيتمنعوا بها. ولم يكن بهذه المدينة نهر فيما تقدم، وجلب لها الماء فى هذا العهد الأمير سيف الدين تنكز أمير دمشق. و(المسجد المقدس) هو من المساجد العجيبة الرائقة، الفائقة الحسن.

مدن تاريخية ومواقع مقدسة

سـمير غـريب

كان أحد أهم اهتمامات الحضارات التقليدية تأسيس صلات دائمة بين المرئى وغير المرئى، الكمى والكيفى، الزائل والسرمدى. والغريب أننا نجد المدن التاريخية تعانى أكثر فى المجتمعات ذات التقاليد الدينية القوية!





■■ قبل أن تدمر حركة طالبان الأفغانية تمثالي بوذا العملاقين الأثريين في أفغانستان، بشهرين فقط، أصدر البنك الدولي كتابًا مهمًا من ٤٢٠ صفحة من الحجم الكبير، شارك في كتابته وتحريره عشرات من الخبراء والكتاب منهم عدد من المسلمين والعرب. الكتاب كله مخصص للتحذير من المخاطر التي يتعرض لها التراث الإنساني.. أي الأماكن المقدسة والمدن التاريخية.. أي التراث المشيد. وشرح بالتفصيل هذه المخاطر، ومنها الحروب، والكوارث الطبيعية، غير عوامل الطبيعة والإهمال.. إلخ. لكن لم يتناول أحد في هذا الكتاب البحثي المسحي الضخم احتمال خطر التعصب الأعمى والجهل بالدين والأمية الفكرية، وهي الأسباب الصريحة التي دعت حركة طالبان إلى تدمير التمثالين، والتي دعت بدورها هنودًا لإحراق المصحف الشريف وتدمير أحد المساجد الأثرية، وهكذا يمكن أن يجر هؤلاء الجهلة البعض إلى حروب دينية جديدة في بداية القرن الواحد والعشرين.

لم يتناول أحد في كتاب البنك الدولي احتمال التعصب والجهل بالدين، لأنه على ما أعتقد لم يدر بخلد أحد من المشاركين في الكتاب. وكان يجب أن يتمتع أحدهم بقراءة جيدة لأحوال العالم المختلفة، لكي يتوقع مثل هذا الاحتمال، وبخاصة أنه سبق إحراق مساجد وكنائس من قبل متطرفين دينيين.

عنوان الكتاب هو «مدن تاريخية ومواقع مقدسة Historic Cities and Sacred Sites». شارك في تحريره الدكتور إسماعيل سراج الدين المصري نائب رئيس البنك الدولي السابق، و«آفيم شلوجر» و«جون مارتن براون». كما شارك في كتابة أحد أبحاثه الدكتور سعد الدين إبراهيم أستاذ علم الاجتماع في الجامعة الأمريكية بالقاهرة، ورغم الأهمية الكبيرة للكتاب كما ذكرت إلا أنه لا تفوت القارئ للكتاب الملاحظات الآتية:

١ـ الحجم الكبير الذي منحه للتراث اليهودي في العالم بما لا يتناسب إطلاقًا مع عدد اليهود والذين لا يتجاوزون في العالم كله ١٦ مليون نسمة بينما يصل عدد المسلمين في أحدث التقديرات إلى ١,٢ مليار وعدد المسيحيين إلى مليارين!! ولا اعتراض لي على الاهتمام بالتراث اليهودي كتراث إنساني، ولكن يجب أن يراعي البحث العلمي الموضوعية والحياد والتناسب، فلا علاقة على الإطلاق بين عدد اليهود وعدد المسلمين أو المسيحيين. وهذا يتعارض في حالة هذا الكتاب مع تخصيص جزء كامل تقريبًا من أجزائه الثمانية يضم ١٣ مقالة عن التراث اليهودي، فضلاً عن مقالات أخرى متناثرة في باقي أجزاء الكتاب تجري وراء اليهود من فلسطين إلى المغرب إلى أسبانيا وهولندا وحتى البرازيل!!

٢ ـ وفي السياق نفسه يبرز هذا الإلحاح الممل على ضحايا الحكم النازي من اليهود فيما يعرف بالمحرقة أو الهولوكوست، وما تم تدميره من معابد يهودية أثناء ذلك، وكأنه لم يتم تدمير كنائس أو مساجد تاريخية أو أثرية أثناء الحربين العالميتين، وكأن الأوروبيين لم يدمروا أماكن مقدسة للهنود الحمر وسكان الأمريكتين وأستراليا الأصليين.

٣ ـ ولا أريد أن أدخل في سوء النوايا، ولكني لا أستطيع الدخول في الكتاب دون أن أشير إلى ملاحظة مقابلة، وهي أن الاهتمام بالتراث الإسلامي كان أقل بكثير مما يجب في مثل هذا الكتاب، ولا يتناسب أيضًا مع عدد المسلمين في العالم ولا مع الدور الحضاري الذي لعبه الإسلام ولا مع تراثه المشيد الباقي والمعرض للمخاطر. إذ ليست هناك سوى ثلاثة مدن إسلامية فقط يتحدث عنها الكتاب: مكة والقاهرة وفاس!!

Historic Cities and Sacred Sites:
Cultural Roots for Urban Futures

(مدن تاريخية ومواقع مقدسة)

by Ismail Serageldin, Ephim Shluger (Editors).
World Bank, (January 2001).

بينما القدس مدينة عربية للديانات الثلاثة السماوية، يبدو أن المسئولين عن الكتاب اعتبروها يهودية فقط، ونشروا عددًا كبيرًا من المقالات لمختصين في مركز الفن اليهودي بالجامعة العبرية بالقدس

وبينما القدس مدينة عربية للديانات الثلاثة السماوية، يبدو أن المسئولين عن الكتاب اعتبروها يهودية فقط، ونشروا عددًا كبيرًا من المقالات لمختصين في مركز الفن اليهودي بالجامعة العبرية بالقدس.

٤ ـ إن الكتاب يركز ويشرح البعد الاقتصادي لإنقاذ التراث وحمايته وترميمه، والاستثمار المادي لهذا التراث، لذلك فالتراث الذي يتحدث عنه الكتاب هو التراث المشيد فقط أو المعماري، بينما هناك تراث شفهي وتراث مكتوب. ومن الطبيعي أن يختار البنك الدولي البعد الذي يعنيه ويدخل في اهتماماته عندما يصدر كتابًا أو يجري بحثًا..

ومع كل ذلك فالكتاب مرجع مهم جدًا يجب قراءته والاستفادة منه، فهو يثير الاهتمام ويركز الانتباه على تراث البشرية، وأهمية هذا التراث المعنوية في إثراء التنوع الثقافي والاحتفاظ بالروح القومية، وأهميته المادية كشاهد على عصور الإنسان المختلفة ومسجل أمين لها، وكعنصر مهم من عناصر الاستثمار الاقتصادي والدخل القومي. والكتاب أيضًا يقدم ثروة معرفية يندر أن تجتمع في كتاب واحد ضمن إطار منهجي واحد عن المواقع المقدسة والأماكن التاريخية في العالم. وهو أخيرًا يقدم تجارب تجب دراستها والاستفادة منها في الحفاظ على التراث وترميمه وصيانته والتعامل معه. وفي كل الأحوال يؤكد الكتاب على ضرورة تكاتف وتعاون مثلث لا غنى عنه لنجاح عمليات المحافظة على التراث والاستفادة منه، هذا المثلث مكون من: الحكومة والقطاع الخاص والسكان المحليين. وإذا كان هذا الكتاب مهما للعامة، فهو أكثر أهمية للمسئولين عن الآثار والحكم المحلي في بلادنا.

يتناول الجزء الأول من الكتاب الأصول المعقدة والتراث الغني للرموز الدينية الملحقة ببنية المراكز التاريخية وبيوت العبادة والمواقع المقدسة. وتعالج الفصول الثلاثة الأولى في هذا الجزء مبادىء التصميم، وبها تحليلات مقارنة لتصميمات المعابد والكنائس والمساجد.

وفي هذا الجزء يستعرض «سيد حسين نصر»، أستاذ الدراسات الإسلامية في جامعة جورج واشنطن، الفلسفات القديمة لتكوين المدن من ناحية أشكالها الفيزيقية وأهميتها الروحية. وطبقًا لتقاليد دينية معينة أساسية، فإن المدينة شبهت بالجسد، وتم تطوير نموذجها تبعًا لذلك. وبالتالي فإن المدينة كانت عبارة عن حشد للفيزيقي والنفسي والمعنوي والثقافي والروحي. على سبيل المثال:

مكة هي المدينة الروحية الأولى لدى المسلمين، في قلبها توجد الكعبة التي تتصل بالقلب الإنساني. وعلى الرغم من أن جزءًا كبيرًا من مكة تم هدمه لإنشاء مشاريع حضرية متجددة ومتعاقبة، فإن قلب المدينة بقي على حاله مؤسسًا علاقة مباشرة ـ كقلب روحي للعالم الإسلامي ـ مع القلب الإنساني.

في الغرب تقدم الفلاسفة المسيحيون الأوائل بمفهوم للمدينة على أساس أنها انعكاس للمملكة المقدسة. ووجدت أفكار مشابهة لذلك في تقاليد الشرق الأقصى. وفي النصف الأول من القرن الثامن عشر كتب «إيمانويل سويدنبرج» عن النموذج الأصلي للمدن التي تجاوزت واقعها المادي، وشبهها بالشجرة التي تحمل السمات المعمارية الكامنة في بذورها.

مع ذلك فإنه منذ القرن السابع عشر كانت الرؤية المسيطرة في الغرب تذهب إلى أن المساحة هي واقع كمي خالص. هذه الرؤية تترك مكانًا صغيرًا للاعتبارات الكيفية والرمزية للمساحة. ويرى سويدنبرج أن الحدث التاريخي المقدس هو حياة استثنائية بمغزى روحي، أو أنه حدث أسطوري، مما يمكن استثماره في الفن والعمارة. المدن الكبرى التي بقيت كمراكز روحية مثل مكة والقدس مؤسسة على نموذج أصلي يقرر حالتها وواقعها الحضري المبدئي، ناهيك عن عوامل التحول والهدم والزمن.

ويوضح «بيزاليل ناركيس» الأستاذ بالجامعة العبرية بالقدس، التأثيرات العابرة للثقافات والتداخل بين أبنية دور العبادة في الديانات التوحيدية الثلاثة. ويأتي بأدلة من دراسة مقارنة بين أوائل المعابد اليهودية والكنائس والمساجد المعروفة. المباني كانت أساسًا عبارة عن نوافذ فوق أعمدة فيما عرف أثناء العصر الروماني بـ«البازيليكا». وقد وجد هذا النظام ليس فقط في كنيسة سان جيوفاني من القرن الرابع الميلادي، وبازيليكا سان بيتر سنة ٣٣٣، بل أيضًا في المعبد اليهودي من القرن السادس في سارديس.

المسجد الأقصى الذي بني في القدس ما بين القرنين الثامن والعاشر له ملامح بازيليكية قريبة من تلك التي وجدت في المعابد اليهودية والكنائس المسيحية في تلك الفترة.. هذا التأثير المتبادل استمر حتى القرن العشرين، عندما بنيت المعابد عاكسة اتساع الكنائس الشبيهة بالمسارح والتي دمجت بين الطرز القوطية الجديدة والرومانية الجديدة، مع ذلك كان التداخل بين المعابد والكنائس والمساجد عبر السنين معقدًا جدًا.

حول وظيفة ومستقبل الأماكن المقدسة في العالم المعاصر، يشير «ستيفانو بيانكا» المهندس والكاتب ومدير برنامج دعم المدن التاريخية في مؤسسة أغاخان، إلى أن الثقافات التقليدية استوعبت تزامن طبقات متعددة من الواقع المادي والروحي. تعكس الواحدة الأخرى خلال سلسلة من المراجع والقياسات متضمنة في العلاقات بين العالم الكبير والعالم الصغير أو بين الكون والإنسان. ضمنيًا، مع القبول بهذا الرؤية المتكاملة للواقع، فإن ذلك يعني أنه لا يجب ولا يمكن أن تنفصل الأماكن المقدسة عن بيئتها الدنيوية. كان أحد أهم اهتمامات الحضارات التقليدية تأسيس صلات دائمة بين المرئي وغير المرئي، الكمي والكيفي، الزائل والسرمدي. والغريب أننا نجد المدن التاريخية تعاني أكثر في المجتمعات ذات التقاليد الدينية القوية!

يعتبر الضريح الخشبي الكبير في مدينة آيس أهم مكان مقدس في اليابان. ويصف «ايساوا توكورو» الأستاذ في معهد الثقافة اليابانية بجامعة كيوتو، الاحتفالات الدينية خلال العمليات المقدسة التي يتم فيها تجديد الضريح، بإعادة بنائه وتجديد كل ما بداخله مرة كل عشرين عامًا. هذا التجديد الدوري حتم الاحتفاظ بالخبرة والمهارة المطلوبة وانتقالها عبر الأجيال على مدى ١٣٠٠ سنة!

يتناول الجزء الثاني من الكتاب دور الحكومات وتخطيط وإدارة عمليات الحفاظ على التراث. إذ تعتبر الحكومة الجيدة شرطًا ضروريًا للحفاظ على التراث التاريخي وإدارته. ويعرض لنا الجزء الثاني من هذا الكتاب القيم السياسات العامة والاستراتيجيات التي تبنتها البرازيل وهولندا والنرويج والولايات المتحدة الأمريكية ودول في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا. جميعها تحاول بذل جهود خاصة تتمثل في تقوية الإطار المرجعي القانوني للحفاظ على التراث، وجذب القطاع الخاص للمشاركة في برامج الحفاظ على التراث، وكذلك تفعيل أجهزة الحكم المحلي لنفس الغرض.

يستعرض «فرانسيسكو ويفورت» وزير الثقافة وأستاذ العلوم السياسية في البرازيل، التحديات التي مرت بها البرازيل متعددة العرقيات والثقافات. ويثير التساؤلات حول صلاحية السياسات الثقافية في اقتصاد العولمة. ويقتبس من «روبرت رايخ» قوله: «العمالة هي فقط الوطنية في الاقتصاد العالمي المعولم». ويقول «ويفورت» إننا عندما نتكلم عن العمالة فإننا لا نتكلم فقط عن تعليم وثقافة مفهومة كمعرفة مكتسبة من الكتب، ولكن أيضًا كتدريب على الخلق والابتكار. فالإبداع هو الذي يغذي الخيال، وهو الوسيلة التي تحقق الخيال في الواقع.



مكة هى المدينة الروحية الأولى لدى المسلمين، فى قلبها توجد الكعبة التى تتصل بالقلب الإنسانى. وعلى الرغم من أن جزءا كبيرا من مكة تم هدمه لإنشاء مشاريع حضرية متجددة ومتعاقبة، فإن قلب المدينة بقى على حاله مؤسسا علاقة مباشرة. كقلب روحى للعالم الإسلامى. مع القلب الإنسانى

ففى هولندا، هذا البلد الصغير، يوجد ٧٦ ألف مبنى وموقع تاريخى مسجلة!! مهمة الحفاظ عليها موزعة بين الدولة والمحليات. يتحدث «آل البيرز» عن ميكانيزم جديد متمثل فى «صندوق الترميم القومى» الذى وجد ليشجع جهود الحفاظ الخاصة. تدير مؤسسة خاصة. هذا الصندوق الذى يوزع قروضًا بفوائد بسيطة على ملاك المبانى التاريخية ليحافظوا عليها. وأثبتت دراسة مسحية قامت بها وزارة المالية الهولندية جدوى هذا الصندوق فى تحقيق مهمته بالإضافة إلى خلق فرص عمل جديدة والمشاركة فى التنمية الاقتصادية.

يأخذنا «سيرى ميرفول» مدير إدارة التراث فى بلدية «برجن» إلى هذه المدينة وهى ثانى أكبر مدينة فى النرويج، وواحدة من أقدم المدن التاريخية فى أوروبا، والتى تم إدراجها فى قائمة التراث العالمى. فى قلب المدينة ميناء «برجن» الخشبى من العصور الوسطى، وتتم المحافظة عليه حاليًا ليس فقط كأثر، ولكن أيضًا كجزء حى من المدينة. كما تهدف الإدارة من عمليات المحافظة إلى حماية هذا القلب من مخاطر المرور الكثيف والمبانى الجديدة.

فى الفصل الخاص بحماية التراث المعمارى فى المدن الكبيرة يعكس «مايكل سوركين» وهو مهندس وكاتب يعمل فى نيويورك، مفهومًا عامًا عن الأصالة غالبًا ما يختلط بصورة زائفة فى العمارة المعاصرة. ويرى «سوركين» أن أفضل خط للدفاع عن العمارة التاريخية الأصيلة هو العمارة المعاصرة الأصيلة. كما يستنتج أن الخطر الأساسى من قبول التقليد يكمن فى أننا أصبحنا ممثلين أكثر منا مواطنين، نتظاهر بأننا جزء من بيئة تخدعنا بأنها حقيقية. وهناك حركة صاعدة فى الولايات المتحدة الأمريكية تسمى «الحضرية الجديدة New Urbanism» تطرح بقوة نزعة محافظة جديدة: الحنين للعودة إلى نمط حياة مثالى من الماضى البعيد.

يناقش «مايكل سرنيا» عالم الاجتماع ومستشار البنك الدولى لسنوات طويلة موضوع حماية الموروث الثقافى من خلال مشروعات التنمية، ويشير إلى مشاكل ترجمة سياسات المحافظة على المدن التاريخية إلى برامج عملية. كما يشير إلى صعوبة تمويل هذه المشروعات. ويقرر «سرنيا» بعد دراسة عدد من المشروعات والقطاعات، أن أعمال البنية التحتية التى تصمم بحساسية ثقافية ووعى تراثى تستمر لزمن أطول حتى لو لم تتم الاستفادة بها فى ترميم المبانى التاريخية.

يتناول الجزء الثالث من الكتاب التراث المعرض للأخطار وخطط الإنقاذ والتمويل وإعادة البناء وإعادة الاستخدام. وعلى الرغم من أن معظم التدمير الذى يلحق بالآثار يحدث بسبب كوارث طبيعية، إلا أن معظم الخبراء يتفقون على أن الإهمال (و) أو الحماية غير الملائمة يمكن أن تدمر الآثار.

يصف الفصلان الأولان فى هذا الجزء بنجاح عمليات إعادة البناء التى تمت فى آسيا، وإيطاليا، وفى «ليجيانج» بالصين بعد سلسلة من الزلازل. والفصول الأخرى من هذا الجزء تغطى عمليات التحول وإعادة الاستخدام وإعادة التخصيص للبنية التاريخية فى فينسيا بإيطاليا، وتلمبيكو وتلاكولتابان فى المكسيك وريسيف فى البرازيل.

يتحدث «جيورجيو كروشى» أستاذ الهندسة البنائية بكلية الهندسة فى جامعة روما، عن القرارات المتعاقبة بإعادة بناء بازيليكا القديس فرانسيس الأسيسى. وهى تبدأ باختبار الأضرار البنائية والحلول الهندسية المفترضة، وبخاصة الإجراءات

مـــــــدن تاريخيـــــــة ..

السريعة التى تتخذ عقب الزلزال لمنع الانهيار الكامل للعقود والقلب. وبتشويه البناء، فإنه يخشى من حدوث تدمير أكبر للسطح ولمكان الصلاة وللأعمال الفنية التى تعود إلى القرنين الرابع عشر والخامس عشر. المرحلة الثانية للعمل تتضمن تدعيم وترميم ما بداخل البازيليكا باستخدام تكنولوجيا خاصة.

«جيوفرى ريد» مهندس مسئول عن منطقة شرق آسيا والمحيط الباسفيكى و«كاترينكا إيبى» مستشارة عن التراث الثقافى بالبنك الدولى، يوثقان ويحللان عملية إعادة بناء مدينة «ليجيانج» القديمة بالصين بعد أن ضربها الزلزال، وهو المشروع الذى ساعد فيه البنك الدولى. مدينة «ليجيانج» عمرها ٨٠٠ سنة، وتخطيطها الحضرى يتكون من قنوات وطرق منعرجة، وهى الموطن الرئيسى لعشرة أقليات وطنية، بالإضافة إلى كونها مكانا تراثيا عالميا. على أثر تعرض المدينة لزلزال هائل مدمر، أصدرت الحكومة الصينية دليلاً عن كيفية تدعيم وتقوية المبانى لتصبح أكثر قدرة على مقاومة الزلازل، وصدرت أيضًا تعليمات بتطوير المنازل الخشبية، واتخذت إجراءات لحماية الشخصية التاريخية لمجمع مبانى منطقة «ميوفيو». كان الهدف زيادة الموارد بسرعة، وإعادة بناء حياة طبيعية فى المدينة، فى الوقت الذى تتم فيه حماية تراثها الثقافى النادر. وقد أدى التعاون بين الهيئات المتنوعة إلى تقوية المجتمع المحلى وتشجيعه على المشاركة فى التحديث وتشجيع السياحة.

ويهدد تدهور البيئة الطبيعية فى بحيرات فينسيا مجمل الآثار فى تلك المدينة الفريدة. لقد حدث فيها تدهور للبيئة البحرية، وارتفع مستوى المياه، فضلاً عن خسائر كبيرة فى الوظائف الصناعية، وتناقص شديد فى عدد السكان خلال الثلاثين عامًا الأخيرة، كل هذا أدى إلى حدوث أضرار فى اقتصاد المدينة، وبالتالى أثر سلبًا على قدرتها على حماية تراثها النادر.

فى هذا الصدد، يعرض المهندس «ماوريتسيو سابينى» لإعادة تأهيل الترسانة البحرية، وإعادة استخدام المخازن الحربية التاريخية فى الصناعات المتقدمة تكنولوجيًا وكمركز لأبحاث تكنولوجيا المعلومات. ويتوقع من هذه الاستخدامات التجارية الجديدة أن تخلق فرص عمل وتمهد الطريق لإعادة كفاءة فينسيا الاقتصادية.

بينما يزودنا المهندس «ألفونسو جوفيلا» بتقرير مفصل عن عمل فريقه من المعماريين فى مدينتى «تامبيكو» و«تلاكولتابان» فى المكسيك. فى «تامبيكو» يعيدون بناء «منزل العادات» القديم، أو «أدوانا»، ومبنى «إديفيسيو دى لالوز»، وكلا المبنيين يطوعانهما لاستخدامات جديدة. وقد ثبت من خلال هذه التجارب كيف أنه يمكن للقطاع الخاص أن يستفيد من المبانى المهجورة فى استخدامات جذابة ومفيدة. وثبت أيضًا أن للمبانى المحولة قيمة اقتصادية وأهمية سياسية كرموز على الاهتمام بمنطقة وسط المدينة. وفى المقابل، فإن خبرة إعادة بناء المركز التاريخى لـ«تلاكولتابان» جذبت اهتمام الخبراء والرسميين بشكل أكبر وذلك بسبب تسجيلها فى قائمة التراث العالمى. وثبت من ذلك أن تضافر الجهود الدولية والمحلية يمكن أن يؤثر بشكل أسرع وأفضل.

تتناول فصول الجزء الرابع التحول الاقتصادى والحفاظ على التراث الحضرى. وهنا يبقى أيضًا دور الحكومة ضروريًا فى الحفاظ على التراث الثقافى والآثار التاريخية. فالحكومات هى فقط القادرة على خلق بيئة مناسبة للاستثمار الخاص والمبادرات الفردية ونشاط الجمعيات الأهلية.

يتناول «مايكل بونيتى» مدير منظمة مدن التراث العالمى فى كويبك، الاستراتيجيات المهمة للحفاظ على التراث الحضرى. مؤكدًا أن الإدارة الناجحة للمدن التاريخية تتطلب مشاركة المواطنين فى التخطيط وصنع القرارات، مثلما يصدر القادة السياسيون المحليون القرارات الأساسية المتعلقة بالحفاظ على المدن. يرى «بونيتى» أن المخططين والحافظين للتراث هم الأساس القوى لممارسة إدارة الحفاظ الفعالة. كما يرى أيضًا أن تقدير القيمة العالمية لموقع أو مدينة تاريخية يتجسد فى وعى الناس بالتاريخ الدولى وتطابقهم معه، وتقديرهم للمزايا التاريخية والفنية لتراث المدينة أو الموقع.

فى هذا الجزء من الكتاب تقيم ثلاثة فصول التطورات التى تمت فى المركز التاريخى لمدينة سان بطرسبرج فى روسيا. يقابل «بلير رويل» مدير معهد كينان للدراسات الروسية المتقدمة فى واشنطن، بين سان بطرسبرج ولينينجراد، واضعًا العاصمة الإمبراطورية بمخططها الباروكى ومجموعة رائعة من عمارتها فى مقابل الامتداد العشوائى العمرانى الذى تم خلال الفترة السوفيتية. يفرض التراجع عن اسم لينينجراد والعودة إلى اسم سان بطرسبرج تحديات أكبر على من يهتمون بالحفاظ على التراث التاريخى والثقافى، وكذلك على من يهتمون بمصير سكان المدينة واقتصادهم المنهار.

ويفحص المهندس «راحول ميهروترا» البنية المزدوجة لمدينة بومباى الهندية والتى أسسها البريطانيون كمركز تجارى، لكنها توسعت بشكل عشوائى مكثف. بذلت جهود فى الجزء الغربى من المدينة للسيطرة على المبانى، وشق شوارع مستقيمة، ووضع حد أعلى للارتفاعات، وإنشاء حدائق مفتوحة. ظلت هذه البنية الكلاسيكية المزدوجة للمدينة حتى سنوات الستينيات من القرن العشرين، عندما بدأ النمو العشوائى للبازارات التقليدية تؤثر سلبًا على البيئة الطبيعية لأحياء وسط المدينة. يصف «ميهروترا» دور جماعات المواطنين فى الحفاظ على المبانى التاريخية، والمناطق ذات المخططات الخاصة. ويرى أن التحدى فى بومباى يتمثل فى التغلب على مشكلات تحول المدينة، ليس عن طريق زيادة الازدواجية فيها، ولكن عن طريق محاولة عقد صلح بين جزءيها المتصارعين.

ونصل إلى العالم العربى: فنجد المهندس على الشعيبى رئيس الجمعية السعودية للمهندسين والمخططين، يفحص تأثير خمسين عامًا من التحضر والتحول على المواقع المقدسة فى المدن التاريخية فى المملكة العربية السعودية. ويحلل ظهور عوامل التحديث فى المجتمع التقليدى من خلال مدن: مكة وجدة والرياض، وكل منها تعرضت لتحولات حضرية وسكانية سريعة وتحديث معمارى، كما تشهد تدفقًا بشريًا أجنبيًا وبخاصة خلال شهر رمضان وموسم الحج. كل هذا يفرض تحديات هائلة للحفاظ على تراث مكة وموقعها المقدس.

بينما يدرس الدكتور سعدالدين إبراهيم المحتوى الاجتماعى والتغيرات السكانية والتحولات التاريخية التى تؤثر على الحفاظ على مدينة القاهرة التاريخية. فقد تضاعف سكان القاهرة ثلاث مرات خلال القرن التاسع عشر ليتجاوزوا عشرة ملايين ساكن، بينما اتسعت مساحة المدينة من ميلين مربعين إلى ٦ أميال مربعة بسبب تبنى تخطيط حضرى أوروبى. وشهدت الخمسون عامًا الأخيرة من القرن العشرين زيادة كبيرة فى عدد السكان والمناطق الحضرية وحركات هجرة داخلية أدت إلى ظهور أحياء عشوائية، بينما ظل الفقراء يسكنون الأحياء القديمة، وهم يشكلون ٤٢٪ من السكان. ويرى سعدالدين إبراهيم أن الأصولية الدينية تشكل خطرًا حقيقيًا على النسيج الطبيعى والاجتماعى للمدينة. وسوف يفشل الحفاظ على المناطق التاريخية بدون فهم النسيج الاجتماعى ودمج الناس فى

عمليات الحفاظ. ذلك أن الاهتمام بالبعد الاجتماعي هو مفتاح النمو الحضري الناجح والحفاظ على التراث.

يستعرض الجزء الخامس من الكتاب الحفاظ على التراث المبني والمواقع الطبيعية الثقافية بناء على التجارب التي تمت في الهند والبرازيل والمغرب والولايات المتحدة. فمن المعروف أن تدهور وتدمير آثار مهمة ومواقع حضرية يرجع إلى عدة عوامل منها: تدني الحالة الاقتصادية، والآثار المدمرة لبرامج التجديد، ومنظومة من عدم كفاءة السياسات العامة والقدرة على التنفيذ.

في البرازيل - مثلما في كثير من الدول لا تستطيع الحكومة بمفردها تحمل عبء المحافظة على التراث بالكامل. لذلك لابد لها أمام إمكانيات محدودة من التركيز على طرق لحفز شركاء من المجتمع المدني والسكان ورجال الأعمال. وهنا يشرح «آرثر دارلينج» مدير برنامج الآثار في بنك «التنمية عبر أمريكا». هذا البرنامج الذي أطلقته وزارة الثقافة في البرازيل بمساعدة البنك. كان الغرض هو تطوير استراتيجية تعتمد على تطوير هياكل مكونة من المجالس المحلية والقطاع الخاص للحفاظ على آثار ومواقع تاريخية. وقد ساعد برنامج الآثار في إنتاج مواد تعليمية خاصة وأنشطة للارتقاء بالوعي. كما تأسست صناديق محلية للترميم في كل مدينة لتمويل المشروعات المستقبلية.

في الولايات المتحدة الأمريكية، يعتبر مرسوم الطريق السريع بين الولايات الذي صدر عام ١٩٥٦ بداية انهيار مناطق وسط المدينة أو «الشارع الرئيسي». فلقد قادت السيارات الناس لبناء المحلات والمجمعات التجارية بعيدًا عن المراكز التقليدية للمدن. وانتقل السكان والأعمال بعيدًا عن المراكز الحضرية آخذين معهم الإعفاءات الضريبية.

وفي منتصف السبعينيات من القرن العشرين، أطلق الصندوق الوطني للحفاظ التاريخي بنجاح برنامجًا لإحياء مناطق وسط المدينة في ٤٣ ولاية وأيضًا في بورتو ريكو. يصف «كينيدي سميث» مدير برنامج «الشارع الرئيسي» في صندوق الولايات المتحدة للصيانة التاريخية، النتائج الجيدة لهذا البرنامج بما في ذلك خلق فرص عمل وعودة السكنى للعديد من المباني والاستثمارات التي تمت.

أما مدينة «أحمد آباد» الهندية فهي ثرية من عدة أوجه، وفقيرة في الوقت ذاته. حالة هذه المدينة تثبت أهمية توافر فريق إداري فعال يستخدم طرق تمويل مبتكرة يتعاون مع البلدية لتحسين البنية التحتية وصيانة مركز المدينة التاريخي. ويشرح «كيشاف فارما» المسئول في البنك الدولي وكان من قبل محافظًا لمدينة أحمد آباد، كيف أن الإدارة الجديدة قامت بتطوير طرق تحصيل الضرائب واكتسبت ثقة المستثمرين وأصحاب الأعمال التجارية بالمدينة، مما كان له أحسن الأثر. ومع تدفق الموارد أصبحت سلطات المدينة قادرة على القيام بعدد من المشروعات للمحافظة على التراث. ويخلص «فارما» إلى أن من أهم العوامل التي أدت إلى نجاح مدينة أحمد آباد هي: القيادة، والالتزام، وحب العمل، والمشاركة العامة.

ويقول الخبير السياحي «موريس ديستيوس فرانسيس» أن القطاع الخاص قام بحماية وصيانة معظم الأحياء التاريخية. وكان من نتائج ذلك أن نمت السياحة العالمية في السنوات الأخيرة، بحيث تجاوزت عائداتها السنوية مبلغ الخمسمائة مليار دولار أمريكي. وقام البنك الدولي ووكالات دولية أخرى بالاستثمار في عدة مدن عن طريق تمويل القطاع الخاص لتطوير صناعة السياحة، غالبًا بإنشاء فنادق في المدن التاريخية أو قريبًا منها. ولم تعد معايير الاستثمار في السياحة ترتبط فقط بزيادة عدد السائحين، فقد أخذت حماية البيئة أولوية حاليًا للتأكيد على أن السياحة تفيد السكان المحليين وتساعد في حماية تراثهم الثقافي.

وتستعرض «منى سراج الدين» الأستاذ بمدرسة التصميم بجامعة هارفارد، الدراسات التي أجريت على مدينة «فاس» في المغرب. وركزت هذه الدراسات على الظروف الاجتماعية والاقتصادية للسكان، والتآكل المادي الذي حدث للآثار، وكلها عوامل تؤثر سلبًا على التراث التاريخي والمستوى الحضري للحياة في المدينة. وقد بادرت الحكومة المغربية، بمساعدة قرض صغير من البنك الدولي، بمشروع يركز على ترميم بعض الأماكن، وتحسين طرق دخول المشاة وسيارات الإسعاف إلى المركز التاريخي والتجول فيه. كما يهدف المشروع كذلك إلى التخفيف من الفقر من خلال أنشطة تتعلق بالإسكان. وقد استخدمت مناظير مختلفة لتقييم التراث الثقافي في مدينة فاس، مثل: القيمة الجوهرية، والقيمة السياحية، وقيمة المدينة بالنسبة للشخصية الثقافية للمغرب، والقيمة التجارية كما تعبر عنها الحالة الحقيقية والأصول الاقتصادية للموقع.

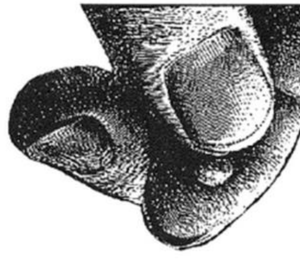
يتناول الجزء السادس من الكتاب التطبيقات التقنية فيما يتعلق بمسح وتقييم وتوثيق الأصول التراثية. إذ يؤثر التوثيق، والمسح، وعمل قوائم في القرارات المتعلقة بالمباني التراثية. فعمل القوائم والسجلات هو توثيق رسمي يصنف الآثار والمواقع طبقًا لإجراءات وقواعد معينة. ولقد سنت تشريعات وقوانين لحماية التراث المبني عبر الزمن بالإضافة إلى إجراءات قوائم التسجيل، بما يسمح بإضافة آثار، أو إعادة تصنيفها، أو حتى حذفها من القوائم. هذه التغيرات تقوم على قرارات سياسات تعكس التحولات الاجتماعية والاقتصادية والسكانية. وكمثال يصف «مارتن شيري» مدير البرامج القومية في مؤسسة التراث الإنجليزي والصيانة في لندن، قوائم التراث في إنجلترا بأنها أداة لإدارة التغيرات التي تحدث للأبنية التاريخية هناك. ويقول إن نظام القوائم الإنجليزي مرن وقوي للتكيف مع المتطلبات المعقدة.

وفي اليابان يعتبرون أن التعرية التي تصيب المباني التاريخية جزئيًا أو كليًا فرصة فريدة لدراسة تاريخ البناء والتقنيات الإنشائية القديمة. ويستعرض «تاكيشي ناكاجاوا» أستاذ العمارة في جامعة «واسيدا» باليابان، السجلات التفصيلية لترميم المباني التراثية هناك.

وغالبًا ما تكون الميزانيات مشكلة تعترض مقدرة الدولة على حماية وصيانة الآثار القومية. ويشرح «لاورو لاج فيلو» و«آرثر دارلنج»، والاثنان من بنك التنمية عبر أمريكا، كيف يمكن للمسئولين وضع أولويات للآثار التي تجب حمايتها وترميمها اعتمادًا على تصور هرمي من الأهداف والمعايير والبدائل فيما يسمى بـ «عملية التحليل الهرمي»، وهي الطريقة التي استخدمت لاختيار المدن التاريخية لبرنامج الآثار في البرازيل.

تتحدث فصول الجزء السابع من الكتاب عن الثقافة الفطرية لأمريكا الشمالية والطقوس التقليدية لـ «كوارب Kuarup» بيت سكان البرازيل الأصليين. وتعكس هذه الفصول وجهة نظر تقول بأن الطبيعة والمناظر الطبيعية جزء من الموهبة الروحية لهذه الشعوب. السكان الأصليون لـ «العالم الجديد» يرون أن كل الأرض مقدسة، ويعتقدون أنه يجب الاهتمام بقوى في الأرض للحفاظ على التوازن بين الإنسان والطبيعة.

وقد تناولت «فيفيان مان» مؤرخة فن تعمل في المتحف اليهودي بنيويورك، فن «الحياة معًا» في إسبانيا، حيث صفت عناصر ثقافية متفاعلة عبر وعي جماعي للمسلمين واليهود والمسيحيين في إسبانيا العصور الوسطى. وجدت أيضًا علاقات امتزاج ثقافي مشابهة بين المسلمين واليهود في المغرب في القرنين الثامن عشر والعشرين. استعرضت «فيفيان مان» السمات الجمالية ونمو فن صنع الأيقونات اليهودية وتكوين الجذور الثقافية. وذكرت أنها اعتمدت في هذه الدراسة على التسجيلات المكتوبة من أرشيف حياة اليهود في إسبانيا في القرون الثلاثة الأخيرة، والتقارير المكتوبة عن نشاط اليهود تحت الحكم الإسلامي والمأخوذة من معبد «بن عزرا» في الفسطاط بالقاهرة. انتهى هذا التعايش في إسبانيا بسقوط غرناطة وطرد اليهود عام ١٤٩٢م. وتقول الكاتبة أنه منذ ذلك الوقت أثرى «اللاجئون» اليهود المهرة والمتعلمون جيدًا المجتمعات اليهودية في الإمبراطورية العثمانية وشمال أفريقيا. في هذا العالم عاش المسلمون واليهود معًا حتى منتصف القرن العشرين.



على الرغم من أن معظم التدمير الذي يلحق بالآثار يحدث بسبب كوارث طبيعية، إلا أن معظم الخبراء يتفقون على أن الإهمال (و) أو الحماية غير الملائمة يمكن أن تدمر الآثار

.. ومواقع مقدسة

أما «لوران ليفي شتراوس» نائب مدير إدارة التراث الثقافي باليونسكو، فهو الوحيد في هذا الكتاب الضخم الذي تحدث عن أهمية الأماكن المقدسة غير المشيدة. إذ تتضمن قائمة التراث العالمي مائة مدينة تاريخية وحوالي مائتي مدخل لأماكن مقدسة. يوضح هذا التمثيل واسع الانتشار أنها في صميم مفهوم التراث الثقافي، تشكل جذورًا قوية لشخصيات الشعوب وقاعدة لتحديد أي ثقافة.

ويتحدث «ليفي شتراوس» عن حملات اليونسكو السابقة لإنقاذ وإعادة بناء وصيانة التراث الثقافي المهدد، مؤكدًا أن المباني التاريخية مهددة بمشاكل خطيرة في الصيانة، والتوازن الداخلي، والاستخدام. وكالعادة فإن المهام الرئيسية لهذه الحملات هي: التنمية الاجتماعية والاقتصادية للمدينة، وإدارة وحماية مستوى معيشة السكان، وصيانة هوية المباني التاريخية. ومن الضروري دراسة كل حالة على حدة بعناية لتحديد الطرق الخاصة والمميزة للتعامل معها. ويخلص «ليفي شتراوس» إلى القول: «في زمن التنوع الاجتماعي الذي يؤدي إلى التشرذم، فإنها وحدها الذاكرة الثقافية هي التي ستحافظ على الروابط الاجتماعية الأساسية والتي تمكن فسيفساء الناس ذوي الأصول والثقافات والأجيال المختلفة من العيش معًا».

يتناول الجزء الثامن والأخير من كتاب «مدن تاريخية ومواقع مقدسة» تجارب عملية لحماية مدن تاريخية وتراث، شاركت فيها أعداد كبيرة من الوكالات والهيئات غير الحكومية وحكومات مركزية ومحلية وتجمعات، كان الرابط بينها هو تحقيق تكامل بين المهارات والموارد في عمل تعاوني لحماية التراث المشيد وخدمة التنوع الثقافي بطريقة مؤكدة.

استعرض «لورانس هانا» الخبير الاقتصادي في البنك الدولي، الاستراتيجية الجديدة التي تعتمد على المشاركة والتي تم إقرارها لجهود السلام وتسوية الصراع في البوسنة والهرسك. حيث تكاملت جهود إعادة بناء المدينة القديمة والجسر الذي بني في القرن الخامس عشر مع الاهتمام طويل المدى بالسلام الدائم وإدارة حماية التراث المشترك. يوضح «هانا» كيف تكونت المشاركة بين المجتمع المحلي والحكومات المركزية والإقليمية واليونسكو وصندوق أغاخان للثقافة، وصناديق الآثار العالمية، والبنك الدولي والمتبرعين المتنوعين. ومازالت «لجنة الخبراء الدولية» التي شكلتها اليونسكو تزود السلطات المحلية والمركزية هناك بالوسائل التقنية لإعادة البناء. ■

المحـــــاكاة والطبيـعـــــة عنــــــد

❞ ودع كل صوت غير صوتى فإننى
أنا الطائر المحكى والآخر الصدى ❝

«المتنبى»

حســـين الـــــواد

«ولقد كان أبو دبَوبة الزَنجى، مولى آل زياد، يقف بباب الكرخ، بحضرة المكارين، فينهق، فلا يبقى حمار مريض ولا هرم حسير، ولا متعب بهير إلا نهق. وقبل ذلك تسمع نهيق الحمار على الحقيقة، فلا تنبعث لذلك، ولا يتحرك منها متحرك، حتى كان أبو دبَوبة يحركه. ولقد كان جمع جميع الصور التى تجمع نهيق الحمار فجعلها فى نهيق واحد».

«الجاحظ»

أجزنى إذا أنشدت شعرا فإنَما   بشعرى أتاك المادحون مردَدا
ودع كل صوت غير صوتى فإننى   أنا الطائر المحكىَ والآخر الصدى

«أبو الطيب المتنبى»

« يعلن تغريد الطير عن الابتهاج بالوجود والانشراح، أو على الأقل هكذا نتأول الطبيعة سواء أكان ذلك مقصدها أم لا. ولكن الجمال الذى يستقطب اهتمامنا فى هذا المقام يستوجب قطعا أن ينحصر فى جمال الطبيعة، فهو يمحى امَحاء كليًا، حالما ندرك أننا قد خدعنا وأن الأمر لا يعدو أن يكون ضربا من ضروب الفن، لا يجد فيه الذوق ما يستحسن ولا البصر ما يشده إليه. وهل ألذ لدى الشعراء من تغريد ساحر حسن ينبعث من عندليب فى أجمة منعزلة ذات مساء صيفى هادئ تحت لطيف نور القمر؟ إلا أن ظريفا ماكرا، فى بعض الأمثلة، قد عمد، عند تعذر مثل ذلك الطائر الغرَيد، أن يخدع ضيوفا وفدوا عليه للاستمتاع بنسيم الحقول، فسرَهم أيَما سرور بأن أخفى فى أجمة شابا فارها حاذقا فى محاكاة ذلك التغريد محاكاة تامة (بواسطة قصبة أو غصن من الأسل يضعه فى فمه) وما أن تم الانتباه إلى أن الأمر إنما يتعلق بخدعة حتى لم يعد أحد يقوى على مزيد الاستماع إلى ذلك التغريد الذى كان من قبل يعدَ أخاذا».

«..............»

تلتقى هذه النصوص الثلاثة لهؤلاء الأعلام المشهورين فى الالتفات إلى مسألة من أكثر المسائل فى المباحث الجمالية استئثارا بالاهتمام وأشدها إثارة للجدل والنقاش. فالعلاقة بين الطبيعة والفن (وهى مسألة خلافية أيضا) علاقة معقدة عصية مستغلقة شديدة التشعب تكاد تشمل معظم ما يشغل الناس فى الفن من قضايا ومشكلات تتصل بنشأته وخصائصه وتقويمه وبما يسند إليه من وظائف.

فالجاحظ يذهب، وفقا لطريقته فى مزج الجد بالهزل فى المحاجة وتصيد النوادر الدالة وطرق المواضيع التى قلما تحظى بالعناية والاهتمام، إلى إيراد هذا الخبر متمثلا به على القدرة التى خص بها بعض الموهوبين من الآدميين على التقليد والمحاكاة، وذلك فى سياق البرهنة على أن الإنسان عالم صغير ميزه الله بالعقل وفتح له فى مجال القدرة والاستطاعة أبواب التمكين المكين.

أما المتنبى فقد أصدر فى هذا الشعر عما كان يعتقده ويعتد به معظم النقاد والعلماء، من تقابل وتنافر بين الحضارة والبداوة والصدق والكذب والمطبوع والمصنوع والجودة الحقيقية والبهرج الزائف، متجها، على طريقة الشعراء فى إقامة أمثلة الموجودات والأشياء فى النفوس، إلى الجزم بأن الطبيعى أولى بالتفضيل وأحق بالإيثار من المصنوع. وله فى هذا المعنى أبيات كثيرة منها على سبيل المثال قوله فى إحدى البائيات السائرة:

ومن هوى كل من ليست مموهة
تركت لون مشيبى غير مخضوب
ومن هوى الصدق فى قولى وعادته
رغبت عن شعر فى الرأس مكذوب

وأما الفيلسوف الألمانى كانط فقد نظر فى العلاقة بين الطبيعة والفن وأفاض فى تحليلها فى أطروحاته الجمالية الشهيرة التى ظلت إلى أيامنا هذه مصدرا لا يستغنى عنه سواء لدى الذين يعتدون بالنظرة الحكمية إلى الجمال والفن أو الذين يعترضون عليها محترزين من استبداد الحكمة بموضوع ليس، عند التأمل الدقيق، من صريح اختصاصها.

ولسنا بالتقريب بين هذه النصوص الثلاثة نزعم أن أصحابها، مهما جمع بينهم الشغف بالحكمة وإيثار التأمل والغوص وراء المعانى البعيدة وتبين الفروق اللطيفة وتعميق النظر فى الكائنات والموجودات، أو باعدت بينهم مجالات الإنتاج والمقاصد، قد تأثر بعضهم ببعض أو تجاوب معه. فالتوارد فى العناية بأمهات المسائل المعرفية شديد التواتر ومسالك الفكر كثيرة الالتقاء والتقاطع.

ولكننا نود أن ننطلق من كلام هؤلاء الأعلام الثلاثة لإبداء بعض الملاحظات فى العلاقة بين الطبيعة والفن وما ينتج عن فهمها من أحكام جمالية كثيرا ما نعتقد أنها تتأسس على الوظيفة التى نقدر أن الفن ينهض بها.

وغنى عن البيان أن من هؤلاء الأعلام، مثلما هو معروف من سيرهم شائع فى التصانيف التى وضعوا والأعمال التى أبدعوا، من كان عالما موسوعيا متكلما مهتما بالحيوان والأدب والمذاهب والفرق والبلاغة والبيان، أو شاعرا كبيرا مبدعا خلاقا أمضى العمر يجهد لاهثا وراء إمارة «فى مملكة الأنام» وهو عليها دون منازع «فى مملكة الكلام»، أو فيلسوفا مختصا فى العقل وملكاته يجوَد فيها النظر على نحو جعل منه إماما «فى الحكمة» ذائع الصيت راسخ الشهرة.

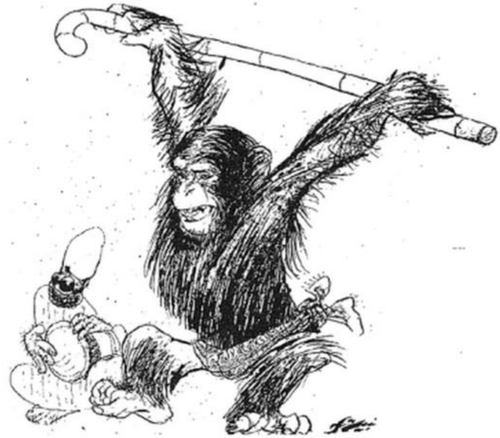
يتراءى الفن، أول ما يتراءى، وأكثر ما يتراءى أيضا، محاكاة للطبيعة. ففى الطبيعة أشياء وموجودات يرتاح لها النظر ويطرب لها

١- البيان والتبيين
الجاحظ
تحقيق: عبد السلام محمد هارون
بيروت: دار الجيل. د.ت

٢- **Critique de la faculté de juger**
(نقد مملكة الحكمة)
E. Kant
Paris, Vrin, 134pp., 1968

٣- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر
ابن الأثير
تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد
بيروت: المكتبة العصرية، ١٩٩٠

الجاحظ والمتنبى وكانط



السمع وتسر بها النفس وتهتز متحركة بالإعجاب والاستحسان والاستملاح بما تبعثه فيها من روعة وبهجة واستلطاف. وفى المصنوعات التى ينتجها الإنسان أشياء تبعث فى النفس المسرة والارتياح وتحركها بالتعجب والإعجاب بما فيها من جودة الحذق وقوة الإتقان ولطف المهارة. وفى الطبيعة أشياء وموجودات بيّنة النفع صالحة للاستعمال وأخرى لا وجه، فى الظاهر، للانتفاع بها أو استعمالها. وفى المصنوعات أشياء نافعة وصالحة للاستعمال وأخرى لا غاية، فى الظاهر دائما، نفعية أو استعمالية لها. وكما أن مجموعة كبيرة من الموجودات والأشياء الطبيعية مما لا نفع، فى الظاهر، لها أو لا وجه لاستعمالها إنما تبدو، أكثر ما تبدو، قد وجدت لتروق وتستحسن وتلتذ بها الحواس وتطرب لها وتهش النفوس، كان مجموعة كبيرة من المصنوعات مما لا نفع لها، فى الظاهر، ولا وجه لاستعمالها، إنما قد وجدت لتروق وتستحسن وتطرب لها النفس وتهتز بما تحدثه فيها من متعة والتذاذ.

ومع أنه يصعب التمييز بين الموجودات الطبيعية والمصنوعات التى وجدت لينتفع بها فى الاستعمال وبين الموجودات الطبيعية والمصنوعات التى وجدت ولا غاية، فى الظاهر، انتفاعية منها، كانت المصنوعات الجميلة قابلة لأن ينظر إليها فى سياق شبهها بالموجودات الطبيعية الجميلة.

يؤيد هذا أن إحدى النظريات الجمالية الكبيرة وأقدمها وأوسعها انتشارا وأشدها تأثيرا فى الإجراء التطبيقى إنما هى نظرية «المحاكاة». فالمصنوعات الجميلة كأنما استنبطت بوحى من الموجودات والأشياء الطبيعية الجميلة. وللمشابهة والمشاكلة والمجانسة والمماثلة والمناظرة أبلغ الآثار فى التعامل مع المصنوعات الجميلة. فأقرب ما يذهب إليه الذهن وأيسره وهو يتأملها إنما يتمثل فى قياسها على الموجودات والأشياء الطبيعية الجميلة ومقارنتها بها.

ويؤيد هذا أيضا أن فنانين ومفكرين ومنظرين كثيرين ظلوا إلى زمن قريب يعتقدون أن الطبيعة هى الملهم الأول فى إبداع الأعمال الفنية الجليلة، وأن منهم من ذهب إلى أن الإنسان نفسه كائن طبيعى يبدع، متى أبدع، بوحى من طبيعته ومن الطبيعة التى ينتمى إليها.

ويؤيد هذا كذلك أن الفنون ظلت ينظر إليها من خلال تضمنها سمات الموضوعات التى تتناولها وخاصياتها المميزة. وهذا مشاهد فى الخطابات التى يتحدث فيها أصحابها عن الأعمال الفنية. وفى نقدنا الأدبى والبلاغى القديم مثلا، والفنون القولية من أعصى الفنون على تمييز جيدها من رديئها بحكم أن المادة الأولية التى تصاغ منها ليست من جنس موضوعاتها، تتواتر عبارات من قبيل «الإصابة فى التشبيه» و«المقاربة» و«المشاكلة» و«المجانسة»، حتى إذا تهذبت الممارسة النقدية أعطت فى التراث تلك العناية الفائقة بالتشبيه والاستعارة والتمثيل، وأعطت فى استكناه أوجه التناسب بين الأقاويل الفنية والواقع ما يمكن أن نتمثل عليه بهذا القول لضياء الدين بن الأثير فى شعر المتنبى: «وأنا أقول قولا لست فيه متأثما ولا منه متلثما، وذاك أنه إذا خاض فى وصف معركة كان لسانه أمضى من نصالها وأشجع من أبطالها، وقامت أقواله للسامع مقام أفعالها (التشديد من عندنا) حتى تظن الفريقين قد تقابلا والسلاحين قد تواصلا».

ومهما كان النقد الذى وجّه ويوجّه إلى هذه النظرية صائبا وجيها وكانت مآخذه عليها مقنعة، فإنه لا بد من الإقرار بأن نظرية «المحاكاة» تظل، عند التأمل والإنصاف، من أمتن النظريات وأقدرها على تفسير الظواهر الفنية وتقويمها فى مجال يغلب عليه التعقّد والتشعّب ويتسم التعامل معه بالعسر نظرًا لما فيه من ألوان التوعر والصعوبة.

إلى العلاقة بين الطبيعى والفنى يتجه اهتمام هؤلاء الأعلام الثلاثة المستشهد بأقوالهم فى بداية هذا الكلام. فالجاحظ يذكر أن أبا دبّوبة الزنجى قد أدرك فى محاكاة نهيق الحمار درجة من الإتقان عالية جعلت الحمير نفسها تخالها منبعثة منها.

ويزعم المتنبى أن شعر الشعراء الذين كانوا يزاحمونه على الحظوة لدى سيف الدولة ليس سوى أصداء لشعره. ومثلما يستغنى بالصوت عن الصدى يستغنى بشعره عن سائر الشعر. فمثلما يفضل الصوت الصدى تفضل أشعاره سائر الأشعار.

ويذكر كانط أن مقلد تغريد العندليب قد بلغ من الإتقان والجودة المرتبة التى جعلت السامعين يعتقدون أنه تغريد صادر عن عندليب حقيقى، فاستحسنوه وأثنوا عليه تبعا لما أحدثه فيهم من طرب واعتقدوه من ظن.

ولكن هذه المواقف الثلاثة وهى تؤيد علاقة المحاكاة بين الطبيعة والفن تطرح من القضايا ما يبدو، عند التأمل، جديرا بتلطيف النظر أهلا لمزيد التدبر.

فالذى عند الجاحظ أن المحكى قابل لأن يفضل الطبيعى. يدل على هذا قوله: إن الحمير كانت «قبل ذلك تسمع نهيق الحمار على الحقيقة فلا تنبعث لذلك ولا يتحرك منها متحرك، حتى كان أبو دبوبة يحركه». ويعلل الجاحظ هذا بقوله: «ولقد كان جمع جميع الصور التى تجمع نهيق الحمار فجعلها فى نهيق واحد». فالمحاكاة تفضل الطبيعة عندما تجمع صورها المتنوعة وتصوغها فى واحد يمثلها ويحوى خصائصها. فكان أبا دبّوبة قد جعل، فى تقدير الجاحظ، من محاكاته نهيق الحمار «الجوهر» الذى تؤول إليه الأعراض وتشتق منه.. وإذا اعتبرنا نهيق أبى دبّوبة مكتسبًا ونهيق الحمار غريزيًا أمكن القول إن الجاحظ يذهب إلى أن المكتسب (وهو ثقافى) قادر على أن يفضل الطبيعى، أو أن فى الثقافى شيئًا ليس فى الطبيعى. وهذا الشىء هو الذى يمكن الثقافى من الاضطلاع بوظائف لا يضطلع بها الطبيعى.

وأما الذى عند كانط فيبدو مفيدا فى أكثر من اتجاه بما يفتح عليه من مسائل فى علاقة المحكى بالطبيعى. فالضيوف الذين استمعوا إلى التغريد المنبعث من مقلد العندليب قد استحسنوه واستملحوه واستلطفوه وأعجبوا به وطربوا له عندما كانوا يعتقدون أنه ينبعث من عندليب حقيقى. وما أن عرفوا أنه ليس أكثر من تقليد محكم الإتقان ينبعث من إنسان ماهر فى المحاكاة حتى انقلب استحسانهم استقباحا واستملاحهم استسماجا وإعجابهم اشمئزازا وارتياحهم استيحاشا وطربهم انزعاجا. فرغم أن المحكى فى ذاته قد أحدث فى النفوس الوقع ذاته الذى أحدثه الطبيعى فإن معلومة بسيطة لا علاقة لها بالفن قابلة لأن تفسد المتعة وتبطل الطرب والإعجاب وتحدث انقلابا فى الحكم الجمالى.

أما المتنبى فإن الصوت فى مثاله والصدى لا فرق بينهما إلا من حيث إن الصوت ينبعث من «الطبيعة» (سليقة الشاعر هنا) وأن الصدى امتداد للصوت لانبعاثه عنه. فكلما كان العمل الفنى ألصق بالطبيعة كان أفضل وكلما كان أقرب للثقافى ولو شاكله تمام المشاكلة كان أقل قيمة من الطبيعى الصريح. غير أننا، مع مثال أبى الطيب، إنما نقف إزاء مصدر الإبداع ومنبعثه وإزاء المبدعات الفنية فى علاقتها بعضها ببعض. فالمتنبى لا يتحدث عن المصنوع فى علاقته بالطبيعة التى يحتذيها لأنه ركز مثاله على علاقة المصنوع بالصانع. فالقول الشعرى ينبعث من طبع المرء، من الطينة التى جبل عليها والمعدن الذى صيغت منه مواهبه.

يسلم التأمل فى هذه الأقوال الثلاثة إلى مجموعة من النتائج تتعلق بالأعمال الفنية وبالأحكام التى نصدرها فى شأنها.

ولعل أولى هذه النتائج وأقربها إنما تتمثل فى أن قيمة العمل الفنى لا تتجسم فى الموضوع الذى يتناوله بالمحاكاة. وهذا، فى الحقيقة، رأى قديم متواتر شديد التواتر فى الأعمال النظرية والتطبيقية القديمة. وهو يرد بيّنًا جليًا فى الخبر الذى يذكره الجاحظ. فنهيق الحمار ليس من الأصوات التى تلتذ بها الأسماع أو تطرب لها النفوس، بل هو كثيرا ما تشبه به الأصوات المنكرة. وهذا يعنى أن التعجب من نهيق أبى دبّوبة لا ينبعث من المحكى ذاته الذى هو نهيق الحمار إذ هو فى ذاته

صوت كريه. ولأسلافنا الفلاسفة المسلمين كلام كثير في هذه الموضوع أدرجود في الفصول التى خصّوا بها «المحاكاة» من تصانيفهم.من ذلك مثلا ما ذهب إليه الشيخ الرئيس ابن سينا فى قوله:«إن النفوس تنشط وتلتذ بالمحاكاة،فيكون ذلك سببا لأن يقع عندها للأمر فضل موقع.والدليل على فرحهم بالمحاكاة أنهم يسرون بتأمل الصور المنقوشة للحيوانات الكريهة المتقزز منها، ولو شاهدوها فى أنفسها لنطّوا عنها.فيكون المفرح ليس نفس تلك الصور ولا المنقوش بل كونها محاكاة لغيرها إذا كانت قد أتقنت». وعندما نظر حازم القرطاجنى فى «المحاكاة»قال:«فيكون موقعها فى النفوس مستلذا، لا لأنها حسنة فى أنفسها بل لأنها حسنة المحاكاة لما حوكى بها عند مقايستها به». وفى نقدنا الأدبى والبلاغى القديم أمثلة كثيرة تستوقف بقدرتها على الإقناع بأن العمل الفنى ليس متجسما فى الموضوع الذى يتناوله لعل من أبرزها قول عبد القاهر الجرجانى فى أسرار البلاغة:«وقد علم أن ليس فى الدنيا مثلة أخزى وأشنع،ونكال أبلغ وأفظع،ومنظر أحق بأن يملأ النفوس إنكارا،ويزعج القلوب استفظاعا له واستنكارا،ويغرى الألسنة بالاستعاذة من سوء القضاء ودرك الشقاء،من أن يصلب المقتول ويشبح فى الجذع،ثم قد ترى مرثية أبى الحسن الأنبارى لابن بقية حين صلب وما صنع فيها من السحر حتى قلب جملة ما يستنكر من أحوال المصلوب إلى خلافها وتأول فيها تأويلات أراك فيها وبها ما تقضى منه العجب:

علوّ فى الحياة وفى الممات
بحقّ أنت إحدى المعجزات
كأن الناس حولك حين قاموا
وفود نداك أيام الصلات
كأنك قائم فيهم خطيبا
وكلهم قيام للصلاة
مددت يديك نحوهم احتفاء
كمدهما إليهم بالهبات».

والقصيدة طويلة.

وهذا يسلمنا إلى النتيجة الثانية،وهى تتمثل فى أن «الأثر الجمالى»الذى تحدثه الأعمال الفنية فى النفوس عندما تحركها بالإعجاب والتعجب و الاندهاش والاستحسان والروعة، لا ينتج عن أننا نشاهد فى الأعمال الفنية الأشياء والموجودات الطبيعية التى تضطلع بمحاكاتها،فلو كان ذلك كذلك لكانت تلك الأشياء والموجودات الطبيعية كفيلة ،فى حد ذاتها،بأن تحدث فى النفس الأثر الذى تحدثه نظائرها فى النفوس.وهذا يعنى أننا نعجب أكثر ما نعجب ونمتع أقوى ما نمتع ونستحسن أشد ما نستحسن فى الأعمال الفنية قوة المهارة وجودة الإتقان وتلك القدرة العجيبة على البلوغ بفعل المحاكاة أقصى مراتب الجودة مجسمة فى التماثل بين المحكى والطبيعى.إن إعجابنا يتولد إذن عن المهارة التى بلغت بإتقان المصنوع الإتقان الكامن فى الطبيعى. ولما كانت الأشياء والموجودات الطبيعية قد أوجدتها قوة طبيعية فى حين أوجدت المصنوعات قوة مكتسبة (ثقافية) ، كان الموجودان (الطبيعى والصناعى) المتشابهان بالمحاكاة شيئين، فى الحقيقة، مختلفين قامت بينهما علاقات التشابه والتماثل والتشاكل.وهذا فرق دقيق فطن له باحثون كثيرون منهم ،على سبيل المثال،جيرار جنيت، واعتمدوه مدخلا للنظر فى المصنوعات الفنية فى زمن نفذت فيه التقنية إلى أدق أسرار المبدعات الفنية المتفردة فأنتجت منها الكثير المتشابه الذى يظل، مهما حاكى بعضه بعضا المحاكاة التامة ،بعيدا دون مرتبة الفن الخالص.

وفى الحقيقة فإن الأعمال الفنية قد ظلت، منذ نشأتها، تراوح بين السعى إلى المشاكلة والمشابهة والمناسبة والمطابقة فى محاكاة الطبيعة وبين الإمعان فى الابتعاد عنها. أليس أن أنهى ما وصلت له بعض النزعات الفنية قد تجسم فى إحلال الطبيعى فى الفن محل الطبيعى فى الوجود بإقحام عنصر أو أكثر من عناصره فيه وتجليته كما هو فى المصنوعات الفنية (نشير إلى جبن الكاممبير يدرج فى اللوحة التى تمثله لإضفاء الرائحة . والمثال أشهر من أن يذكر) .أليس أن الابتعاد عن المشاكلة الموضوعية تظل،مهما هوّمت فى اللامعقول، مشاكلة لانعكاس الموجودات والأشياء الطبيعية فى الذات الصانعة. فما نبصره من الموجودات والأشياء الطبيعية ليس الأشياء والموجودات الطبيعية ذاتها و إنما ما يظهر ويتراءى منها لا غير.وما يظهر ويتراءى منها لا يتطابق معها. وهذا كله يسلم إلى القول بأن المفاضلة بين الموجودين اللذين أوجدت أحدهما القوة الطبيعية وأوجدت الآخر القوة المكتسبة لا يستقيم ولا يمكن أن يقاس بمقياس الأصل والصورة أو الصوت والصدى . وليس بالتالى يستقيم أن نذهب إلى أن الفنان يكرر الطبيعة حتى تكون المقارنة بين الأصل (الطبيعى) والنسخة (الثقافى) فى أساس التعامل مع الفن.

وأما النتيجة الثالثة فتتعلق بالأحكام الجمالية التى تطلق فى الأعمال الفنية. والمتواتر فى شأن طبيعة «الحكم الجمالى» أنه ليس حكما معرفيا. فقولنا مثلا «هذه زهرة جميلة». عبارة تتضمن قسما معرفيا حكمنا فيه بأن ما نشاهده «زهرة» وليس شيئا آخر. وهذا الحكم يدرج الشىء فى الجنس أو النوع الذى ينتمى إليه. ثم إن العبارة تتضمن حكما آخر يتجسم فى لفظة«جميلة». وهذا ليس من المعرفة إذ أن مردّه إنما هو إلى الوقع الذى أحدثه مرأى الزهرة فى النفس. إنه حكم مشدود، فى الظاهر من أمره،إلى الحواس. وإذا كان الحكم المعرفى غير قابل،فى الغالب وبالنسبة إلى الملموسات المألوفة،لأن يختلف فيه الناس، وإذا اختلفوا فيه اختلفوا على أساس حظه من الصحة والخطأ، فإن الحكم الجمالى نسبى وقابل لأن يختلف الناس فيه كثيرا،إذ أن ما تراه جميلا ليس بالضرورة جميلا عند غيرك، بل إن ما تراه اليوم جميلا قد لا تراه كذلك غدا أو بعد لحظات.

ولكن المثال الذى وضعه كانط يخرج بالأحكام الجمالية من نطاق النسبية إلى نطاق آخر. فالضيوف استلطفوا التغريد الذى استلطفوه واستحسنوه وطربوا له عندما كانوا لا يعرفون أنه ينبعث من آدمى ماهر فى محاكاة تغريد العنادل. وما عرفه الضيوف لا علاقة له لا بخصائص التغريد فى حد ذاتها ولا بالأثر الذى أحدثه فى النفوس،فعلاقته إنما هى بالمنبع الذى انبعث منه. فالذى أثر فى حكم الضيوف فى محاكاة تغريد العندليب محاكاة جيدة أمر من حيز الأخلاق لا من حيز الفن.إن إحساسهم بأنهم قد خدعوا هو الذى جعل حكمهم ينتقل من الاستحسان إلى الاستقباح. ولا نعتقد أن حكمهم فى المحاكاة المتقنة متحول إلى الضد لو كانوا على سابق علم بأن الذى سيستمعون له إنما هو تقليد بشرى لتغريد العندليب. ومع هذا فإن المثال يظل يعنى أن الأحكام الجمالية ، فضلا عن نسبيتها، قابلة لأن تتأثر عميق التأثر بعناصر وعوامل ومؤثرات لا صلة لها بالأعمال الفنية فى حد ذاتها أو بالوقع الذى تحدثه فى النفوس.وفى تواريخ الفنون أمثلة كثيرة جدا يتجلى فيها تدخل ما لا علاقة له بالفن فى الحكم الجمالى فى الأعمال الفنية. ويعرف المطلعون على التراث النقدى ما كان من استحسان ابن الأعرابى لإحدى القصائد حتى أمر بكتابتها وعندما أعلم أنها من الشعر المحدث قال:«خرق خرق». أما فى زماننا هذا فالأمثلة الدالة على تدخل الأهواء والعصبيات السياسية والمذهبية والعقائدية والأخلاقية فى الأحكام الفنية فأكثر من أن تذكر.

ولكن هذه النتيجة الثالثة بقدر ما تبدى أحكامنا الجمالية مضطربة واهية ومترددة قلقة لا تحظى بالارتياح لها تفتح ،عند مزيد التأمل، مجالات أخرى لفهم الأعمال الفنية والتعامل معها. فالسر فى أن أحكامنا الجمالية لا تستند، فى الغالب، إلى مقاييس موضوعية صارمة إنما يبدو كامنًا فى أن التشخيص الجمالى يظل منحصرا فى نطاق الأعمال الفنية عملا عملا لا يتجاوزها إلى غيرها. ذلك أنه ليس للفن خصائص وسمات قارة ومميزات ثابتة وأمارات مستقرة يمكن أن نستدل بها عليه أو أن نعتمدها اعتمادا صارما فى وضع تعريف جامع مانع له. فبإمكان المرء أن يتعرّف إلى الفن، أما أن يضع له التعريف الذى يحده حدا دقيقا فأمر لا إمكان له ، إذ الفن حسب فتغنشتاين يعرف ولا يعرّف. ولكل عمل من الأعمال الفنية خصائص ومميزات ينتمى بها إلى الأعمال الفنية وتفرده دون أن تتعدّاه إلى الأعمال الفنية الأخرى. وإذا تعدت خصائص عمل فنى نطاقه إلى أعمال أخرى فليس من الضرورى أن يكون لها فيها الأثر الذى كان لها فيه. لهذا كثيرا ما تكون الخاصية الجمالية نفسها المستحسنة فى عمل مستقبحة فى عمل آخر. وهذا يسلم إلى أنه من الخطأ أن نستخرج من أى عمل فنى الخصائص والسمات والمميزات التى تميزه وتفرده فنسحبها على سواه مقاييس نقيّمه بها. وهذا يحيل مرة أخرى إلى العلاقة بين الطبيعى والمحكى فهما تشاكلا يظلان شيئين مختلفين لكل منهما المقومات الذاتية التى تفرده. ومن العناصر الذاتية التى تفرد المحكى أنه مصنوع ثقافى لا يحمل بصمات الإنسان فحسب ففيه كثير من مقومات الكيان والوظيفة.

ولعل آخر ما تسلم إليه الأحكام الجمالية من نتائج أنها تصاغ فى خطاب يطرح هو أيضا قضايا ومسائل كثيرة. فهو مثلا كثيرا ما يرد فى صيغ مجازية استعارية. فنحن ننسب إلى المبدعات الفنية فى الخطاب الجمالى صفات من قبيل «الرقة والمتانة والقوة والرشاقة والملاحة واللطافة» ونسند إليه عبارات من قبيل«كثرة الماء وشدة الطلاوة وملاحة الوقع». ومن خصائص العبارات الاستعارية أنها تتضمن معنى أصليا اصطلاحيا ومعنى أو معانى استعارية تستعمل استعمالاً مؤقتًا . ويمكن أن نرى فى تلك الصيغ الاستعارية من حيث إنها تتجه إلى ما يعرف بـ«القياس الفنى» تمييزا له عن «القياس المنطقى» لمخاطبته ما وراء العقل والحس من ملكات الإدراك التخييلى ومن حيث إنها مؤقتة أيضا ، تطابقا مع الرأى الذى يذهب أصحابه إلى أن الفن يعرف ولا يعرّف إذ هو يدرك فى الأعمال الفنية نفسها عملا عملا إدراكا اختباريا.

وهذا كله يسلم إلى أن التعثر المشاهد فى المشغل النظرى وهو يشهد سعيا متواصلا دءوبا إلى وضع النظرية الجمالية دون أن يحالفه فى ذلك التوفيق، وأن التردد بين احتذاء الطبيعة بالمحاكاة والابتعاد عنها ومجانبتها للنفاذ إلى صميمها، وأن القلق الظاهر فى الأحكام الجمالية واطّراد تأثرها بما لا علاقة له بالفن من متنوع العوامل، وجنوح العبارة فى الخطاب الجمالى إلى المجاز وإفراطه فى التعلق بالاستعارة، إنما هى ،عند التأمل، أوجه لتجربة جمالية يثرى فيها التعامل مع الأعمال الفنية ويسهم أيما إسهام فى إنارة مسالك العلاقة بها.■

وإذا اعتبرنا نهيق أبى دبّوبة مكتسبا ونهيق الحمار غريزيا أمكن القول إن الجاحظ يذهب إلى أن المكتسب (وهو ثقافى) قادر على أن يفضل الطبيعى، أو أن فى الثقافى شيئا ليس فى الطبيعى. وهذا الشىء هو الذى يمكن الثقافى من الاضطلاع بوظائف لا يضطلع بها الطبيعى

عـــــروض مـــوجـــزة

كتب عربية

من النهضة إلى الردة
تمزقات الثقافة العربية فى عصر العولمة

جورج طرابيشى

بيروت: دار الساقى، ٢٠٠٠، ١٩٢ صفحة



يناقش المؤلف عددًا من مشاريع النهضة الدالة من وجهة نظره، يعرض لبعض «الرهانات الخاسرة» كما يسميها، التى تهاوت بفعل الصراع الذى ميَّز الثقافة العربية المعاصرة بين إرادة النهضة وإرادة الردة، ومادامت الرهانات خاسرة، فمن البديهى أن التى انتصرت فى نهاية المطاف هى إرادة الردة.

يبدأ المؤلف من قاسم أمين ونزعته النسوية، ففى كتابه الأول «المصريون» يرد على الدوق «دراكور» الذى عرض لنقائض المصريين كما رآها، وفى كتابه تحرير المرأة، يصبح تعدد الزوجات عنوانًا للمجتمعات التى تحتقر المرأة، ويصبح حجب النساء فى البيوت إفسادا لصحتهن وتعبيرًا عن حال انحطاط مزرٍ، ويصير من الضرورى تقييد الطلاق كى لا يترك الحبل على غاربه للرجل، بعد ما كان حقًا منحه الشارع، انقلابه إلى حد رفض الحجاب كلية، والقول بصراحة إن «مصر لن تتقدم إلا إذا تغربت وتاوربت»، ويفسر المؤلف هذا التحول بأن الجرح النرجسى هو الذى أملى على قاسم أمين أفكار كتابه الأول، أما دافع النهضة فهو الحافز خلف كتابيه التاليين.

أما طه حسين فقد استبدل بالتماهى الجزئى المحفِّز على التحديث والعصرنة التماهى الكلى حين أطلق قولته المشهورة: علينا أن نصبح أوروبيين فى كل شىء، وهذا المنهج لا يرضى المؤلف، إذ يرى فيه تغريبًا لا تحديثًا، والأول سلب للهوية وإفقار إلى حد الإعدام، أما الثانى فتطوير للهوية وإغناء للشخصية.

وتحت عنوان الانفتاح والانغلاق فى الثقافة العربية الإسلامية، يشير المؤلف إلى البون الشائع بين ما دعا إليه فلاسفة ومفكرو المسلمين فى عصور خلت، وما ينادى به الأصوليون اليوم، فالأخيرون لم يرفضوا حلم المأمون بأن يكون «العقل أولاً ثم الشرع» بل يرفضون موقف الغزالى الذى رأى فى العقل نورا والشرع نورا وإنهما معًا «نور على نور»، إنهم - وفق ما يرى المؤلف - يريدون أن يردوا المسلمين إلى عصور الانحطاط فى الحضارة العربية الإسلامية، لا إلى عصور العطاء والتلاقح والانفتاح على الحضارات والثقافات الأخرى. وتلخيصًا لموقف الحضارة والثقافة الإسلامية من الأخر، وبعد استعراضه لمحطات أربعة: الجاحظ والتوحيدى وصاعد الأندلسى وابن خلدون، ينتهى إلى أن الحضارة العربية الإسلامية لم تعرف أبدًا لاهوت نفى الآخر، الذى هو «نتاج عصابى لتلك الشريحة من الأنتلجنسيا العربية التى يصدق فيها الوصف بأنها مريضة بالآخر».

ويخصص المؤلف قسمًا لنجيب محفوظ، أديب نوبل الذى اعتبره المؤلف فيلسوفًا بالوكالة، إذ بعد توقف الفلاسفة عن الفلسفة، كان على محفوظ أن يحمِّل أدبه فلسفته الخاصة، ويستشهد المؤلف بنماذج روائية من المرحلة الواقعية الأولى ثم المرحلة الرمزية أو الميتافيزيقية التى تنتمى إليها أولاد حارتنا والطريق وملحمة الحرافيش، وقد سعى محفوظ فيها إلى «علمنة الدين» كما يقول المؤلف، الذى يناقش أيضًا خطاب محمد أركون وجلال أمين وزكى الأرسوزى وياسين الحافظ، كاشفًا عن دوافع النهضة ومظاهر الردة فى مشاريعهم جميعًا.

□ □ □

للسياسة بالسياسة
فى التشريح السياسى

محمد سبيلا

الرباط: أفريقيا الشرق، ٢٠٠٠، ١٨٠ صفحة



انخرط المجتمع المغربى منذ دخول الاستعمار تدريجيًا فى الحداثة، وبعد الاستقلال، بدأ فى التحول - حسب المؤلف - بقدر غير قليل من العنف نحو رأسمالية شرسة تخترقه على كافة المستويات، وفى ظلها صارت كل الأشياء بما فيها القيم بضاعة قابلة للبيع والشراء، وقد عززت التقنيات هذا التوجه، وانعكس ذلك على السياسة والأحزاب والمشتغلين فى إطارها، فلم يعد هدف النضال السياسى تحقيق مبدأ أو إنجاز فكرة، بل صار «فى ظل تحول العديد من الأحزاب إلى ماكينات انتخابية موسمية ضخمة، طريقًا إلى اكتساب الثروة والنفوذ والوجاهة».

وإزاء هذا التحول يطالب المؤلف الهيئات السياسية وكل المشتغلين بالشان العام بإعادة الاعتبار للأخلاق فى العمل السياسى، بهدف تحسين صورة الفاعل السياسى فى الوعى الشعبى، وهو ما يتطلب برأيه تطوير ثقافة سياسية ديمقراطية تسمح بالنقد والمحاسبة.. «بحيث تصبح المحاسبة حقًا للجميع وليست عقوقًا أو تمردًا أو شقًا لعصا الطاعة»، وفى دراسة تالية عن معالم الحداثة السياسية يشير المؤلف إلى أن الثقافة الديمقراطية القائمة على الحرية والتعاقد والنظام والمصلحة العامة. وثقافة حقوق الإنسان تتضافران معًا للحد من شطط السلطة واستبداد الساسة، وتشرِّع الحوار والنقاش بديلاً للعنف كحل لكافة معضلات المجتمع، وبتضافرها تنشا دولة الحق والقانون.

ويدافع المؤلف فى موضوع آخر عن اليوتوبيا فى السياسة، ويراها ضرورية فى البلدان النامية خصوصًا، حيث يستلزم عدم التوازن بين النمو الاقتصادى والنمو السكانى، تخلى الخطاب السياسى عن قسط من واقعيته لحساب اليوتوبيا.. «وهى وحدها القادرة بعملية سينمائية على إرجاء الإشباع أو تحويله من الواقع إلى المتخيل».

والحق أننا إذا كنا نتفق مع المؤلف على أهمية الخيال وتحفيز الأمل لدى الجماهير فى الخطاب السياسى، فإننا نتحسب - وربما يشاركنا المؤلف - من أن تتحول اليوتوبيا فى الخطاب السياسى إلى عملية تزييف للوعى الشعبى وخداع تضر أكثر مما تفيد.

ويؤكد المؤلف فى موضع آخر على فكرة بالغة الأهمية، مفادها أن السياسة كلما كانت عقلانية وبالتالى ديمقراطية وتعددية، استطاعت أن تستجلب التصديق لدعاواها الأخلاقية والمثالية، وكلما كانت استبدادية اضطرت إلى اللجوء إلى المثل والقيم الأخلاقية لاستثمارها فى تدعيم سيطرتها، «فالسياسة العقلانية والديمقراطية هى أقل أنواع السياسة احتياجًا للدعم والتبرير والتمويه الأخلاقى، لأنها فى العمق أكثر ارتباطًا بالقيم الأخلاقية النبيلة كالخير والاحترام والعدل والحرية».

ولا يغفل أيضًا الإشارة إلى أوهام الساسة وأوهام المثقفين، فالنخب المثقفة تولِّد وتستهلك الأوهام والاستيهامات، والقاسم المشترك بين هذه النخب جميعًا هو عدة أوهام: وهم المركزية، إذ تعتقد كل نخبة أنها مركز المجتمع وجوهر نشاطه، ووهم الفاعلية: إذ تعتقد كل نخبة أنها دينامو المجتمع ومحرك التطور وبوصلة التاريخ، ثم وهم الصدق والمصداقية، فكل نخبة تعتقد أنها ضمير الأمة ورهان تطورها وتقدمها.

والسياسيون بدورهم - كما يقول المؤلف - ليسوا أقل استهلاكًا و«إنتاجًا» للوهم من كافة النخب الأخرى، إنه كرنفال أوهام يجعلهم يتصورون أنهم يقودون دفة التطور الاجتماعى ويصنعون التاريخ.

أفكار عديدة يضمها الكتاب الذى يميز مؤلفه بين المشتغلين للسياسة والمشتغلين بها أو عليها، فالأولون أصحاب مبادئ ودعاة إنجاز، أما الأخيرون فهم من يستثمرونها فى الإثراء وتوسيع دوائر النفوذ.

□ □ □

صناعة الثقافة السوداء

إيليس كاشمور

ترجمة: أحمد محمود

القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٠، ٢٧٥ صفحة



يطرح المؤلف سؤالاً بالغ الأهمية: هل توجد ثقافة سوداء خالصة؟ وهو فى سبيله للإجابة على السؤال يتناول صور هذه الثقافة فى الولايات المتحدة الأمريكية أواخر القرن التاسع عشر وطوال القرن العشرين، والاستنتاج المهم الذى يؤكده هو أن هذه الثقافة «الهجين» تم استغلالها لصالح المستثمرين البيض أكثر منها لصالح الفنانين السود، وهذه الثقافة ليست ثقافة أفريقية خالصة، لكنها وليدة ظروف عاشها الأمريكيون المنحدرون من أصول أفريقية فى سنوات الرق والعبودية والنضال ضد العنصرية، وكانت هذه الثقافة هى وسيلتهم لتأكيد هويتهم، لكن العقلية الرأسمالية للغالبية البيضاء، حوَّلت هذه الثقافة الرائجة إلى سلعة، حقق منها البيض مليارات، وكى يسوِّقوا سلعتهم بالغوا فى وصف تلك الثقافة بالأصالة، وكذلك فعل السود من أنصار المركزية الأفريقية، وحين أثرى السود وصاروا بدورهم مستثمرين، سارعوا أيضًا إلى تسليع الثقافة السوداء وبيعها للأغلبية البيضاء الذين وضع المستثمرون السود بعضهم فى مناصب إدارية عليا كى يسهِّل تجارته ومشاريعه واستثماراته فى مجتمع قد لا يرغب مستثمروه من البيض فى الدخول فى مشاريع مع أشخاص سود.

ويشير المؤلف إلى دور أساسى للثقافة السوداء هو التخفيف من الإحساس بالذنب لدى البيض تجاه ما اقترفوه فى حق السود.

ويجيب المؤلف على الادعاء بأن بعضًا من السود يحتلون مكانة مرموقة فى المجتمع ويمارسون دورهم ضمن

عـــــــروض موجـــــــزة

ثقافة التيار العام فى الولايات المتحدة الأمريكية، بأن هذا البعض هو من وقع عليه الاختيار من البيض وفق شروط محددة، كما أن هؤلاء امتلكوا مواهب غريبة. وجاءت تصرفاتهم على حساب إنسانيتهم الكاملة والتكيُّف مع صورة الآخر التى رسمها البيض كى يسمح لهم بالاندماج فى التيار العام، وهكذا شاعت سينمائيًا صورة «سامبو» المسلى والزنجى المخيف، فإذا تعلق الأمر بالنساء برزت صورتان: المرأة المتاحة جنسيًا التى تتساوى مع العاهرة، والمربية السمينة التى لا توحى بأنوثة من أى نوع، ويشير المؤلف إلى ما عانته «بيلى هوليداى» مغنية الثلاثينيات الشهيرة فى الولايات المتحدة، التى كان يطلب منها رغم شهرتها، ألا تتحدث إلى الجمهور فى الملاهى التى تغنى فيها، وحين كانت تنزل فى أحد الفنادق لم يكن يسمح لها باستخدام مصاعد النزلاء وإنما تستخدم مصعد البضائع.

ويتناول المؤلف مفارقة أمريكية يراها فى التناقض بين الحرب البلاغية والقمع الفعلى الذى يمارس على الأمريكيين الأفارقة، فبرغم ما منحه الدستور للسود من حقوق، فقد ظلوا يعانون قهرًا وعنصرية، وكانت الثقافة هى مخرج السود للإفلات من دائرة المعاناة، وتأكيد شخصيتهم وهويتهم، وكانت الكنيسة هى الرحم الذى خرجت منه الثقافة السوداء، فى شكل قوالب موسيقية كالجوسبل والأغانى الروحية والبلوز، وقد قدم هذا الحل الثقافى تعويضًا للسود لكنه لم يرفع عنهم الظلم السياسى، وهو ما دفع مارتن لوثركنج إلى تبنى مطالب ذويه فى الستينيات، وكذلك فعل مالكولم إكس مع اختلاف بيِّن فى المنهج، وانتهى حلم السود باغتيال الاثنين حيث اغتيل كنج عام ١٩٦٨ وسبقه إكس بثلاث سنوات.

وجاءت ردود أفعال السود ارتدادا عن يوتوبيا كنج، وهو ما عكسته أغنية جيمس براون الشهيرة: قلها بأعلى صوتك أنا أسود وأنا فخور بذلك.

وظهرت «ديانا روسى» التى عملت بالسينما ونجم الروك هندريكسى، وأخيرًا «جاكسون فايف» الذى لمع منه أصغر أعضائه سنًا «مايكل» الذى صار معبودًا للجماهير وبدأ فى الانسلاخ تدريجيًا عن أصوله العرقية الأفريقية، وشاعت موسيقى الراب وهى تعبير عن شعر الشوارع بما يمثله من عنف وجنس ويأس واختلاف.

صناعة الثقافة السوداء، تعبير عن معضلة أمريكية ربما كانت أحداث لوس أنجلوس الأخيرة صورتها الفاضحة.

◻ ◻ ◻

نهاية اليوتوبيا

السياسة والثقافة فى زمن اللامبالاة

راسل جاكوبى

ترجمة: فاروق عبدالقادر

الكويت، عالم المعرفة، ٢٠٠١، ٢٧٠ صفحة



اليوتوبيا كما يشير إليها الكتاب هى الاشتراكية، الحلم الذى صارع الاشتراكيون كى يحولوه واقعًا يمشى على قدميه طيلة عقود طويلة، تهاوى الحلم، بل صار كابوسًا مزعجًا. سقطت الاشتراكية فى معاقلها وتسيدت الرأسمالية، ولم يعد حتى الاشتراكيون أنفسهم يأملون فى عودة أحلامهم القديمة فى «القضاء على الرأسمالية وإعادة بناء الاقتصاد على أسس اشتراكية كى تتخلص الإنسانية من آلامها»، صار أقصى الغايات هى تقليل الكلفة الاجتماعية الناجمة عن التطبيقات الرأسمالية - بحسب رأيهم - إلى أدنى الحدود الممكنة.

لكن بعكس الشائع، فإن المؤلف يؤرِّخ لنهاية يوتوبيا الاشتراكية ببدايات الخمسينيات، بالتحديد فى سبتمبر ١٩٥٥ حين التقى عشرات المفكرين والمثقفين فى متحف «ميلان الوطنى للعلوم والتكنولوجيا» ليناقشوا موضوع «مستقبل الحرية»، وانتهوا جميعًا إلى قناعة واحدة مؤداها أن «الشيوعية خسرت معركة الأفكار مع الغرب».

المؤلف يلفت النظر إلى مسألة بالغة الأهمية، يمجدها البعض بوصفها واحدة من ميزات «الكوكبة» والعالم الجديد، فيما يراها هو خرافة ليس أكثر، إنها التعددية الثقافية، وهى الوصفة الملائمة لعصر بلا أيديولوجية، والمؤلف ليس ضد التعددية فى ذاتها، لكنه ضد تجلياتها ومضمونها المعاصر، إذ صارت أفكار التعددية والتنوع مقدسة.. «شيكات على بياض قابلة للدفع لأى شخص وبأى مبلغ». ولم تعد تعنى فى الواقع سوى «المطابقة»، والمطابقة هنا هى على النموذج الأمريكى بالذات، والتعددية الثقافية بهذا المعنى القاصر الحاد، هى ثمرة منطقية لنهاية اليوتوبيا.

ويفرد المؤلف فصلاً عن ثقافة النخبة وثقافة الجماهير، ويشير إلى كتابات تعاملت مع ثقافة الجماهير برؤية نقدية واعية، بالذات لدى «ماكدونالد» اليسارى الأمريكى الذى رأى فى هذه الثقافة هبوطًا واستغلالية، برغم أن كثيرين من نقاد عصره ومجايليه من الكتاب رأوا فى منهجه تناقضًا مع الديمقراطية، لكن «ماكدونالد» يقدم وعيًا مغايرًا مفاده: أن ثقافة الجماهير مفروضة من فوق، يضعها الفنيون المستأجرون لرجال الأعمال، وجمهورها مستهلك سلبى (...) إن السادة يستغلون الاحتياجات الثقافية للجماهير من أجل تحقيق الأرباح واستمرار سيطرة طبقتهم. أين المثقفون إذن من هذا كله؟

يشير المؤلف إلى كتاب «مانهايم» عن الأيديولوجيا واليوتوبيا، وبرغم اجتهاد المؤلف فى أن يثبت زيفهما، فقد ختم كتابه بعبارة تنسف رؤيته ذاتها، يقول: إن اختفاء اليوتوبيا سيؤدى إلى حالة من الثبات والجمود لا يصبح فيها الإنسان نفسه أكثر من شىء (...) وعندما يبلغ الوعى أعلى مراحله، وحين يتوقف التاريخ عن أن يصبح قدرًا أعمى ويصبح أكثر فأكثر من إبداع الإنسان، فإن التخلى عن اليوتوبيا يعنى أن الإنسان سيفقد إرادته فى تشكيل التاريخ ومن ثم قدرته على فهمه». فهل ستسعد الإنسانية حقًا حين تنتهى اليوتوبيا؟

◻ ◻ ◻

الإسلام فى الألفية الثالثة

ديانة فى الصعود

مراد هوفمان

تعريب: عادل المعلم، يس إبراهيم

القاهرة: مكتبة الشروق، ٢٠٠١، ٢٧٥ صفحة



هل يمكن التسليم تمامًا بمقولة «فوكوياما» عن نهاية التاريخ وسيادة الحضارة الغربية بقيمها الليبرالية، وكذا ادعاءات «صمويل هنتنجتون» عن صراع الحضارات؟

مقولة «هنتنجتون» تم دحضها ببديل طرحه الرئيس الإيرانى محمد خاتمى يميز بين الحضارى والثقافى، ولا يعتبر انحدار أمة ما حضاريًا دليلاً دامغًا على انهيارها الثقافى، ويقدم صيغة مغايرة تقوم على حوار الثقافات، تنفى الصراعية وتشير إلى روح التعاون وتبادل المنفعة من أجل العمران كما نصت على ذلك شريعة الإسلام، أما مقولة «فوكوياما»، فيبدو أن السنوات القليلة المقبلة ستتكفل بتكذيبها.

«مراد هوفمان» المفكر والدبلوماسى الألمانى الذى عاش خمسين عامًا كاثوليكيًا وعشرين عامًا مسلمًا، يطرح فى هذا الكتاب تصورًا مغايرًا لمن رأوا أن الإسلام سيتهاوى أمام صعود «الليبرالية المتوحشة» بحسب تعبير الاقتصادى المصرى الراحل رمزى زكى - أو أنه سيواجه تحديًا عاتيًا أمامها فى أحسن الظروف، لن ينتهى بانتصاره على أى حال، ويبشرنا «هوفمان» استنادًا إلى معاناة المجتمعات الغربية على الصعيد الأخلاقى والقيمى، والمآسى التى عاشتها البشرية خلال القرن المنقضى، بأن الإسلام سيصعد وتزداد الحاجة إلى قيمه التى تتحاور مع الآخر بالتى هى أحسن ولا تنفيه، وهو يبدأ من عصر التنوير الغربى ومسئولية آبائه «ديفيد هيوم» و«فولتير» و«جوته» و«نيتشه» و«ديكارت» و«لوك» وغيرهم فى إشاعة قيم الإلحاد وإبعاد كل ما هو دينى عن حياة الناس، وبالتالى تحلل الأسرة وانتشار الجريمة وتقنين الشذوذ والإباحية، باختصار تحول المجتمع الغربى إلى مجتمع مدمن، أيًا ما كان شكل هذا الإدمان.

لكن «هوفمان» لا يكتفى بنقد آباء التنوير الغربيين، بل ينتقد آباء التنوير من المسلمين، كذلك المسلمين المعاصرين الذين أساءوا إلى صورة الإسلام بتواكلهم وابتعادهم عن أسباب العلم والمعرفة وما حثهم عليه دينهم من العمل والاجتهاد، اكتفاءً بإقامة الشعائر، رافضين قيمًا كالديمقراطية هى من صلب الإسلام وإن اتخذت مسمى مختلفًا.

المؤلف يطرح قضايا عديدة للنقاش، يجيب عن بعضها مستفيدًا من خبرات مسلمى ألمانيا وأوروبا وأمريكا، ويترك بعضها مفتوحًا للجدل العام.

وينتقد الموقف الأوروبى المتعصب تجاه المسلمين بوصفهم جسمًا غريبًا فى حضارة الغرب، ويعرض لبعض الاستبيانات التى أجريت هناك والتى بيَّنت أن الأوروبيين ينقسمون فى نظرتهم للإسلام، بين كونه خطرًا على حضارة أوروبا أم لا. لكنه وإن حمَّل الأوروبيين شطرًا من المسئولية، فإنه لا ينفى عن المسلمين شطرها الآخر.

عماد الغزالى

عـــــروض مـــوجـــزة

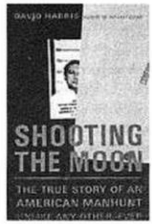
كتب أجنبية

Shooting the Moon: The True story of An American Manhunt Unlike any other, ever

(إطلاق النار على القمر: القصة الحقيقية لعملية مطاردة أمريكية مبتكرة)

David Harris

Little Brown, 2001, 394PP., $ 26.95



يكشف المؤلف في هذا الكتاب المثير، تفاصيل جديدة في العملية الأمريكية التي جرت في عهد الرئيس الأمريكي الأسبق جورج بوش الأب للقبض على الزعيم البنمي مانويل نورييجا بتهمة الاتجار بالمخدرات. وقد كانت عملية غير مسبوقة بالنظر إلى أنها كانت المرة الأولى التي تتهم دولة مثل الولايات المتحدة زعيم دولة أخرى بالاتجار بالمخدرات وتسعى لاعتقاله.

ويسرد المؤلف ما يقول إنه جهد غير عادي من جانب المدعي العام الفيدرالي الأمريكي ديك جريجوري ومسئول المخدرات ستيف جريللي اللذين تغلبا على كل الصعوبات التي كانت تعترض طريقهما لإقامة الدعوى ضد نورييجا وللمفارقة فإن هذه الصعوبات والاعتراضات كانت تأتي من جانب مسئولين أمريكيين خاصة في إدارة مكافحة المخدرات.

ويعدد المؤلف الأسباب التي ربما بسببها أراد «الرجال الأقوياء» في واشنطن أن يمضي نورييجا في طريقه دون أن تصطدم به واشنطن. فقد قدم زعيم بنما مساعدات كبيرة لإدارة مكافحة المخدرات الأمريكية جعلت مسئوليها يعلنون أنه أهم صديق للإدارة، كما أنه كان حليفًا للمخابرات المركزية الأمريكية ولوزارة الدفاع الأمريكية وربما يكون قد ساعد في العمليات السرية الأمريكية في أمريكا الوسطى وشارك في فضيحة «إيران كونترا».

وأيضًا فإن نورييجا تمتع بحماية القانون البنمي باعتباره كان يشغل قائد جيش بنما والرجل القوي فيها وكان يقود جيشًا قوامه ١٠ آلاف رجل. لكن نورييجا بالنسبة لديك جريجوري وستيف جريللي كان الشيطان مجسدًا على الأرض، وكان رمزًا لكل شيء سيئ من خلال تورطه في تجارة المخدرات.

ويتحدث المؤلف عن سير العملية العسكرية التي غزت بمقتضاها الولايات المتحدة بنما لاعتقال نورييجا ثم يتابع حياة جريجوري وجريللي بعد ذلك ويشير إلى أنه رغم نجاحهما في إقامة الدعوى على نورييجا إلا أنهما فشلا في متابعة حياتهما العملية بنجاح بعد ذلك.

□ □ □

When the State Kills: Capital Punishment and the American Conditions

(عندما تقتل الدولة)

Austin Sarat

Cloth, 2001, $ 29.95



قبل أسبوعين تقريبًا نفذت السلطات الفيدرالية الأمريكية حكم الإعدام في تيموثي مكفاي الأمريكي الذي أدين بتفجير مبنى «أوكلاهوما سيتي» قبل سنوات، والذي أسفر عن مصرع العشرات وإصابة المئات بجروح وأثارت عملية تنفيذ الإعدام ضجة واسعة النطاق أولاً: لأن هناك من يطالب بإلغاء عقوبة الإعدام كلية، وقد زاد عدد من يتبنون هذه الرؤية في الولايات المتحدة. وثانيًا: لأن تنفيذ الإعدام تأجل عدة أسابيع بعد اكتشاف أن هناك آلاف الأوراق التي لم يتم اطلاع الدفاع عليها من جانب الادعاء العام.

وقد اعتبر مفكرون أوروبيون أن استمرار الولايات المتحدة في تنفيذ عقوبة الإعدام يمثل نوعًا من البربرية والوحشية ووضعت منظمة «العفو الدولية» الولايات المتحدة في قائمة الدول التي تنتهك حقوق الإنسان بسبب استمرارها في التمسك بتطبيق هذه العقوبات.

ويجادل مؤلف الكتاب بأن من الضروري إلغاء عقوبة الإعدام في الولايات المتحدة لأن هذه العقوبة تقوض أسس المجتمع الديمقراطي.

ومن خلال دفاع عقلاني وعاطفي في آن واحد يؤكد المؤلف أن حق الحياة مقدس وأنه لا يحق لأحد أن ينتزع هذا الحق مهما كانت الأسباب.

والمشكلة أن هناك نسبة معتبرة من الأمريكيين لازالت تؤيد عقوبة الإعدام وخاصة بعد الحادث غير المسبوق في التاريخ الأمريكي، وهو تفجير مبنى أوكلاهوما سيتي الأمر الذي يعني أن تنفيذ العقوبة سيستمر، كما أن الرئيس الأمريكي الحالي جورج بوش الابن يؤيد العقوبة، وقد أعطى موافقته عندما كان حاكمًا لولاية تكساس لتنفيذ أكبر عدد من أحكام الإعدام بالمقارنة مع الولايات الأخرى.

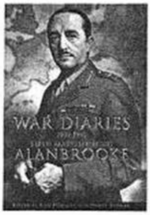
□ □ □

War Diaries 1939- 1945: Field Marshal Lord Alanbrooke

(يوميات الحرب ١٩٣٩-١٩٤٥: المارشال اللورد آلان بروك)

ed by Alex Danchev and Daniel Todman

Weidenfeld, 2001, 763PP., £25.00



فجرت هذه اليوميات التي كتبها المارشال آلان بروك رئيس أركان القوات البريطانية خلال الحرب العالمية الثانية «لورد بروك فيما بعد»، نقاشات واسعة النطاق داخل المجتمع البريطاني رغم أنها تتناول أحداثا جرت قبل أكثر من ٦٠ عامًا لكن صراحتها وجرأتها وطرافتها جعلتها تبدو كما لو كانت جديدة.

وتبدو الجرأة في اليوميات من خلال انتقادات شديدة وشرسة لاستعدادات الجيش البريطاني ومدى النقص وعدم الكفاءة والتساؤلات التي يسألها لنفسه، وهو رئيس أركان الجيش، كيف يمكن لهذا الجيش أن يفوز؟

ولأن بروك كان يكتب يومياته كل ليلة، فإن هذه اليوميات تبدو مثل خطاب طويل مليء بالحب والشعور بالوحدة وقد وجهه بروك لزوجته الثانية.

ومن أطرف ما في اليوميات علاقته بونستون تشرشل رئيس الوزراء البريطاني أثناء الحرب العالمية الثانية ويبدو ذلك من خلال ما كتبه عن لقائه بالجنرال الأمريكي مارشال الذي قال إنه نادرًا ما يلتقي بالرئيس روزفلت لأسابيع عديدة وعندها رد بروك قائلاً: «أما أنا فأكون محظوظًا لو لم أر تشرشل كل ٦ ساعات». وقد مرت العلاقة بين تشرشل وبروك بلحظات غضب ونقاش حاد للغاية وخاصة عندما يصر تشرشل على رأي لا يوافقه عليه أحد.

ولم يسلم جنرالات كثيرون من هجوم بروك خاصة المارشال مونتجمري قائد القوات البريطانية في معركة العلمين والجنرال الأمريكي دوايت أيزنهاور قائد قوات الحلفاء.

وبالطبع فإن بروك يقول عن هؤلاء الجنرالات إنهم لا يفهمون ويعتقدون رغم ذلك أنهم عباقرة. وميزة اليوميات الكبيرة أنها انطباع شخصي صريح لواحد من أكبر قادة الحرب العالمية الثانية عن قوات بلاده وعن قادتها وعن الحلفاء بشكل عام وعن تعامل العسكريين مع السياسيين في تلك الأوقات العصيبة.

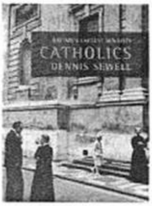
□ □ □

Catholics : Britain's largest Minority

(الكاثوليك: الأقلية الأكبر في بريطانيا)

Dennis Sewell

Viking, £ 20, PP 275, 2001



أصبحت الكاثوليكية خلال السنوات القليلة الماضية أقرب «للموضة» لدى بعض الشخصيات العامة والسياسية والفنية في بريطانيا، وتحدثت الصحف كثيرًا عن أن توني بلير رئيس الوزراء البريطاني يذهب إلى الكنيسة الكاثوليكية مع زوجته شيري وهي كاثوليكية. واعتبر البعض ذلك مقدمة لأن يتحول بلير الذي ينتمي للكنيسة الانجليكانية البريطانية، إلى الكاثوليكية. ومن حين لآخر تذكر الصحف ووسائل الإعلام أن هذا الفنان أو تلك الفنانة تحولت إلى الكاثوليكية.

ويتواجد الكاثوليك في بريطانيا وسط بيئة غير متوائمة بشكل كبير فالأغلبية التي تنتمي للكنيسة الأنجليكانية تنظر إلى الكاثوليكية نظرة غير مريحة وتحتفظ لها في الذاكرة بتاريخ من القيود الشديدة وربما الاضطهاد، كما أن الأمر لا يعدم أن تخرج أصوات متشددة من حين لآخر تتحدث بما لا يليق تمامًا عن الكاثوليكية مثلما تحدث القس البروتستانتي الأيرلندي الشمالي إيان بيزلي، وهو بالمناسبة زعيم حزب سياسي مؤيد لبقاء الإقليم ضمن التاج البريطاني، ليصف بابا الفاتيكان بأنه شيطان.

ويبلغ عدد الكاثوليك ٤ ملايين (إجمالي عدد سكان بريطانيا ٥٨ مليون نسمة) وهم يتواجدون بشكل مؤثر في عديد من المؤسسات خاصة الإعلام والصحافة ولا يعتبرون أنفسهم فئة منعزلة عن بقية المجتمع البريطاني خاصة المسيحي منه. وقد لعب الكاردينال الراحل هيوم زعيم الطائفة الكاثوليكية دورًا مهمًا في إعطاء انطباع حسن عن الكاثوليك.

ويعتقد الكاثوليك أن بريطانيا بلد متسامح إلى درجة كبيرة، وإذا كانت هناك محاولة لتأكيد أن بريطانيا بلد متعدد الديانات والثقافات ويشمل ذلك الإسلام والبوذية، فمن باب أولى حسب رأي الكاثوليك أن يكون لهم مكان في ذلك البلد.

□ □ □

قـــــراءات جــــديـدة

تاريــــــخ

الإنسان تجليات الأزمنة
تاريخ وحضارة بلاد الرافدين، الجزيرة السورية

تغريد الهاشمي، حسن حسين عكلا
سوريا: دار الطليعة الجديدة، ٢٠٠١

يبدأ الباحثان بتاريخ العصر السوري الوسيط، متناولين المهن والحرف التي عمل بها الناس في هذه الفترة، ثم يتناولان العصر السوري المتأخر والمعارك التي دارت فيه، وكيف سقطت دولة الحيثيين وغيرها من إمارات ساحل الشام، ثم يعرضان للسياسات التي سادت سوريا منذ ظهور الإسلام، وحتى قيام الدولة العباسية.

■■■

تاريخ عمان

صالح أحمد العلي
عمان: دار الحكمة، ٢٠٠١

دراسة عن حياة المجتمع العماني ونشاط سكانه عبر التاريخ، والطبيعة السكانية للعمانيين وتأثير جغرافية المكان عليها واشتغالهم بالصيد والملاحة وارتباط ذلك بسمات الشخصية العمانية.

■■■

مجموع الفضائل في فن النسب وتاريخ القبائل

راشد بن فاضل البنعلي
تحقيق: حسين بن محمد بن علي
بيروت: بدر للنشر، ٢٠٠١

مسح لأهم القبائل الخليجية وتاريخها ونشاطها وأنسابها، والمعارك التي دارت بين القبائل وأسبابها ونتائجها، وأهم ما ورد عن تلك القبائل في كتب التاريخ القديم.

■■■

تاريخ الديانة اليهودية

محمد خليفة حسن
القاهرة: دار قباء، ٢٠٠١

يكشف تاريخ الديانة اليهودية عن الألاعيب والأكاذيب التي قامت عليها الصهيونية مستغلة بعض النصوص التوراتية المحرّفة في صناعة الترويج لدولة إسرائيل الكبرى، وهو ما يكشفه المؤلف عبر استعراضه لتاريخ تلك الديانة.

■■■

The Rise of the Young Turks: Politics, The Military and Ottoman Collapse

(صعود تركيا الفتاة: السياسة والجيش والانهيار العثماني)
M. Naim Turfan
Tauris, 2001, 490PP., $45.00

المؤلف مفكر وعالم سياسة تركي تعلم في المعاهد والجامعات البريطانية، وهذا الكتاب هو خلاصة أطروحته للدكتوراه ويتناول دور الجيش في الحياة السياسية في تركيا، خاصة في عهد تركيا الفتاة، ويفحص بشكل خاص السنوات من ١٩٠٨ إلى ١٩١٣.

■■■

The Power of Gold: A History of An Obsession

(قوة الذهب)
Peter L. Bernstein
Wiley, 2001, 432pp., £17.99

الكتاب يروي قصة الذهب منذ ٢٠٠٠ عام قبل الميلاد، ويقوم خلال هذا باستعراض سريع للتاريخ النقدي للعالم.

■■■

Paris Between Empires: 1814 - 1852

(باريس بين امبراطوريتين: ١٨١٤ - ١٨٥٢)
Philip Mansel
J Murray, 2001, 522pp., £25.00

يتناول فترة حساسة وثرية في تاريخ فرنسا لم يكتب عنها الكثير، تلك الفترة التي تلت سقوط نابليون الأول عام ١٨١٤، والتي امتدت حتى قام ابن أخيه نابليون الثالث بإنشاء الإمبراطورية ثانية عام ١٨٥٢.

يتناول الكتاب الشخصيات التاريخية التي ظهرت على الساحة آنذاك مثل لويس الثامن عشر ولويس فيليب، كما يتناول ثورتي عام ١٨٣٠ وعام ١٨٤٨.

تســــويق

مقدمة في شعرية الإعلان

جميل عبدالمجيد
القاهرة: دار قباء، ٢٠٠١

تبدو هذه الدراسة مختلفة عما يمكن أن يدرس عن موضوع الإعلان، فقد تعرضت دراسات سابقة لآداب الإعلان واقتصادياته وطرق ترويجه وتصميمه.. إلخ، لكن هذه الدراسة تحيل الإعلان الذي هو بطبيعته تجاري وربما ابتزازي إلى موضوع شعري، فتتحدث عن استفادة الإعلان من الأجناس الأدبية والفنية المختلفة مثل الدراما والقصيدة والنثر، أي أن للإعلان خطابًا أدبيًا خاصًا ومؤثرًا.

■■■

Advertising on the Internet

(الإعلان في شبكة الإنترنت)
Robbin Lee Zeff, Brad Aronson
John Wiley & Sons, 1999, 448PP., $29.99

الكتاب يقدم نصائح مفيدة للشركات التي تريد تسويق منتجاتها عن طريق الإعلان عنها على شبكة الإنترنت. ويقوم بتغطية المسائل الفنية التقنية إلى جانب القواعد القانونية الدولية الحاكمة الضرورية لإنجاح الإعلان وتحقيق الأرباح.

ثقافة شعبية

الآخر في الثقافة الشعبية.. الفلكلور وحقوق الإنسان

سيد إسماعيل
القاهرة: مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان، ٢٠٠١

كما شغل الآخر المفكرين على مر العصور، يبدو أنه كان ضمن اهتمامات الفلكلور والتراث الشعبي كذلك، هذا ما يقوم به المؤلف، حيث يعرض لنماذج من الأدب الشعبي التي تعكس الرؤية للآخر والموقف منه رفضًا أو قبولاً.

■■■

Looking for the Perfect Beat : the Art and Culture of the DJ

(بحثًا عن الإيقاع الصحيح : ثقافة وفن الدي جاي)
Kurt B. Reighley
MTV Books, 2000, 176pp., $12.95

كلمة دي جاي هي اختصار ديسك جوكي، وهي وظيفة هامة جدًا في عالم الموسيقى الشعبية الحديثة. فالدي جاي هو الشخص الذي يقف خلف لوحة تشغيل الأسطوانات المسجل عليها مختلف أنواع الأغاني والموسيقى التي تذاع في الحفلات الراقصة وفي الأستوديوهات الإذاعية أيضًا، وهو لا يقوم فقط بتشغيل الأسطوانة ولكنه يقوم بعملية فرز واختيار ومزج، كما يستطيع التحكم في نوع وسرعة الإيقاع الذي تقدم به الموسيقى، لذلك يمكن اعتباره عازفًا للأسطوانات وليس فقط مشغلاً لها.

روايــــــة

امرأة ما

هالة البدري
القاهرة: روايات الهلال، ٢٠٠١

رواية عن حب الإنسان للحياة ومحاولاته الدائمة التصدي للظروف القاسية واختبار قدراته وطاقاته الكامنة، والخروج من دوائر القهر والمحاصرة، والمؤلفة صوت فريد في الأدب النسائي قدمت أعمالاً روائية عديدة.

■■■

تل اللحم

نجم والي
بيروت: دار الساقي، ٢٠٠١

ترسم الرواية الواقع الدامي في العراق، وتكشف عن الوجه الحقيقي للحروب التي خاضها العراق وقادته إلى ما وصلت إليه الأمور، وقد كان الشعب هو الضحية في كل الأحوال، حيث عاني - ومازال - من الفقر والجوع والمرض.

■■■

حارة الشحاذين

حنا مينا
بيروت: دار الآداب، ٢٠٠١

تتناول الرواية حقبة بالغة الأهمية في حياة السوريين، وهي فترة الانتداب الفرنسي التي انتهت في الأربعينيات، والقهر الذي عاشه الشعب السوري خاصة الفقراء تحت الانتداب، وكيف توالت عليهم الأحكام الجائرة من الفرنسيين بالطرد والسجن والتعذيب دون سبب.

■■■

By the Sea

(بجوار البحر)
Abdulrazak Gurnah
Bloomsbury, 2001, 249PP., # 16.99

المؤلف أديب أفريقي مسلم من زنزيبار (أو تنزانيا حاليًا) وقد رشحت رواية سابقة له اسمها «باراديس» للفوز بجائزة بوكر.

تحكي هذه الرواية قصة رجلين من زنزيبار يتقابلان في إنجلترا بلد المهجر ويكتشفان وجود عداوة قديمة بينهما، ومن خلال هذا اللقاء يقوم المؤلف بإبراز المعاني المتداخلة لكل من الكبرياء والذاكرة والحقيقة.

■■■

I Spit on your Graves

(أنا أبصق على قبوركم)
Boris Vian
Translated by the Author and Milton Rosenthal
Canongate, 2001, 141PP., $ 17.00

صدرت هذه الرواية أول مرة في باريس عام ١٩٤٦، وبالرغم من أن مؤلفها هو بوريس فيان الفرنسي إلا أنه خدع الناشر والجمهور وقدمها باعتبارها ترجمة لرواية أمريكية محظورة في الولايات المتحدة كتبها أمريكي أسود يدعى فيرنون سوليفان.

كان هذا أثناء موجة من الولع الفرنسي بكل ما هو أمريكي، ولاقت الرواية نجاحًا كبيرًا لما تتضمنه من جراءة وعنف ودموية صادمة، وأيضًا لهجومها على السياسات العنصرية في الولايات المتحدة. وقد منعت في باريس عام ١٩٤٧ بعد أن قام أحد الأشخاص بارتكاب جريمة قتل ووضع إلى جانب جثة قتيلته نسخة من الكتاب احتوت على علامات بجانب الفقرات التي تشرح كيفية قيام البطل بخنق ضحاياه من النساء.

■■■

Dictators

(دكتاتوريون)
Brian Glanville
Smaller Sky Books, 2001, 278PP., £8.99

تقوم الرواية على علاقة بين شخصيتين تاريخيتين في إيطاليا: موسوليني وتوسكانيني المؤلف الموسيقي الكبير. يرى المؤلف أن هناك تشابهًا في الشخصيتين بالرغم من الخلاف الذي نشب بينهما. تجري أحداث القصة في الثلاثينيات من القرن العشرين على لسان صحفي أمريكي من أصل إيطالي.

ســـياســـة

Citizinship and National Identity

(المواطنة والهوية القومية)
David Miller
Polity Press, 2000, 219PP., $29.95

يدافع المؤلف عن النموذج الجمهوري للمواطنة النشطة باعتباره الأكثر تحقيقًا للعدالة بالمقارنة بنموذج المواطنة الليبرالية التي أصبحت النغمة الحديثة في الديموقراطيات الغربية خاصة في أوروبا.

كذلك يدافع المؤلف عن مبدأ الهوية القومية باعتباره الدافع الأهم لتحريك المواطنين نحو العمل المشترك باسم العدالة، بينما يرى أن محاولات تشجيع المواطنة العابرة للقوميات كالتي تقوم بها أوروبا الآن لن تضمن الاستقرار والحقوق السياسية المرغوبة للمواطن.

■■■

American Patriots: The Story of Blacks in the Military From the Revolution to Desert Srorm

(قصة السود في الجيش الأمريكي من الثورة إلى عاصفة الصحراء)

Gail Lwmet Buckley

Random Houre, 2001, 534PP., $29.95

يتناول الكتاب تاريخ مشاركة السود الأمريكيين في الدفاع عن أمريكا بالرغم من التفرقة العنصرية الرسمية التي سادت في الجيش الأمريكي حتى الحرب العالمية الثانية. استغرق الإعداد البحثي للكتاب أربعة عشر عامًا، أجرت خلالها المؤلفة أيضًا مئات من المقابلات مع رجال ونساء من السود شاركوا في الحروب الأمريكية المختلفة والتي تنتهي في الكتاب بحرب الخليج الثانية.

ومن بين المؤشرات التي تدل على تطور مكانة السود في الجيش الأمريكي تزايد أعداد المقيدين في مختلف الرتب من السود، فمنذ شهر يونيو عام ٢٠٠٠ بلغت نسبة السود الذين يمثلون ١٢٪ من نسبة سكان الولايات المتحدة ٢٩٪ من أفراد الجيش، و٣٦٪ من الضباط، و٨٪ من الجنرالات.

■■■

Does America Need A Foreign Policy? Toward A Diplomacy for the 21st Century

(هل أمريكا في حاجة إلى سياسة خارجية؟ نحو دبلوماسية القرن والواحد والعشرين)

Henry Kissinger

Simon & Schuster, 2001, $ 30.00

يحتوي أحدث كتب هنري كيسنجر على مسح جيولوجي لعالم ما بعد الحرب الباردة. سبعة فصول يتناول كل منها مجموعة من الدول الرئيسية، سماتها الثابتة ومصالحها القومية وما يجب على واشنطون أن تنتهجه تجاهها، حتى تضمن في النهاية أن لا تصعد قوة في أي منطقة توحد الآخرين في مواجهة ضد الولايات المتحدة.

سير ومذكرات

ذكريات الفكر الجامعي العربي

علي زيعور

بيروت: المكتب العالمي للطباعة والنشر، ٢٠٠١

يمكن اعتبار الكتاب سيرة ذاتية يعرض فيها المؤلف لأفكاره وفلسفته وقراءاته أثناء دراسته في الجامعات الفرنسية، كما يعرض لمواقف أصدقائه المقربين والقضايا التي كانت محور اهتمامهم ونقاشهم خصوصًا ما يتصل منها بالفكر العربي المعاصر.

■■■

أيقونة الفن

جورج بهجوري

القاهرة: دار شرقيات، ٢٠٠١

الجزء الثاني من سيرة بهجوري، كان الجزء الأول حمل عنوان «أيقونة فلتس» وفيه عرض بهجوري لنشأته وتربيته وطفولته الأولى وتوقف عند التحاقه بكلية التربية الفنية والقيم الفنية التي تربى عليها، وفي هذا الجزء يتناول بهجوري مسيرته الفنية والأساتذة الذين أثروا عليه وتربى عليهم فنيًا وبداياته في مجلتي «صباح الخير» و«روزاليوسف» وعلاقته بزملائه من الفنانين والشعراء والكتّاب وتأثير رحيل عبدالناصر عليه، وتأثير السنوات التي عاشها في باريس على توجهاته الفنية.

■■■

Life is a Menu: Reminiscences and Recipes from a Master Chef

(الحياة قائمة أكلات: مذكرات ووصفات من شيف معلم)

Michel Roux

Constable, 2001, 262pp., £18.99

أحد أشهر الطهاة الفرنسيين في بريطانيا، يكتب مذكراته منذ طفولته الفقيرة في باريس وحتى وصوله إلى قمة الشهرة. عمل ميشيل رو في السفارة البريطانية كما خدم في الجيش الفرنسي في الجزائر، أما أهم ما أثر في حياته فكان عمله طاهيًا لسيسل دي روتشايلد، الذي يحتل هو وزوجته على وجه الخصوص جانبًا كبيرًا من هذه المذكرات.

■■■

باطن الهواء

ياسمين زهران

القاهرة: دار ميريت، ٢٠٠١

تحولت الحياة في الأراضي الفلسطينية إلى معاناة يومية، جحيم يحتاج إلى مقاومة مستمرة لإثبات القدرة على الاستمرار والبقاء، فالقرى الفلسطينية حوصرت بمستعمرات استيطانية يمارس سكانها من اليهود أقصى درجات الإرهاب والقسوة مستفيدين من بشاعة الآلة العسكرية الإسرائيلية وضراوتها في مواجهة مدنيين عُزّل، وكذلك من الصمت المطبق لمجتمع دولي تحكمه قواعد ظالمة.

ما الذي يمكن أن يفعله الحصار والقهر بهؤلاء الناس، وكيف يمكن أن نمد لهم يد المساعدة، هذا ما تناقشه المؤلفة في كتابها.

■■■

Hans Christian Anderson: The Life of a Storyteller

(هانز كريستيان أندرسون: حياة قصّاص)

Jackie Wallschlager

Alfred A. Knopf, 2001, 489 PP., $ 30

أحدث هانز كريستيان أندرسون الأديب الدنماركي ثورة في أدب الأطفال التي كانت مجرد دروس أخلاقية مكررة، حيث أدخل عليها مشاعر الأسى والفكاهة التي توجد في الأعمال الأدبية الكبيرة لكن في إطار من السيطرة الجمالية، وكانت النتيجة أن أعماله نافست إبداعات الرومانتيكيين من أبناء عصره. من أشهر أعمال أندرسون الخالدة «ملابس الإمبراطور الجديدة» و«ملكة الثلج» و«البطة القبيحة». وتلك الأخيرة هي مفتاح قصة حياته الشخصية، حيث كان في طفولته وشبابه قبيحًا منطويًا يسخر زملاؤه منه. وكان أبوه إسكافيًا فقيرا ولكنه إنسان ذكي، أما أمه فكانت جاهلة تؤمن بالخرافات ولكنها أثرت خياله بمعرفتها بالتراث الشعبي. يتناول هذا الكتاب حياة وكفاح هانز أندرسون وسمات شخصيته التي ظلت معذبة رغم الشهرة التي نالها في نهاية حياته.

فنـــون

العرض الأول.. نظرات في الفيلم العربي القصير وسينما الفيديو

زياد الخزاعي

قطر: منشورات مهرجان السينما العربية المستقلة، ٢٠٠١

يسعى المؤلف إلى اكتشاف قوالب جديدة ووضع أطر مختلفة لسينما الشباب والسينما التجريبية الواعدة، التي من خلالها فقط يمكن إنقاذ صناعة السينما العربية وتطوير أدائها من المستقبل لتواكب السينما العالمية.

■■■

مأزق البطل الوحيد.. سينما أوليفر ستون

نورمان كيجان

ترجمة: أمين العمري

القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠١

حققت سينما أوليفرستون المعادلة الصعبة، نجاح جماهيري كبير وتقدير نقدي واضح ضمن لها عددًا من جوائز الأوسكار، هذا الكتاب يستعرض أفلام ستون وما كتب عنها نقدًا وتحليلاً، ليس فقط من جانب المتحمسين لها وإنما الرافضين لها كذلك، كما يستعرض الفيلم ظروف إنتاج كل فيلم، وموقع سينما ستون في إطار سينما المستقبل.

شـــعـــر

سياف الزهور

محمد الماغوط

دمشق: دار المدى، ٢٠٠١

يحاول الماغوط في هذه القصائد تعزية روحه بعد فقدانه رفيقة دربه، كما يرسم في قصائد أخرى أحزان الوطن وهمومه، مازجًا إياها بأحلام شعبه وطموحاته وحدود تحققها.

■■■

في صباح جميل كهذا

فريد أبوسعدة

القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، ٢٠٠١

يضم الديوان ٢١ قصيدة لشاعر ينتمي إلى جيل الستينيات الشعري، وهو صوت مميز بين أبناء جيله، من قصائد الديوان «موت الحصان الجميل»، وقد أصدر الشاعر قبل ديوانه الأخير عدة دواوين منها «الغزالة تقفز في النار»، «ذاكرة الوعل» ومسرحية شعرية «الليلة الأخيرة للسهروردي».

الجندي الذي رأى الطائر في نومه

سيف الرحبي

ألمانيا: دار الجمل، ٢٠٠١

يصنع الشاعر عالمه من مفردات بيئته الصحراوية حيث صراع الموت والحياة والجفاف والقسوة التي يفرضها مجتمع صحراوي على قاطنيه، لكنه ينهل من هذا المعين ما يعالج به قضايا عربية وهموما إنسانية عامة.

■■■

الديوان

وليم صعب

بيروت: دار النهار، ٢٠٠١

يضم الكتاب تسعة فصول، يتناول الأول القصائد التي ضمتها جريدة البلبل التي أنشأها المؤلف في فترة الحرب الأهلية اللبنانية، ثم أشعار النضال الوطني منذ عام ١٩٥٢ وحتى عام ١٩٦٠، والقسم الثالث أشعار صوفية، والأقسام التالية أشعار متنوعة الموضوعات والمشارب.

■■■

Skeptical Music: Essays on Modern Poetry

(مقالات في الشعر الحديث)

David Bromwich

University of Chicago, 2001, $ 49

المؤلف يعمل أستاذًا للأدب الإنجليزي بجامعة يايل الأمريكية. ويقوم في هذا الكتاب بمعالجة وظيفة النقد الشعري ويقدم نقدًا تطبيقيًا لعدد من الشعراء المعاصرين.

طب وصحة عامة

روماتيزم العظام ومتاعب الظهر والركبة

أحمد فؤاد الغباري

القاهرة: دار الهلال، ٢٠٠١

تقدم السلسلة العلمية في هذا الكتاب أكثر أمراض العظام شيوعًا وهو الروماتيزم. يتناول المؤلف أسبابه كالإصابات المختلفة في العظام وتناول عقاقير طبية على سبيل الخطأ وغيرها من الأسباب، كما يقدم نصائح لكيفية تفادي هذا المرض وتجنب مخاطره، كما يعرض لأمراض أخرى مثل تآكل الغضاريف والذئبة الحمراء والنقرس شارحًا أسبابها وأعراضها وطرق الوقاية منها وعلاجها.

■■■

Eat, Drink and be Healthy: The Harvard Medical School Guide to Healthy Eating

(كل واشرب وتمتع بصحة جيدة: دليل مدرسة الطب بهارفارد للأكل الصحى)

Walter C. Willeh M.D. (editor)

Simon & Schuster, 2001, 352PP., $25.00

يتضمن هذا الكتاب هجومًا عنيفًا على الهرم الغذائى الذى توصى به وزارة الزراعة الأمريكية والذى يؤمن به معظم المواطنين الأمريكيين، حيث يحدد لهم مقدار ما يجب أن يتناولوه يوميًا من أنواع الأغذية. يأتى هذا الكتاب ليعلن أن وزارة الزراعة تريد فى المقام الأول تسويق منتجاتها، وبالتالى فإن ظاهرة البدانة المرتفعة بين الأمريكيين سببها الجرعات الغذائية المبالغ فيها بسبب تلك التوصيات التى تدرس لتلاميذ المدارس الابتدائية.

■■■

Buried Alive: The Terrifying History of our Most Primal Fear

(الدفن حيًا: التاريخ المرعب لأكثر مخاوفنا بدائية)

Jan Bondeson

Norton, 2001, 320 PP., $ 24.95

إن الدفن المبكر له تاريخ أدبى طويل منذ روميو وجولييت وروايات إدجار آلن بو وغيرهم. وقد كان هذا الخوف مبعثًا لاهتمام وقلق شعبى عارم فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كما يظهر فى الأدب والصحافة الطبية والعامة المنشورة وقتذاك. يقوم المؤلف هنا وهو طبيب يحمل دكتوراه فى الطب التجريبى باستعراض تاريخ الجدل الطبى الذى ثار حول متى تنتهى الحياة، وما هى علامات الموت الأكثر يقينية من غيرها. وقد تباينت وتطورت الاجتهادات من وضع إصبع يد المتوفى فى أذن الطبيب وحتى الإعلان عن توقف المخ الشائع الآن. كما يستعرض المؤلف الابتكارات المختلفة التى أدخلت على المشارح والتوابيت للإنذار عن وجود أحياء ولتسلية الميتين الأحياء إلى أن يتم انتشالهم!

علـــــوم

الوراثة والهندسة الوراثية بالكاريكاتير

ترجمة: أحمد مستجير

القاهرة: هيئة الكتاب، ٢٠٠١

لم تعد الهندسة الوراثية حكرًا على ذوى التخصص، صارت فرعًا من فروع المعرفة الإنسانية ينبغى أن يتاح لعامة الناس لتداخلها الشديد فى حياتهم وتأثيرها المؤكد على مستقبل البشرية مع اكتشاف الخريطة الجينية وسبل الإفادة منها فى الطب وتحسين السلالات البشرية وغيرها. المؤلف يحاول أن يبسط الهندسة الوراثية لقرائه فيقدمها بطريقة كاريكاتيرية ساخرة ومبسطة.

■■■

The Botany of Desire: A Plant's - Eye View of the World

(رؤية نباتية للعالم)

Michael Pollan

Random House, 2001, 271PP., $ 24.95

من خلال مصادر تاريخية وعلمية وأدبية يحاول المؤلف إعطاء صورة بارزة عن الدور الذى لعبه النبات فى تغيير حياة الإنسان. فالنبات ليس مجرد زينة أو كائن حى سلبى، إنما هو كائن متفاعل وإيجابى أكثر مما نظن.

ويركز المؤلف فى كتابه على تاريخ أربعة أنواع من النباتات التى نمت بفضل رعاية الإنسان لها، وهى التفاح وزهور التيوليب والحشيش والبطاطس. وكل من هذه النباتات لها علاقة بأربع رغبات إنسانية تقوم بإشباعها للإنسان فى المقابل، وهى بالترتيب: الحلاوة والجمال والتخدير والسيطرة.

فكـــــــر

أوراق بدون ترتيب

عبدالقادر حميدة

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠١

أكثر من ٤٥ مقالة كتبها الشاعر عبدالقادر حميدة على مدى سنوات، جمعها فى هذا الكتاب.. منها: الشعر مغتربًا، محمود أبوالوفا: شاعر كرَّمه شوقى وأنكره طه حسين، أزمة النقديين بين الغضب اللفظى والغضب الموضوعى، القرآن الكريم مترجمًا، وغيرها من المقالات التى ترسم ملامح أدبية ونقدية لمرحلة زمنية طويلة.

■■■

رهانات النهضة فى الفكر العربى

ماهر شريف

دمشق: دار المدى، ٢٠٠١

على طول التاريخ العربى ظل سؤال النهضة مؤرِّقًا، متارجحًا بين ضرورات النهضة ومحاذيرها، وليس أدل على انتكاسة هذه النهضة من أن السؤال مازال مطروحًا فى الألفية الثالثة. المؤلف يناقش رهانات النهضة مستفيدًا من أعمال سلامة موسى والكواكبى وغيرهما.

■■■

المرأة السودانية.. ظلمات الماضى وإشراقاته

مختار عجوبة

القاهرة: مركز الدراسات السودانية، ٢٠٠١

تناول المؤلف المسكوت عنه فى تاريخ السودان الحديث، خصوصًا موقف المرأة فى المجتمع السودانى الذى تأزَّم بشدة مع الحرب الأهلية السودانية والصراع المحتدم بين شمال السودان وجنوبه لأسباب عرقية ودينية. ويعرض بالتحليل لما كتبه المؤرخون عن تاريخ المرأة السودانية وصراعاتها، كما يقدم دراسة مستقلة عن أدب المرأة فى السودان.

■■■

قراءات فى الثقافة والسلطة والإعلام

خالد الكركى

بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠١

يواصل المؤلف ما بدأه فى كتابات سابقة عن علاقة المثقف بالسلطة، وكيف تبدو هذه العلاقة شائكة ومرتبكة، وكأن المثقف والسلطة ضدان لا يلتقيان، وهو يحكى من معين تجربة شخصية خصبة حيث تولى رئاسة اتحاد الكتَّاب الأردنيين وعمل بوزارة الثقافة ووزارة الإعلام ثم شغل منصب رئيس الديوان الملكى، والخلاصة التى يقدمها لنا فى كتابه هى أن لكل سلطة أساليبها وأدواتها فى كبح جماح المثقفين والتضييق عليهم.

■■■

البحث عن الحقيقة. الوعى البشرى وحقائق الكون

عبدالله المعجل

بيروت: دار الساقى، ٢٠٠١

يطرح المؤلف أسئلة عن المعرفة وإشكاليات البحث عن الحقيقة، ويقدم بأسلوب كيفية تغلب الإنسان على تلك المشكلات بهدف التواصل مع العالم بحضاراته وثقافاته المختلفة.

■■■

اليوتوبيا والجحيم

نبيل عبدالفتاح

القاهرة: المركز القبطى للدراسات الاجتماعية، ٢٠٠١

يناقش المؤلف فى تسعة فصول عددًا من الظواهر والتحولات الموضوعية فى عالمنا المعاصر، ويركز بالذات على التأثير المهم للعولمة على المشهد الاجتماعى فى مصر وانعكاساته على الخطاب السياسى والجدل العام بين المثقفين وفى وسائل الإعلام.

■■■

أمريكا جذور الغزو والعولمة

محمد أبوالأسعاد

القاهرة: سينا للنشر، ٢٠٠١

كتب جديد يضاف إلى عشرات الكتب التى ظهرت فى السنوات الأخيرة عن العولمة، حتى بات لدى الناس ما يمكن أن نسميه مكتبة العولمة، والمؤلف هنا يبحث فى الجذور التاريخية للظواهر التى تم تصويرها بوصفها طوق النجاة أحيانًا، وبوصفها مرحلة من مراحل تطور التاريخ البشرى فى أحيان أخرى، وهو يعالج عدة موضوعات بينها العولمة وعصر البارونات واللصوص والإمبريالية الأمريكية وغطرسة القوة والفردوس الموعود والمصير المحتوم.

فكـــــــر دينى

النبى إبراهيم فى الثقافة العربية الإسلامية

تهامى العبدولى

دمشق: دار المدى، ٢٠٠١

يتعامل المؤلف هنا مع الدين بوصفه نسقًا ثقافيًا له بنى فكرية نظرية، ويعرض لسيرة سيدنا إبراهيم عليه السلام فى الأديان الثلاثة، وهى التى يمكن أن تمثل نقطة لقاء بين الأديان الثلاثة، كما أنها يمكن أن تشكل - إذا أراد البعض - نقطة خلاف وافتراق.

■■■

السلطة السياسية عند أبى حامد الغزالى

محمد آيت على

القاهرة: وكالة الصحافة العربية، ٢٠٠١

عن حياة الغزالى ومواقفه من السلطة وتأثير السياسة على أفكاره ومؤلفاته، حيث يعرض المؤلف للفترة التى عاشها الغزالى فى بلاط الخلافة العباسية. وآرائه فى عديد من القضايا ومواقفه من الخلفاء ومواقف الخلفاء منه، مع التركيز على موضوع الإمامة بالذات.

■■■

تأجير الأرحام بين العلم والدين

طه حبيشى

القاهرة: المؤلف، ٢٠٠١

هذا هو أول كتاب يصدر فى الموضوع الذى شغل الرأى العام المصرى طوال العام الفائت، وينتظر مناقشته فى البرلمان خلال أسابيع، وفيه يجمع المؤلف آراء العلماء على اختلافها محاولاً الإجابة على قضايا النسب والأمومة وغيرها مما اختلف حوله العلماء، كما يتضمن وثائق بينها منشورات صادرة عن المجمع الفقهى بمكة المكرمة ومجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف وغيرهما.

فلســـــفة

ببلوغرافيا الفلسفة العربية

محمد حسين النجم

العراق: بيت الحكمة، ٢٠٠١

تتناول الموسوعة القوانين وفلسفة الحكمة منذ عهد حمورابى مرورًا بحضارة بابل والحضارة الإسلامية. كما تستعرض بعضًا مما قامت عليه الفلسفة العربية وارتباطها بأمور الفقه والشريعة الإسلامية، وفلسفة التصوف وعلم الكلام وغيرها من قضايا الفلسفة العربية قديمًا وحديثًا.

■■■

Knowledge and its Limits

(المعرفة وحدودها)

Timothy Williamson

Oxford University Press, 2001, 352 PP., £25.00

من السهل ملاحظة الفرق بين اعتقاد شيء ما ومعرفته، وهناك الكثير من الاعتقادات الخاطئة. بينما لا توجد معرفة خاطئة؛ لأن معرفة شيء ما تستتبع أن هذا الشيء حقيقى. لكن هل هذا يعنى أن المعرفة هى الاعتقاد الصحيح؟ هذا ما يجيب عنه أستاذ المنطق بجامعة أكسفورد فى كتابه الجديد.

فـــــلك

قصة الأيام والشهور والأرقام وتسمياتها

شحادة الخورى

دمشق: على نفقة المؤلف، ٢٠٠١

عن تاريخ الأيام ولأسباب اكتسابها الأسماء التى هى عليها، وأول من عمل بهذه التواريخ، ودور قدماء المصريين فى معرفة أيام الأسبوع خصوصًا أنهم أول من راقب

أوضاع الشمس والقمر وعدُّوا الأيام سبعة، وكيف استفادت الأمم الأخرى من هذه الإرهاصات.

■■■

An Intimate Look at the Night Sky

(نظرة مقربة لسماء الليل)

Chet Raymo

Walker & Co, 2001, 208 PP., $ 26.00

يخشى المؤلف وهو أستاذ للفيزياء فى كلية ستوتهيل، من فقدان الناس لصلتها القديمة بسماء الليل، حيث لم نعد أصلاً نشاهدها بعد أن كانت تشكل فى العصور ما قبل الصناعية جزءًا مهمًا من حياة الإنسان.

يقدم المؤلف باسلوب مؤثر معلومات عديدة عما يسبح فى السماء من كواكب وأجرام وشهب، كما يضم فى كتابه أربعا وعشرين خريطة لنجوم الليل تبين التشكيلات المختلفة لحركة النجوم عبر الفصول.

فنـــــــون

Making Music Modern: New York in the 1920s

(تحديث الموسيقى: نيويورك فى العشرينيات)

Carol J. Oja

Oxford UP, 2000, 512PP., $ 33.50

رؤية فاحصة للمشهد الموسيقى فى نيويورك خلال العشرينيات من القرن العشرين. يبين الكتاب كيف حدث فى نيويورك خلال تلك الفترة انفجار إبداعى جعل منها مركز الموسيقى الكلاسيكية الحديثة.

■■■

١٠٠ رسم وأكثر

محيى الدين اللباد

القاهرة: دار المستقبل العربى، ٢٠٠١

شغلت العولمة بوصفها مرحلة من مراحل تطور التاريخ الإنسانى المفكرين والكتّاب، وقد شهدت السنوات الأخيرة سيلاً من الكتب والدراسات التى تتناول موضوع العولمة من جميع جوانبه وبكل اللغات. ولم يقف الكاريكاتير بعيدًا عما يجرى، وفى هذا الكتاب يقدم الفنان أكثر من مائة رسم كاريكاتيرى عن موضوع العولمة بالذات، مستفيدًا مما يمنحه فن الكاريكاتير من حرية نقدية للمبدع كما يقول فى حيز محدود ما تعجز عن قوله مقالة من آلاف الكلمات.

■■■

The Wagners: The Dramas of A Musical Dynasty

(سلالة فاجنر: حكايات أسرة موسيقية)

Nike Wagner

Translated by Ewald Osers

Weiden Feld and Nicolson, 2001, 327PP., £25.00

صدر هذا الكتاب فى ألمانيا قبل أن يترجم إلى الإنجليزية، وقد قامت بتاليفه حفيدة المؤلف الموسيقى رتشارد فاجنر، التى تعمل ناقدة موسيقية ومعلقة ثقافية فى برلين.

يضم الكتاب تحليلاً نقديًا لموسيقى فاجنر الأوبرالية وأبطالها وحبكاتها ورموزها فى ضوء ما تعرفه الحفيدة من الحياة العائلية لجدها. ويظهر تأثير أسرة فاجنر على موسيقاه بوضوح فما شرحته الحفيدة عن العلاقة السيكولوجية بين الأب والابن وأسباب تكرار نموذج النساء القويات فى أوبرات فاجنر.

قـــانـون

الألغام وحقول الشيطان

شعبان أحمد سليمان- منال مصطفى غانم

القاهرة: دار ميريت، ٢٠٠١

دعوة يوجهها المؤلفان إلى أساتذة القانون الدولى وغيرهم من المعنيين فى مراكز حقوق الإنسان وإنقاذ البيئة، للاهتمام بهذا الموضوع الشائك حيث راح مئات الأبرياء ضحايا الألغام التى وضعت فى أزمة الحرب ولم يتم انتزاعها، فمن يعوض هؤلاء الضحايا، ومن ينقذ آخرين من الضحايا المحتملين.

■■■

Intellectual Property Rights in the Global Economy

(حقوق الملكية الفكرية فى الاقتصاد العالمى)

Keith E. Maskus, C. Fred Bergsten

Inst. for Intl Econimics, 2000, 270pp., $18.95

الكتاب يحلل الآثار الاقتصادية التى ترتبت على تطبيق الالتزامات الدولية بحقوق الملكية الفكرية.

للأطفــــــال

المكتبة والطفل

محمد فتحى عبدالهادى

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠١

يتناول الكتاب فى ١٢ فصلاً أنواع الخدمات المكتبية للأطفال وأهدافها وحق الطفل فى التعليم والمعلومات والأنشطة التى يقوم بها اخصائى المكتبة وكيفية إعداده مهنيًا ويقدم صورًا من واقع مكتبات الطفل فى الوطن العربى.

■■■

Open Wide: Tooth School Inside

(افتح: مدرسة الأسنان بالداخل)

Laruie Keller

Henry Holt & Co., 2000, 40PP., $ 16.95

(للأطفال من سن ٤ إلى ٨ سنوات)

قصة طريفة تقوم على فكرة تشخيص أسنان الفم، حيث تتخيل المؤلفة أن الفم عبارة عن فصل فى مدرسة به اثنان وثلاثون تلميذًا ما بين الأنياب والضروس والأسنان كل له اسمه، يجلسون على مقاعد من اللثة، ومعلمهم هو خلة أسنان خشبية. القصة بمحاكاتها الخيالية تحتوى على أكثر من درس فى تشريح الأسنان وأسلوب العناية بها مقدمة فى قالب فكاهى محبب للأطفال.

نقـــــد

محمود درويش.. شاعر الصمود والمقاومة

جمال بدران

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠١

يحتل محمود درويش مكانة بارزة على خريطة الشعر العربى، فقد استطاع أن ينقل الافتتان بشعره من خانة التعاطف مع قضية الشعب الفلسطينى وقد عبّر عنها باقتدار، إلى التقدير الكامل لشعرية معاصرة تمتلك قاموسها الخاص وغنائيتها الفريدة وتنشغل بهموم الإنسان العربى عمومًا، والإنسان الفلسطينى المحاصر داخل وطنه بشكل خاص.

المؤلف يقدم تحليلاً لشعرية محمود درويش وأسباب فرادته عبر قراءة نقدية لدواوينه وأيضًا كتاباته النثرية.

■■■

الإنسان المقهور فى أدب صنع الله إبراهيم

فراس عبيد

فلسطين: مؤسسة الأسوار، ٢٠٠١

برغم قلة الأعمال التى قدمها صنع الله إبراهيم قياسًا إلى سنوات اشتغاله بالإبداع التى قاربت نصف القرن، فإن هذه الأعمال تركت آثارًا بالغة الأهمية فى مسيرة الأدب العربى وخصوصًا الرؤية. إذ انشغلت جميعها بالإنسان المقهور وبالبعد القومى العربى وطرحت رؤى تتميز بوعى وإدراك حصيف للمخاطر المحدقة بالمنطقة داخليًا وخارجيًا، المؤلف يلقى أضواء على أعمال صنع الله إبراهيم. خصوصًا: تلك الرائحة ونجمة أغسطس وبيروت بيروت وذاتى.

■■■

تطور الدلالات اللغوية فى شعر محمود درويش

سعيد جبرة أبوخضرة

عمان: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠١

تلعب اللغة ودلالاتها دورًا مهمًا فى القصيدة، وتبين بدرجة ما، مراحل تطور الشاعر وكيفية تطويعه للغة واستخداماتها، وكيف تتطور دلالات اللفظ من مرحلة إلى أخرى فى مسيرته، المؤلف يرصد بعضًا من الألفاظ الدالة فى شعر محمود درويش منتهيًا إلى جداريته الأخيرة.

■■■

فى بنية الشعر العربى

محمد لطفى اليوسفى

تونس: المطابع الموحدة، ٢٠٠١

دراسة مسهبة عن الشعر العربى الكلاسيكى والحديث، وآراء عديد من الشعراء والنقاد فى فن الحداثة وقصيدة التفعيلة، بينهم إحسان عباس ونازك الملائكة وعزالدين إسماعيل، كما يقدم المؤلف نماذج من الشعر الحديث لبدر شاكر السياب وسعدى يوسف ومحمود درويش وأدونيس، مفسرًا كيف ساهم الخطاب الشعرى الحديث فى تكوين الوعى الشعبى، وكيف تاثر هذا الخطاب بمؤثرات غربية.

■■■

أدبيات الكرامة الصوفية

محمد أبوالفضل بدران

أبوظبى: مركز زايد للتراث والتاريخ، ٢٠٠١

دراسة فى أدبيات الكرامات الصوفية المدونة والشفهية تسعى إلى وضع أساس لنظرية الكرامات؛ إذ يرى المؤلف أن الكرامات جنس أدبى مستقل بذاته يتشابه مع القصة وإن اختلف عنها فى كون الكرامة تتمتع بقدسية لدى الصوفيين. ويتناول المؤلف موقف المذاهب والفرق الإسلامية من الكرامات وكيفية استفادة الأدب العربى منها نثرًا وشعرًا.

■■■

The Oxford Guide to Literature in Enghish Translation

(دليل أكسفورد للأدب المترجم إلى الإنجليزية)

Peter France (editor)

Oxford UP. 2001. 655PP., £ 60.00

اشترك فى هذا المرجع الكبير مجموعة خبراء من دول عديدة فى محاولة لتجميع ومناقشة الأدب العالمى الذى ترجم إلى الإنجليزية.

يناقش الجزء الأول من الكتاب قضايا نظرية متعلقة بالترجمة وتاريخها وأسلوب ترجمة الأشكال المختلفة من الآداب بين الشعر والمسرح والرواية والأوبرا.. إلخ. أما الجزء الثانى والأساسى من الكتاب فيعرض ببليوغرافيا إلى جانب مناقشات نقدية للأعمال العالمية التى ترجمت إلى اللغة الإنجليزية مرتبة حسب لغة المنشأ، ويبدأ بالكتاب المقدس ثم الأدب اللاتينى واليونانى وأدب باقى اللغات الأوروبية الحية، ثم ينتقل للأدب الشرقى، الأفريقى والآسيوى والعربى والعبرى والصينى واليابانى.

■■■

The Literature of Al - Andalus

(الأدب الأندلسى)

Maria Rose Menocal, Raymend p. Scheindin and Michael Sells (editors)

Cambridge U.P, 2000, 507PP., £ 90.00

كتاب ضخم تصدره كامبردج كاحدث جزء فى سلسلة تاريخ كامبردج للأدب العربى. تتناول فصوله كل من اللغة والموسيقى والمعرفة فى العصر الأدبى الأدلسى، كما تتناول شخصيات أندلسية مثل ابن حزم، وابن طفيل، وابن زيدون، وابن العربى، وابن الخطيب. ويناقش الكتاب كذلك إسهامات ثقافة الأندلس والتجديدات التى أدخلتها على الثقافة العربية ومن ضمنها الموشح وقصيدة الزجل. الكتاب يعطى اهتمامًا خاصًا أيضًا باليهود الذين عاشوا فى الأندلس والثقافة العبرية التى أنتجوها هناك فى ذلك الوقت من شعر وأدب إلى آخره.

لغة الفيزياء ولغة الوراثة

بمناسبة نشر مقال «وراثة اللغة ولغة الوراثة» فى عدد أبريل الماضى من المجلة أود أن أدلى بهذا التعقيب:

بانتهاء عصر الفلاسفة الأوائل السابقين على سقراط غاب السؤال عن الطبيعة.. عن العالم الفيزيقى.. من أفق الفكر الأوروبى. حتى كان اكتشاف العالم الجديد وكروية الأرض ومركزية الشمس.. إلخ، وانبثاقة العصر الحديث ليخبر الإنسان الحديث أن العالم الطبيعى أكثر رحابة وثراء من كل ما تصور الأقدمون. هكذا ألح السؤال عن الطبيعة، وتأتت الاستجابة العظمى بنشأة العلم الحديث ومنهجه التجريبى الموائم للبحث فى الطبيعة.

وهذا ما عبر عنه الرائد فرنسيس بيكون فى كتابه «الأورجانون الجديد - عام ١٦٢٠» الذى يعد «مانفستو» العلم الحديث. فى الفقرة الأولى منه يتحدث بيكون عن الطبيعة بوصفها المملكة الكبرى للمعرفة البشرية التى يستطيع الإنسان غزوها والسيطرة عليها عن طريق التجريب، وينبغى الحيلولة دون أن يتجاوزها العقل وتكريس العزم لإقصاء أى بعد ميتافيزيقى. يصف بيكون الطبيعة بالأم الكبرى للعلوم وجذع شجرة المعرفة، ولا أمل فى التقدم إلا بأن ترتد إليها العلوم جميعًا.

ذلك هو مشروع العلم الحديث الذى واصل نجاحه المشهور على أساس أن موضوع الطبيعة - أى موضوع الفيزياء - هو مجمل حلبة العلم، كل موضوعات العلوم الأخرى زوايا فى عالم الفيزياء الذى هو إطار الكون ومجمل عالم الظواهر العلمية. ثم قامت ثورة الفيزياء العظمى منذ مطالع القرن العشرين، ثورة الكوانتم والنسبية، لتقلب مثاليات العلم ومنهجه رأسًا على عقب وتجعل القرن العشرين مرحلة مستجدة من الفكر العلمى تختلف عما سبق. بيد أن هذه الثورة - الفيزيائية - جعلت العلم وفلسفته أكثر تمحورًا حول الفيزياء وأكثر انضواءً تحت لوائها.

هكذا بدت هيمنة الفيزياء على عالم العلم مسلمة بديهية، تصاعدت وتعاظمت سطوتها، فاجاد القرن العشرون تمثلها وتمثيلها، وفى أواسطه حمل الوضعيون المنطقيون - استمرارًا للمد الفيزيائى السابق لواء «العلم الموحد» الضام لسائر المباحث الطبيعية والحيوية والإنسانية على أساس أن الفيزياء هى علم العلوم والعلم الذى لا علم سواه، أو بالأحرى لا علم خارج حدوده وأطره، ويمكن اختزال كل العلوم الأخرى لترتد حدودها فى النهاية إلى الحدود الفيزيائية.

وتأكيدًا لهذا عكف نفر من الوضعيين، على رأسهم رودلف كارناب (١٨٩١-١٩٧٠) على بناء نسق منطقى لما أسموه «باللغة الفيزيائية» ووضع قواعد الصياغة فيها والتحول إليها والاستنباط منها، فتكون لغة علمية واحدة، يقال فيها كل وأى تعبير علمى، وما لا يقال فيها لا يعد علمًا، يمكن أن نصوغ فى إطارها مفاهيم وقوانين علم النفس ليغدو علم السلوك.

ربما كانت اللغة الفيزيائية تطرفًا قاصمًا، لكن تطرفها يوضح لنا كيف كان التفكير العلمى منضويًا تحت لواء الفيزياء؛ وبالتالى نتبين مدى الانقلاب الجوهرى الذى تشهده فلسفة العلم فى القرن الحادى والعشرين وهى تنتقل من هذا إلى وضع مستجد تمامًا، بمصطلحات فلسفة العلم هو وضع يمثل حالة قطيعة معرفية، أى قطع الصلة بمسلَّمات المعرفة الماضية، فلا يكون البتة استمرارًا أو تراكمًا لما سبق، بل شقًا لطريق جديد يقوم على مسلمات مختلفة. وتلك هى الآفاق الواعدة التى تقتحمها دراسة الدكتور نبيل على البالغة الأهمية «وراثة اللغة ولغة الوراثة». إنها تعلن انتهاء عصر الفيزياء، وبداية عصر جديد نحاول أن نحدد: أى عصر هو؟ وأخطر ما تفصح عنه الدراسة أنه ليس عصر المعلومات ولا عصر البيولوجيا ولا عصر اللغويات، بل هو عصر التفاعل بينها جميعًا، مما لا يعنى مناهج وطرائق مستحدثة فقط، بل مستوى منهجيًا مغايرًا.

كشفت دراسة د. نبيل عن الانتهاء التام للتقسيم البسيط الأليف المعتاد للعلوم إلى طبيعة وحيوية وإنسانية، أو حتى إلى علوم صورية استنباطية وعلوم إجبارية تجريبية. وبعد أن كانت علوم اللغة الكلاسيكية فى عصر العلوم الكلاسيكى خارج إطار النسق العلمى تمامًا، نجد آليات الرمز والمعنى والنحو التوليدى والاشتقاق.. إلخ، المأخوذة من اللغويات، تقتحم صلب المنهج العلمى لتفتح الباب على مصراعيه أمام فعاليات الرمزية ومنظوماتها استيعابًا وتجاوزًا لفعاليات التجريب. لقد بتنا فى حاجة إلى تعريف جديد لمفهوم العلم والمنهج العلمى وتقسيم العلوم والعلاقات بينها وأيها يعتمد على الآخر.

على الإجمال تعلمنا لغة الوراثة أن المعنيين بأصول التفكير العلمى عليهم التخلى عن كل ما ألفوه واعتادوه، والبدء من جديد، بكل معانى الجدة المتمايزة عن القديم المعتاد. فهل نحن متأهبون؟!

د. يمنى طريف الخولى
أستاذ فلسفة العلوم بآداب القاهرة

مصطلح الأدب القبطى

تلقت «الكتب.. وجهات نظر» الرسالة التالية حول مقال يوسف القعيد «الأقباط يكتبون رواياتهم» فى عدد مارس الماضى من المجلة. ونظرًا لضيق المساحة اضطررنا لاختصار الرسالة:

لا حرج على شركاء الوطن أن يعبروا عن هواجسهم وأحلامهم، وأن يمثلوا تيارًا أو مذهبًا يقوم على العقيدة أو الفلسفة التى يؤمنون بها، فالكتابة بصفة عامة لابد أن تنطلق من تصور ما تصنعه عقيدة ما أو فلسفة ما أو موقف ما.. حتى الإلحاد يعد موقفًا وفلسفة وعقيدة بالنسبة للكاتب الملحد.

لم يكن الكتّاب الثلاثة الذين عرضت المجلة رواياتهم الثلاثة، أول من كتب الرواية أو غيرها من الأجناس الأدبية من منظور نصرانى، ولكن سبقهم عديدون على اختلاف المذاهب التى ينتمون إليها، ولعل أشهر من كتب من خلال هذا المنظور فى أيامنا كاتبان: «إدوار الخراط» الذى أنتج مجموعة من الروايات والقصص التى تدور فى إطار تعميق الفكرة النصرانية متأثرًا بالتصور الأوروبى، و«رءوف مسعد» الذى كتب رواية رديئة ركيكة بعنوان «بيض النعام» أفرغ فيها رؤيته للواقع المصرى متأثرًا بالفلسفة الماركسية، وإن كانت روايته تفيض غلوًا وشططًا.

مقال «الأقباط يكتبون رواياتهم» يفرز عدة ملاحظات يمكن إيجازها فيما يلى:

١- مصطلح الأقباط ودلالته على فريق من المصريين.

٢- تقسيمات الأدب والموقف منها، والأساس الذى يميز الكتابات الأدبية.

٣- خطورة مصطلح الأدب القبطى والمناخ الذى يربط الدين بالحياة.

٤- تعبير الأدب الإسلامى ومفهومه وتطوره.

ولا ريب أن إطلاق مصطلح الأقباط على إخواننا النصارى يجافى الدقة، ويعبر عن رغبة ما فى إقصاء الآخر الشريك فى الوطن. وقد أصبح معروفًا الآن بما لا يدع مجالاً للشك أن القبط هم المصريون سواء كانوا وثنيين أو نصارى أو مسلمين، وبعد الفتح الإسلامى، فإن إطلاق لفظ «القبط» على المصريين جميعًا كان أمرًا طبيعيًا، بحكم أنه يميز السكان الأصليين عن السكان الفاتحين، ثم تغير الزمان، وتحول أغلب القبط من الوثنيين والنصارى إلى الإسلام، فصاروا قبطًا مسلمين، ولكن البعض فى زماننا يسعى من خلال استخدام المصطلح إلى التعبير عن رؤية شعوبية، تجعل كل مسلم عربيًا طارئًا، وتجعل كل قبطى وطنيًا مقيمًا، مما يعضد بعض المقولات التى يطرحها متعصبون، فحواها أن الإسلام استعمار دخل مصر بالقوة، ويجب طرده بالقوة، فضلاً عن عدم تمكينه من التعبير عن نفسه من خلال ما عرف بتطبيق الشريعة الإسلامية، وقد ظهرت كتابات فى الداخل والخارج تتحدث عن ذلك بوضوح وصراحة، وعبر بعضهم عن ذلك من خلال الرواية، كما فعل «رءوف مسعد» فى «بيض النعام»، وقد انتهى به المطاف أن يكون فى صف الكيان الاستعمارى فى فلسطين، ويسجل برنامجًا عن هذا الكيان للتليفزيون الهولندى، ويدعو إلى التصالح مع الغزاة فى فلسطين والاستسلام لهم تمامًا.

ولا ريب أن استخدام المصطلح بهذه الطريقة يمثل دعوة خطيرة لا تخدم مصر، ولا النصارى، ولا المسلمين. إنها دعوة إلى تمزيق الوطن، وتأجيج الصراع بين الأغلبية المسلمة والأقلية النصرانية، وإنى إذ استخدم تعبير «النصارى» و«النصرانية»، فإنما أسعى إلى الدقة الدلالية، فضلاً عن الالتزام بالمصطلح القرآنى، حيث ورد مصطلح «النصارى» فى أربعة عشر موضعًا (آية)، ولفظة «نصرانيًا» فى موضع واحد، للدلالة على اتباع المسيح عليه السلام، ولم يرد أبدًا فى القرآن الكريم مصطلح «الأقباط» أو «القبطى»، فضلاً عن «المسيحية» أو «المسيحى».

إننا جميعًا «مسلمين ونصارى» أقباط بمعنى مصريين، ولا أظن أن طرفًا يمكنه أن ينفى الطرف الآخر، بحجة أنه صاحب الوطن الأصلى، وأن الآخر غاز دخيل يجب أن يرحل، إنها بلا ريب أحلام شيطانية غريبة على الأقباط جميعًا، ولا تخدم المستقبل الذى يجب أن يتجاوز هذه الأحلام، ويعمل على وأدها، ليحل مكانها تفكير وطنى أصيل، يعلم جيدًا أن الإسلام إذا كان دين الأغلبية وعقيدتها، فهو حضارة الأقلية وثقافتها، وهو وعاء يسع بإنسانيته ورحمته، جميع البشر، ماداموا يسعون إلى الخير والسلام.

إن «هاجر» القبطية (المصرية) زوج «إبراهيم» عليه السلام، هى أم «إسماعيل» عليه السلام، وهو أبو العرب المستعربة، أى أن العرب مصريون بالأمومة، وما النماذج والهجرات من مصر وإليها إلا تعبير دال على وحدة شعوب المنطقة، ووحدة الجذر الذى تنتمى إليه، مهما تعددت التسميات والانتماءات.. ثم إن «مارية» القبطية (المصرية) هى زوج «محمد»، نبى الإسلام، صلى الله عليه وسلم، وأم ولده «إبراهيم»، وإذا تأملت الوجوه، وخاصة فى صعيد مصر، وجدت أن معظم المسلمين سُمر الوجوه، مما يعنى أن القوم ليسوا طارئين ولا غرباء.. وأنهم أقباط - أى مصريون - مثل أشقائهم النصارى فى الوطن، ولسنا فى حاجة إلى تتبع اسم مصر، كما ورد فى المصرية القديمة أو اللغات المشتقة عن اللاتينية، فقد كثر الحديث فى ذلك، وهو ينتهى عادة بإثبات أن القبط أو الأقباط تعنى مصر أو المصريين.

•••

مما سبق، فإن التسمية الدقيقة للأدب الذى يكتبه أشقاء الوطن هو «الأدب النصرانى» وليس الأدب القبطى، لأن التسمية الأخيرة تشمل الأدب الإسلامى أيضًا، وهذا يقودنا إلى مناقشة التحفظ على تقسيم الأدب وفقًا للدين أو البيئة أو الجنس

د. حلمى محمد القاعود

رسائل الكتاب
وجهات نظر

اقتباس بعض الفقرات

السيد رئيس التحرير..

يسعدنى أن أؤكد المكالمة التليفونية، التى تمت بيننا صباح الاثنين ١٤ مايو ٢٠٠١، بهذه الكلمة لأعبر عن تقديرى وللزملاء معكم على ما تبذلونه فى إعداد وإصدار «وجهات نظر» والتى تتضمن وتنتهج الشفافية سلوكًا والموضوعية هدفًا فى انتقاء الموضوعات والمشاكل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والإنسانية والأخلاقية التى باتت، فى الوقت الحاضر، إلا القلة من المفكرين الذين يبدون اهتمامًا بالخوض فيها ودراستها والغوص فى أسبابها وفى سبل علاجها.

ذلك أن مقالات مجلتكم الموقرة تتميز بالنبض الذى يجيش فى صدر المواطن المصرى بصفة عامة وفى وجدان ذوى الثقافة منهم، إذ هى تختلف فى أسلوبها ومنهجيتها عما يجده القارىء من مقالات ودراسات فى العديد مما هو مطروح حاليًا، كما أنها مقالات ودراسات فى العديد مما هو مطروح حاليًا. كما أنها مقالات ودراسات تعتمد على كتاب ذوى ذخيرة عالية القيمة والاختيار والمصداقية، وتدعو القارىء إلى إعمال وانتفاض عقله وفكره من الركود الذى قد يفقده القدرة على الحركة الفكرية.

وفى هذا الصدد فإنى أتابع باهتمام ما تتضمنه «وجهات نظر»، منذ صدورها من موضوعات بذل فيها كتابها القدر الكبير من الاقتدار والعمق بعد أن طال بنا الطريق الثقافى للتوصل إلى أسباب ومقومات النهضة والسبل التى تؤدى إلى تحقيقها خروجًا من الغيبوبة - أو شبه الغيبوبة - التى أصبحت، أو كادت أن تكون، من السمات الدخيلة علينا.

وفى إطار ذلك كله سمحت لنفسى أن اتصل بكم تليفونيًا وأن أؤكد هذا الاتصال بهذه الكلمات لأهنئكم وجميع المشاركين معكم فى مجلتكم الموقرة التى تناقش بأسلوب علمى وبموضوعية أمورنا الثقافية والسياسية والفكرية بالإضافة إلى أمور أخرى فى عالم العلوم والأفكار والابتكار.

وبعد هذه المقدمة التى أردت أن أعبر بها لكم عن فائق تقديرى لجهودكم فإنى سعدت أن أتلقى موافقتكم وترحيبكم على اقتباس فقرات من بعض المقالات وأيضًا بعض ما يأتى فى مجلتكم ضمن باب «عروض موجزة» الذى يتم فيه باقتدار تلخيص وعرض بعض الكتب المهمة وذلك لنشرها فى النشرات الاقتصادية الشهرية وربع السنوية التى يصدرها المصرف العربى الدولى والتى أتشرف بالإشراف على إعدادها وإصدارها، وذلك لتعميم المعرفة وأيضًا لأغراض البحث العلمى بين الزملاء معنا.

وفى هذا الصدد أرجو أن أؤكد لكم أننا سوف نراعى بدقة الإشارة إلى أن «وجهات نظر» هى المصدر مع ذكر رقم العدد والصفحة والتاريخ مع كل ما يتم نشره، ولا يسعنى إلا أن أقدم لكم الشكر والتقدير وأدعو الله لكم بدوام التوفيق.

فؤاد كمال حسين
نائب رئيس المجمع العلمى المصرى
وزير المالية الأسبق

** توافق المجلة على نشر فقرات من «عروض موجزة» عن بعض الكتب الاقتصادية لأغراض البحث العلمى مع الإشارة إلى «وجهات نظر» كمصدر، وذلك تعميمًا للفائدة، ودون إخلال بحقوق النشر.

(المحرر)

حول مقالة: «المؤامرة والسياسة والجريمة»

فى العدد التاسع والعشرين يونية ٢٠٠١ من «وجهات نظر» وردت بعض المعلومات فى هذه المقالة .. «حول ضابط بوليس مصرى عمل فى ليبيا، وأصبح بعد ذلك من كبار رجال الأعمال فى جنيف». وأحب هنا أن أضيف بعض المعلومات حوله. فهذا الضابط ليبى وكان ضابطًا بالبوليس الاتحادى الليبى أثناء حكم الملك إدريس، كما كان ضابط حراسة مع مصطفى بن حليم رئيس وزراء ليبيا الأسبق أثناء الملكية.

د. يوسف أمين شاكير

بين الفكرة والأسلوب

مع كثرة الإصدارات الحديثة وتعدد وسائل النشر من ورقى إلى إلكترونى أصبحت الكلمات المنشورة مع الزيادة والتنوع فى النشر، يظهر فيها الضعف والخلل فى بنية الجملة وجمال الأسلوب حيث أصبحت الفكرة وجمال اللغة كل منهما فى واد، فإذا كان هناك وضوح فى الفكرة كان ذلك على حساب اللغة، والعكس.

ومن هنا جاءت مجلة «وجهات نظر» وفقًا للرؤية الواعية لفريق العمل فيها لتنطلق وتعالج هذه النقطة، على أن يكون هناك اعتناء بالفكرة بنفس الاعتناء بالجملة وجمالها، من وجود إحكام متوازن بين الفكرة وبين بناء الجملة، مما جعل مادة المجلة محبوبة عند قراءتها مفيدة بأفكارها ومفرداتها.

عزمى محمود عاشور
باحث فى العلوم السياسية

كتاب الزاوية

رحلة ابن بطوطة

بلاد الصين

ببلاد الصين السكر الكثير مما يضاهى المصرى بل يفضله، والأعناب والأجاص. وكل ما ببلادنا من الفواكه فإن بها ما هو مثله وأحسن منه.

. . وأهل الصين كفار يعبدون الأصنام، ويحرقون موتاهم كما تفعل الهنود. وملك الصين تترى من ذرية تنكيزخان. وفى كل مدينة من مدن الصين مدينة للمسلمين ينفردون بسكناها، ولهم فيها المساجد لإقامة الجمعات وسواها، وهم معظمون محترمون. وكفار الصين يأكلون لحوم الخنازير والكلاب، ويبيعونها فى أسواقهم. وهم أهل رفاهية وسعة عيش، إلا أنهم لا يحتفلون فى مطعم ولا ملبس، وترى التاجر الكبير منهم الذى لا تحصى أمواله كثرة وعليه جبة قطن خشنة. والحرير عندهم كثير جداً، لأن الدود تتعلق بالثمار وتأكل منها، فلا تحتاج إلى كثير مؤنة، ولذلك كثر. وهو لباس الفقراء والمساكين بها.

. . وأهل الصين أعظم الأمم إحكامًا للصناعات، وأشدهم إتقانًا فيها. وذلك مشهور من حالهم، قد وصفه الناس فى تصانيفهم فأطنبوا فيه. وأما التصوير فلا يجاريهم أحد فى إحكامه من الروم ولا سواهم، فإن لهم فيه اقتداراً عظيمًا. ومن عجيب ما شاهدت لهم من ذلك، أنى ما دخلت قط مدينة من مدنهم ثم عدت إليها، إلا ورأيت صورتى وصورة أصحابى منقوشة فى الحيطان والكواغد، موضوعة فى الأسواق.

. . والجوارى رخيصات الأثمان، لأن أهل الصين أجمعين يبيعون أولادهم وبناتهم، وليس ذلك عيبًا عندهم.

“ نون ”

هل تنسحب أوروبا من إدارة العالم؟

انقضى القرن العشرون بخيره وشره، بكل ما شهده من حروب وسفك للدماء، وبكل ما فيه من تحيزات وتكتلات، وتحالفات وانقسامات، وامبراطوريات لا تغرب عنها الشمس إلى دولة عظمى واحدة تفرض هيمنتها على العالم. وبما شهده من حروب من أجل الاستقلال وانقلابات ضد الظلم والطغيان، وثورات علمية وصناعية قادتها الرأسمالية فى صراعها ضد الشيوعية، حتى استقر العالم على الشاطئ الآخر من بداية قرن جديد.. اختلفت فيه الرؤى أو هى بسبيلها إلى الاختلاف.

ولأن ما يجرى فى أوروبا هو الأكثر تأثيرًا فينا بحكم المشاركة الحضارية والجوار الجغرافى، فإن الرؤية الأوروبية لما يطرأ على العالم من تغيرات تظل هى الأقرب إلى رؤانا ومداركنا ونظرتنا إلى العالم. ونحن الآن بإزاء أجيال جديدة من الحكام الأوروبيين الذين وُلدوا بعد الحرب العالمية الثانية، واختلفت نظرتهم إلى العالم عن ذى قبل. ولم تعد النظرة إلى أمريكا هى نفس النظرة التى حكمت أوروبا فى سنى الحرب الباردة، ولا بعد سقوط الاتحاد السوفيتى فى العقد الماضى.

ومن هنا فحين يطرح أحد السياسيين الأوروبيين المخضرمين رؤيته لأوروبا ودورها، وهل تنسحب من إدارة العالم فى القرن الحادى والعشرين، مسلِّمة زمام القيادة الكاملة لأمريكا، أم تتخذ موقفًا مستقلاً من أجل المحافظة على مصالحها؟ فلابد أن تفتح هذه الرؤية أمامنا أبوابًا للتفكير والتأمل. وليس هذا السياسى المخضرم غير المستشار الألمانى الأسبق هيلموت شميت، الذى يقدم رؤيته حول مصير أوروبا والعالم خلال هذا القرن فى كتاب صدر حديثًا باللغة الألمانية تحت عنوان: «هل تستطيع أوروبا أن تثبت وجودها؟».

والمخاوف الأوروبية من أن تنصرف الولايات المتحدة الأمريكية إلى مواجهة التحديات التى يحملها المستقبل، بحثًا عن الحلول الملائمة للمصالح الأمريكية وحدها دون اعتبار لمصالح حلفائها الأوروبيين، هى مخاوف حقيقية، عميقة وكامنة فى الوعى الأوروبى؛ إذ لا يخفى على أحد فى أوروبا أن أمريكا حريصة على أن تظل هى الدولة العظمى الوحيدة التى توجه مصائر العالم، ومن ثم فلابد أن ينشأ صراع مصالح قد تهدر فيه المصالح الأوروبية، وذلك على الرغم من كل مظاهر التقارب الحضارى، والتشابه الفكرى والسياسى، والخلفية التاريخية والعرقية الواحدة.

يضاف إلى ذلك هاجس أوروبى دفين، يطفو على السطح بين الحين والحين، يدور حول نشوء الحضارات وازدهارها وأفولها فى دورات متعاقبة.. تلك النظرية التى قال بها شبنجلر، وتنبأ فيها بقرب اضمحلال الحضارة الأوروبية وانهيارها. وأكثر الشعوب الأوروبية شعورًا بهذا الهاجس هم الشعب الألمانى، الذى شهد على امتداد القرن العشرين موجات صعود وهبوط، وانتصارات وهزائم. وعانى من العزلة والحصار والتحقير ما لم تعانه شعوب أوروبية أخرى. ولهذه الأسباب يظل تعلق السياسيين الألمان بقطار الوحدة الأوروبية، أيا كان شكلها، هدفًا لا محيد عنه، كما يظل الحرص على تملق أمريكا ومسايرتها هو شبكة الأمان التى تحميها من تقلب المزاج الأوروبى، وصحوة العداوات القديمة والثارات البائتة التى ذاقت القارة الأوروبية لسعة خفيفة منها فى حرب البلقان الأخيرة.

وما بين التعلق والتملق.. أى ما بين الاستمساك بالوحدة الأوروبية، والخوف من نزعة الانفراد والهيمنة الأمريكية، يأتى تصور المفكر السياسى الألمانى هيلموت شميت للقرن الواحد والعشرين، لعالم تختلف فيه موازين القوى تمام الاختلاف عن القرن المنصرم. تتربع فيه أمريكا فوق القمة سعيًا لإثبات تفوقها الذى لا ينازعه أحد. ثم تبرز الصين فى بواكير النصف الأول من هذا القرن قوة عظمى اقتصاديًا وسياسيًا وعسكريًا. وتستعيد روسيا قوتها ومكانتها كقوة عالمية يحسب حسابها. وقد تفاجئ الهند العالم بظهورها على مسرح القوى العالمية معترفًا بها فى نادى الدول الكبرى الجديد. أما اليابان فسوف تظل قوة اقتصادية ومالية لا أكثر. وأما أوروبا فلن يكتب لأى دولة من دولها أن تتبوأ على حدة مقعد العضوية فى هذا النادى. لا فرنسا بقوتها النووية.. ولا بريطانيا بعلاقاتها الخاصة بأمريكا.. الفرصة الوحيدة لأوروبا هى أن تبقى متماسكة فى كيان سياسى واقتصادى وعسكرى واحد لا تنفصم عراه، إذا أرادت لنفسها أن يعترف بها أحد كقوة عالمية.

وفى رأى شميت أن الحروب فى هذا القرن لن تتوقف: حروب عرقية ودينية واقتصادية، صراع حضارات وثقافات؟ نعم.. ولكنها سوف تنشأ بالدرجة الأولى نتيجة تدفق ملايين المهاجرين واللاجئين من الدول الفقيرة، ونتيجة استخدام الدول الأقوى عسكريًا لقوتها فى حل النزاعات الإقليمية، وتجاهلها لمواثيق الأمم المتحدة ومجلس الأمن.. كما حدث عندما تدخل حلف الأطلنطى لحل أزمة كوسوفا. ثم يضيف شميت عاملاً آخر من العوامل المسببة للصراعات المسلحة المحتملة هو احتمال أن تؤدى العولمة التكنولوجية والاقتصادية إلى تفجير حرب تجارية عالمية نتيجة «توحش الرأسمالية». وفى هذا السياق ينفرد شميت بموقف يبدو غريبًا وغير مألوف بين معظم السياسيين الأوروبيين، حين يقول إن الصراعات الناجمة عن التعصب الدينى لن تكون أقل فى الغرب المسيحى عنها فى بعض أقطار العالم الإسلامى.. ومن ثم فقد تنبثق عنها منازعات دموية هنا وهناك بنفس الدرجة من العنف والتعصب.

وربما كان أكثر ما يهم سياسيًا أوروبيًا مثل شميت هو استمرار العلاقات الوثيقة بين أوروبا وأمريكا والمحافظة عليها من التآكل والخلافات. ولكنه يقدم للولايات المتحدة الأمريكية. ذلك الحليف القديم. صورة دولة عظمى تجمعت لديها على مر القرن الماضى كل أسباب القوة والتفوق، مقترنة بكل مظاهر الغرور والأنانية وغطرسة القوة، ليس فقط تجاه خصومها التقليديين مثل روسيا والصين ولكن أيضًا تجاه أوروبا.

ومن ثم فهو يتوقع نشوب أسباب للخلافات والتوتر بينها وبين روسيا والصين بل ومع أوروبا. ويُرجع ذلك التطور السلبى فى علاقات أمريكا بالعالم، إلى عدم اكتراث معظم الجيل الحالى من السياسيين الأمريكيين بالسياسات الخارجية. ومنذ حققت أمريكا انتصارها على الاتحاد السوفيتى فى الحرب الباردة، تنامى لدى الأمريكيين شعور بعدم الحاجة إلى الاهتمام بالعالم الخارجى. وساد نوع من الاكتفاء الذاتى والجهل بالسياسة الخارجية والتعالى بين شرائح المثقفين والمهنيين المرموقين من الكتاب وأساتذة الجامعة والمحامين ورجال الأعمال والبنوك والصناعيين. وقد عكس البيان الذى صدر عن قمة واشنطن فى ربيع ١٩٩٩ عن «حلف الأطلنطى الجديد» تصور أمريكا لدورها فى السيطرة على أوروبا وآسيا بعد الموافقة على توسيع حلف الأطلنطى حتى حدود روسيا.

ويتنبأ هيلموت شميت بنشوب صراعات فى مناطق مثل الشرق الأوسط أو جنوبى آسيا أو أمريكا الوسطى، تتدخل أمريكا فيها عسكريًا وتسعى إلى توريط حلفائها الأوروبيين معها. وبالمثل فى الحالات التى تطلق عليها أمريكا وصف الدول المارقة (العراق. كوريا الشمالية) والتى يلعب الإعلام الأمريكى دورًا خطيرًا فى تسويقها.. وهو يرى أن الدول الأوروبية سوف تجد نفسها مضطرة حينئذ لوضع خط فاصل بين مصالحها الأمنية والدفاعية، وبين المصالح الأمريكية.. ولكن هذا لن يتحقق على المدى القصير.. إلا بعد أن يتولى المسئولية جيل جديد من السياسيين الأوروبيين يخلف هذا الجيل الذى قاد ثورة الطلبة فى الستينيات والسبعينيات، أى بعد عام ٢٠٢٥، وبعد أن تنجح دول الاتحاد الأوروبى فى تشكيل نظام دفاعى مستقل لا يعتمد على مظلة الدفاع الأمريكية.

غنى عن البيان أن هيلموت شميت، لا يتوقع أن تستمر الهيمنة الأمريكية طويلاً بدون مقاومة من جانب الصين وروسيا، ولكنه يرى أن المشاكل والعوائق السياسية والتاريخية التى تتحدى الوحدة الأوروبية تبلغ درجة من التعقيد يصعب التنبؤ بها، وهو لا يتحمس كثيرًا للتوسع فى قبول دول من أوروبا الشرقية بهذه السرعة. ويعارض معارضة قاطعة ضم تركيا، ولكنه يرى أن عنصر الثبات الوحيد فى قيام واستمرار الوحدة الأوروبية سيظل رهنًا بوجود توافق عميق بين ألمانيا وفرنسا، بدونه قد ينهار البناء الأوروبى.

صورة العالم كما يراها شميت فى القرن الواحد والعشرين، تختلف عما يتوقعه كثيرون. تتزحزح فيها مراكز القوة إلى آسيا بشكل خطير، حين تبرز على الجانب الآخر من المحيط الهادئ روسيا والصين والهند فى مواجهة أمريكا، ويتضاءل الدور الأوروبى أو يبحث لنفسه عن مكان بين أمريكا وآسيا. أما نحن فى الشرق الأوسط ودول العالم الثالث فسوف نظل مجرد ملعب خلفى لهذه القوى العظمى.. وربما لهذه الأسباب عمدت إسرائيل إلى تدعيم علاقاتها باللاعبين الثلاثة الجدد.. وتلك قصة أخرى!

سلامة أحمد سلامة